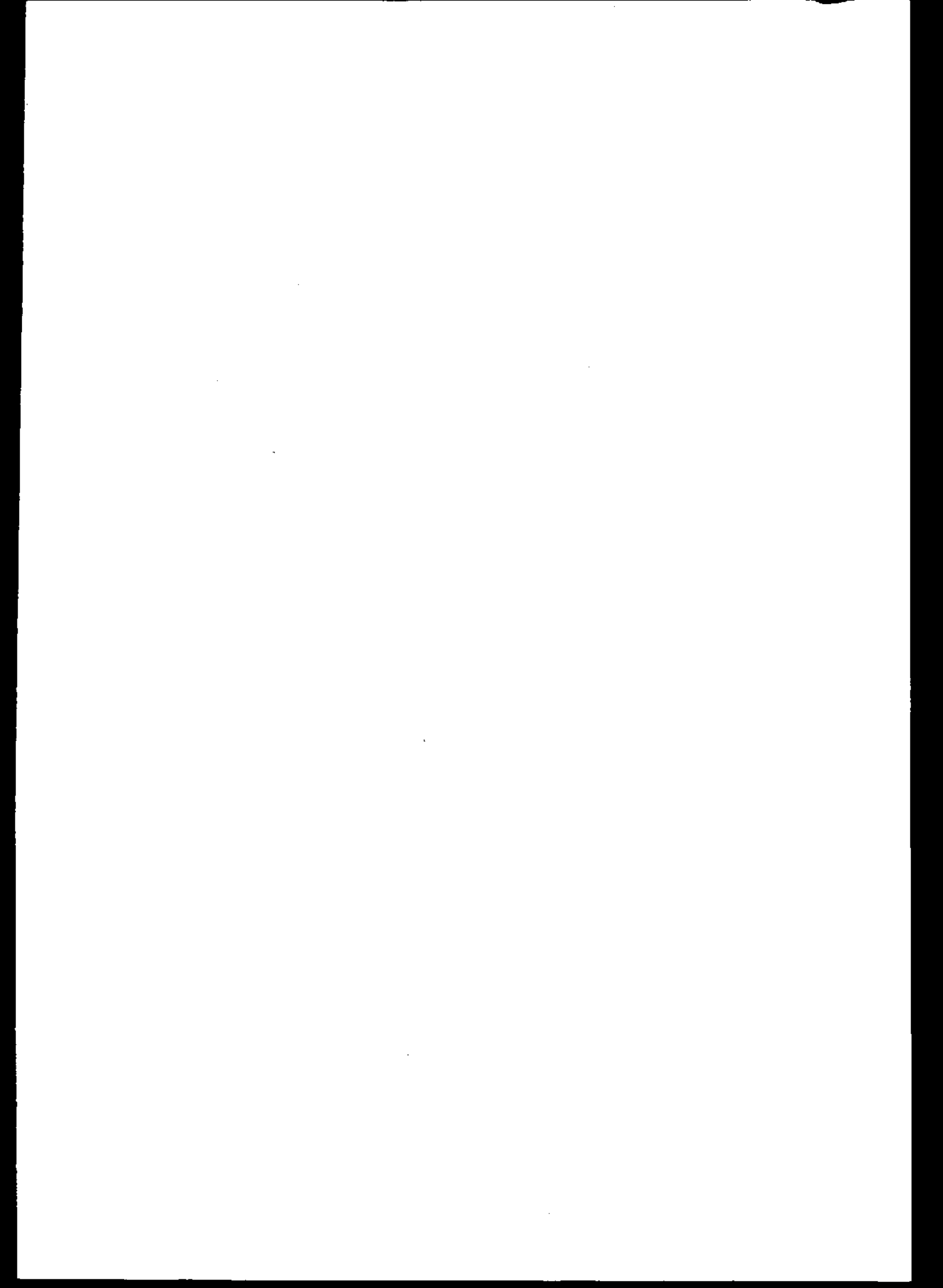
قَصَصُ الأَنْبِيَاءِ



قصص الأنبياء

للإمام الحافظ الفقيه المفسر المؤرخ

عماد الدين إسماعيل بن كثير

خرج أحاديثه وعلق عليه ملخص تحقيقات

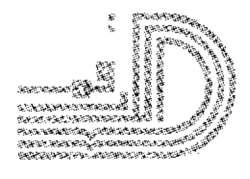
الإمام الهيثمي والشيخان الألباني والأرناؤوط





شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك، خلف مستشفى الساحل،
قرب مدرسة المصطفى، بناية بدير
Haret Hreik, Near Al Mostapha school,
Bdeir Bldg
Tel: 00961 -1- 556978 - 556976 - 03/703701
Fax: 00961 -1- 555077 .P.O.Box:11-3874 / 11072150
Beirut - Lebanon
http://www.alarkam.com
E-mail: info@alkalam.com



ISBN 9953-442-90-8

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب].

وبعد.. فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار[١]. أما بعد:

فإن القصص فى القرآن الكريم يمثل موكب الإيمان فى طريقه الممتد الواصل الطويل، ويعرض قصة الدعوة إلى اللَّه واستجابة البشرية جيلا بعد جيل، وكذلك إعلانًا وإخبارًا لنبينا محمد صلى اللَّه عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين كما فى قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

كذلك تسرية وتثبيتًا له صلى اللَّه عليه وسلم على تكذيب أمته وما لاقاه من عنت وجحود: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وكذلك عبرة وعظة لأمة الحبيب صلى اللَّه عليه وسلم حتى يتحقق فيها قول اللَّه سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكما فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا

---

(١) هذه هى خطبة الحاجة التى كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يفتتح بها خطبه ومواعظه.

يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ثم هى فى النهاية دليل على أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لم يكن بدعًا من الرسل وإنما جاء صلوات اللَّه وسلامه عليه متممًا لما بدأوه، وخاتمًا لمنهج السماء؛ فالحبل متصل والأمة واحدة والرب جل فى علاه واحد أحد لا إله سواه كما فى قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا واحد من أهم الكتب المصنفة فى هذا الموضوع، وحسبك أن مؤلفه الإمام الحافظ المؤرخ المفسر ابن كثير، وكان عملنا فيه:

١- ضبط الآيات القرآنية الواردة فيه على رسم المصحف العثمانى.

٢- ضبط الأحاديث والآثار الواردة فيه وتخريجها وعزوها إلى مصادرها.

٣- شرح الغريب والمبهم قدر الاستطاعة.

٤- الاستعانة بجهود علماء الحديث فى التحقيق «كالحافظ الهيثمى، وابن حجر العسقلانى، والنووى، والشيخ الألبانى، والشيخ الأرناؤوط وغيرهم».

واللَّه أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به قارئه وكاتبه.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وأزواجه أمهات المؤمنين وآله الأطهار المطهرين وسلم تسليما كثيرا. وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

ليلة السابع والعشرون من شهر رمضان ١٤٢٣هـ

الموافق الأول من شهر ديسمبر ٢٠٠٢م

عبد اللَّه حجاج

ترجمة
الحافظ ابن كثير

الإمام الحافظ الحجة المحدث المؤرخ الثقة، ذو الفضائل، عماد الدين، أبو الفداء: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، القرشي، الدمشقي، الشافعي.

ولد رحمه اللّه بقرية «مجدل» من أعمال «بصرى»[1]. وكان أبوه من أهل «بصرى»، وأمه من قرية «مجدل».

وقومه كانوا «ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نسب. وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك (القرشي)» - كما قال هو في ترجمة أبيه، في تاريخه «البداية والنهاية».

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠، كما ذكر أكثر من ترجم له، «أو بعدها بقليل» كما قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة. وهو تاريخ تقريبي. أُرجح أنه مستنبط من كلامه في ترجمة أبيه، حيث ذكر أن أباه «توفى سنة ٧٠٣ . . وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، ولا أدركه إلا كالحلم».

و «ابن ثلاث سنين» لا يعرف تواريخ السنين - على اليقين - في تلك السنّ. فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من إخوةٍ أو أهل أو جيران. ولكنه يدرك أباه «كالحلم». فالذي هو في سن أقل من الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً «كالحلم» ولا أبعد من الحلم ولا أقرب. فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة - في أكبر ظني - ولذلك أرجح أن مولده كان في سنة ٧٠٠ أو قبلها بقليل. وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر «أو بعدها بقليل». لأن الذي «بعدها» لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه.

وكان أبوه «الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير» من العلماء الفقهاء الخطباء. ولد - كما قال ابنه - في حدود سنة ٦٤٠. وترجم له ابنه الحافظ في تاريخه الكبير «البداية والنهاية»، [١٤ / ٣١ - ٣٣]. ومما قال في ترجمته: «اشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى. فقرأ «البداية» في مذهب أبي حنيفة. وحفظ «جمل الزجاجي». وعني بالنحو والعربية واللغة. وحفظ أشعار العرب، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المدح والمراثي وقليل من الهجاء. وقرر بمدارس بصرى بمبرك الناقة شمالي

---

(١) «مجدل»: بكسر الميم وفتحها مع سكون الدال. و «بصرى» بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة: بلد بالشام من أعمال دمشق. وهي قصبة كورة «حوران».

البلدة، حيث يزار، وهو المبرك المشهور عند الناس[١]! والله أعلم بصحة ذلك. ثم انتقل إلى خاطبة القرية شرقي بصرى، وتمذهب للشافعي. وأخذ عن النواوي والشيخ تقي الدين الفزاري - وكان يكرمه ويحترمه، فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزملكاني. فأقام بها نحواً من ١٢ سنة. ثم تحول إلى خطابة «مجدل»: القرية التي منها الوالدة. فأقام بها مدة طويلة، في خير وكفاية وتلاوة كثيرة. وكان يخطب جيداً، وله مقول عند الناس، ولكلامه وقع، لديانته وفصاحته وحلاوته. وكان يؤثر الإقامات في البلاد[٢]، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله. وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها. أكبرهم: إسماعيل، ثم يونس، وإدريس. ثم من الوالدة: عبد الوهاب، وعبد العزيز، وأخوات عدة. ثم أنا أصغرهم وسميت باسم الأخ «إسماعيل» - لأنه قد قدم دمشق، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ التنبيه، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزاري، وحصل المنتخب في أصول الفقه. قاله لي شيخنا ابن الزملكاني. ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية، فمكث أياماً ومات. فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً، ورثاه بأبيات كثيرة. فلما ولدت أنا له بعد ذلك سماني باسمه. فأكبر أولاده: إسماعيل، وأصغرهم وآخرهم: إسماعيل. فرحم الله من سلف، وختم بخير لمن بقى. توفى والدي في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣. في قرية مجدل. ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون. وكنت إذ ذاك صغيراً، ابن ثلاث سنين أو نحوها. لا أدركه إلا كالحلم.

ثم تحولنا من بعده في سنة ٧٠٧ إلى دمشق، صحبة «كمال الدين عبد الوهاب» وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين [يعني سنة ٧٥٠]. فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر».

قد بدأ الاشتغال بالعلم على يدي أخيه عبد الوهاب - كما قال آنفاً - ثم اجتهد في تحصيل العلوم على العلماء الكبار في عصره. وحفظ القرآن الكريم، وختم حفظه سنة ٧١١، كما صرح بذلك في تاريخه [١٤ : ٣١٢]. وقرأ بالقراءات، حتى عده الداودي من القراء[٣]، وترجم له في طبقاتهم التي ألفها[٤]. وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ في عصره. وعني بالسماع والإكثار منه.

---

(١) يريد هؤلاء الناس - فيما يزعمون -: مبرك الناقة صالح عليه السلام.

(٢) يعني القرى.

(٣) الداودي: هو شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودي المصري، مات سنة ٩٤٥. ولكن ابن الجزري لم يذكر ابن كثير في طبقات القراء.

(٤) ومما ينبغي التنبيه إليه: أن «ابن كثير» هذا الحافظ المفسر، غير «ابن كثير» أحد القراء السبعة. فذاك اسمه «عبد الله بن كثير المكي»، إمام أهل مكة في القراءة، وهو قديم من التابعين، روي عن ابن الزبير وأنس بن مالك. ولد سنة ٤٥، ومات سنة ١٢٠.

فمما ذكر في تاريخه [١٤ : ١٤٩]، أنه سمع صحيح مسلم في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني، بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن محمد سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي، المتوفى بالقاهرة في ٢٢ محرم سنة ٧٣٠ - حين قدم دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٢٤ عازماً على الحج.

وذكر في ترجمة شيخه الكبير المعمر الرحلة شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة: أنه سمع عليه «بدار الحديث الأشرافية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع». وهذا الشيخ «عاش مائة سنة محققاً، وزاد عليها». وتوفى سنة ٧٣٠. [التاريخ ١٤ : ١٥٠].

وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري وكمال الدين بن قاضي شهبة. وحفظ التنبيه للشيرازي في فروع الشافعية، ومختصر ابن الحاجب في الأصول. ولزم الحافظ الكبير أبا الحجاج المزي، وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال «تهذيب الكمال». وصاهره على ابنته زينب[١]. وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، ولازمه وتخرج على يديه، وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه. وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق[٢]، وامتحن بسبب ذلك وأوذي. وكان من أفذاذ العلماء في عصره. أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومن بعدهم الثناء الجم: فذكره الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ [٤ : ٢٩]، مع أن الذهبي يكاد يكون من طبقة شيوخه، لأنه مات سنة ٧٤٨، قبل ابن كثير بـ ٢٦ سنة. فقال في طبقات الحفاظ: «وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث، ذي الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروى الشافعي.. سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة. له عناية بالرجال والمتون والفقه. خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم». وقال الذهبي في المعجم المختص - فيما نقل ابن حجر وغيره: «الإمام المفتي المحدث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال».

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجي: «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها. وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضر كثيراً من التفسير والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت. ويشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر. وما أعرف أني اجتمعت به - على كثرة ترددي عليه - إلا واستفدت منه». [عن النعيمي في كتاب الدراس].

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني في ذيل ت ذكرة الحفاظ [ص: ٥٨]: «وصاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر عنه. وأفتى ودرس وناظر، وبرع

---

(١) ذكرها باسمها في ترجمة شيخه الحافظ المزي، المتوفي سنة ٧٤٢. [التاريخ ١٤ : ١٩١ - ١٩٢].
(٢) أي وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة، كما هو الحق الذي تدل عليه الدلائل الصحاح.

في الفقه والتفسير والنحو. وأمعن النظر في الرجال والعلل».

وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة: «ولازم المزي، وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته. وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه، وامتحن بسببه. وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة. سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته. ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالي، وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم. إنما هو من محدثي الفقهاء. وقد اختصر مع ذلك ابن الصلاح[1]، وله فيه فوائد».

ونقل السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ كلام الحافظ ابن حجر في أنه «لم يكن على طريقة المحدثين..» ثم تعقبه بقوله: «العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه، وعلله واختلاف طرقه، ورجاله جرحاً وتعديلًا. وأما العالي والنازل ونحو ذلك - فهو من الفضلات، لا من الأصول المهمة». وهذا حق.

وقال السيوطي أيضاً: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله».

وقال العلامة العيني - فيما نقل عنه ابن تغرى بردي في النجوم الزاهرة: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ. وسمع وجمع، وصنف ودرس، وحدث وألف. وكان له إطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير. وله مصنفات عديدة مفيدة».

ووصفه الحافظ العلامة شمس الدين بن ناصر، في كتاب «الرد الوافر» بأنه «الشيخ الإمام العلامة الحافظ، عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين».

وقال فيه ابن حبيب فيما نقل الداودي في طبقات القراء وابن العماد في الشذرات: «إمام ذوي التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل. سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بأقواله وشنف، وحدث وأفاد، وطارت فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير».

وروى له الحافظ ابن حجر في إنباء الغمر، وابن العماد في الشذرات البيتين المشهورين، الذائعين على الألسنة:

تمر بنا الأيام تترى وإنما ... نساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ... ولازائل هذا المشيب المكدر

---

(١) كتابه هو هذا «اختصار علوم الحديث». طبع أول مرة في مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣، بتصحيح أخينا العلامة الكبير الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، أحد كبار المدرسين الآن بالحرم المكي. ثم شرحته أنا شرحاً متوسطاً، وطبع في مصر في شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٥. ثم أعدت طبعه مرة أخرى مع زيادات وتنقيح في الشرح، في شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٠.

وصحبته وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد، في علمه ودينه، وتقوية خلقه، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة.

فهو مستقل الرأي، يدور مع الدليل حيث دار، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره. وكتبه العظيمة، وخاصة التفسير الجليل - فيها الدلائل الوافرة. ونجده - مع أنه شافعي المذهب - يفتي في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد، بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح، أنه يقع طلقة واحدة. ثم يمتحن ويلقى الأذى، فيثبت على قوله، ويصبر على ما يلقى في سبيل اللّه.

وهو - تلميذ شيخ الإسلام ومن خاصة أنصاره - يعرف ما كان بين شيخه شيخ الإسلام وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي - ومع ذلك فإنه لا يعين عليه في محنة لحقته، بل يعلن عن غبطته بأن تزول عنه المحنة. فيذكر في التاريخ - في حوادث سنة٧٤٣ [١٤ : ٢٠٤] أنه أرجف الناس كثيراً بقاضي القضاة - في دمشق - «واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخري. وكتبت فتوى عليه بذلك في تغريمه، وداروا بها على المفتين، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة. وسئلت في الإفتاء عليها فامتنعت، لما فيها من التشويش على الحكام». ثم يقول: «وكانوا له في نية عجيبة، ففرج اللّه عنه بطلبه إلى الديار المصرية».

فهذا خلق أهل العلم النبلاء الأتقياء.

وقد طار ذكره في الأقطار الإسلامية، حتى إنه ليذكر في حوادث سنة ٧٦٣ [١٤ : ٢٩٤ - ٢٩٥] أن شاباً عجمياً حضر من بلاد تبريز وخرسان، «يزعم أنه يحفظ البخاري ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك»، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخاري وغيره بحضرة قاضي القضاة الشافعي وجماعة من الفضلاء، ثم قال: «وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة. وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزني. وذكرك في بلادنا مشهور».

وهذا الخبر يدل على أن كتابه «جامع المسانيد» وصل إلى أقصى الشرق، بلاد تبريز وخرسان، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمي أو يحفظ شيئاً منه. في حين أن الحافظ ابن كثير لم يتم تأليف «جامع المسانيد» كما هو معروف. فكأن العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه، ويتداولونه بينهم، حتى يصل من دمشق إلى تلك النواحي النائية.

ولم يكن ممن يخدع في الفتاوي التي ظاهرها قصد الاستفتاء، ووراءها ألاعيب سياسية، أو أغراض شخصية غير سليمة، وإن كان المستفتى من الأمراء أو ممن يخشى بأسه. فهو يقول في حوادث سنة ٧٦٢: «وجاءتني فتيا صورتها: ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه. ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله

ومنع ورثته منه؟ وتصرف في المملكة، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله: فهل له الامتناع منه، وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال؟ أفتونا مأجورين؟

فهذا استفتاء صيغ في صورة توحي بالجواب. وباطنه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على الملك الذي دعاه للحضور عنده، ويريد أن يثير فتنة وقتالاً على صاحب الأمر، لعله يصل إلى ما وصل إليه ذاك من الملك، كعادة الأمراء من المماليك في ذلك العهد. ولكن ابن كثير يجيبه جواباً حكيماً يكشف عن بعض مقصده، ويضمن جوابه النصيحة الواجبة في مثل هذه الحال، فيقول: «فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير: إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين اللّه تعالى- فهو أعلم بنيته في الذي يقصده! ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذكل مفسدة راجحة في ذلك، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه! وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة، والأمراء عليه - فلابد أن يكتب عليها كبار القضاء والمشايخ أولاً، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه». [التاريخ ١٤ : ٢٨١ - ٢٨٢].

وكان الإفرنج قد غدروا بمدينة الإسكندرية، وأشاعوا فيها الرعب، وارتكبوا الفظائع غدراً. وذلك: أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧ «فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار، بعدما حرقوا أبواباً كثيرة منها. وعاثوا في أهلها فساداً، يقتلون الرجال، ويأخذون الأموال، ويأسرون النساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير المتعال.

وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والإثنين والثلاثاء. فلما كان صبيحة الأربعاء قدم الشاليش المصري[1]، فأقلعت الفرنج - لعنهم اللّه - عنها، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاربون الأربعة آلاف، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك، ما لا يحد ولا يوصف. وقدم السلطان والأمير الكبير يلبغا ظهر يومئذ وقد تفارط الحال، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى اللّه، والاستغاثة به وبالمسلمين - ما قطع الأكباد، وذرفت له العيون وأصم الأسماع. فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر، فتباكى الناس كثيراً. فإنا لله وإنا إليه راجعون».

---

(١) في النجوم الزاهرة [١١ : ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية]: «فلما وصل السلطان إلى الطرانة أرسل جاليشاً من الأمراء أمامه في خفية. . .». وكتب مصححه الأستاذ محمد البرهامي منصور، بهامشة: «الجاليش: مقدمة الجيش والراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر». وهي كلمة أعجمية - لعلها تركية أو فارسية - وفي مثلها الجيم شديدة التعطيش - بين الجيم والشين، فيجوز تعريبها جيماً أو شيناً، مثل «شاويش» و«جاويش».

فهذه وقعة شنيعة غادرة من الإفرنج - كعادتهم - والنفوس تتقزز من مثلها، وتثور من أجلها. والملوك والأمراء الظالمون ينتهزون فرصة تعبئة الرأي العام الإسلامي - وثورته من أجل هذا الغدر، وغضباً لهذه، الفظائع - ليأكلوا أموال الناس بالباطل، وظاهر أمرهم الانتقام وباطنه السلب والنهب. ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل، ولا يرضى بالظلم، ولو كان ظاهره الانتقام والثأر للمسلمين. فيقول: «وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية، إلى نائب السلطنة، بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم، لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج. فأهانوا النصارى، وطلبوا من بيوتهم بعنف. وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب. «ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً». وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر [أي سنة ٧٦٧] إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ، بعد الفراغ من لعب الكرة. فرأيت منه أنساً كبيراً، ورأيته كامل الفهم، حسن العبارة كريم المجالسة. «فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى» [يعني المرسوم بالمصادرة]. فقال: إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك! فقلت له: «هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا. ومتى كانوا باقين على الذمة، يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة - لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية. ومثل هذا لا يخفى على الأمير»! فقال: كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك؟ ولا يمكنني أن أخالفه؟!». ثم ذكر أن نائب السلطنة كتب بذلك إلى الديار المصرية. ولكن هذا النائب لم يكن عند قوله، فنفذ المرسوم، و«طلب النصارى الذين اجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه، وهم قريب من أربعمائة، فحلفهم: كم أموالكم؟ وألزمهم بأداء الربع من أموالهم، «فإن لله وإنا إليه راجعون». وكانت هذه المصادرة الظالمة في شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧.

ثم قال الحافظ - في حوادث شهر ربيع الآخر: «وفي أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطاني، بالرد على نساء النصارى ما كان أخذ منهن مع الجباية التي كان تقدم أخذها منهم «وإن كان الجميع ظلماً، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ في الظلم». [التاريخ ١٤ : ٣١٤ - ٣١٥، ٣١٨].

فانظر إلى هذا الإمام العظيم، الذي يقف عند حدود الشريعة المطهرة، يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم، وشتان هذا وذاك. ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل.

فكان هذا العقل المستقل العظيم الثابت على الحق، والذي لا تغلبه العواطف

والأهواء، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة. يثق به أنصاره وغير أنصاره، وموافقوه ومخالفوه. بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند الذميين، حتى ليستشيره بعض رؤسائهم، في أخص شؤونهم الكنيسية. فإنه يذكر قصة طريفة، في استشارة أحد البتاركة إياه في ذلك. يحسن أن نذكرها بعبارته بحروفها:

فقال - في حوادث سنة ٧٦٧: «وحضر عندي يوم الثلاثاء تاسع شوال، البترك بشارة، الملقب بميخائيل، وأخبرني أن المطارنة بالشام بايعوه على أن يجعلوه بتركاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية. فذكرت له أن هذا أمر مبتدع في دينهم، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة: بالإسكندرية، وبالقدس، وبأنطاكية، وبرومية. فنقل رومية إلى إسطنبول، وهي القسطنطينية، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك، فهذا الذي ابتدعوه في هذا الوقت أعظم من ذلك. لكن اعتذر بأنه في الحقيقة هو عن أنطاكية، وإنما أذن له في المقام بالشام الشريف، لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص، يذكر له ما حل بهم من الخزي والنكال والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية. وأحضر لي الكتب إليه وإلى ملك إسطنبول، وقرأها علي من لفظه. لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً!! وقد تكلمت معه في دينهم، ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاثة، وهم: الملكية، واليعقوبية - ومنهم الإفرنج والقبط - والنسطورية، فإذا هو يفهم بعض الشيء. ولكن حاصله أنه حمار، من أكفر الكفار! لعنه الله». [التاريخ ١٤: ٣١٩ - ٣٢٠].

ولا يعجبن القارئ من أن يكون ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بتاركتهم. أستغفر الله، بل إنه يذكر عن ذاك البترك ميخائيل الذي تكلم معه «أنه يفهم بعض الشيء» - لأن ابن كثير رحمه الله من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل، وخاصة مذاهب المسيحيين. كما يدل عليه كلامه في مواضع كثيرة في التفسير والتاريخ. بل يكفي في الدلالة على سعة اطلاعه في ذلك أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي ألف موسوعته النفيسة في ذلك: «كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح». وهو مطبوع معروف.

وكان - رحمه الله - قد أضر في آخر عمره. ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤. وقال ابن ناصر: «وكانت له جنازة حافلة مشهورة. ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية، بمقبرة الصوفية، خارج باب النصر من دمشق».

مؤلفاته: له مؤلفات كثيرة، ما أظن أني أستطيع استقصاءها الآن. وبعضها مفقود، أو لم نعرف مكان وجوده إلى الآن. وهو يشير إلى كثير منها في التفسير وغيره من كتبه عند المناسبات. وسنذكر هنا ما وصل إليه علمنا. وجله ومعظمه مما ذكره أخونا العلامة الشيخ محمد عبد الرازق حمزة، في ترجمته إياه في كتاب: «اختصار علوم الحديث»:

١ ـ **التفسير**: وهو هذا الكتاب الذي نختصره. وقد فصلنا وصفه في المقدمة[١].

٢ ـ **البداية والنهاية**: وهو التاريخ النفيس المعروف. طبع منه بمصر سنة ١٣٥٨ ـ ١٤ مجلداً كباراً، أرخ فيه من بدء الخليقة إلى أثناء سنة ٧٦٨، أي قبل وفاته بنحو ٦ سنوات. وبقي منه مجلدان لم يطبعا. وهو القسم الأخير منه المشار إليه في اسمه «النهاية»، جمع فيه ما ورد من الأخبار في الفتن وأشراط الساعة والملاحم وأحوال الآخرة.

٣ ـ **السيرة النبوية (مطولة)**: ولم نره، ولكنه أشار إليه وإلى السيرة المختصرة في تفسير الأية: ٦ من سورة الأحزاب «في كتاب السيرة التي أفردناها موجزاً وبسيطاً».

٤ ـ **السيرة (مختصرة)**: وقد طبعت بمصر سنة ١٣٥٨ تحت اسم «الفصول في اختصار سيرة الرسول». وهذا المطبوع غير كامل يقيناً. فلا أدري اقتصر المؤلف رحمه اللّه على هذا القدر؟ أم فقد باقي الكتاب؟ فإنه يقول في خطبة الكتاب: «لا يجمل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية». ثم يقول: «وقد أحببت أن أعلق تذكرة في ذلك. . وهي مشتملة على ذكر نسب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وسيرته وأعلامه، وذكر أيام الإسلام بعده، إلى يومنا هذا». ولكن المطبوع هو السيرة النبوية فقط، عن مخطوطة: «مكتبة عارف حكمت» بالمدينة المنورة. فالكتاب ناقص بيقين.

٥ ـ **اختصار علوم الحديث**: اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في المصطلح. وقد طبع بمكة، وطبعته بشرحي مرتين، كما بينت آنفاً [ص: ٢٧].

٦ ـ **جماع المسانيد والسنن**: ذكره الشيخ محمد عبد الرازق حمزة باسم «الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن»، وأنه «جمع فيه بين مسند الإمام أحمد، والبزار، وأبي يعلى، وابن أبي شيبة، مع الكتب الستة». ولست أدري حقيقة هذا الوصف. فإن المؤلف رحمه اللّه لم يتمه. ثم المقدار الذي علمه لم يوجد منه إلا سبعة مجلدات بدار الكتب المصرية. وقد صورت المجلد الأخير منها. وفيه معظم «مسند أبي هريرة»، رتب فيه الأحاديث من مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبي هريرة ـ على حروف المعجم. وأول هذا المجلد أثناء حرف الجيم، وأول الأسماء فيه «جعفر بن عياض المدنى عنه»، يعني: عن أبي هريرة. وآخره «آخر مسند أبي هريرة». وهو في ٢٦٩ ورقة. وقد درسته طويلاً، بعملي في «مسند أبي هريرة» من مسند الإمام أحمد. ولم أجد فيه إشارة إلى «البزار، وأبي يعلى، وابن أبي شيبة» ولكن تكثر الإشارة فيه إلى الكتب الستة. ولست أدري خطته فيه بالدقة. فإنه محتاج إلى دراسة وافية، بعد تصوير سائر

---

(١) وهو مطبوع مكتبة التراث الإسلامي؛ فراجعه.

المجلدات الموجودة. ومجموع أوراق المجلدات السبعة ـ على ما فيها من خروم: [٢٢٨٠ ورقة].

٧ ـ **التكميل في معرفة الثقات والمجاهيل**: جمع فيه كتابي شيخيه: المزي والذهبي، «تهذيب الكمال» و «ميزان الاعتدال» مع زيادات في الجرح والتعديل.

٨ ـ **مسند الشيخين**: أبي بكر وعمر.

٩ ـ **رسالة في الجهاد**: وهي مطبوعة.

١٠ ـ **طبقات الشافعية**، ومعه مناقب الشافعي.

١١ ـ **اختصار كتاب «المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقي.**

١٢ ـ **كتاب: «المقدمات»**. ولعله في المصطلح.

١٣ ـ **تخريج أحاديث أدلة التنبيه** ـ في فروع الشافعية.

١٤ ـ **تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب ـ في الأصول.**

١٥ ـ **شرح صحيح البخاري** ـ شرع فيه ولم يكمله، وأشار إليه مراراً في كتبه.

١٦ ـ **كتاب «الأحكام»** وهو كتاب كبير لم يكمله ـ وصل فيه إلى «الحجّ»

مصادر الترجمة

البداية والنهاية. وهو التاريخ الكبير لابن كثير - الجزء ١٤ طبعة مصر ١٣٥٨

تذكرة الحفاظ للذهبي طبعة حيدر آباد ١٣٣٤

الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي الجزء الأول طبعة دمشق ١٣٦٧

الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر الجزء الأول طبعة حيدر آباد ١٣٤٨

ذيول تذكرة الحفاظ للحسيني طبعة مصر ١٣٤٧

ذيول تذكرة الحفاظ للسيوطي طبعة مصر ١٣٤٧

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي الجزء ١١ طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩

شذرات الذهب لابن العماد الجزء ٦ طبعة مصر ١٣٥١

الرد الوافر لابن ناصر الدين طبعة مصر ١٣٢٩

ترجمته بقلم الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرازق حمزة في أول: «اختصار علوم الحديث» بشرحنا بقلم: العلامة أحمد محمد شاكر طبعة مصر ١٣٧٠

☆☆☆

باب ما ورد فى خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

كما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢١) فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾ [الأعراف].

كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) ﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا

سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (٨٨) ﴾ [ص].

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن وقد تكلمنا على ذلك كله فى «التفسير» ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ﷺ. . . والله المستعان.

فأخبر سبحانه وتعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]. أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢]. فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه. فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن[1]؛ قاله قتادة. وقال عبد الله بن

---

(١) البنّة: الرائحة المنتنة؛ قال الإمام على رضى الله تعالى عنه للأشعث بن قيس حين خطب إليه ابنته: قم لعنك الله حائكا فلكأنى أجد منك بنة الغزل. وفى رواية قال له الأشعث بن قيس ما أحسبك عرفتنى يا أمير المؤمنين، قال: بلى وإنى لأجد بنة الغزل منك. أى: ريح الغزل. رماه بالحياكة، قيل: كان أبو الأشعث يولع بالنساجة والبِنُّ: الموضع المنتن الرائحة. [لسان العرب].

عمرو: كانت الجن والبن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور وعن ابن عباس نحوه وعن الحسن ألهموا ذلك وقيل: لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ. فقيل: أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له: السجل. رواه ابن أبى حاتم عن أبى جعفر الباقر. وقيل: لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبا.

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أى: نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر ليلًا ولا نهارًا. ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. أى: أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء مالا تعلمون، أى: سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء. ثم بين لهم شرف آدم عليهم فى العلم، فقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١]. قال ابن عباس: هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسانٌ ودابةٌ وأرضٌ وسهلٌ وبحرٌ وجبلٌ وجملٌ وحمارٌ وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وفى رواية: علمه اسم الصحفة[١] والقدر حتى الفسوة والفسية [٢].

وقال مجاهدٌ: علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شىء. وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد.

وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة.

وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته. والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها. كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما.

وذكر البخارى هنا ما رواه هو ومسلمٌ من طريق سعيدٍ وهشام عن قتادة عن أنسٍ بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا. فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء» وذكر تمام الحديث[٣].

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. قال الحسن البصرى: لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة: لا يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أعلم منه.

---

(١) الصحفة: كالقصعة، والجمع صحاف. قال الكسائى: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة تليها، تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة ثم الصحيفة تشبع الرجل. كما فى القاموس المحيط.

(٢) الفسوة واحدة الفسو؛ وهو خروج الريح، والفسية تصغيرها. كما فى لسان العرب.

(٣) رواه البخارى [٤٤٧٦] واللفظ له، ومسلم [١٩٣/ ٣٢٢].

فابتلوا بهذا. وذلك قوله: ﴿إن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. وقيل غير ذلك كما بسطناه فى «التفسير».

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. أى: سبحانك أن يحيط أحد بشىء من علمك من غير تعليمك كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]. أى: أعلم السر كما أعلم العلانية.

وقيل إن المراد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]. ما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. المراد بهذا الكلام إبليس وما أسره وكتمه فى نفسه من الكبر والعداوة لآدم عليه السلام. قاله سعيد ابن جبير ومجاهدٌ والسدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير.

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، قولهم: لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه. قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]. هذا إكرامٌ عظيمٌ من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، فهذه أربع تشريفاتٍ خلقه له بيده الكريمة ونفخه فيه من روحه وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه فى الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتى: «أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء؟»[1] وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم وكما سيأتى إن شاء الله تعالى.

وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف].

قال الحسن البصرى: قاس إبليس وهو أول من قاس. وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس. رواهما ابن جرير.

ومعنى هذا: أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من

---

(١) رواه البخارى [٣٣٤٠]، ومسلم [٢٦٥٢/ ١٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

آدم فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود. والقياس إذا كان مقابلًا بالنص كان فاسد الاعتبار. ثم هو فاسد فى نفسه فإن الطين أنفع وخيرٌ من النار فإن الطين فيه الرزانة والحلم والأنة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق. ثم آدم شرفه اللّه بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر]. استحق هذا من اللّه تعالى؛ لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه ومخالفة الأمر الإلهى ومعاندة الحق فى النص على آدم على التعيين، وشرع فى الاعتذار بما لا يجدى عنه شيئًا وكان اعتذاره أشد من ذنبه؛ كما قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. أى خرج عن طاعة اللّه عمدًا وعنادًا واستكبارًا عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته النارية الخبيثة أحوج ما كان إليها، فإنه مخلوقٌ من نار كما قال وكما قدمنا فى «صحيح مسلم» عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها عن رسول اللّه ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»[1].

قال الحسن البصرى: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عينٍ قط. وقال شهر ابن حوشبٍ: كان من الجن فلما أفسدوا فى الأرض بعث اللّه إليهم جندًا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه.

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعةٌ من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا.

---

(١) رواه مسلم [٢٩٩٦/ ٦٠] واللفظ له، وأحمد فى المسند [٦/ ١٥٣، ١٦٨].

قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل، وفى رواية عنه: الحارث. قال النقاش: وكنيته أبو كردوس. قال ابن عباس: وكان من حى من الملائكة يقال لهم الجن وكانوا خزان الجنان وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علمًا وعبادةً وكان من أولى الأجنحة الأربعة فمسخه اللّه شيطانًا رجيمًا. وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف].

أى بسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم كل مرصدٍ ولآتينهم من كل جهةٍ منهم. فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه.

كما قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيلٍ - هو عبد اللّه بن عقيل الثقفى حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد عن سبرة بن أبى فاكه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ قال: «إن الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه»[(١)].

وذكر الحديث كما قدمناه فى صفة إبليس.

وقد اختلف المفسرون فى الملائكة المأمورين بالسجود لآدم أهم جميع الملائكة - كما دل عليه عموم الآيات وهو قول الجمهور - أو المراد بهم ملائكة الأرض كما رواه ابن جريرٍ من طريق الضحاك عن ابن عباسٍ؟ وفيه انقطاعٌ وفى السياق نكارةٌ وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه. ولكن الأظهر من السياقات الأول، ويدل عليه الحديث: «وأسجد له ملائكته»[(٢)] وهذا عمومٌ أيضًا... واللّه أعلم.

وقوله تعالى لإبليس: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ و﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ دليلٌ على أنه كان فى السماء، فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٤٨٣] والنسائى فى المجتبى [٣١٣٤] والطبرانى فى الكبير [٧/ ١١٧/ ٦٥٥٨]، وقال الأرناؤوط: إسناده قوى.

(٢) سبق تخريجه

وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه فأهبط إلى الأرض مذءوما مدحورًا.

وأمر اللَّه آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة، فقال: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه].

وسياق هذه الآيات يقتضى أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة؛ لقوله: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ١٩]. وهذا قد صرح به ابن إسحاق ابن يسارٍ وهو ظاهر هذه الآيات. ولكن حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالكٍ عن ابن عباسٍ وعن مرةٍ عن ابن مسعودٍ وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة واسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشًا ليس له فيها زوجٌ يسكن إليها فنام نومةً فاستيقظ وعند رأسه امرأةٌ قاعدةٌ خلقها اللَّه من ضلعه فسألها: من أنت؟ قالت: امرأةٌ. قال: وَلِمَ خلقت؟ قالت: لتسكن إلى. فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شىء حى. وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباسٍ أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائمٌ ولأم مكانه لحمًا.

ومصداق هذا فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]. وفى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾[الأعراف: ١٨٩]. وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء اللَّه تعالى.

وفى «الصحيحين» من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا». لفظ البخارى[١].

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

---

(١) رواه البخارى [٥١٨٦]، ومسلم [١٤٦٨/ ٦٢].

فقيل: هى الكرم. وروى عن ابن عباسٍ وسعيد بن جبيرٍ والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيسٍ والسدى فى روايةٍ عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وناسٍ من الصحابة قال: وتزعم يهود أنها الحنطة. وهذا مروى عن ابن عباسٍ والحسن البصرى ووهب بن منبهٍ وعطية العوفى وأبى مالكٍ ومحارب بن دثارٍ وعبد الرحمن بن أبى ليلى قال وهبٌ: والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وقال الثورى عن حصينٍ عن أبى مالكٍ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. هى النخلة. وقال ابن جريج عن مجاهدٍ: هى التينة. وبه قال قتادة وابن جريج.

وقال أبو العالية: كانت شجرةً من أكل منها أحدث ولا ينبغى فى الجنة حدثٌ.

وهذا الخلاف قريبٌ وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ولو كان فى ذكرها مصلحةٌ تعود إلينا لعينها لنا، كما فى غيرها من المحال التى تبهم فى القرآن.

وإنما الخلاف الذى ذكروه فى أن هذه الجنة التى أسكنها آدم هل هى فى السماء أو فى الأرض؟ هو الخلاف الذى ينبغى فصله والخروج منه.

والجمهور على أنها هى التى فى السماء، وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. والألف واللام ليست للعموم، ولا لمعهود لفظى، وإنما تعود على معهود ذهنى وهو المستقر شرعًا من جنة المأوى، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: علام أخرجتنا ونفسك من الجنة الحديث. كما سيأتى الكلام عليه.

وروى مسلمٌ فى «صحيحه» من حديث أبى مالكٍ الأشجعى واسمه سعد بن طارقٍ عن أبى حازم سلمة بن دينار عن أبى هريرة وأبو مالكٍ عن ربعىٍّ عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة. فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم!»[1]. وذكر الحديث بطوله، وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التى أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد؛ لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها وهذا مما ينافى أن تكون جنة المأوى. وهذا القول محكىٌّ عن أبى بن كعب وعبد الله بن عباسٍ ووهب بن منبهٍ وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة فى «المعارف» والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى «تفسيره» وأفرد له مصنفا على حدةٍ وحكاه عن أبى حنيفة الإمام

(١) رواه مسلم [١٩٥/٣٢٩].

وأصحابه رحمهم اللّه ونقله أبو عبد اللّه محمد بن عمر الرازى بن خطيب الرى فى «تفسيره» عن أبى قاسم البلخى وأبى مسلم الأصبهانى. ونقله القرطبى فى «تفسيره» عن المعتزلة والقدرية. وهذا القول هو نص التوراة التى بأيدى أهل الكتاب.

وممن حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى «الملل والنحل». وأبو محمد بن عطية فى «تفسيره» وأبو عيسى الرمانى فى «تفسيره» وحكى عن الجمهور الأول وأبو القاسم الراغب والقاضى الماوردى فى «تفسيره» فقال: واختلف فى الجنة التى أسكناها - يعنى: آدم وحواء - على قولين:

أحدهما: أنها جنة الخلد.

الثانى: جنة أعدها اللّه لهما، وجعلها دار ابتلاءٍ وليست جنة الخلد التى جعلها اللّه دار جزاءٍ ومن قال بهذا اختلفوا على قولين:

أحدهما: أنها فى السماء؛ لأنه أهبطهما منها. وهذا قول الحسن.

والثانى: أنها فى الأرض؛ لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار. وهكذا قول ابن جبيرٍ، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم. واللّه أعلم بالصواب من ذلك هذا كلامه.

فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف فى المسألة؛ ولهذا حكى أبو عبد اللّه الرازى فى «تفسيره» فى هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التى أوردها الماوردى.

ورابعها: الوقف. ورجح القول الأول واللّه أعلم وحكى القول بأنها فى السماء وليست جنة المأوى عن أبى على الجبائى.

وقد أورد أصحاب القول الثانى سؤالًا يحتاج مثله إلى جواب فقالوا: لا شك أن اللّه سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته؛ وإنما هو أمرٌ قدريٌ لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] وقال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣].

وقال: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]. والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة وأيًا ما كان فمعلومٌ أنه ليس له الكون بعد هذا فى المكان الذى طرد عنه وأبعد منه لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز.

قالوا: ومعلومٌ من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]

وبقوله: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف] وهذا ظاهر فى اجتماعه معهما فى جنتهما. وقد أجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما فى الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها و أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء وفى الثلاثة نظرٌ. واللَّه أعلم.

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة ما رواه عبد اللَّه بن الإمام أحمد فى الزيادات عن هدبة بن خالدٍ عن حماد بن سلمة عن حميدٍ عن الحسن البصرى عن عتى هو ابن ضمرة السعدى عن أبى بن كعب قال: إن آدم لما احتضر اشتهى قطفًا من عنب الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بنى آدم؟ قالوا: إن أبانا اشتهى قطفًا من عنب الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه، فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسله وحنطوه وكفنوه، وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه، وقالوا: هذه سنتكم فى موتاكم، وسيأتى الحديث بسنده وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام. قالوا: فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التى كان فيها آدم التى اشتهى منها القطف ممكنا لما ذهبوا يطلبون ذلك فدل على أنها فى الأرض لا فى السماء. واللَّه تعالى أعلم. قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]. لم يتقدم عهدٌ يعود عليه فهو المعهود الذهنى مسلمٌ، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام فإن آدم خلق من الأرض، ولم ينقل أنه رفع إلى السماء، وخلق ليكون فى الأرض وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا: وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [القلم: ١٧]. فالألف واللام ليس للعموم، ولم يتقدم معهودٌ لفظىٌ، وإنما هى للمعهود الذهنى الذى دل عليه السياق وهو البستان. قالوا: وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء بل هو كقوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: ٤٨]. وإنما كان فى السفينة حين استقرت على الجودى ونضب الماء عن وجه الأرض أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم. وقال اللَّه تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]. وفى الأحاديث واللغة من هذا كثيرٌ. قالوا: ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التى أسكنها آدم كانت مرتفعةً عن سائر بقاع الأرض ذات أشجارٍ وثمارٍ وظلالٍ ونعيم ونضرةٍ وسرورٍ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [طه: ١١٨] أى: لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى. ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه:١١٩]. أى: لا يمس باطنك حر

الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس؛ ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا؛ لما بينهما من المقابلة فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التى نهى عنها أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعى والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان دينًا وأخلاقًا وأعمالًا وقصودًا وإرادات وأقوالًا وأفعالًا كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦].

ولا يلزم من هذا أنهم كانوا فى السماء كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ومعلومٌ أنهم كانوا فيها، لم يكونوا فى السماء.

قالوا: وليس هذا القول مفرعا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم، ولاتلازم بينهما فكل من حكى عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتى إيرادها فى موضعها والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ [البقرة: ٣٦]. أى عن الجنة ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٦]. أى: من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد، وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدورهما؛ كما قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠]. يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، أى: ولو أكلتما منها لصرتما كذلك ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أى: حلف لهما على ذلك ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]. أى: هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت فى ملك لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع. والمقصود أن قوله: ﴿ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ التى إذا أكلت منها خلدت.

وقد تكون هى الشجرة التى قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن أبى الضحاك سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة شجرةً يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها؛ شجرة الخلد». وكذا رواه أيضًا عن غندر وحجاج عن شعبة ورواه أبو داودَ الطيالسى فى مسنده عن شعبة أيضًا به.[1]

قال غندر: قلت لشعبة: هى شجرة الخلد؟ قال: ليس فيها هى. تفرد به الإمام أحمد

(١) رواه البخارى [٣٢٥١]، ومسلم [٢٨٢٧/٨]، والترمذى [٣٢٩٢]، وأحمد فى المسند [٢/ ٤٦٢].

وقوله: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]. كما قال فى طه: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [طه: ١٢١]. وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهى التى حدته على أكلها والله أعلم. وعليه يحمل الحديث الذى رواه البخارى حدثنا بشر بن محمدٍ حدثنا عبد الله أنبأنا معمر عن همام بن منبهٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». تفرد به من هذا الوجه[١]. وأخرجاه فى «الصحيحين» من حديث عبد الرزاق عن معمرٍ عن همامٍ عن أبى هريرة. ورواه أحمد ومسلمٌ عن هارون ابن معروف عن أبى وهب عن عمرٍو بن حارث عن أبى يونس عن أبى هريرة.[٢]

وفى كتاب «التوراة» التى بين أيدى أهل الكتاب أن الذى دل حواء على الأكل من الشجرة هى الحية وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام - وليس فيها ذكرٌ لابليس - فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر وفيها أنهما كانا عريانين. وكذا قال وهب بن منبهٍ: كان لباسهما نورًا على فرجه وفرجها.

وهذا الذى فى هذه «التوراة» التى بأيديهم غلطٌ منهم وتحريفٌ وخطأٌ فى التعريب، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يتيسر لكل أحد، ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيدا، ولا يحيط علما بفهم كتابه أيضًا فلهذا وقع فى تعريبهم لها خطأٌ كثيرٌ لفظا ومعنى. وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس فى قوله: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧]. فهذا لا يرد لغيره من الكلام والله تعالى أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن إشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيدٍ ابن أبى عروبةَ عن قتادة عن الحسن عن أبى كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلًا طوالًا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل يا آدم منى تفر. فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، لا، ولكن استحياء »[٣].

---

(١) رواه البخارى [٣٣٣٠].

(٢) رواه البخارى [٣٣٩٩]، ومسلم [١٤٧٠/٦٥]، وأحمد فى المسند [٢/٣٠٤].

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك [٣٠٣٨] والمتقى الهندى فى كنز العمال [١٥١٤٠]، ابن سعد [١/٣١] فى طبقاته.

وقال الثورى عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]: ورق التين.

وهذا إسناد صحيح إليه وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب. وظاهر الآية يقتضى أعم من ذلك وبتقدير تسليمه فلا يضر والله تعالى أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصرى عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان طوالا كالنخلة السحوق ستين ذراعًا كثير الشعر وارى العورة فلما أصاب الخطيئة فى الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرةٌ فأخذت بناصيته فناداه ربه: أفرارًا منى يا آدم؟ قال: لا بل حياءً منك يا رب مما جئت به»(١). ثم رواه من طريق سعيد ابن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عتى بن ضمرة عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ بنحوه. وهذا أصح، فإن الحسن لم يدرك أبيا. ثم أورده أيضًا من طريق خيثمة ابن سليمان الأطرابلسى عن محمد بن عبد الوهاب أبى قرصافة العسقلانى عن آدم ابن أبى إياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعًا بنحوه.

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف] وهذا اعترافٌ ورجوعٌ إلى الإنابة وتذللٌ وخضوعٌ واستكانةٌ وافتقارٌ إليه تعالى فى الساعة الراهنة. وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير فى دنياه وأخراه. ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: ٢٤]. وهذا خطابٌ لآدم وحواء وإبليس. وقيل والحية معهم. أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين. وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات وقال: «ما سالمناهن منذ حاربناهن»(٢).

وقوله فى سورة طه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣] هو أمر لآدم وإبليس وما تناسل منهما عداوةً مستمرةً واستتبع آدم حواء وإبليس الحية. وقيل: هو أمرٌ لهم بصيغة التثنية، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. والصحيح أن هذا

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند [٥/ ١٣٦] والمتقى الهندى فى كنز العمال [٤٢٤٠٨].

(٢) رواه أبو داود [٥٢٥٠]، وأحمد [١/ ٢٣٠] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وأبو داود [٥٢٤٨] وقال الألبانى: حسن صحيح، وأحمد فى [٢/ ٤٣٢، ٥٢٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد.

لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدعى عليه قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٨]. وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[البقرة].

فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا، وبالثاني من السماء الدنيا إلى الأرض. وهذا ضعيفٌ لقوله في الأول: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة: ٣٦]. فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم.

والصحيح أنه كرره لفظًا وإن كان واحدًا وناط مع كل مرة حكمًا، فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقي. وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم.

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به غصنٌ فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول: العفو العفو. فقال الله سبحانه: فرارًا مني يا آدم؟ قال: بل حياءً منك يا سيدي.

وقال الأوزاعي عن حسان هو ابن عطية: مكث آدم في الجنة مائة عام. وفي رواية: ستين عامًا، وبكى على الجنة سبعين عامًا، وعلى خطيئته سبعين عامًا، وعلى ولده حين قتل أربعين عامًا. رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جريرٌ عن عطاء عن سعيدٍ عن ابن عباسٍ قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرضٍ يقال لها دحنا بين مكة والطائف.

وعن الحسن قال: أهبط آدم بالهند وحواء بجدة وإبليس بدستميسان من البصرة على أميالٍ وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتمٍ أيضا.

وقال السدي: نزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود وبقبضةٍ من ورق الجنة فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك.

وعن ابن عمر قال: اهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة. رواه ابن أبي حاتم أيضًا.

وقال عبد الرزاق قال معمر: أخبرني عوفٌ عن قسامة بن زهيرٍ عن أبي موسى

الأشعرى قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.
وقال الحاكم فى «مستدركه»: أنبأنا أبو بكرٍ بن بالوية عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيدِ بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس[1]. ثم قال: صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفى «صحيح مسلم» من حديث الزهرى عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها» وفى «الصحيح» من وجهٍ آخر: وفيه تقوم الساعة»[2].

وقال أحمد: حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعى عن أبى عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة»[3]. على شرط مسلم.

فأما الحديث الذى رواه ابن عساكر من طريق أبى القاسم البغوى حدثنا محمد بن جعفرٍ الوركانى حدثنا سعيد بن ميسرة عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «هبط آدم وحواء عريانين جميعًا عليهما ورق الجنة فأصابه الحر حتى قعد يبكى ويقول لها: يا حواء قد آذانى الحر. قال: فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج وقال: كان آدم لم يجامع امرأته فى الجنة حتى هبط منها للخطيئة التى أصابتهما بأكلهما من الشجرة» قال: «وكان كل واحد منهما ينام على حدةٍ ينام أحدهما فى البطحاء، والآخر من ناحيةٍ أخرى حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتى أهله» قال: «وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها جاءه جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك قال: صالحة» فإنه حديثٌ غريبٌ ورفعه منكرٌ جدًا وقد يكون من كلام بعض السلف وسعيد بن ميسرة هذا هو: أبو عمران البكرى البصرى، قال فيه البخارى: منكر الحديث. وقال ابن حبان: يروى الموضوعات. وقال ابن عدى: مظلم الأمر.
وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. قيل: هى قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. روى هذا عن مجاهدٍ، وسعيد بن جبيرٍ، وأبى العالية، والربيع بن أنسٍ، والحسن،

(١) رواه الحاكم [٢/ ٥٤٢]. (٢) رواه مسلم [١٧/٨٥٤]، والترمذى [٤٨٨].
(٣) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٥٤٠] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وإسناده حسن.

وقتادة، ومحمد بن كعب، وخالد بن معدان، وعطاءِ الخراسانى، وعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلم، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن إشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيدِ بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة؟ قال: نعم فذلك قوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]. وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: الكلمات: «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك؛ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك؛ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك؛ رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم».

وروى الحاكم فى «مستدركه» من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباسٍ فى قوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧] قال: قال آدم: يا رب ألم تخلقنى بيدك؟ قيل له: بلى. ونفخت فى من روحك؟ قيل له: بلى. وعطست فقلت: يرحمك اللّه وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى. وكتبت على أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة؟ قال: نعم. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وروى الحاكم أيضًا والبيهقى وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألكَ بحق محمد ألا غفرت لى فقال اللّه: فكيف عرفت محمدا. ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك.

فقال اللّه: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى، وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك»[1]. قال البيهقى: تفرد به عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف واللّه أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ ﴾ [طه].

---

(١) رواه الحاكم [٢/ ٦١٥]، وعنه ابن عساكر [٢/ ٢١٣٢٣]، وهو حديث موضوع. راجع السلسلة الضعيفة [٢٥].

ذكر احتجاج آدم وموسى
عليهما السلام

قال البخارى: حدثنا قتيبة حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبى كثيرٍ عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «حاج موسى آدم عليهما السلامَ فقال: له أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذى اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه أتلومنى على أمرٍ كتبه اللّه على قبل أن يخلقنى أو قدره على قبل أن يخلقنى؟ قال رسول اللّه ﷺ: فحج آدم موسى» [١]. وقد رواه مسلمٌ عن عمروٍ الناقد والنسائى عن محمد بن عبد اللّه بن يزيد عن أيوب بن النجار به. قال أبو مسعودٍ الدمشقى: ولم يخرجا عنه فى «الصحيحين» سواه.

وقد رواه أحمد عن عبد الرزاق عن معمرٍ عن همامٍ عن أبى هريرة ورواه مسلمٌ عن محمد بن رافعٍ عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كاملٍ حدثنا إبراهيم حدثنا ابن شهابٍ عن حميدٍ بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: وأنت موسى الذى اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه؟ تلومنى على أمرٍ قدر على قبل أن أخلق؟ قال رسول اللّه ﷺ: فحج آدم موسى «فحج آدم موسى» مرتين» [٢].

قلت: وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلمٌ من حديث الزهرى عن حميدٍ بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمروٍ حدثنا زائدة عن الأعمش عن أبى صالحٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت الذى خلقك اللّه بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة». قال: «فقال آدم: وأنت موسى الذى اصطفاك اللّه بكلامه تلومنى على عملٍ أعمله كتبه اللّه على قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: فحج آدم موسى» [٣]. وقد رواه

---

(١) رواه البخارى [٤٧٣٨] واللفظ له، ومسلم [٢٦٥٢/ ١٣]، والنسائى [١١٣٢٩]، وأحمد فى المسند [٢/ ٣١٤].

(٢) رواه البخارى [٣٤٠٩]، ومسلم [٢٦٥٢/ ١٥]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٦٤].

(٣) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٩٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذى [٢١٣٤]، والنسائى [١١٤٤٣].

الترمذى والنسائى جميعًا عن يحيى بن حبيب بن عربى عن معتمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش به. قال الترمذى: وهو غريبٌ من حديث سليمان التيمى عن الأعمش.

قال: وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة.

قال: وقد رواه بعضهم عن أبى صالح عن أبى سعيد.

قلت: هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار فى «مسنده» عن محمد بن مثنى عن معاذ ابن أسد عن الفضل بن موسى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد.

ورواه البزار أيضا: حدثنا عمرو بن على الفلاس حدثنا أبو معاويةَ حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو أبى سعيدٍ عن النبى ﷺ. فذكر نحوه.

وقال أحمد: حدثنا سفيان عن عمرٍو سمع طاووسًا سمع أبا هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى أنت اصطفاك اللَّه بكلامه.

وقال مرةً: برسالته وخط لك بيده؟ أتلومنى على أمر قدره اللَّه على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟ قال: حج آدم موسى حج آدم موسى»[(١)].

وهكذا رواه البخارى عن علىّ بن المدينى عن سفيان قال: حفظناه من عمروٍ عن طاووسٍ قال: سمعت أبا هريرة عن النبى ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة»

فقال له آدم: يا موسى اصطفاك اللَّه بكلامه وخط لك بيده أتلومنى على أمرٍ قدره اللَّه على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟

فحج آدم موسى فحج آدم موسى هكذا ثلاثًا.

قال سفيان: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله.

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرٍو بن دينار عن عبد اللَّه بن طاووسٍ عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه[(٢)].

وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن حدثنا حمادٌ عن عمارٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لقى آدم موسى فقال: أنت آدم الذى خلقك اللَّه بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة ثم فعلت؟ فقال: أنت موسى الذى كلمك اللَّه واصطفاك برسالته وأنزل عليك التوراة؟ أنا أقدم أم الذكر؟ قال: لا بل الذكر. فحج آدم موسى.

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/٢٤٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه البخارى [٦٦١٤]، ومسلم [٢٦٥٢/١٣]، وأبو داود [٤٧٠١]، والنسائى [١١١٨٧]، وابن ماجه [٨٠].

قال أحمد: وحدثنا عفان حدثنا حمادٌ عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وحميدٌ عن الحسن عن رجلٍ قال حمادٌ: أظنه جندب بن عبد الله البجلى عن النبى ﷺ قال: «لقى آدم موسى» فذكر معناه تفرد به أحمد من هذا الوجه[١].

وقال أحمد: حدثنا حسينٌ حدثنا جريرٌ هو ابن حازم عن محمدٍ هو ابن سيرين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقى آدم موسى فقال: أنت آدم الذى خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت؟ قال آدم: يا موسى: أنت الذى كلمه الله وأنزل عليه التوراة؟ قال: نعم، قال: فهل تجده مكتوبًا على قبل أن أخلق؟ قال: نعم، قال: فحج آدم موسى فحج آدم موسى.

وكذا رواه حماد بن زيدٍ عن أيوب وهشام عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رفعه. وكذا رواه على بن عاصم عن خالدٍ وهشامٍ عن محمد بن سيرين وهذا على شرطهما من هذه الوجوه[٢].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهبٍ أخبرنى أنس بن عياض عن الحارث بن أبى ذباب عن يزيد بن هرمز: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما فحج آدم موسى؛ قال موسى: أنت الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك فى جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ قال آدم: أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيءٍ وقربك نجيًا فبكم وجدت الله كتب «التوراة» قبل أن أخلق. قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. قال: نعم قال: أفتلومنى على أن عملت عملًا كتبه الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟ قال: رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى».

قال الحارث: حدثنى عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ وقد رواه مسلمٌ عن إسحاق بن موسى الأنصارى عن أنسٍ بن عياضٍ عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذبابٍ عن يزيد بن هرمز والأعرج كلاهما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه[٣].

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال موسى لآدم: يا آدم أنت

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٤٦٤] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٩٢] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) رواه مسلم [٢٦٥٢/ ١٥].

الذى أدخلت ذريتك النار؟ فقال آدم: يا موسى اصطفاك اللَّه برسالاته وبكلامه وأنزل عليك «التوارة» فهل وجدت أنى أهبط؟ قال: نعم. قال: فحجه آدم» وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه. وفى قوله: أدخلت ذريتك النار. نكارة. فهذه طرق هذا الحديث عن أبى هريرة رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان وطاووس بن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعمار بن أبى عمارٍ ومحمد ابن سيرين وهمام بن منبهٍ ويزيد بن هرمز وأبو سلمة بن عبد الرحمن[(١)].

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى «مسنده» من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه فقال: حدثنا الحارث بن مسكينٍ المصرى حدثنا عبد اللَّه بن وهبٍ أخبرنى هشام بن سعدٍ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ قال: قال موسى عليه السلام: يا رب أبونا آدم أخرجنا ونفسه من الجنة. فأراه آدم عليه السلام فقال: أنت آدم؟ فقال له آدم: نعم. قال: أنت الذى نفخ اللَّه فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته وعلمك الأسماء كلها؟ قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: أنت موسى بنى إسرائيل؟ الذى كلمك اللَّه من وراء الحجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه؟. قال: نعم قال: فتلومنى على أمر قد سبق من اللَّه عز وجل القضاء قبلى؟! قال رسول اللَّه ﷺ: «فحج آدم موسى فحج آدم موسى».

ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصرى عن ابن وهبٍ به[(٢)].

قال أبو يعلى: وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعى حدثنا عمران عن الردينى عن أبى مجلزٍ عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر قال أبو محمد أكثر ظنى أنه رفعه قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم: أنت أبو الناس أسكنك اللَّه جنته وأسجد لك ملائكته. قال آدم: لموسى أما تجده على مكتوبا؟ قال: فحج آدم موسى فحج آدم موسى». وهذا الإسناد أيضًا لا بأس به، واللَّه أعلم[(٣)].

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش عن أبى صالحٍ عن أبى سعيدٍ ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميدٍ عن الحسن عن رجلٍ قال حماد: أظنه جندب بن عبد اللَّه البجلى عن النبى ﷺ: «لقى آدم موسى» فذكر معناه.

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٢٦٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين

(٢) رواه أبو داود [٤٧٠٢] وحسنه الألبانى، وأبو يعلى فى المسند [١/ ٢٠٩/ ٢٤٣] وقال محققه: إسناده جيد.

(٣) رواه أبو يعلى فى المسند [١/ ٢١١/ ٢٤٤] وقال محققه إسناده جيد.

وقد اختلفت مسالك الناس فى هذا الحديث فرده قومٌ من القدرية؛ لما تضمن من إثبات القدر السابق. واحتج به قومٌ من الجبرية وهو ظاهرٌ لهم بادئ الرأى؛ حيث قال: فحج آدم موسى. لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتى الجواب عن هذا. وقال آخرون: إنما حجه؛ لأنه لامه على ذنب قد تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقيل: إنما حجه؛ لأنه أكبر منه وأقدم. وقيل: لأنه أبوه. وقيل: لأنهما فى شريعتين متغايرتين. وقيل: لأنهما فى دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه.

والتحقيق أن هذا الحديث روى بألفاظٍ كثيرةٍ بعضها مرويٌّ بالمعنى وفيه نظر ومدار معظمها فى «الصحيحين» وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم: أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكلى من الشجرة، والذى رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو اللَّه عز وجل فأنت تلومنى على أمر ليس له نسبةٌ إلى أكثر ما أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الإخراج مترتبًا على ذلك ليس من فعلى فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة وإنما كان هذا من قدر اللَّه وصنعه وله الحكمة فى ذلك؛ فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذب بهذا الحديث فمعاندٌ لأنه متواترٌ عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه وناهيك به عدالةً وحفظًا واتقانًا. ثم هو مرويٌّ عن غيره من الصحابة كما ذكرنا. ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفًا فهو بعيدٌ من اللفظ والمعنى. وما فيهم من هو أقوى مسلكًا من الجبرية. وفيما قالوه نظرٌ من وجوهٍ أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمرٍ قد تاب منه فاعله. الثانى: أنه قد قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها وقد سأل اللَّه فى ذلك بقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ [القصص: ١٦].

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لانفتح هذا لكل من ليم على أمرٍ قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجةً لاحتج به كل أحدٍ فى الأمور الكبار والصغار وهذا يفضى إلى لوازم فظيعةٍ فلهذا قال من قال من العلماء: بأن جواب آدم إنما كان احتجاجًا بالقدر على المصيبة لا المعصية، واللَّه تعالى أعلم بالصواب وهو حسبى ونعم الوكيل.

☆☆☆

ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفرٍ حدثنا عوفٌ حدثنى قسامة بن زهيرٍ عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «إن اللَّه عزوجل خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك»(١) ورواه أيضًا عن هوذة عن عوفٍ عن قسامة بن زهيرٍ سمعت الأشعرى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه عزوجل خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجعل منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك»(٢).

وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن حبان فى «صحيحه» من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى عن قسامة بن زهيرٍ المازنى البصرى عن أبى موسى عبد اللَّه بن قيسٍ الأشعرى عن النبى ﷺ بنحوه(٣). وقال الترمذى حسنٌ صحيح.

وقد ذكر السدى عن أبى مالكٍ وأبى صالح عن ابن عباسٍ وعن مرة عن ابن مسعودٍ وعن ناسٍ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ قالوا: فبعث اللَّه عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: أعوذ باللَّه منك أن تنقص منى أو تشيننى. فرجع ولم يأخذ وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال: كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ باللَّه أن أرجع ولم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكانٍ واحدٍ وأخذ من تربةٍ بيضاء وحمراء وسوداء؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبُل التراب حتى عاد طينًا لازبًا واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ ﴾ [ص]. فخلقه اللَّه بيده؛ لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طينٍ أربعين

---

(١) رواه أحمد [٤/ ٤٠٠] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. غير قسامة بن زهير، فقد روى له أصحاب السنن سوى ابن ماجه، وهو ثقة.

(٢) رواه أحمد [٤/ ٤٠٦] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) رواه أبو داود [٤٦٩٣]، والترمذى [٢٩٥٥]، وابن حبان [٦١٨] وصححه الألبانى.

سنةً من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعًا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلةٌ فذلك حين يقول: ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴾ [الرحمن: ١٤].

ويقول: لأمرٍ ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمدٌ وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذى يريد اللّه عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له. فلما نفخ فيه من الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت الملائكة: قل الحمد للّه. فقال: الحمد للّه فقال له اللّه: رحمك ربك. فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة وذلك حين يقول اللّه تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر] وذكر تمام القصة.

ولبعض هذا السياق شاهدٌ من الأحاديث وإن كان كثيرٌ منه متلقى من الإسرائيليات، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابتٍ عن أنسٍ أن النبى ﷺ قال: «لما خلق اللّه آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلقٌ لا يتمالك» [(١)].

وقال ابن حبان فى صحيحه: حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا هدبة بن خالدٍ حدثنا حماد بن سلمة عن ثابتٍ عن أنسٍ بن مالك أن رسول اللّه ﷺ قال: «لما نفخ فى آدم فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد للّه رب العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك اللّه»[(٢)].

وقال الحافظ أبو بكرٍ البزار: حدثنا يحيى بن محمدٍ بن السكن حدثنا حبان ابن هلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيد اللّه عن حبيب، عن حفصٍ، هو ابن عاصم بن عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب، عن أبى هريرة رفعه قال: «لما خلق اللّه آدم عطس، فقال الحمد للّه، فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم»[(٣)].

وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه.

وقال عمر بن عبد العزيز: «لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد

---

(١) رواه مسلم [٢٦١١/ ١١١]، وأحمد فى المسند [٣/ ١٥٢-٢٤٥].
(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦١٦٥] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) رواه النسائى فى الكبرى [١٤٠٠٦]، والبيهقى فى الكبرى [٢٠٣٠٧].

منهم إسرافيل، فأنابه اللَّه أن كتب القرآن فى جبهته»(١). رواه ابن عساكر.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا عمرو بن محمدٍ عن إسماعيل ابن رافعٍ عن المقبرى عن أبى هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن اللَّه خلق آدم من ترابٍ، ثم جعله طينًا، ثم تركه، حتى إذا كان حمأً مسنونًا خلقه اللَّه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار، قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمرٍ عظيم. ثم نفخ اللَّه فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس، فلَقاه اللَّه رحمة ربه، فقال اللَّه: يرحمك ربك، ثم قال اللَّه: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم. فانظر ماذا يقولون. فجاء فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته، فقال: يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك، قال: يا رب وما ذريتى؟ قال: اختر يدى يا آدم. قال: أختار يمين ربى، وكلتا يدى ربى يمينٌ. وبسط كفه فإذا من هو كائنٌ من ذريته فى كف الرحمن. فإذا رجالٌ منهم أفواههم النور، فإذا رجلٌ يعجب آدم نوره قال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود. قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين. قال: يا رب فأتم له من عمرى حتى يكون له من العمر مائة سنةٍ. ففعل اللَّه ذلك، وأُشهد على ذلك. فلما نفد عمر آدم بعث اللَّه ملك الموت، فقال آدم: أو لم يبق من عمرى أربعون سنةً؟ قال له الملك: أولم تعطها ابنك داود؟ فجحد ذلك فجحدت ذريته، ونسى فنسيت ذريته»(٢).

وقد رواه الحافظ أبو بكرٍ البزار والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذبابٍ عن سعيدٍ المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. وقال الترمذى: حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه. وقال النسائى: هذا حديثٌ منكرٌ. وقد رواه محمد بن عجلان عن أبيه عن سعيدٍ المقبرى عن أبيه عن عبد اللَّه بن سلام(٣).

وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى «صحيحه» فقال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمةُ حدثنا محمدُ بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن سعيدٍ المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما خلق اللَّه آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد للَّه. فحمد اللَّه بإذن اللَّه؛ فقال له ربه: يرحمك ربك، يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملإٍ منهم جلوسٍ - فسلم عليهم. فقال: السلام عليكم. فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله.

(١) رواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق [٧/ ٣٩٨].
(٢) رواه أبو يعلى فى المسند [٦٥٨٠] وقال محققه: إسناده ضعيف.
(٣) رواه الترمذى [٣٣٦٨] وصححه الألبانى.

ثم رجع إلى ربه، فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. وقال اللّه ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت فقال: اخترت يمين ربى، وكلتا يدى ربى يمينٌ مباركةٌ. ثم بسطهما فإذا فيهما آدم وذريتهُ فقال: أى ربِّ ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. وإذا كل إنسانٍ منهم مكتوبٌ عمره بين عينيه، وإذا فيهم رجلٌ أضوؤهم - أو: من أضوئهم - لم يكتب له إلا أربعون سنةً قال: يا رب ما هذا؟ قال: هذا ابنك داود. وقد كتب اللّه عمره أربعين سنةً. قال: أى ربِّ زد فى عمره. فقال: ذاك الذى كتب له. قال: فإنى قد جعلت له من عمرى ستين سنةً. قال: أنت وذاك اسكن الجنة. فسكن الجنة ما شاء اللّه ثم أهبط منها، وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كتب لى ألف سنةٍ. قال: بلى ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنةً. فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى فنسيت ذريته، فيومئذٍ أمر بالكتاب والشهود» هذا لفظه[١].

وقال الترمذى: حدثنا عبد بن حميدٍ حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعدٍ عن زيد ابن أسلم عن أبى صالحٍ عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لما خلق اللّه آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمةٍ هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسانٍ منهم وبيصًا من نورٍ ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب من هؤلاء؟ قال هؤلاء ذريتك. فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أى رب من هذا؟ قال: هذا رجلٌ من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود. فقال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنةً. قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنةً. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أولم يبق من عمرى أربعون سنةً؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته»[٢]. ثم قال الترمذى: حسنٌ صحيحٌ وقد روى من غير وجهٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ورواه الحاكم فى «مستدركه» من حديث أبى نعيمٍ الفضل بن دكينٍ، وقال: صحيح على شرط مسلمٍ، ولم يخرجاه[٣].

وروى ابن أبى حاتمٍ من حديث عبد الرحمن بن زيدٍ بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسارٍ عن أبى هريرة مرفوعًا فذكره وفيه: ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب لم فعلت هذا بذريتى؟ قال: كى تشكر نعمتى. ثم ذكر قصة داود. وستأتى من رواية ابن عباس أيضا.

---

(١) رواه ابن حبان [٦١٦٧] وقال الأرناؤوط: إسناده قوى على شرط مسلم.
(٢) رواه الترمذى [٣٠٧٦] وصححه الألبانى.
(٣) رواه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٣٥٥].

وقال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا أبو الربيع عن يونس ابن ميسرة عن أبى إدريس عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «خلق اللّه آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذريةً سوداء كأنهم الحمم، فقال للذى فى يمينه: إلى الجنة ولا أبالى. وقال للذى فى كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالى»[١].

وقال ابن أبى الدينا: حدثنا خلف بن هشام حدثنا الحكم بن سنانٍ عن حوشبٍ عن الحسن قال: خلق اللّه آدم حين خلقه فأخرّج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فألقوا على وجه الأرض؛ منهم الأعمى، والأصم، والمبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدى؟ قال: يا آدم إنى أردت أن أشكر[٢].

وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن بنحوه.

وقد قال البخارى: حدثنا عبد اللّه بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمرٌ، عن همام بن منبهٍ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «خلق اللّه آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة واستمع ما يحيونك فإنها تحيتك، وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة اللّه، فزادوه: ورحمة اللّه. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم. فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن. وهكذا رواه البخارى فى كتاب الاستئذان عن يحيى بن جعفرٍ ومسلمٌ عن محمد بن رافعٍ كلاهما عن عبد الرزاق به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا روحٌ، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيدٍ، عن سعيدٍ بن المسيب، عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «كان طول آدم ستين ذراعًا فى سبع أذرع عرضًا»[٤] انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيدٍ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباسٍ قال: لما نزلت آية الدين، قال رسول اللّه ﷺ: «إن أول من جحد آدم عليه السلام - أو: أول من جحد آدم -، إن اللّه

(١) رواه أحمد فى المسند [٦/ ٤٤١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف بهذه السياقة، أبو ربيع مختلف فيه، وقد تفرد به، وهو ممن لا يحتمل تفرده.
(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر [ص: ١٦٥].
(٣) رواه البخارى [٣٣٢٦، ٦٢٢٧]، ومسلم [٢٨٤١/ ٢٨].
(٤) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٥٣٥] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح دون قوله: «فى سبع أذرع عرضا» فقد تفرد بها على بن زيد وهو ضعيف.

عزوجل لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلًا يزهر، فقال: أى رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أى رب كم عمره؟ قال: ستون عامًا، قال: رب زد فى عمره، قال: لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عامًا، فكتب اللّه عزوجل عليه بذلك كتابًا، وأشهد عليه الملائكةَ، فلما احتضر آدم، وأتته الملائكة لتقبضه، قال: إنه قد بقى من عمرى أربعون عامًا، فقيل: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. وأبرز اللّه عز وجل عليه الكتاب، وشهدت عليه الملائكة(١).

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامرٍ حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيدٍ عن يوسف بن مهران عن ابن عباسٍ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أول من جحد آدم - قالها ثلاث مراتٍ - إن اللّه عز وجل لما خلقه مسح ظهره، فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلًا يزهر فقال: أى رب زد فى عمره، قال: لا، إلا أن تزيده أنت من عمرك، فزاده أربعين سنة من عمره فكتب اللّه تعالى عليه كتابًا وأشهد عليه الملائكة، فلما أراد أن يقبض روحه قال: بقى من أجلى أربعون سنةً. فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود. قال: فجحد. قال: فأخرج اللّه الكتاب. وأقام عليه البينة، فأتمها لداود مائة سنةٍ، وأتم لآدم عمره ألف سنةٍ، تفرد به أحمد(٢) وعلى بن زيدٍ فى حديثه نكارةٌ.

ورواه الطبرانى عن على بن عبد العزيز، عن حجاج بن منهالٍ، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيدٍ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباسٍ وغير واحدٍ، عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول اللّه ﷺ: «إن أول من جحد آدم - ثلاثًا - وذكره(٣).

وقال الإمام مالك بن أنسٍ فى «موطئه» عن زيد بن أبى أنيسة، إن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيدٍ بن الخطاب أخبره، عن مسلم بن يسارٍ الجهنى، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول اللّه ﷺ يُسأل عنها فقال: إن اللّه خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريةً قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٥١] وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.

(٢) رواه أحمد فى المسند [١/ ٤٥]، وأبو داود [٤٧٠٣]، والترمذى [٣٠٧٥] وقال الألبانى: صحيح إلا «مسح الظهر».

(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [١٢/ ١٦٥/ ١٢٩٢٨] وقال الهيثمى فى المجمع [٨/ ٢٠٦]: وفيه على بن زيد، ضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات.

ظهره فاستخرج منه ذريةً قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجلٌ: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة، وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل النار، فيدخل به النار[1]. وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جريرٍ وابن أبى حاتم وأبو حاتم بن حبان فى صحيحه من طرق عن الإمام مالكٍ به. وقال الترمذى: هذا حديثٌ حسنٌ، ومسلم بن يسارٍ لم يسمع عمر. وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة. زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة. وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى. عن بقية، عن عمر بن جثعم، عن زيد بن أبى أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيدِ بن الخطاب، عنّ مسلم بن يسارٍ، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب وقد سُئل عن هذه الآية. فذكر الحديث[2].

قال الحافظ الدارقطنى: وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنانٍ الرهاوى عن زيد بن أبى أنيسة، قال: وقولهما أولى بالصواب مَن قول مالكٍ رحمه الله.

وهذه الأحاديث كلها دالةٌ على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين؛ أهل اليمين وأهل الشمال، وقال: هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء للنار ولا أبالى، فأما الإشهاد عليهم، واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية، فلم يجئ فى الأحاديث الثابتة، وتفسير الآية التى فى سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظرٌ كما بيناه هناك وذكرنا الأحاديث، والآثار، مستقصاةً بأسانيدها، وألفاظ متونها، فمن أراد تحريره فليراجعه ثم، والله أعلم.

فأما الحديث الذى رواه أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جريرٌ يعنى ابن حازم، عن كلثوم بن جبرٍ، عن سعيدٍ بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ عن النبى ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذريةٍ ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلا، قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف][3]. فهو بإسناد جيد قوى على شرط مسلمٍ.

---

(١) رواه مالك فى الموطأ [٢/ ٨٩٨، ٨٩٩]، أحمد فى المسند [١/ ٤٤، ٤٥] وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف، وأبو داود [٤٧٠٣]، والترمذى [٣٠٧٥]، والنسائى [١١١٩٠] وقال الألبانى: صحيح «إلا مسح الظهر».

(٢) رواه أبو داود [٤٧٠٤] وضعفه الألبانى.

(٣) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٧٢] وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبير، فمن رجال مسلم، والنسائى فى الكبرى [١١١٩١]، والحاكم فى مستدركه [٢/ ٥٤٤].

رواه النسائى، وابن جريرٍ، والحاكم فى مستدركه. من حديث: حسين بن محمدٍ المروزى به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبرٍ فروى عنه مرفوعًا وموقوفًا، وكذا روى عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً، وهكذا رواه العوفى والوالبى والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباسٍ قوله، وهذا أكثر وأثبت والله أعلم. وهكذا روى عن عبد الله بن عمرو موقوفًا ومرفوعًا، والموقوف أصح.

واستأنس القائلون بهذا القول؛ وهو أخذ الميثاق على الذرية - وهم الجمهور - بما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاجٌ، حدثنى شعبة، عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالكٍ عن النبى ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم: أن لا تشرك بى شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك بى»(١). أخرجاه من حديث شعبة به.

وقال أبو جعفر الرازى: عن الربيع بن أنسٍ، عن أبى العالية، عن أبى بن كعبٍ، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. والتى بعدها. قال: فجمعهم له يومئذٍ جميعًا ما هو كائنٌ منه إلى يوم القيامة، فخلقهم ثم صورهم، ثم استنطقهم، فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهد عليهم أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. قال: فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن لا تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيرى، ولا رب غيرى، ولا تشركوا بى شيئًا، وإنى سأرسل إليكم رسلًا، ينذرونكم عهدى وميثاقى، وأنزل عليكم كتابى. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذٍ بالطاعة، ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب لو سويت بين عبادك، فقال: إنى أحببت أن أشكر، ورأى فيهم: الأنبياء مثل السرج، عليهم النور، وخصوا بميثاقٍ آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. وهو الذى يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وفى ذلك قال: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦]. وفى ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

(١) رواه البخارى [٣٣٣٤]، ومسلم [٢٨٠٥/ ٥١]، وأحمد [٣/ ١٢٧].

رواه الأئمة؛ عبد اللّه بن أحمد، وابن أبى حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، فى «تفاسيرهم» من طريق: أبى جعفر. وروى عن مجاهدٍ، وعكرمة، وسعيد بن جبيرٍ، والحسن البصرى، وقتادة، والسدى، وغير واحدٍ من علماء السلف بسياقاتٍ توافق هذه الأحاديث[١].

وتقدم: أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، امتثلوا كلهم الأمر الإلهى، وامتنع إبليس من السجود له؛ حسدًا وعداوةً له؛ فطرده اللّه وأبعده، وأخرجه من الحضرة الإلهية، ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض طريدًا ملعونًا شيطانًا رجيما.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، ويعلى، ومحمدٌ ابنا عبيدٍ، قالوا: حدثنا الأعمش، عن أبى صالحٍ، عن أبى هريرة، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار»[٢].

ورواه مسلمٌ من حديث وكيعٍ، وأبى معاوية، عن الأعمش به.

ثم لما أسكن آدم الجنة التى أسكنها - سواءٌ كانت فى السماء أو فى الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه - أقام بها هو وزوجه حواء عليهما السلام يأكلان منها رغدًا حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس، وأهبطا إلى الأرض. وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منها. واختلفوا فى مقدار مقامه فى الجنة فقيل: بعض يوم من أيام الدنيا. وقد قدمنا ما رواه مسلمٌ عن أبى هريرة مرفوعًا: «وخُلق آدم فى آخر ساعةٍ من ساعات يوم الجمعة»[٣].

وتقدم أيضًا حديثه عنه: «وفيه - يعنى يوم الجمعة - خلق آدم وفيه أدخل الجنة. وفيه أخرج منها»[٤].

فإن كان اليوم الذى خلق فيه، فيه أخرج، وقلنا: إن الأيام الستة كهذه الأيام، فقد لبث بعض يوم من هذه. وفى هذا نظرٌ. وإن كان إخراجه فى غير اليوم الذى خلق فيه، أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنةٍ، كما تقدم عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ والضحاك واختاره ابن جريرٍ، فقد لبث هناك مدة طويلة، قال ابن جريرٍ:

(١) رواه أحمد فى المسند [٥/ ١٣٥] وقال الأرناؤوط: أثر ضعيف. وقال الهيثمى عنه فى المجمع [٧/ ٢٨]: رواه عبد اللّه بن أحمد عن شيخه محمد بن يعقوب الربالى وهو مستور وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم [٨١/ ١٣٣]، وأحمد فى المسند [٢/ ٤٤٣].

(٣) رواه مسلم [٢٧٨٩/ ٢٧].

(٤) رواه مسلم [٨٥٤/ ١٧].

ومعلوم أنه خلق فى آخر ساعةٍ من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاث وثمانون سنةً وأربعة أشهرٍ، فمكث مصورًا طينًا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنةً، وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثًا وأربعين سنةً وأربعة أشهرٍ. والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق، عن هشام بن حسان عن سوارٍ خبر عطاء بن أبى رباح: أنه كان لما أهبط رجلاه فى الأرض، ورأسه فى السماء. فحطه الله إلى ستين ذراعًا. وقد روى عن ابن عباسٍ نحوه. وفى هذا نظرٌ؛ لما تقدم من الحديث المتفق على صحته، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[1].

وهذا يقتضى أنه خلق كذلك، لا أطول من ستين ذراعًا، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن. وذكر ابن جريرٍ؛ عن ابن عباس: أن الله قال يا آدم إن لى حرمًا بحيال عرشى فانطلق فابن لى فيه بيتًا، فطف به كما تطوف ملائكتى بعرشى، وأرسل الله له ملكًا فعرفه مكانه، وعلمه المناسك، وذكر أن موضع كل خطوةٍ خطاها آدم صارت قريةً بعد ذلك. وعنه أن أول طعام أكله آدم فى الأرض، أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطةٍ، فقال: ما هذا؟ قال: هذا من الشجرة التى نهيت عنها فأكلت منها، فقال: وما أصنع بهذا؟ قال: ابذره فى الأرض، فبذره، وكان كل حبةٍ منها زنتها أزيد من مائة ألفٍ، فنبتت، فحصده، ثم درسه، ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، فأكله بعد جهدٍ عظيم وتعبٍ ونكدٍ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]. وكان أول كسوتهما من شعر الضأن، جزاه ثم غزلاه، فنسج آدم له جبةً ولحواء درعًا وخمارًا.

واختلفوا؛ هل ولد لهما بالجنة شىءٌ من الأولاد؟ فقيل: لم يولد لهما إلا فى الأرض، وقيل: بل ولد لهما فيها، فكان قابيل وأخته ممن ولدا بها والله أعلم. وذكروا أنه كان يولد له فى كل بطن ذكرٌ وأنثى، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التى ولدت معه، والآخر بالأخرى، وهلم جرًا، ولم يكن تحل أختٌ لأخيها الذى ولدت معه.

☆☆☆

---

(١) رواه البخارى [٣٣٢٦]، ومسلم [٢٨٤١/٢٨].

ذكر قصة ابنى آدم :
قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

قد تكلمنا على هذه القصة فى سورة المائدة فى التفسير بما فيه كفايةٌ، ولله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف فى ذلك؛ فذكر السدى عن أبى مالكٍ وأبى صالح عن ابن عباسٍ، وعن مرة، عن ابن مسعودٍ، وعن ناسٍ من الصحابة: أن آدم كان يزوج ذكر كل بطنٍ بأنثى البطن الأخرى، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل، وأخت هابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانًا، وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السماوات على بنيه فأبين، والأرضين والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك، فلما ذهب قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعةً سمينةً، وكان صاحب غنم وقرب قابيل حزمةً من زرعٍ من ردىء زرعه، فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى.

فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وروى عن ابن عباسٍ من وجوهٍ أخر، وعن عبد الله بن عمرو. وقال عبد الله بن عمرٍو: وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده.

وذكر أبو جعفرٍ الباقر: أن آدم كان مباشرًا لتقربهما القربان، والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لى، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلةٍ أبطأ هابيل فى الرعى فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل منى؟ فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فغضب قابيل عندها، وضربه بحديدةٍ كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرةٍ رماها على رأسه وهو نائمٌ فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقًا شديدًا وعضًا كما تفعل السباع فمات. والله أعلم.

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]. دل على خلقٍ حسنٍ، وخوفٍ من الله تعالى، وخشيةٍ منه، وتورعٍ أن يقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله؛ ولهذا ثبت فى «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[١].

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]. أى: إنى أريد ترك مقاتلتك، وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ما عزمت عليه: ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ أى: تتحمل إثم قتلى مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك. قاله: مجاهدٌ، والسدى، وابن جريرٍ، وغير واحدٍ. وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض الناس فإن ابن جريرٍ حكى الإجماع على خلاف ذلك. وأما الحديث الذى يورده بعض من لا يعلم عن النبى ﷺ أنه قال: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنبٍ» فلا أصل له ولا يعرف فى شيءٍ من كتب الحديث بسندٍ صحيحٍ، ولا حسنٍ، ولا ضعيفٍ أيضًا. ولكن قد يتفق فى بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفى بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل كما ثبت به الحديث الصحيح فى سائر المظالم والقتل من أعظمها. والله أعلم. وقد حررنا هذا كله فى التفسير ولله الحمد.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى: عن سعد بن أبى وقاصٍ أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنةٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الماشى، والماشى خير من الساعى. قال: أفرأيت إن دخل على بيتى، فبسط يده إلى ليقتلنى؟ قال: كن كابن آدم[٢]».

ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا. وقال: كن كخير ابنى آدم. وروى مسلمٌ وأهل السنن إلا النسائى، عن أبى ذر نحو هذا.

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ووكيعٌ قالا: حدثنا

---

(١) رواه البخارى [٧٠٨٣]، ومسلم [٢٨٨٨/ ١٤].

(٢) رواه مسلم [٢٨٨٧/ ١٣] والترمذى [٢١٩٤]، وأبو داود [٤٢٥٦]، وأحمد فى المسند [١/ ١٨٥].

الأعمش، عن عبد اللَّه بن مرة، عن مسروقٍ، عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل». ورواه الجماعة سوى أبى داود من حديث الأعمش به[1]. وهكذا روى عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وإبراهيم النخعى، أنهما قالا: مثل هذا سواءً وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارةٌ يقال لها: مغارة الدم مشهورةٌ بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها. وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فاللَّه أعلم بصحة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن كثيرٍ وقال: إنه كان من الصالحين، أنه رأى النبى ﷺ، وأبا بكرٍ، وعمر، وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل اللَّه تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك، وصدقه فى ذلك رسول اللَّه ﷺ وقال: إنه وأبا بكرٍ وعمر يزورون هذا المكان فى كل يوم خميس. وهذا منامٌ لو صح عن أحمد بن كثيرٍ هذا لم يترتب عليه حكمٌ شرعىٌ. واللَّه أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]. ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنةً.

وقال آخرون: حمله مائة سنةٍ. ولم يزل كذلك حتى بعث اللَّه غرابين - قال السدى بإسناده عن الصحابة: أخوين - فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك، ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ [المائدة: ٣١]. ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه.

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنًا شديدًا وأنه قال فى ذلك شعرًا، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميدٍ:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبرٌ قبيحٌ
تغير كل ذى طعمٍ ولونٍ ... وقل بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم:

أبا هابيل قد قتلا جميعًا ... وصار الحى كالميت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح

---

(١) رواه البخارى [٦٨٦٧]، ومسلم [٢٧/١٦٧٧]، والترمذى [٢٦٧٣]، والنسائى فى المجتبى [٣٩٨٥] وابن ماجه [٢٦١٦]، وأحمد فى المسند [١/ ٣٨٣، ٤٣٠].

وهذا الشعر فيه نظرٌ، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلامًا يتحزن به بلغته فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه إقواءٌ والله أعلم.

وقد ذكر مجاهدٌ: أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه. وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت؛ تنكيلًا به وتعجيلًا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه. وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[1].

والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله عز وجل أجله وأنظره، وأنه سكن في أرض نودٍ في شرقي عدن، وهم يسمونه قيناً وأنه ولد له: خنوخ، ولخنوخ: عندر، ولعندر: محوايل، ولمحوايل: متوشيل، ولمتوشيل: لامك، وتزوج هذا امرأتين؛ عدا وصلا فولدت عدا ولدًا اسمه: أبل، وهو أول من سكن القباب، واقتنى المال وولدت أيضًا توبل وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج. وولدت صلا ولدًا اسمه: توبلقين وهو أول من صنع النحاس والحديد، وبنتًا اسمها: نعمى.

وفيها أيضًا: أن آدم طاف على امرأته فولدت غلامًا ودعت اسمه: شيث وقالت: من أجل أنه قد وهب لي خلفًا من هابيل الذي قتله قابيل، وولد لشيث: أنوش. قالوا: وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائةً وثلاثين سنةً، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنةٍ، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائةً وخمس سنين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنةٍ وسبع سنين. وولد له بنون وبنات غير أنوش، فولد لأنوش: قينان، وله من العمر تسعون سنةً، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وخمس عشرة سنةً، وولد له بنون وبناتٌ، فلما كان عمر قينان سبعين سنةً ولد له مهلائيل، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وأربعين سنةً، وولد له بنون وبناتٌ، فلما كان لمهلائيل من العمر خمسٌ وستون سنةً ولد له يرد، وعاش بعد ذلك ثمانمائةٍ وثلاثين سنةً، وولد له بنون وبناتٌ، فلما كان ليرد مائة واثنتان وستون سنةً ولد له خنوخ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنةٍ، وولد له بنون وبناتٌ، فلما كان لخنوخ خمسٌ وستون سنةً ولد له متوشلح، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنةٍ، وولد له بنون وبناتٌ، فلما كان لمتوشلح مائةٌ وسبعٌ وثمانون سنةً ولد له لامك، وعاش بعد ذلك سبعمائةٍ واثنين وثمانين سنةً، وولد له بنون وبناتٌ، فلما كان للامك من العمر مائةٌ واثنتان وثمانون سنةً ولد له نوحٌ، وعاش بعد ذلك خمسمائةٍ وخمسًا وتسعين سنةً وولد له بنون وبناتٌ فلما كان لنوحٍ خمسمائة سنةٍ ولد

(١) رواه الترمذي [٢٥١١]، وابن ماجه [٤٢١١]، وأبو داود [٤٩٠٢]، وأحمد في المسند [٥/٣٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

له بنون؛ سامٌ وحامٌ ويافث هذا مضمون ما فى كتابهم صريحا. وفى كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظرٌ كما ذكره غير واحدٍ من العلماء طاعنين عليهم فى ذلك. والظاهر أنها مقحمةٌ فيها. ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير. وفيها غلطٌ كثيرٌ كما سنذكره فى مواضعه إن شاء اللّه تعالى.

وقد ذكر الإمام أبو جعفرٍ بن جرير فى «تاريخه» عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدًا فى عشرين بطنًا. قاله ابن إسحاق وسماهم واللّه تعالى أعلم. وقيل: مائة وعشرين بطنًا، فى كل واحدٍ ذكرٌ وأنثى؛ أولهم قابيل وأخته قليما، وآخرهم عبد المغيث وأخته أمة المغيث، ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا، وامتدوا فى الأرض ونموا، كما قال اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]. وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمةٍ واللّه أعلم.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف]. الآيات. فهذا تنبيهٌ أولًا بذكر آدم، ثم استطرد إلى الجنس، وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء، بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]. ومعلومٌ أن رجوم الشياطين ليست هى أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولدٌ فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش. فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره»[(١)]. وهكذا رواه الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، فى تفاسيرهم عند هذه الآية من سورة الأعراف وأخرجه الحاكم فى «مستدركه» كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث

(١) رواه أحمد فى المسند [٥/ ١١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، والترمذى [٣٠٧٧] وقال الألبانى: ضعيف، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٤٥] من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث، بهذا الإسناد، والطبرى فى التفسير [٩/ ٩٩].

به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الترمذى: حسنٌ غريبٌ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. فهذه علةٌ قادحةٌ فى الحديث أنه روى موقوفًا على الصحابى وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات. وهكذا روى موقوفًا على ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار ومن ودونه واللَّه أعلم. وقد فسر الحسن البصرى - راوى الحديث - هذه الآية بخلاف هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه إلى غيره واللَّه أعلم. وأيضًا فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولدٌ كما ذكر فى هذا الحديث إن كان محفوظًا؟ والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبى ﷺ خطأٌ والصواب وقفه واللَّه تعالى أعلم. وقد حررنا هذا فى كتابنا «التفسير» ولله الحمد. ثم قد كان آدم وحواء أتقى للَّه مما ذكر عنهما فى هذا؛ فإن آدم أبو البشر الذى خلقه اللَّه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيءٍ وأسكنه جنته.

وقد روى ابن حبان فى «صحيحه» عن أبى ذرٍّ قال: قلت: يا رسول اللَّه كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألفٍ وعشرون ألفًا. قلت: يا رسول اللَّه كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائةٍ وثلاثة عشر جما غفيرا. قلت: يا رسول اللَّه من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت: يا رسول اللَّه أنبى مرسل؟ قال: نعم خلقه اللَّه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قِبَلا»[1].

وقال الطبرانى: حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهانى حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع ابن هرمز عن عطاء بن أبى رباحٍ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبريل عليه السلام، وأفضل النبيين آدم، وأفضل الأيام يوم الجمعة، وأفضل الشهور شهر رمضان وأفضل الليالى ليلة القدر وأفضل النساء مريم بنت عمران»[2]. وهذا إسنادٌ ضعيفٌ فإن نافعًا أبا هرمز كذبه ابن معينٍ وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتمٍ وابن حبان وغيرهم واللَّه أعلم.

وقال كعب الأحبار: ليس أحدٌ فى الجنة له لحيةٌ إلا آدم لحيته سوداء إلى سرته وليس أحدٌ يكنى فى الجنة إلا آدم كنيته فى الدنيا أبو البشر وفى الجنة أبو محمدٍ[3].

وقد روى ابن عدى من طريق شيخ ابن أبى خالدٍ عن حماد بن سلمة عن عمرٍو

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٣٦١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف جدا.

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [١١/ ١٢٩/ ١١٣٦١] وقال الهيثمى فى المجمع [٨/ ١٩٨] وفيه نافع بن هرمز وهو متروك. وقال [٣/ ١٤٠]: وهو ضعيف. وكذا قال: [٢/ ١٦٥].

(٣) رواه ابن الشيخ [١٠٥٩] فى العظمة.

بن دينارٍ عن جابر بن عبد الله مرفوعًا: أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمدٍ. وو رواه ابن عدى أيضًا من حديث على بن أبى طالب وهو ضعيفٌ من كل وجهٍ والله أعلم[1].

وفى حديث الإسراء الذى فى «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ «لما مر بآدم وهو فى السماء الدنيا قال له: مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح. قال: وإذا عن يمينه أسودةٌ وعن يساره أسودةٌ فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه فإذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى»[2]. هذا معنى الحديث.

وقال أبو بكرٍ البزار: حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده.

وقال بعض العلماء فى قوله ﷺ: فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن. قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام. وهذا مناسبٌ فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء. وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضًا موقوفًا ومرفوعًا إن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه فإنك خلقت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون. فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له: كن، فكان. وقد ورد الحديث المروى فى «الصحيحين» وغيرهما من طرقٍ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم على صورته»[3] وفى غير «الصحيحين»: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن عز وجل»[4] وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرةً ليس هذا موضع بسطها. والله أعلم.

☆☆☆

---

(1) رواه ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء [٤/٤٨].

(2) رواه البخارى [٣٣٤٢]، ومسلم [١٦٣/٢٦٣].

(3) رواه البخارى [٣٣٢٦، ٦٢٢٧]، ومسلم [٢٦١٢/١١٥].

(4) رواه المناوى فى فيض القدير [٣٩٢٨]، والمتقى الهندى فى كنز العمال [١١٤٨] والسيوطى فى الجامع الصغير [٣٢٣٣] وقال الألبانى: صحيح.

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليهما السلام

ومعنى شيثٍ هبة اللّه. وسمياه بذلك؛ لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل. قال أبو ذرٌ فى حديثه عن رسول اللّه ﷺ: إن اللّه أنزل مائة صحيفةٍ وأربع صحفٍ على شيث خمسين صحيفةً (١).

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيثٍ وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال: ويقال: إن انتساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى إلى شيث وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا واللّه أعلم.

ولما توفى آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوطٍ وكفنٍ من عند اللّه عز وجل من الجنة وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثٍ عليه السلام.

قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن.

وقد قال عبد اللّه بن الإمام أحمد: حدثنا هدبة بن خالدٍ حدثنا حماد بن سلمة عن حميدٍ عن الحسن عن عتىٍّ هو ابن ضمرة السعدى قال: رأيت شيخًا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبى بن كعبٍ فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أى بنى إنى أشتهى من ثمار الجنة. قال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحى والمكاتل، فقالوا لهم: يا بنى آدم ما تريدون وما تطلبون - أو ما تريدون وأين تطلبون - قالوا: أبونا مريضٌ واشتهى من ثمار الجنة. فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى قضاء أبيكم. فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال: إليك عنى فإنى إنما أتيت من قبلك فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل. فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ودخلوا وصلوا عليه ثم دخلوا قبره فوضعوه فى قبره ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بنى آدم هذه سنتكم(٢). إسناد صحيحٌ إليه.

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخٍ عن محمد بن زيادٍ عن ميمونٍ بن

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٣٦١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف جدا.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٥/ ١٣٦] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

مهران عن ابن عباسٍ أن رسول اللّه ﷺ قال: كبرت الملائكة على آدم أربعًا. وكبر أبو بكرٍ على فاطمةَ أربعًا، وكبر عمر على أبى بكر أربعًا، وكبر صهيب على عمر أربعًا، قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون فقال: عن ابن عمر.

واختلفوا فى موضع دفنه، فالمشهور: أنه دفن عند الجبل الذى أهبط عليه فى الهند. وقيل: بجبل أبى قبيس بمكة. ويقال: إن نوحًا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فى تابوتٍ فدفنهما ببيت المقدس. حكى ذلك ابن جريرٍ.

وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس وقد ماتت حواء بعده بسنةٍ واحدةٍ.

واختلف فى مقدار عمره عليه السلام فقدمنا فى الحديث عن ابن عباسٍ وأبى هريرة مرفوعًا أن عمره اكتتب فى اللوح المحفوظ ألف سنةٍ. وهذا لا يعارضه ما فى التوارة من أنه عاش تسعمائةٍ وثلاثين سنةً لأن قولهم هذا مطعونٌ فيه مردودٌ إذا خالف الحق الذى بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم. وأيضًا فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما فى الحديث، فإن ما فى التوراة - إن كان محفوظًا - محمولٌ على مدة مقامه فى الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائةٍ وثلاثون سنةً شمسيةً وهى بالقمرية تسعمائةٍ وسبعٌ وخمسون سنةً ويضاف إلى ذلك ثلاثٌ وأربعون سنةً مدة مقامه فى الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جريرٍ وغيره فيكون الجميع ألف سنةٍ.

وقال عطاء الخراسانى: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام. رواه ابن عساكر. فلما مات آدم عليه السلام، قام بأعباء الأمر بعده ولده شيثٌ عليهِ السلام وكان نبيًا بنص الحديث الذى رواه ابن حبان فى «صحيحه» عن أبى ذرٍّ مرفوعًا أنه أُنزل عليه خمسون صحيفةً. فلما حانت وفاته، أوصى إلى ابنه أنوش، فقام بالأمر بعده، ثم بعده ولده قينن، ثم من بعده ابنه مهلائيل وهو الذى تزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار وأنه هو الذى بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقًا من مردة الجن والغيلان وكان له تاجٌ عظيمٌ وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة. فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ وهو إدريس عليه السلام على المشهور واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

☆☆☆

ذكر إدريس
عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم]. فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ هذا وهو فى عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحدٍ من علماء النسب. وكان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيثٍ عليهما السلام. وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم. وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة وثمانى سنين. وقد قال طائفةٌ من الناس: إنه المشار إليه فى حديث معاوية بن الحكم السلمى لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل، فقال: «إنه كان نبى يخط به فمن وافق خطه فذاك»[١] ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم فى ذلك ويسمونه «هرمس الهرامسة» ويكذبون عليه أشياء كثيرةً كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]. هو كما ثبت فى «الصحيحين» فى حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر به وهو فى السماء الرابعة[٢].

وقد روى ابن جريرٍ عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهبٍ عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبًا، وأنا حاضرٌ فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]؟ قال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه: أنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم - لعله من أهل زمانه - فأحب أن يزداد عملًا فأتاه خليلٌ له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلى كذا وكذا فكلم ملك الموت ليؤخرنى حتى ازداد عملًا. فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرًا، فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهرى. فقال ملك الموت: فالعجب بعثت وقيل لى: اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة. فجعلت أقول: كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة

(١) رواه مسلم [٥٣٧/٣٣]، وأبو داود [٩٣٠].
(٢) رواه البخارى [٣٣٤٢]، ومسلم [١٦٣/٢٦٣] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنهما.

وهو فى الأرض؟ فقبض روحه هناك. فذلك قول اللَّه عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧].

ورواه ابن أبى حاتم عند تفسيرها. وعنده: فقال لذلك الملك: سل لى ملك الموت كم بقى من عمرى؟ فسأله وهو معه: كم بقى من عمره؟ فقال: لا أدرى حتى أنظر فنظر فقال: إنك لتسألنى عن رجلٍ ما بقى من عمره إلا طرفة عينٍ. فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر.

وهذا من الإسرائيليات وفى بعضه نكارةٌ.

وقول ابن أبى نجيح عن مجاهدٍ فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧]. قال: إدريس رفع ولم يمتْ كما رفع عيسى. إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففى هذا نظرٌ، وإن أراد أنه رفع حيًا إلى السماء ثم قبض هناك فلا ينافى ما تقدم عن كعب الأحبار واللَّه أعلم.

وقال العوفى عن ابن عباسٍ فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧]. قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك. والحديث المتفق عليه من أنه فى السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهدٍ وغير واحدٍ.

وقال الحسن البصرى: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧] قال: إلى الجنة. وقال قائلون: رفع فى حياة أبيه يرد بن مهلائيل، واللَّه أعلم.

وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوحٍ بل فى زمان بنى إسرائيل.

قال البخارى: ويذكر عن ابن مسعودٍ وابن عباسٍ أن إلياس هو إدريس. واستأنسوا فى ذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنسٍ فى الإسراء أنه لما مر به عليه السلام قال له: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحبًا بالنبى الصالح والابن الصالح[1].

قالوا: فلو كان فى عمود نسبه لقال له كما قال له. وهذا لا يدل ولا بد على ذلك؛ لأنه قد لا يكون الراوى حفظه جيدًا أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع، ولم ينتصب له فى مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبى البشر وإبراهيم الذى هو خليل الرحمن، وهو أكبر أولى العزم بعد محمدٍ صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

☆☆☆

(١) سبق تخريجه.

قصة نوح
عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلائيل بن قينن ابن أنوش بن شيثٍ بن آدم أبى البشر عليه السلام. كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنةٍ وست وعشرين سنةً، فيما ذكره ابن جريرٍ وغيره. وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوحٍ وموت آدم مائةٌ وستٌ وأربعون سنةً وكان بينهما عشرة قرونٍ، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فى صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه أنبيٌ كان آدم؟ قال: نعم مكلمٌ. قال: فكم كان بينه وبين نوحٍ؟ قال: عشرة قرونٍ[1]. قلت: وهذا على شرط مسلمٍ، ولم يخرجه.

وفى «صحيح البخارى» عن ابن عباسٍ قال: كان بين آدم ونوحٍ عشرة قرونٍ كلهم على الإسلام[2]. فإن كان المراد بالقرن مائة سنةٍ كما هو المتبادر عند كثيرٍ من الناس فبينهما ألف سنةٍ لا محالة لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباسٍ بالإسلام؛ اذ قد يكون بينهما قرونٍ أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبى أمامة يدل على الحصر فى عشرة قرونٍ وزادنا ابن عباسٍ أنهم كلهم كانوا على الإسلام وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار واللَّه أعلم.

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس، كما فى قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]. وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦١٩٠] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه ثقة روى له أصحاب السنن، ومن فوقه ثقات من رجال الشيخين غير زيد ابن سلام، فمن رجال مسلم.

(٢) رواه البخارى [٢٦٥٢]، ومسلم [٢٥٣٣/ ٢١٢] وأوله: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم...» الحديث.

قَرْنٍ ﴾ [مريم: ٧٤]. وكقوله عليه السلام: «خير القرون قرني»[(١)] الحديث. فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدُّهُر الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوفٌ من السنين، والله أعلم.

وبالجملة فنوحٌ عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عُبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمةً للعباد فكان أول رسولٍ بُعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة. وكان قومه يقال لهم: بنو راسب. فيما ذكره ابن جريرٍ وغيره. واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث؛ فقيل: كان ابن خمسين سنة؛ وقيل: ابن ثلاثمائةٍ وخمسين سنةً، وقيل: ابن أربعمائةٍ وثمانين سنةً. حكاها ابن جريرٍ وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضعٍ من كتابه العزيز؛ ففي الأعراف ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، واقتربت، وأنزل فيه سورةً كاملة فقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا

(١) رواه البخاري [٣٦٥٠]، ومسلم [٢٥٣٥/ ٢١٤].

كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود]

وقال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ

ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الصافات].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح].

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه فى التفسير وسنذكر مضمون القصة

مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الأحاديث والآثار. وقد جرى ذكره أيضًا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه فقال تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام]. وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة التوبة: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠]. وتقدمت قصته في يونس وهود.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]. وقال فيها أيضا: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧]. وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص]

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر]

وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ ﴾ [ق].

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم: ٥٢]. وتقدمت قصته فى سورة القمر.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذًا من الكتاب والسنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرونٍ كلهم على الإسلام. رواه البخارى، وذكرنا أن المراد بالقرن الجيلُ أو المدة على ما سلف، ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمورٌ اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاءٍ عن ابن عباسٍ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]. قال هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم، عبدت. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوحٍ فى العرب بعد. وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق[1].

وقال ابن جرير فى «تفسيره»: حدثنا ابن حميدٍ حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيسٍ قال: كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء

---

(١) رواه البخارى [٤٩٢٠].

آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر. فعبدوهم.

وروى ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال: ود، ويغوث، ويعوق، وسواعٌ، ونسرٌ، أولاد آدم، وكان ودٌّ أكبرهم وأبرهم به.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصورٍ حدثنا الحسن بن موسى حدثنا يعقوب عن أبى المطهر قال: ذكروا عند أبى جعفرٍ - هو الباقر وهو قائمٌ يصلى - يزيد بن المهلب قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل فى أول أرض عبد فيها غير الله.

قال: ذكر ودًا رجلًا صالحًا وكان محببًا فى قومه فلما مات عسكروا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة إنسانٍ ثم قال: إنى أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله.

قال: ووضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن اجعل فى منزل كل واحدٍ منكم تمثالًا مثله؛ ليكون له فى بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيتٍ تمثالًا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به.

قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به. قال: وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم فكان أول ما عبد غير الله الصنم الذى سموه «ودًا».

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفةٌ من الناس وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلكَ الصور تماثيل مجسدةً؛ ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل ولهم فى عبادتها مسالك كثيرة قد ذكرناها فى كتابنا «التفسير» فى مواضعها، ولله الحمد والمنة.

وقد ثبت فى «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة يقال لها: «مارية» فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، قال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل[1].

والمقصود أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعم البلاد بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت فى

(١) رواه البخارى [٤٢٧]، ومسلم [٥٢٨/١٦].

الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي قد غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدًا شكورًا ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول: ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي» [(١)]. وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح. فلما بعث الله نوحًا عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالاً ولا طاغوتًا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧]. وقال فيه وفي إبراهيم: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد: ٢٦]. أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٦]

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[الأعراف: ٦٥].

وقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ

(١) رواه البخاري [٣٣٤٠]، ومسلم [١٩٤/ ٣٢٧].

إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نـــــوح].

الآيات الكريمات فذكر أنه دعاهم إلى اللَّه بأنواع الدعوة فى الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارةً والترهيب أخرى وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة فى كل وقتٍ وأوانٍ وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم، وبالغوا فى أمرهم ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، أى: السادة الكبراء منهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعـــراف: ٦٠]. ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦١]. أى: لست كما تزعمون من أنى ضالٌ بل على الهدى المستقيم رسولٌ من رب العالمين، أى: الذى يقول للشىء: كن فيكون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا، أى: فصيحًا ناصحًا، أعلم الناس بالله عز وجل وقالوا له فيما قالوا: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] تعجبوا أن يكون بشرًا رسولًا وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم، وقد قيل: إنهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم. كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل[1]. وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ أى: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظرٍ ولا رويةٍ. وهذا الذى ذموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى اللَّه عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى رويةٍ ولا فكرٍ ولا نظرٍ بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر؛ ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ مادحًا للصديق: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوةٌ غير أبى بكرٍ فإنه لم يتلعثم»[2]. ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضًا سريعةً من غير نظرٍ ولا رويةٍ لأن أفضليته على من عداه ظاهرةٌ جليةٌ عند الصحابة رضى اللَّه عنهم؛ ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه، وقال: «يأبى اللَّه والمؤمنون إلا أبا بكرٍ»[3] رضى اللَّه عنه. وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾ [هود: ٢٧]، أى: لم يظهر لكم أمرٌ بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزيةٌ علينا، ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ

(١) رواه البخارى [٧]، ومسلم [١٧٧٣/ ٧٤].
(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال [٣٢٦١٢] وعزاه للديلمى عن ابن مسعود.
(٣) رواه مسلم [٢٣٨٧/ ١١].

﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود]. وهذا تلطفٌ في الخطاب معهم، وترفقٌ بهم فى الدعوة إلى الحق كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. وهذا منه يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]. أي: النبوة والرسالة، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أى: فلم تفهموها، ولم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أى: انغصبكم بها ونجبركم عليها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أى: ليس لى فيكم حيلةٌ والحالة هذه ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [هود: ٢٩]، أي: لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من اللَّه الذى ثوابه خيرٌ لى وأبقى مما تعطوننى أنتم.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]. كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ فأخاف إن طردتهم أن يشكونى إلى اللَّه عز وجل. ولهذا قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠] ولهذا لما سأل كفار قريش رسول اللَّه ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين؛ كعمارٍ وصهيبٍ وبلالٍ وخبابٍ وأشباههم نهاه اللَّه عن ذلك كما بيناه فى سورتى الأنعام والكهف. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]، أى: بل أنا عبدٌ رسولٌ لا أعلم من علم اللَّه إلا ما أعلمنى به ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ولا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء اللَّه ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١]، يعنى: من اتباعه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١]. أى: لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند اللَّه يوم القيامة اللَّه أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشرٌ كما قالوا فى الموضع الآخر: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. أى: ومع هذه المدة الطويلة، فما آمن به إلا القليل منهم وكان كل ما انقرض جيلٌ وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقى، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

ولهذا: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [هود]، أى: إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذى لا يعجزه شيءٌ ولا يكترثه أمرٌ بل هو الذى يقول للشيء: كن فيكون. ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤]، أى: من يرد الله فتنته فلن يملك أحدٌ هدايته، هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]. وهذه تعزيةٌ لنوح، عليه السلام، فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، وتسليةٌ له عما كان منهم إليه ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦]، أى: لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]؛ وذلك أن نوحًا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب لله فلبى الله دعوته وأجاب طلبته.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الصافات].

وقال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء]. وقال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠]

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح]. فاجتمع عليهم خطاياهم؛ من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظيرٌ قبلها، ولا يكون بعدها مثلها وتقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقةٌ على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة (١).

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢١٥] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

ولهذا قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦]. ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨]. أى: يستهزئون به استبعادًا لوقوع ما توعدهم به ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨]. أى: نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٩]. وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا وهكذا فى الآخرة؛ فإنهم يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم من اللّه رسول، كما قال البخارى: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيدٍ قال: قال رسول اللّه ﷺ: يجىء نوحٌ عليه السلام وأمته فيقول اللّه عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أى رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبىٍّ! فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته. فتشهد أنه قد بلغ»[١] وهو قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل. فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن اللّه قد بعث نوحًا بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئًا مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئًا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه؛ وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه فى زمانهم؛ حذرًا عليهم وشفقةً ورحمةً بهم. كما قال البخارى: حدثنا عبدان حدثنا عبد اللّه عن يونس عن الزهرى قال سالمٌ: قال ابن عمر: «قام رسول اللّه ﷺ فى الناس فأثنى على اللّه بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: إنى لأنذركموه وما من نبىٍّ إلا وقد أنذر قومه؛ لقد أنذر نوحٌ قومه، ولكنى أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبىٌّ لقومه: تعلمون أنه أعور وأن اللّه ليس بأعور»[٢].

وهذا الحديث فى الصحيحين أيضًا من حديث شيبان بن عبدالرحمن عن يحيى بن أبى كثيرٍ عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثًا ما حدث به نبى قومه: إنه أعورٌ؛ وإنه يجىء معه بمثال الجنة والنار، فالتى يقول: إنها الجنة هى النار، وإنى أنذركم كما أنذر به نوحٌ قومه»[٣]. لفظ البخارى.

---

(١) رواه البخارى [٣٣٣٩].

(٢) رواه البخارى [٣٣٣٧]، ومسلم [١٦٩].

(٣) رواه البخارى [٣٣٣٨]، ومسلم [٢٩٣٦/١٠٩].

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب اللَّه له أمره أن يغرس شجرًا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنةٍ ثم نجره فى مائةٍ أخرى، وقيل: فى أربعين سنةً فالله أعلم. قال محمد بن إسحاق عن الثورى: وكان من خشب الساج. وقيل: من الصنوبر. وهو نص التوراة.

قال الثورى: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعًا، وعرضها خمسين ذراعًا وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤًا أزور يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراعٍ فى عرض خمسين ذراعًا. وهذا الذى فى التوراة على ما رأيته.

وقال الحسن البصرى: ستمائة فى عرض ثلثمائة. وعن ابن عباسٍ ألف ومائتا ذراعٍ فى عرض ستمائة ذراعٍ. وقيل: كان طولها ألفى ذراعٍ وعرضها مائة ذراعٍ.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعًا وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشر أذرع فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها فى عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

قال اللَّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون]. أى: بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك؛ لنرشدك إلى الصواب فى صنعتها، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]. فتقدم إليه بأمره العظيم العالى؛ أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل فى هذه السفينة من كل زوجين اثنين؛ من الحيوانات وسائر ما فيه روحٌ من المأكولات وغيرها؛ لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله، أى: أهل بيته. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أى: إلا من كان كافرًا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد وأمره أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم، الذى قد حتمه عليهم الفعال لما يريد، كما قدمنا بيانه قبل. والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض. أى: نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير؛ التى هى محال النار.

وعن ابن عباسٍ: التنور عينٌ فى الهند. وعن الشعبى: بالكوفة. وعن قتادة بالجزيرة. وقال علىُّ بن أبى طالبٍ: المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر، أى: إشراقه وضياؤه. أى عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين. وهذا قولٌ غريبٌ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

هذا أمرٌ بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وفى كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين؛ ذكرًا وأنثى. وهذا مغايرٌ لمفهوم قوله تعالى فى كتابنا الحق: ﴿ ٱثْنَيْنِ ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولًا به، وأما إن جعلناه توكيدًا لزوجين والمفعول به محذوفٌ فلا ينافى. والله أعلم.

وذكر بعضهم؛ ويروى عن ابن عباسٍ أن أول ما دخل من الطيور: الدرة، وآخر ما دخل من الحيوانات: الحمارُ، ودخل إبليس متعلقًا بذنب الحمار.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوحٌ فى السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف نطمئن - أو كيف تطمئن المواشى - ومعنا الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى. فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها. هذا مرسلٌ.

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠]، أى: من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر. فكان منهم ابنه يامٌ الذى غرق، كما سيأتى بيانه ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾؛ أى: واحمل فيها من آمن بك من أمتك.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلًا ونهارًا بضروب المقال وفنون التلطفات، والتهديد والوعيد تارةً، والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف فى عدة من كان معه فى السفينة؛ فعن ابن عباسٍ: كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسا وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوحًا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذى انخزل وانعزل وسلك غير طريق النجاة فما عدل إذ عدل. وهذا القول فيه مخالفةٌ لظاهر الآية، بل هى نصٌ فى أنه قد ركب معه غير أهله طائفةٌ ممن آمن به؛ كما قال: ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨]. وقيل: كانوا سبعةً وأما امرأة نوح - وهى أم أولاده كلهم؛ وهم حامٌ وسامٌ ويافثٌ ويامٌ وتسميه أهل الكتاب كعنان وهو الذى غرق وعابر وقد مات قبل الطوفان - قيل: إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها. وعند أهل الكتاب، أنها كانت فى السفينة. فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك، أو أنها أنظرت ليوم القيامة، والظاهر الأول؛ لقوله: ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ۝٢٩ ﴾ [المؤمنون]. أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ۝١٤ ﴾ [الزخرف]. وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور، أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودةً، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسرا: ٨٠].

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١]. أى: على اسم اللَّه ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١] أى: وذو عقاب أليم مع كونه غفورًا رحيمًا لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره. قال اللَّه تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود: ٤٢]. وذلك أن اللَّه تعالى أرسل من السماء مطرًا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده، كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها، كما قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ۝١٣ ﴾ [القمر]. والدسر: المسامير ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]. أى: بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها، ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١٤]. وقد ذكر ابن جرير وغيره، أن الطوفان كان في ثالث عشر شهر آب في حساب القبط، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]. أى كلاءتنا السفينة ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢].

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبلٍ بالأرض خمسة عشر ذراعًا. وهو الذى عند أهل الكتاب. وقيل: ثمانين ذراعا. وعم جميع الأرض؛ طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ.

قال الإمام مالكٌ عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيدٍ بن أسلم: لم تكن بقعةٌ فى الأرض إلا ولها مالكٌ وحائزٌ رواهما ابن أبى حاتم. ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ۝٤٣ ﴾ [هود].

وهذا الابن هو يامٌ أخو سام وحام ويافث، وقيل: اسمه كنعان. وكان كافرًا عاملًا غير صالح مخالفًا أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب؛ لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب. ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

أى: لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحدٌ ممن عبد غير اللَّه عز وجل، أمر اللَّه تعالى الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع، أى: تمسك عن المطر. ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]، أى: نقص عما كان. ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [هود: ٤٤] أى: وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره، من إحلاله بهم ما حل بهم.

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]. أى: نودى عليهم بلسان القدرة: بعدًا لهم من الرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾ [الشعراء]. وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦].

وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (١٥) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (١٧)﴾ [القمر].

وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا (٢٥) وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا (٢٧)﴾ [نوح]. وقد استجاب اللَّه تعالى - وله الحمد والمنة - دعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان: أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم فى «تفسيريهما» من طريق موسى بن يعقوب الزمعى عن فائد مولى عبيد اللَّه بن أبى رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول اللَّه ﷺ قال: «فلو رحم اللَّه من قوم نوحٍ أحدًا لرحم أم

الصبى»[1]، قال رسول اللَّه ﷺ: مكث نوحٌ عليه السلام فى قومه ألف سنةٍ - يعنى: إلا خمسين عامًا - وغرس مائة سنةٍ الشجر فعظمت وذهبت كل مذهبٍ ثم قطعها ثم جعلها سفينةً ويمرون عليه ويسخرون منه، ويقولون: تعمل سفينة فى البر! كيف تجرى؟ قال: سوف تعلمون. فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك، خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حبًا شديدًا خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها، فغرقا فلو رحم اللَّه منهم أحدًا لرحم أم الصبى» وهذا حديثٌ غريبٌ. وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهدٍ وغير واحدٍ شبيهٌ لهذه القصة، وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفًا متلقى عن مثل كعب الأحبار. واللَّه أعلم.

والمقصود أن اللَّه لم يبق من الكافرين ديارًا فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق، ويقال: ابن عناق كان موجودًا من قبل نوح إلى زمان موسى؟ ويقولون: كان كافرًا متمردًا جبارًا عنيدًا. ويقولون: كان لغير رشدةٍ بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنى وإنه كان يأخذ - من طوله - السمك من قرار البحار، ويشويه فى عين الشمس، وأنه كان يقول لنوح وهو فى السفينة: ما هذه القصيعة التى لك؟ ويستهزئ به. ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف، وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلثا إلى غير ذلك من الهذيانات التى لولا أنها مسطرةٌ فى كثيرٍ من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها؛ لسقاطتها وركاكتها ثم إنها مخالفةٌ للمعقول والمنقول. أما المعقول: فكيف يسوغ فيه أن يهلك اللَّه ولد نوح لكفره، وأبوه نبى الأمة وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق، ويقال: عناق، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا؟ وكيف لا يرحم اللَّه منهم أحدًا ولا أم الصبى ولا الصبى ويترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا؟ وأما المنقول؛ فقد قال اللَّه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٦، الصافات: ٨٢].

وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالفٌ لما ثبت فى «الصحيحين» عن النبى ﷺ أنه قال: إن اللَّه خلق آدم وطوله ستون ذراعًا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[2]، فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤]. أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن أى: لم يزل الناس فى نقصانٍ فى طولهم من آدم إلى

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٣٧٢].
(٢) رواه البخارى [٣٣٢٦]، مسلم [٢٨٤١/ ٢٨].

يوم إخباره بذلك وهلم جرًا إلى يوم القيامة. وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه. فكيف يترك هذا يذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة الكذبة، عليهم لعائن اللّه المتتابعة الى يوم القيامة؟ وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقًا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء واللّه أعلم.

ثم ذكر اللّه تعالى مناشدة نوح ربه في ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف. ووجه السؤال: أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق. فأجيب بـ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أى: الذين وعدت بنجاتهم، أى: أما قلنا لك: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ؟. فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره؛ ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان، ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هود: ٤٨]. هذا أمرٌ لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى؛ وهو جبلٌ بأرض الجزيرة مشهورٌ وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ [هود: ٤٨]. أى: اهبط سالمًا مباركًا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد، أى: من أولادك. فإن اللّه لم يجعل لأحدٍ ممن كان معه من المؤمنين نسلًا ولا عقبًا سوى نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينتسبون إلى أولاد نوح الثلاثة؛ وهم: سامٌ، وحامٌ، ويافث.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن سعيدٍ عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال: «سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو الحبش، ويافث أبو الروم» [1].

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى عن يزيد بن زريعٍ عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعًا نحوه.

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وقد روى عن عمران بن حصينٍ عن النبى ﷺ مثله. قال: والمراد بالروم هنا الروم الأول؛ وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى ابن يونان بن يافث بن نوحٍ عليه السلام. ثم روى من حديث

(١) رواه أحمد فى المسند [٥/٩] قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، والترمذى [٣٢٣١] وضعفه الألبانى.

إسماعيل بن عياشٍ عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: ولد نوح ثلاثةً: سامٌ، ويافث، وحامٌ، وولد كل واحد من هذه ثلاثةً؛ فولد سامٌ: العربَ، وفارس، والروم. وولد يافث: الترك، والصقالبة، ويأجوج ومأجوج. وولد حامٌ: القبط، والسودان، والبربر.

قلت: وقد قال الحافظ أبو بكرٍ البزار فى «مسنده»: حدثنا إبراهيم بن هانئ وأحمد ابن حسين بن عباد أبو العباس قالا: حدثنا محمد بن يزيد بن سنانٍ الرهاوى حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد عن سعيدٍ بن المسيب عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: ولد لنوحٍ: سامٌ، وحامٌ، ويافث. فولد لسام: العرب وفارس والروم والخير فيهم. وولد ليافثَ: يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد لحام: القبط والبربر والسودان»[1]؛ ثم قال: لا نعلمه يروى مرفوعًا إلا من هذا الوجه تفرد به محمد بن يزيد بن سنانٍ عن أبيه وقد حدث عنه جماعةٌ من أهل العلم واحتملوا حديثه ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلًا ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيدٍ.

قلت: وهذا الذى ذكره أبو عمرو هو المحفوظ عن سعيدٍ قوله، وهكذا روى عن وهب بن منبهٍ مثله، واللّه أعلم.

ويزيد بن سنانٍ أبو فروة الرهاوى ضعيفٌ بمرة لا يعتمد عليه.

وقد قيل إن نوحًا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذى غرق، وعابر مات قبل الطوفان. والصحيح أن أولاده الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة. وقد ذكر أن حامًا واقع امرأته فى السفينة، فدعا عليه نوحٌ أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولدٌ أسود وهو كنعان بن حامٍ جد السودان.

وقيل: بل رأى أباه نائمًا، وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه؛ فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته، وأن يكون أولاده عبيدًا لإخوته.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جريرٍ من طريق على بن زيدٍ بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباسٍ أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلًا شهد السفينة فحدثنا عنها؟ قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيبٍ من ترابٍ فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوحٍ. قال: وضرب الكثيب بعصاه، وقال: قم بإذن اللّه. فإذا هو قائمٌ ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى عليه السلام: هكذا هلكت؟ قال:

(١) رواه ابن عدى فى الكامل [٧/ ٢٧١]، والبزار فى المسند [٢١٨].

لا، ولكنى مت وأنا شابٌ ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع؛ وكانت ثلاث طبقاتٍ فطَبقةٌ فيها الدواب والوحش، وطبقةٌ فيها الإنس، وطبقةٌ فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوحٍ عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ فأقبلا على الروث، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عينى الأسد فخرج من منخره سنورٌ وسنورةٌ فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى: كيف علم نوحٌ عليه السلام أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفةً فوقع عليها فدعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت. قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتونٍ بمنقارها وطينٍ برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التى فى عنقها، ودعا لها أن تكون فى أنسٍ وأمانٍ فمن ثم تألف البيوت. قال: فقالوا: يا رسول الله، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله. فعاد ترابًا. وهذا أثرٌ غريبٌ جدًا.

وروى غلباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلًا معهم أهلوهم، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يومًا، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يومًا، ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه، فبعث نوحٌ عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوحٌ أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قريةً وسماها ثمانين، فأصحبوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغةً: إحداها لغة العربى، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، فكان نوحٌ عليه السلام يعبر عنه. وقال قتادة وغيره: ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجبٍ فساروا مائةً وخمسين يومًا واستقرت بهم على الجودى شهرًا وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم.

وقد روى ابن جرير خبرًا مرفوعًا يوافق هذا، وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفرٍ حدثنا عبد الصمد بن حبيبٍ الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبيلٍ عن أبى هريرة قال: مر النبى ﷺ بأناسٍ من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟. فقالوا: هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يومٌ استوت فيه السفينة على الجودى، فصام نوحٌ وموسى عليهما السلام شكرًا للّه عز وجل، فقال النبى ﷺ: أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم. وقال لأصحابه: من كان منكم أصبح صائمًا فليتم

صومه، ومن كان أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه[١]. وهذا الحديث له شاهدٌ فى «الصحيح» من وجهٍ آخر، والمستغرب ذكر نوح أيضًا. والله أعلم[٢].

وأما ما يذكره كثيرٌ من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوبٍ كانت معهم قد استصحبوها، وطحنوا الحبوب يومئذٍ، واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما ابْهَارَّت من الضياء بعد ما كانوا فى ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شىءٌ، وإنما يذكر فيه آثارٌ منقطعةٌ عن بنى إسرائيل لا يُعتمد عليها ولا يُقتدى بها. والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويُدبر وكان استواء الفلك على الجودى - فيما يزعم أهل التوراة - فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلةً مضت منه، وفى أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يومًا فتح نوحٌ كُوة الفلك التى صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء، فلم يرجع إليه، فأرسل الحَمامة، فرجعت إليه فلم يجد لرجلها موضعًا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونةٍ فعلم نوحٌ أن الماءَ قد قل عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام، ثم أرسلها فلم ترجع إليه، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوحٌ الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوحٌ غطاء الفلك. وهذا الذى ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بأيدى أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق: وفى الشهر الثانى من سنة اثنتين فى ست وعشرين ليلةً منه. ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]. وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحًا قائلا له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التى معك، ولتنموا ولتكثروا فى الأرض. فخرجوا وابتنى نوحٌ مذبحًا لله عز وجل. وأخذ من جميع الدواب الحلال، والطير الحلال فذبحها قربانًا إلى الله عز وجل، وعهد الله إليه أن لا يُعيد الطوفان على أهل الأرض، وجعل تذكار الميثاق إليه القوس الذى فى الغمام، وهو قوس قزح الذى قدمنا عن ابن عباسٍ أنه أمانٌ من الغرق.

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٥٩] وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الصمد بن حبيب وجهالة أبيه.
(٢) رواه البخارى [٢٠٠٤].

قال بعضهم: فيه إشارةٌ إلى أنه قوسٌ بلا وترٍ. أى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفانٌ كأول مرةٍ. واللّه أعلم.

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان، واعترف به آخرون منهم، وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا. قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كابرًا عن كابرٍ من لدن كيومرث - يعنون: آدم - إلى زماننا هذا.

وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عُباد النيران وأتباع الشيطان. وهذه سفسطةٌ منهم وكفرٌ فظيعٌ وجهلٌ بليغٌ، ومكابرةٌ للمحسوسات، وتكذيبٌ لرب الأرض والسماوات، وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس فى سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحدًا من كفرة العباد، استجابةً لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذًا لما سبق فى القدر المحتوم[1].

☆☆☆

(١) وهى قول اللّه تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾.

ذكر شيءٍ من أخبار نوحٍ نفسه عليه السلام

ذكر شكره عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]. قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة حدثنا زكريا بن أبى زائدة عن سعيدِ ابن أبى بردة عن أنسِ بن مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها(١).

وكذا رواه مسلمٌ والترمذى والنسائى من حديث أبى أسامة.

والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية، والقولية، والعملية؛ فإن الشكر يكون بهذا وبهذا؛ كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه: باب صيام نوحٍ عليه السلام: حدثنا سهلٍ بن أبى سهل، حدثنا سعيد بن أبى مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبى فراسٍ، أنه سمع عبد الله ابن عمرٍو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: صام نوحُ الدهر إلا يوم الفطر، ويوم الأضحى(٢). هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه.

وقد قال الطبرانى: حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا عمرو بن خالدٍ الحرانى، حدثنا ابن لهيعة عن أبى قنانٍ عن يزيد بن رباح أبى فراسٍ أنه سمع عبد الله بن عمرٍو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: صام نوحٌ الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيامٍ من كل شهرٍ، صام الدهر وأفطر الدهر»(٣).

---

(١) رواه مسلم [٢٧٣٤/ ٨٩]، والترمذى [١٨١٦]، وأحمد فى المسند [٣/ ١١٧]، والنسائى فى الكبرى [٦٨٩٩].

(٢) رواه ابن ماجه [١٧١٤] وضعفه الألبانى.

(٣) عزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد [٣/ ١٩٥] إلى الطبرانى، كما فى نسخة البداية والنهاية طبعة هجر؛ ولم أجده.

ذكر حجة نوحٍ عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبى عن زمعة هو ابن أبى صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: حج رسول اللّه ﷺ فلما أتى وادى عسفان، قال: يا أبا بكرٍ أى وادٍ هذا؟ قال: هذا وادى عسفان. قال: لقد مر بهذا الوادى نوحٌ وهودٌ وإبراهيم على بكراتٍ لهم حمرٍ خطمهم الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يحجون البيت العتيق(١). فيه غرابةٌ.

ذكر وصيته لولده عليه الصلاة والسلام

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حربٍ، حدثنا حماد بن زيدٍ عن الصقعب بن زهيرٍ عن زيد بن أسلم قال حمادٌ: أظنه عن عطاء بن يسارٍ عن عبد اللّه بن عمرٍو، قال: كنا عند رسول اللّه ﷺ فجاء رجلٌ من أهل البادية عليه جبة سيجانٍ مزرورةٌ بالديباج، فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارسٍ أو قال: يريد أن يضع كل فارسٍ ابن فارسٍ ورفع كل راعٍ ابن راعٍ. قال: فأخذ رسول اللّه ﷺ بمجامع جبته وقال: لا أرى عليك لباس من لا يعقلُ. ثم قال: إن نبى اللّه نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاصٌ عليك الوصية: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين؛ آمرك بلا إله إلا اللّه؛ فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفةٍ ووضعت لا إله إلا اللّه فى كفة رجحت بهن لا إله إلا اللّه، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقةً مبهمةً قصمتهن لا إله إلا اللّه، وسبحان اللّه وبحمده فإنها صلاة كل شيءٍ وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر.

قال: قلت - أو قيل-: يا رسول اللّه هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا حلةٌ يلبسها؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا دابةٌ يركبها؟ قال: لا. قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه؟ قال: لا. قلت أو قيل: يا رسول اللّه فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس(٢). وهذا إسنادٌ صحيحٌ ولم يخرجوه. ورواه أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد اللّه ابن عمرٍو أن رسول الله ﷺ قال: كان فى وصية نوحٍ لابنه: أوصيك بخصلتين، وأنهاك عن خصلتين. فذكر نحوه(٣).

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٣٢] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف زمعة.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ١٦٩، ١٧٠] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال [٧٧٦٦].

وقد رواه أبو بكرٍ البزار عن إبراهيم بن سعيدٍ عن أبى معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق عن عمرٍو بن دينارٍ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ بنحوه. والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبرانى، والله أعلم[1].

ويزعم أهل الكتاب أن نوحًا عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنةٍ وقدمنا عن ابن عباسٍ مثله، وزاد: وعاش بعد ذلك ثلثمائةٍ وخمسين سنةً. وفى هذا القول نظرٌ. ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأٌ محضٌ؛ فإن القرآن يقتضى أن نوحًا مكث فى قومه بعد البعثة، وقبل الطوفان ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك، فإن كان ما ذكر عن ابن عباسٍ محفوظًا من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنةً وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائةٍ وخمسين سنةً فيكون قد عاش على هذا ألف سنةٍ وسبعمائةٍ وثمانين سنة.

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقى عن عبد الرحمن بن سابطٍ أو غيره من التابعين مرسلًا أن قبر نوحٍ عليه السلام بالمسجد الحرام. وهذا أقوى وأثبت من الذكر الذى يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدةٍ بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوحٍ وهناك جامعٌ قد بنى بسبب ذلك وأوقفت عليه أوقافٌ فيما ذكره والله أعلم بالصواب.

☆☆☆

---

(١) رواه البزار كما فى كشف الأستار [٣٠٦٩]، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/ ٨٤]: فيه محمد بن إسحاق وهو ثقة وبقية رجاله رجال الصحيح.

قصة هود
عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفحشذ بن سام بن نوح عليه السلام. ويقال: إن هودًا هو عابر بن شالخ بن سام بن نوحٍ. ويقال: هود بن عَبد اللَّه بن رباح بن الجارود بن عاد ابن عوص بن إرم بن سام بنَ نوحٍ عليه السلام. ذكره ابن جريرٍ.

وكانوا عربًا يسكنون الأحقافَ؛ وهى جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرضٍ مطلةٍ على البحر؛ يقال لها: الشحر. واسم واديهم مغيث.

وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾ [الفجر]. أى: عاد إرم. وهم عاد الأولى، وأما عاد الثانية. فمتأخرة، كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه. وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الفجر]. أى: مثل القبيلة. وقيل: مثل العمد. والصحيح الأول، كما بيناه فى «التفسير».

ومن زعم أن إرم مدينةٌ تدور فى الأرض، فتارةً فى الشام، وتارةً فى اليمن، وتارةً فى الحجاز، وتارةً فى غيرها، فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل عليه، ولا برهان يعول عليه، ولا مستند يركن إليه.

وفى «صحيح ابن حبان» عن أبى ذرٍّ فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: منهم أربعةٌ من العرب هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ونبيك يا أبا ذرٍّ[(١)].

ويقال: إن هودًا عليه السلام أول من تكلم بالعربية. وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها. وقال غيره: أول من تكلم بها نوحٌ. وقيل: آدم. وهو الأشبه. قيل غير ذلك. واللَّه أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة. وهم قبائل كثيرةٌ منهم عادٌ، وثمودٌ، وجرهمٌ، وطسمٌ، وجديسٌ، وأميمٌ، ومدينٌ، وعملاقٌ، وعبيلٌ، وجاسمٌ، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم.

وأما العرب المستعربة، فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٣٦١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف جدا.

أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود أن عادًا، وهم عادٌ الأولى كانوا من عبد الأصنام بعد الطوفان وكان أصنامهم ثلاثةً: صدٌّ، وصمودٌ، وهرا. فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم فى سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود].

وقال تعالى فى سورة المؤمنون بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ

مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى بعد قصة قوم نوح أيضًا: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم]

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القمر].

وقال: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ

حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر].

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص فى أماكنها من كتابنا «التفسير» ولله الحمد والمنة. وقد جرى ذكر عادٍ فى سور: التوبة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفى سورة «ص»، وسورة «ق»، ولنذكر مضمون القصة مجموعا من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار. وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وذلك بين فى قوله لهم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩]. أى: جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش. وقال فى المؤمنون: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣١]. وهم قوم هود على الصحيح، وزعم آخرون أنهم ثمود؛ لقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ [المؤمنون: ٤١].

قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦]. وهذا الذى قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتى فى قصة أهل مدين أصحاب الأيكة، فإنه اجتمع عليهم أنواعٌ من العقوبات، ثم لا خلاف أن عادًا قبل ثمود.

والمقصود أن عادًا كانوا عربًا جفاةً كافرين، عتاةً متمردين فى عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلًا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، فلما أمرهم بعبادة الله، ورغبهم فى طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خيرى الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦]. أى: هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٧]. أى: ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون. ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨]. والبلاغ يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارةٍ فصيحةٍ وجيزةٍ جامعةٍ مانعةٍ، لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لا يبتغى منهم أجراً

ولا يطلب منهم جعلًا، بل هو مخلصٌ لله عز وجل فى الدعوة إليه والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذى أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه، وأمره إليه؛ ولهذا قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١].
أى: ما لكم عقلٌ تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين الذى تشهد به فطركم التى خلقتم عليها وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحاً، وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرًا عليه، بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع؛ ولهذا قال مؤمن يس: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس]. وقال قوم هودٍ له فيما قالوا: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ ﴾ [هود]. يقولون: ما جئتنا بخارقٍ يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليلٍ أقمته ولا برهانٍ نصبته وما نظن إلا أنك مجنونٌ فيما تزعمه، وعندنا أنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك، فأصابك فى عقلك، فاعتراك جنونٌ بسبب ذلك. وهو قولهم: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [هود]. وهذا تحدٍّ منه لهم وتبرؤ من آلهتهم وتنقصٌ منه لها وبيانٌ أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر، وأنها جمادٌ حكمها حكمه وفعلها فعله فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريءٌ منها لاعنٌ لها ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود:٥٥] أنتم وهى جميعًا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخرونى ساعةً واحدةً ولا طرفة عينٍ فإنى لا أبالى بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود: ٥٦]. أى: أنا متوكلٌ على الله ومتأيدٌ به وواثقٌ بجنابه الذى لا يضيع من لاذ به، واستند إليه، فلست أبالى بما سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهانٌ قاطعٌ على أن هوداً عبد الله ورسوله، وأنهم على جهلٍ وضلالٍ فى عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوءٍ، ولا نالوا منه مكروهاً، فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه، وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوحٌ عليه السلام قبله فى قوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١]. وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ

ﭐلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المؤمنون]. استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشريًا وهذه الشبهة أدلى بها كثيرٌ من جهلة الكفرة قديمًا وحديثًا كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء].

ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]. أي: ليس هذا بعجيب؛ فإن اللّه أعلم حيث يجعل رسالته. وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المؤمنون]. استبعدوا المعاد، وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا، وقالوا: هيهات هيهات: أي بعيدٌ بعيدٌ هذا الوعد، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]. أي: يموت قوم ويحيا آخرون. وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحامٌ تدفع، وأرضٌ تبلع. وأما الدورية، فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستةٍ وثلاثين ألف سنةٍ وهذا كله كذبٌ وكفرٌ وجهلٌ وضلالٌ، وأقوالٌ باطلةٌ وخيالٌ فاسدٌ بلا برهانٍ ولا دليلٍ، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم، الذين لا يعقلون ولا يهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء].

يقول لهم: أتبنون بكل مكانٍ مرتفع بناءً عظيمًا هائلاً، كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها؛ لأنه لا حاجة لكم فيه. وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر].

فعاد إرم هم عادُ الأولى، الذين كانوا يسكنون الأعمدة التى تحمل الخيام. ومن زعم أن إرم مدينةٌ من ذهبٍ وفضةٍ، وهى تتنقل فى البلاد، فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه. وقوله: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ [الشعراء:١٢٩] قيل: هى القصور. وقيل: بروج الحمام. وقيل: مآخذ الماء. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٩] أى: رجاءَ منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعمارًا طويلة. ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء]. وقالوا له مما قالوا: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠]. أى: أجئتنا لنعبد اللّه وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه؟ فإن كنت صادقا فيما جئت به، فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الشعراء]. أما على قراءة فتح الخاء، فالمراد به اختلاق الأولين، أى: أن هذا الذى جئت به إلا اختلاقٌ منك، وأخذته من كتب الأولين. هكذا فسره غير واحدٍ من الصحابة والتابعين. وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين. أى: أن هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا، ولن نتحول عنه، ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به. ويناسب كلا القراءتين؛ الأولى والثانية؛ قولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قال: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١]. أى: قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من اللّه، أتعارضون عبادة اللّه وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهةً من تلقاء أنفسكم، اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم:٢٣] أى: لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليل ولا برهان، وإذا أبيتم قبول الحق، وتماديتم فى الباطل، وسواءٌ عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا، فانتظروا الآن عذاب اللّه الواقع بكم، وبأسه الذى لا يُرد ونكاله الذى لا يصد، وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

وقد ذكر اللّه تعالى خبر إهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملا ومفصلا

كقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]. وكقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود].

وكقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤١]

وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الشعراء].

وأما تفصيل إهلاكهم فقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف ٢٤].

كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب؛ أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا، فرأوا عارضًا في السماء وظنوه سقيا رحمةٍ فإذا هو سقيا عذابٍ ولهذا قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾، أي: من وقوع العذاب. وهو قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢]. ومثلها في الأعراف. وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسارٍ قال: فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك.

قال: وكان الناس إذاجهدهم أمرٌ في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفًا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوحٍ وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكرٍ. وكانت أمه من قوم عادٍ، واسمها جلهدة ابنة الخيبري.

قال: فبعث عادٌ وفدًا قريبًا من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر، تغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهرٍ، فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقةٌ على قومه، واستحيى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرًا يعرض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهيم ... لعل الله يصبحنا غمامًا
فيسقي أرض عادٍ إن عادًا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش يأتيهم جهارا ... ولا يخشى لعادي سهاما

وأنتم ههنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقُبِّح وفدكم من وفد قوم ولا لُقُّوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم، وهو قيل ابن عنز، فأنشأ الله سحاباتٍ ثلاثًا؛ بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه منادٍ من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب. فقال: اخترت السحابة السوداء؛ فإنها أكثر السحاب ماءً. فناداه منادٍ: اخترت رمادًا رمددًا، لا تبقى من عاد أحدًا، لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته همدًا، إلا بنى اللودية المهدا قال: وهو بطنٌ من عادٍ كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم.

قال: ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عادٌ الآخرة.

قال: وساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل ابن عنزٍ بما فيها من النقمة إلى عادٍ حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له: المغيث. فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا. فيقول تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف]. أى: كل شىءٍ أمرت به. فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريحٌ فيما يذكرون امرأةً من عادٍ يقال لها: مهد. فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت، فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار، أمامها رجالٌ يقودونها ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة:٧] والحسوم: الدائمة. فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك. قال: واعتزل هودٌ عليه السلام فيما ذكر لى فى حظيرةٍ هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود وتلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة.

وقد روى الإمام أحمد حديثًا فى «مسنده» يشبه هذه القصة فقال: حدثنا زيد ابن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائلٍ عن الحارث وهو ابن حسان ويقال: ابن يزيد البكرى. قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوزٌ من بنى تميم منقطعٌ بها فقالت لى: يا عبد الله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاصٌ بأهله وإذا رايةٌ سوداء تخفق، وإذا بلالٌ متقلدٌ السيف بين يدى رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا. قال: فجلست: قال: فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: هل كان بينكم وبين بنى تميم شىءٌ؟ فقلت نعم. وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوزٍ من بنى

تميم منقطع بها - فسألتنى أن أحملها إليك وها هى بالباب. فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول اللَّه إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بنى تميم حاجزًا فاجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول اللَّه فإلى أين تضطر مضرك؟ قال قلت: إن مثلى ما قال الأول: معزّى حملت حتفها. حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصمًا أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عادٍ، قال: هيه وما وافد عادٍ؟ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وفدًا لهم يقال له: قيلٌ فمر بمعاوية بن بكرٍ فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان. فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة فنادى: اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريضٍ فأداويه، ولا إلى أسيرٍ فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه. فمرت به سحاباتٌ سودٌ، فنودى منها: اختر. فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداء، فنودى منها: خذها رمادًا رمددًا، لا تبقى من عادٍ أحدًا. قال: فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا. قال أبو وائلٍ، وصدق: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدًا لهم، قالوا: لا تكن كوافد عادٍ[1].

وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميدٍ عن زيد بن الحباب به. ورواه النسائى من حديث سلامٍ أبى المنذر عن عاصم بن بهدلة. ومن طريقه رواه ابن ماجه.

وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جريرٍ وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عادٍ الآخرة؛ فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكرًا لمكة، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم، كما سيأتى، وعادٌ، الأولى قبل الخليل. وفيه ذكر معاوية بن بكرٍ وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عادٍ الأولى، لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه أن فى تلك السحابة شرر نارٍ، وعادٌ الأولى إنما أُهلكوا بريح صرصرٍ. وقد قال ابن مسعودٍ وابن عباسٍ وغير واحدٍ من أئمة التابعين: هى الباردةُ والعاتيةُ الشديدة الهبوب ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٧]، أى: كوامل متتابعات. قيل: كان أولها الجمعة. وقيل: الأربعاء. ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]. شبههم بأعجاز النخل التى لا رؤوس لها؛ وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه، فيبقى جثة بلا رأس كما قال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٤٨٢] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والترمذى [٣٢٧٤]، وابن ماجه [٢٨١٦]، والنسائى فى الكبرى [٨٦٠٧] مختصرًا.

[القمر: ١٩]. أى: فى يوم نحسٍ عليهم مستمرٌ عذابه عليهم: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء. وتشاءم به لهذا الفهم، فقد أخطأ وخالف القرآن؛ فإنه قال فى الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]. ومعلومٌ أنها ثمانيةِ أيام متتابعاتٍ، فلو كانت نحساتٍ فى أنفسها، لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة وهذا لا يقوله أحدٌ، وإنما المراد فى أيام نحساتٍ، أى: عليهم. وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أى: التى لا تنتج خيرًا. فإن الريح المفردة لا تنشر سحابًا ولا تلقح شجرًا بل هى عقيمٌ لا نتيجة خيرٍ لها؛ ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]. أى: كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية. وقد ثبت فى «الصحيحين» من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: نصرت بالصبا وأهلكت عادٌ بالدبور[(١)].

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]. فالظاهر أن عادًا هذه هى عادٌ الأولى فإن سياقها شبيهٌ بسياق قوم هودٍ وهم الأولى. ويحتمل أن يكون المذكورون فى هذه القصة هم عادٌ الثانية، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتى من الحديث عن عائشة رضى اللّه عنها. وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف ٢٤]. فإن عادًا لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء فى الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطرٍ فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمةً فإذا هو نقمةٌ، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر، قال اللّه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف ٢٤]، أى: من العذاب ثم فسره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف ٢٤]، يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التى استمرت عليهم سبع ليالٍ بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحدًا بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة، فكما منوا بقوتهم وشدتهم، وقالوا: من أشد منا قوة؟ سلط اللّه - الذى هو أشد منهم قوةً - عليهم ما هو أشد منهم قوةً وأقدر عليهم، وهى الريح العقيم. ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابةً ظن من بقى منهم أنها سحابةٌ فيها رحمةٌ بهم وغياثٌ لمن بقى منهم فأرسلها اللّه عليهم شررًا ونارًا كما ذكره غير واحدٍ ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل

(١) رواه البخارى [١٠٣٥]، ومسلم [١٧/٩٠٠].

مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة المؤمنون. والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عادٍ من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرّت بأهل البادية فحملتهم مواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من الريح وما فيها ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة[1]. وقد رواه الطبراني عن عبدان بن أحمد عن إسماعيل بن زكريا الكوفي عن أبي مالكٍ عن مسلم الملائي عن مجاهدٍ وسعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ - كذا قال- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عادٍ من الريح إلا مثل موضع الخاتم ثم أرسلت عليهم فحملتهم البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارضٌ ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا. قال: عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب. قلت: وقال غيره: خرجت بغير حسابٍ[2].

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظرٌ ثم اختلف فيه على مسلمٍ الملائي، وفيه نوع اضطرابٍ. والله أعلم.

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضًا والمفهوم منه لغةً السحاب. كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري إن جعلناه مفسرًا لهذه القصة وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلمٌ في «صحيحه» حيث قال: حدثنا أبو الطاهر حدثنا ابن وهبٍ سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إنيَ أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به. وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به. قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر. فإذا مطرت سُرّي عنه. فعرفت ذلك في وجهه. قالت عائشة: فسألته. فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف ٢٤]. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن جريجٍ[3].

---

(١) رواه أبو حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي [٦/ ٤٤].

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١٢/٣٣/١٢٤١٦]، وقال الهيثمي: في مجمع الزوائد [٧/ ١١٣] فيه مسلم الملائي وهو ضعيف.

(٣) رواه مسلم [٨٩٩/ ١٥]، والترمذي [٣٤٤٩]، وابن ماجه [٣٨٩١]، والنسائي في الكبرى [١٠٧٧٦، ١٠٧٧٧].

طريقٌ أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروفٍ أنبأنا عبد اللّه بن وهبٍ أنبأنا عمرٌو وهو ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسارٍ عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت: ما رأيت رسول اللّه ﷺ مستجمعًا ضاحكًا قط حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك فى وجهه. فقالت: يا رسول اللّه أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: يا عائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذابٌ. قد عذب قومٌ بالريح، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا. وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف، وأخرجه البخارى وأبو داود من حديث ابن وهب(١). فهذا الحديث كالصريح فى تغاير القصتين، كما أشرنا إليه أولاً. فعلى هذا تكون القصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبرًا عن قوم عادٍ الثانية، وتكون بقية السياقات فى القرآن خبرا عن عاد الأولى، واللّه أعلم بالصواب.

وقدمنا حج هودٍ عليه السلام عند ذكر حج نوحٍ عليه السلام. وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالبٍ أنه ذكر صفة قبر هودٍ عليه السلام فى بلاد اليمن(٢). وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكانٌ فى حائطه القبلى يزعم بعض الناس أنه قبر هودٍ عليه السلام واللّه أعلم.

☆☆☆

---

(١) رواه البخارى [٤٨٢٨]، ومسلم [٨٩٩/١٦] واللفظ له، وأبو داود [٥٠٩٨]، وأحمد فى المسند [٦/٦٦]

(٢) روى الحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٦٤] عن أبى الطفيل عامر بن واثلة قال: سمعت على ابن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء وسدر كثير بناحية كذا وكذا؟ قال: واللّه يا أمير المؤمنين إنك لتنعته نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكن حدثت عنه. قال الحضرمى: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود صلى اللّه عليه وسلم.

قصة صالحٍ نبى ثمود
عليه الصلاة والسلام

وهم قبيلةٌ مشهورةٌ يقال لهم ثمود. باسم جدهم ثمود أخى جديس، وهما ابنا عابر ابن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسولَ اللّه ﷺ وهو ذاهبٌ إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتى بيانه. وكانوا بعد قوم عادٍ وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك، فبعث اللّه فيهم رجلًا منهم، وهو عبد اللّه ورسوله صالح بن عبيد بن ماسخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود ابن عابر بن إرم بن سام بن نوحٍ، فدعاهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، ولا يشركوا به شيئًا، فآمنت به طائفةٌ منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التى جعلها اللّه حجة عليهم، فأخذهم اللّه أخذ عزيزٍ مقتدرٍ؛ كما قال تعالى فى سورة الأعراف:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا

جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل]

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القمر].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس]. وكثيرا ما يقرن الله فى كتابه بين ذكر عادٍ وثمودٍ؛ كما فى سورة: التوبة، وإبراهيم، والفرقان، وص، وق، والنجم، والفجر.

ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة. ولكن فى القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبرهيم]. الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدًا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما مشهورًا فى زمان موسى عليه السلام. وقد تكلمنا على هذا كله فى «التفسير» مستقصًى ولله الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهم، وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحًا عليه السلام. ومن آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام. وقد قدمنا أنهم كانوا عربًا، وكانوا بعد عادٍ، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم؛ ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف]. أى: إنما جعلكم خلفاء من بعدهم؛ لتعتبروا بما كان من أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، أى: حاذقين فى صنعتها وإتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته، والعدول عن طاعته؛ فإن عاقبة ذلك وخيمةٌ، ولهذا وعظهم بقوله: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء]. أى: متراكمٌ كثيرٌ حسنٌ بهيٌ ناضجٌ. ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

[الشعراء]. وقال لهم أيضا: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، أى: هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، أى: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق فهو الذى يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ ﴾ [هود:٦١]، أى: أقلعوا عما أنتم فيه، وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾ [هود:٦١] ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴾ [هود: ٦٢]، أى: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملًا قبل هذه المقالة؛ وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة للّه وحده وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد. ولهذا قالوا: ﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴾ [هود:٦٢-٦٣] وهذا تلطفٌ منه لهم فى العبارة ولين الجانب، وحسن تأتٍّ فى الدعوة لهم إلى الخير. أى: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ ماذا عذركم عند اللّه؟ وماذا يخلصكم بين يديه، وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكننى هذا؛ لأنه واجبٌ علىّ، ولو تركته لما قدر أحدٌ منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه، ولا ينصرنى، فأنا لا أزال أدعوكم إلى اللّه وحده لا شريك له حتى يحكم اللّه بينى وبينكم.

وقالوا له أيضا: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أى: من المسحورين. يعنون مسحورًا: لا تدرى ما تقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة للّه وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. وهذا القول عليه الجمهور؛ أن المراد بالمسحرين المسحورين. وقيل: من المسحرين. أى: ممن له سحرٌ وهى الرئة كأنهم يقولون: إنما أنت بشرٌ له سحرٌ. والأول أظهر؛ لقولهم بعد هذا: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. وقولهم: ﴿ فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الأعراف: ٧٣]

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا فى ناديهم، فجاءهم رسول اللّه صالحٌ عليه السلام فدعاهم إلى اللّه تعالى وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرةٍ هناك - ناقةً من صفتها كيت وكيت - وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها - وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء

طويلةً من صفتها كذا وكذا. فقال لهم النبى صالحٌ عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى للَّه عز وجل ما قُدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر اللَّه عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقةٍ عظيمةٍ كوماء عشراء على الوجه الذى طلبوا وعلى الصفة التى نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا، ومنظرًا هائلاً، وقدرةً باهرةً، ودليلاً قاطعًا، وبرهانا ساطعا، فآمن كثيرٌ منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾، أى: جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها، أى: أكثرهم. وكان رئيس الذين آمنوا جندع ابن عمرو بن مخلاة بن لبيد بن جواس، وكان من رؤسائهم، وهم بقية الأشراف بالإسلام، فصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيدٍ والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس، ودعا جندعٌ ابن عمه شهاب بن خليفة، وكان من أشرافهم فَهم بالإسلام، فنهاه أُولئك فمال إليهم فقال فى ذلك رجلٌ من المسلمين يقال له: مهرش بن غنمة بن الدميل رحمه اللَّه شعرًا:

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعًا ... فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالحٌ فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجرٍ ... تولوا بعد رشدهم ذئابا

ولهذا قال لهم صالحٌ عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ أضافها للَّه سبحانه وتعالى إضافة تشريفٍ وتعظيم؛ كقوله: بيت اللَّه. وعبد اللَّه. ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ أى: دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هود: ٦٤]. فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم. ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم.

ولهذا قال: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ [القمر: ٢٧]. أى: اختبارًا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ واللَّه أعلم بما يفعلون.

﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ أى: انتظر ما يكون من أمرهم ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جليةٍ ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ [القمر: ٢٨].

فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه

الناقة؛ ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم.

قال اللَّه تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق قصيرًا وكان يقال: إنه ولد زانيةٍ ولد على فراش سالفٍ. وهو من رجلٍ يقال له: صبيان. وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم؛ فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم. وذكر ابن جريرٍ وغيره من علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما صدوف بنت المحيا بن زهير بن المحيا وكانت ذات حسبٍ ومالٍ، وكانت تحت رجلٍ من أسلم، ففارقته فدعت ابن عم لها، يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا. وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة. واسم الأخرى عنيزة بنت غنم بن مجلزٍ وتكنى أم عثمان وكانت عجوزًا كافرةً لها بناتٌ من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالفٍ إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها، وسعوا فى قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعةٌ آخرون فصاروا تسعةً؛ وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨]، وسعوا فى بقية القبيلة، وحسنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك، وطاوعوهم فى ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها مصدعٌ فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء نساء القبيلة فى قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم فابتدرهم قدار بن سالفٍ، فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطةً إلى الأرض، ورغت رغاةً واحدةً عظيمةً تحذر ولدها، ثم طعن فى لبتها فنحرها، وانطلق سقبها، وهو فصيلها فصعد جبلاً منيعًا، ورغا ثلاثًا.

وروى عبد الرزاق عن معمرٍ عمن سمع الحسن أنه قال: يا رب أين أمى؟ ثم دخل فى صخرةٍ فغاب فيها. ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضًا. قال اللَّه تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ [القمر]. وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس]. أى: احذروها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس]. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد اللَّه بن نميرٍ حدثنا هاشمٌ هو ابن عروة عن أبيه عن عبد اللَّه ابن زمعة قال: خطب رسول اللَّه ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذى عقرها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ انبعث لها رجلٌ عارمٌ عزيزٌ منيعٌ فى رهطه مثل أبى زمعة[1]. أخرجاه من

(١) رواه البخارى [٤٩٤٢]، ومسلم [٢٨٥٥/ ٤٩]، والترمذى [٣٣٤٣]، وأحمد فى المسند [٤/ ١٧].

حديث هشام بن عارمٍ؛ أى: شهمٌ. عزيزٌ، أى: رئيسٌ. منيعٌ، أى: مطاعٌ فى قومه.
وقال محمد بن إسحاق: حدثنى يزيد بن محمدٍ بن خيثم عن محمد بن كعبٍ عن محمد بن خيثمٍ أبى يزيد عن عمار بن ياسرٍ قال:

قال رسول الله ﷺ لعلى: ألا أحدثكم بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال: رجلان؛ أحدهما أُحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علىُّ على هذا يعنى قرنه حتى تبتل منه هذه. يعنى لحيته[1]، رواه ابن أبى حاتم.

وقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]. فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفرٍ بليغٍ من وجوهٍ؛ منها أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة، التى جعلها الله لهم آيةً، ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم، فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم فى قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾. وفى آية: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وفى الأخرى: ﴿أَلِيمٌ﴾ والكل حق.

والثانى: استعجالهم على ذلك. ومنها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق، ووقوع العذاب بهم.

قال الله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]. وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار ابن سالفٍ لعنه الله، فعرقبها، فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يُقطعونها، فلما عاين ذلك سقبها - وهو ولدها - شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مراتٍ؛ فلهذا قال لهم صالحٌ: ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود: ٦٥]،

أى: غير يومهم ذلك. فلم يصدقوه أيضًا فى هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله، وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، أى: لنكبسنه فى داره مع أهله، فلنقتلنه، ثم نجحدن قتله، وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه؛ ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]. وقال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢٦٣/٤] وقال الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف، والنسائى فى الكبرى [٨٥٣٨] والحاكم فى المستدرك [١٥١/٣].

يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل]. وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارةً رضختهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرةٌ كما أنذرهم صالحٌ عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومٌ من الأجل. ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرةٌ فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل. ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودةٌ فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل. فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يُفعل بهم ولا من أى جهةٍ يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحةٌ من السماء من فوقهم، ورجفةٌ شديدةٌ من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق، ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٧٨] جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها.

قالوا: ولم يبق منهم أحدٌ إلا جاريةٌ كانت مقعدةً، واسمها: كلبة بنت السلق. ويقال لها: الزريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيءٍ فأتت حَيًّا من العرب، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، واستسقتهم ماءً فلما شربت ماتت. قال الله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [هود: ٦٨]، أى: لم يقيموا فيها فى سعةٍ ورزقٍ وغناءٍ ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]. أى: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابرٍ قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر، قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يومًا، فعقروها فأخذتهم صيحةٌ، أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحدًا، كان فى حرم الله فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: هو أبو رغالٍ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه[1].

وهذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو فى شيءٍ من الكتب الستة. والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/٢٩٦] وقال الأرناؤوط: حديث قوى وهذا إسناد على شرط مسلم. وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٦/١٩٧، ٧/٤١] وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط [٩/٣٧/ ٩٠٦٩] والبزار وأحمد بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح.

وقد قال عبد الرزاق أيضًا: قال معمرٌ: أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغالٍ، فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: هذا قبر أبى رغالٍ؛ رجلٍ من ثمود كان فى حرم اللَّه، فمنعه حرم اللَّه عذاب اللَّه، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصنٌ من ذهبٍ. فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن[1]. قال عبد الرزاق: قال معمرٌ: قال الزهرى: أبو رغالٍ أبو ثقيفٍ. هذا مرسلٌ من هذا الوجه. وقد جاء من وجهٍ آخر متصلا كما ذكره محمد بن إسحاق فى «السيرة» عن إسماعيل بن أمية عن بجيرٍ بن أبى بجير سمعت عبد اللَّه بن عمرٍو سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبرٍ فقال: إن هذا قبر أبى رغالٍ وهو أبو ثقيفٍ وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصنٌ من ذهبٍ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه. فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن[2]. وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه اللَّه: هذا حديثٌ حسنٌ عزيزٌ. قلت: تفرد به بجير بن أبى بجيرٍ هذا، ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية. قال شيخنا: فيحتمل أنه وهم فى رفعه وإنما يكون من كلام عبد اللَّه بن عمرو من زاملتيه واللَّه أعلم. قلت لكن فى المرسل الذى قبله وفى حديث جابرٍ أيضًا شاهدٌ له، واللَّه أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]. إخبارٌ عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها، قائلا لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٩]. أى: جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى، وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]. أى: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده؛ فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لى فيكم حيلةٌ ولا لى بالدفع عنكم يدان، والذى وجب على من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن اللَّه يفعل ما يريد.

وهكذا خاطب النبى ﷺ أهل قليب بدرٍ بعد ثلاث ليالٍ وقف عليهم وقد ركب

---

(١) رواه عبد الرزاق فى مصنفه [٢٠٩٨٩].

(٢) رواه أبو داود [٣٠٨٨]، والسيوطى فى الجامع الصغير [٦٠٨٢] وضعفه الألبانى.

راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا. وقال لهم فيما قال: بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم؛ كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم. فقال له عمر: يا رسول اللّه تخاطب أقوامًا قد جيفوا؟ فقال: والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون»[١].

وسيأتى بيانه فى موضعه إن شاء اللّه. ويقال: إن صالحًا عليه السلام انتقل إلى حرم اللّه فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال: «يا أبا بكرٍ: أى وادٍ هذا؟. قال: وادى عسفان. قال: لقد مر به هودٌ وصالحٌ عليهما السلام على بكراتٍ حُمرٍ خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون، يحجون البيت العتيق»[٢]. إسنادٌ حسنٌ وقد تقدم فى قصة نوحٍ عليه السلام من رواية الطبرانى، وفيه نوحٌ وهودٌ وإبراهيم.

☆☆☆

---

(١) رواه البخارى [٣٩٨٠، ٣٩٨١]، عن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما، والنسائى [٢٠٧٤، ٢٠٧٥] عن أنس رضى اللّه تعالى عنه.

(٢) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٣٢] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف زمعة.

ذكر مرور النبى ﷺ بوادى الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافعٍ عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»(١).

وقال أحمد أيضًا: حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينارٍ عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحِجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم»(٢). أخرجاه فى «الصحيحين» من غير وجهٍ.

وفى بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه، وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين(٣). وفى روايةٍ: فإن لم تبكوا فتباكوا. خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم(٤). صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون حدثنا المسعودى عن إسماعيل بن أوسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه واسمه عمرو بن سعدٍ ويقال: عامر بن سعدٍ رضى الله عنه قال: لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس: «الصلاة جامعةٌ. قال: فأتيت النبى ﷺ وهو ممسكٌ بعيره وهو يقول: ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟. فناداه رجلٌ منهم: نعجب منهم يا رسول الله. قال: أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجلٌ من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائنٌ بعدكم فاستقيموا

---

(١) رواه مسلم [٢٩٨١/ ٤٠]، وأحمد فى المسند [٢/ ١١٧] واللفظ له.
(٢) رواه البخارى [٤٣٣]، ومسلم [٢٩٨٠/ ٣٩]، وأحمد فى المسند [٢/ ١٧٤].
(٣) رواه البخارى [٤٤١٩] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما.
(٤) رواه ابن ماجه [٤١٩٦] وضعفه الألبانى.

وسددوا فإن اللَّه لا يعبأ بعذابكم شيئًا، وسيأتى قومٌ لا يدفعون عن أنفسهم بشىءٍ». إسناد حسنٌ، ولم يخرجوه[١].

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلةً، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم، فنحتوا لهم بيوتًا فى الجبال، وذكروا أن صالحًا عليه السلام لما سألوه آيةً فأخرج اللَّه لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذى كان فى جوفها وحذرهم بأس اللَّه إن هم نالوها بسوءٍ، وأخبرهم أنهم سيعقرونها، ويكون سبب هلاكهم ذلك، وذكر لهم صفة عاقرها، وأنه أحمر أزرق أصهب، فبعثوا القوابل فى البلد متى وجدوا مولودًا بهذه الصفة يقتلنه، فكانوا على ذلك دهرًا طويلاً وانقرض جيلٌ وأتى جيلٌ آخر، فلما كان فى بعض الأعصار خطب رئيسٌ من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله فى الرياسة، فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة، وهو قدارِ بن سالفٍ، فلم تتمكن القوابل من قتله؛ لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأةً سريعةً، فكان يشب فى الجمعة كما يشب غيره فى شهر، حتى كان من أمره أن خرج مطاعًا فيهم رئيسًا بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة، واتبعه على ذلك ثمانيةٌ من أشرافهم؛ وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة، وبلغ ذلك صالحًا عليه السلام جاءهم باكيًا عليها، فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملأٍ منا، وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا.

فيقال: إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضًا عنها، فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه، ثم استقبل صالحًا عليه السلام ورغا ثلاثًا فعندها قال صالح: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥].

وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفرًا، ثم تحمر وجوههم فى الثانى، وفى اليوم الثالث تسود وجوههم، فلما كان فى اليوم الرابع أتتهم صيحةٌ فيها صوت كل صاعقة، فأخمدتهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين.

وفى بعض هذا السياق نظرٌ ومخالفةٌ لظاهر ما يفهم من القرآن فى شأنهم وقصتهم، كما قدمنا. واللَّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

☆☆☆

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٤/ ٢٣١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف. وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٦/ ١٩٤]: فيه عبد الرحمن بن عبد اللَّه المسعودى وقد اختلط.

قصة إبراهيم الخليل
عليه الصلاة السلام

هو إبراهيم بن تارخ [٢٥٠] بن ناحور [١٤٨] بن ساروغ [٢٣٠] بن راغو [٢٣٩] ابن فالغ [٤٣٩] بن عابر [٤٦٤] بن شالخ [٤٣٣] بن أرفخشد [٤٣٨] بن سام [٦٠٠] بن نوحٍ عليه السلام. هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم، وقد أعلمت على أعمارهم تحتَ أسمائهم بالهندى، كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوحٍ عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة إبراهيم الخليل من «تاريخه» عن إسحاق بن بشرٍ الكاهلى صاحب كتاب «المبتدأ»: أن اسم أم إبراهيم أميلة، ثم أورد عنه فى خبر ولادتها له حكايةً طويلةً.

وقال الكلبى: اسمها نونا بنت كرنبا بن كوثى من بنى أرفخشد بن سام بن نوحٍ. وروى ابن عساكر من غير وجهٍ عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنَى أبا الضيفان. قالوا: ولما كان عمر تارخ خمسًا وسبعين سنةً ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لهاران لوطٌ.

وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها، وهى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل.

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى من طريق هشام بن عمارٍ عن الوليد عن سعيدٍ بن عبد العزيز عن مكحولٍ عن ابن عباسٍ قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق، فى قريةٍ يقال لها: برزة. فى جبلٍ يقال له: قاسيون، ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام؛ لأنه صلى فيه إذ جاء معينًا للوطٍ عليه السلام. قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وناحور ملكا ابنة هاران؛ يعنون بابنة أخيه. قالوا: وكانت سارة عاقرًا لا تلد. قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حران، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنةً. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين، وهى أرض بابل وما والاها، ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهى بلاد بيت المقدس فأقاموا بحران، وهى أرض الكشدانيين فى ذلك الزمان، وكذلك

أرض الجزيرة والشام أيضا، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالى، ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال؛ ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكلٌ لكوكب منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابين، وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوطٍ عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال؛ فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده فى صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً فى كبره قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. أى: كان أهلا لذلك.

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت]. ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى. وكان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم].

يذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارةٍ، وأحسن إشارةٍ، بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام التى لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، فكيف تغنى عنه شيئًا أو تفعل به خيرًا من رزقٍ أو نصرٍ؟

ثم قال له منبهًا على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سنًا من أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، أى: مستقيمًا واضحًا سهلاً حنيفًا، يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك.

فلما عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، أى: واقطعنى وأطل هجرانى. فعندها قال له إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أى: لا يصلك منى مكروهٌ، ولا ينالك منى أذىً، بل أنت سالمٌ من ناحيتى. وزاده خيرًا فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] قال ابن عباسٍ وغيره: أى: لطيفًا. يعنى: فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له.

ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام، كما وعده فى أدعيته، فلما تبين له أنه عدوٌّ للّه تبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال البخارى: حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنى أخى عبد الحميد عن ابن أبى ذئبٍ عن سعيدٍ المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصنى؟ فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون، فأى خزيٍ أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول الله: إنى حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ[1] متلطخٍ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار[2]. هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفردًا.

وقال فى «التفسير»: وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذئبٍ عن سعيدٍ ابن أبى سعيدٍ المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة. وهكذا رواه النسائى عن أحمد

---

(١) بذيخ متلطخ: الذيخ هو ذكر الضباع الكثير الشعر، والأنثى ذيخة، وأراد بالتلطخ التلطخ برجيعه أو بالطين.

(٢) رواه البخارى [٣٣٥٠].

ابن حفص بن عبد الله عن أبيه عن إبراهيم بن طهمان به. وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه، وفى سياقه غرابةٌ. ورواه أيضًا من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبى سعيدٍ عن النبى ﷺ بنحوه[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر، وجمهور أهل النسب منهم ابن عباسٍ على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون: تارخ. بالخاء المعجمة. فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر. وقال ابن جريرٍ: والصواب أن اسمه آزر، ولعل له اسمين علَمين، أو أحدهما لقبٌ والآخر علمٌ. وهذا الذى قاله محتملٌ والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام].

وهذا المقام مناظرةٍ لقومه، وبيانٍ لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عز وجل؛ لأنها مخلوقةٌ مربوبةٌ مصنوعةٌ مدبرةٌ مسخرةٌ، تطلع تارةً وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيءٌ ولا تخفى عليه خافيةٌ، بل هو الدائم الباقى بلا زوالٍ، لا إله إلا هو ولا رب سواه. فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب - قيل: هو الزهرة - لذلك ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً، فبين أنها مسخرةٌ مسيرةٌ مقدرةٌ مربوبةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟

---

(١) رواه البخارى [٤٧٦٨]، والنسائى فى الكبرى [١١٣٧٥].

لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام: ٧٨]. أى: طالعة.

﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام] أى: لست أبالى فى هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئًا، ولا تسمع ولا تعقل، بل هى مربوبةٌ مسخرةٌ كالكواكب ونحوها، أو مصنوعةٌ منحوتةٌ منجورةٌ.

والظاهر أن موعظته هذه فى الكواكب لأهل حران، فإنهم كان يعبدونها. وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرًا كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستندٌ إلى أخبارٍ إسرائيليةٍ لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق. وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم فى عبادتها، وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات].

يخبر اللَّه تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان، وحقرها عندهم، وصغرها، وتنقصها.

فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. أى: معتكفون عندها وخاضعون لها. قالوا: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٣] ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصافات]. قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وقال لهم: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء]. سلموا له أنها لا تسمع داعيا ولا تنفع ولا تضر شيئًا، وإنما الحامل لهم على عبادتها الإقتداء بأسلافهم، ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء]. وهذا برهانٌ قاطعٌ على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام؛ لأنه تبرأ منها وتنقص بها، فلو كانت تضر لضرته، أو تؤثر لأثرت فيه.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، يقولون: هذا الكلام الذى تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه فى آبائنا تقوله محقًّا جادًّا فيه أم لاعبًا؟ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

يعنى: بل أقول لكم ذلك جادًا محقًّا؛ إنما إلهكم اللَّه الذى لا إله إلا هو ربكم ورب كل شىء فاطر السماوات والأرض الخالق لهما على غير مثالٍ سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، أقسم ليكيدن

هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم. قيل: إنه قال هذا خفيةً فى نفسه.

وقال ابن مسعودٍ: سمعه بعضهم. وكان لهم عيدٌ يذهبون إليه فى كل عام مرةً إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره، فقال: إنى سقيمٌ كما قال تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات]، عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم، ونصرة دين الله الحق فى بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر، وأن تهان غاية الإهانة. فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو فى بلدهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أى: ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجدها فى بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعًا من الأطعمة، قربانًا إليها.

فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات]؛ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر. فكسرها بقدوم فى يده؛ كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أى: حطامًا كسرها كلها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، قيل: إنه وضع القدوم فى يد الكبير؛ إشارةً إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار.

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، وهذا فيه دليلٌ ظاهرٌ لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهةً لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوءٍ، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، أى: يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها، فهو المقيم عليها والكاسر لها. وعلى قول ابن مسعودٍ يذكرهم بقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦١]، أى: فى الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد، لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه. وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام؛ أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه؛ كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩]. فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء]. قيل: معناه هو الحامل لى على تكسيرها. وإنما عرض لهم فى القول ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]؛ وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جمادٌ كسائر الجمادات ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، أى: فعادوا على أنفسهم بالملامة ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أى: فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء:٦٥]. قال السدى: أى ثم رجعوا إلى الفتنة. فعلى هذا يكون قوله: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ، أى: فى عبادتها.

وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء. أى فأطرقوا ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. أى: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء]. كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤].

قال مجاهد: يسرعون. قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أى: كيف تعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. وسواءٌ كانت «ما» مصدريةً أو بمعنى الذى فمقتضى الكلام: أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقةٌ، فكيف يعبد مخلوقٌ مخلوقًا مثله؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطلٌ ؛ فالآخر باطلٌ للتحكم، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات]. عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجةٌ ولا شبهةٌ إلا استعمال قوتهم وسلطانهم؛ لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب جل جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء]. وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدةً يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى حَوْبَة[1] عظيمةٍ، فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شررٌ لم ير مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام فى كفة منجنيقٍ صنعه لهم رجلٌ من الأكراد يقال له: هزن. وكان أول من صنع المجانيق فخسف اللَّه به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إله إلا أنت، سبحانك لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

---

(١) حَوْبَة: حَضرة والمراد حُضرة كبيرة.

فلما وُضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا، ثم ألقوه منه إلى النار قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. كما روى البخاري عن ابن عباسٍ، أنه قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمدٌ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران][1].

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفرٍ الرازي عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالحٍ عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: لما أُلقي إبراهيم في النار قال: «اللهم إنك في السماء واحدٌ وأنا في الأرض واحدٌ وأعبدك»[2].

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء، فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال: أما إليك فلا.

ويروى عن ابن عباسٍ وسعيد بن جبيرٍ أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر اللَّه أسرع: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. قال علي بن أبي طالب: أي: لا تضربه.

وقال ابن عباسٍ وأبو العالية: لولا أن اللَّه قال: ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. لأذى إبراهيم بردها. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يؤمئذٍ بنارٍ، ولم يحرق منه سوى وثاقه. وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه، لم يصبه منها شيءٌ غيره. وقال السدي: كان معه أيضًا ملك الظل.

وصار إبراهيم عليه السلام في مثل الجونة حوله النار وهو في روضةٍ خضراء، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه، ولا هو يخرج إليهم. فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمةٍ قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم[3].

وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته:

(١) رواه البخاري [٤٥٦٣].
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية [١/ ١٩]، والخطيب في تاريخ بغداد [١٠/ ٣٤٦]، والدر المنثور [٤/ ٣٢٢].
(٣) ذكره الطبري في جامع البيان [١٨٦٢٥] والسيوطي في الدر المنثور [٤/ ٣٢٢] وعبد الرزاق في تفسيره [١٨٦٨] وابن أبي شيبة في مصنفه [٧/ ٤٤٨].

يا بنى إنى أريد أن أجيء إليك فادع اللَّه أن ينجينى من حر النار حولك. فقال: نعم فأقبلت إليه لا يمسها شيءٌ من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته، ثم عادت.

وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يومًا، وأنه قال: ما كنت أيامًا وليالى أطيب عيشًا إذ كنت فيها، ووددت أن عيشى وحياتى كلها مثل إذ كنت فيها صلوات اللَّه وسلامه عليه، فأرادوا أن ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغُلبوا.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وفى الآية الأخرى: ﴿ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال، هذا فى الدنيا، وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردًا ولا سلامًا، ولا يلقون فيها تحيةً ولا سلامًا، بل هى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٦].

قال البخارى: حدثنا عبيد اللَّه بن موسى أو ابن سلام عنه، أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد ابن جبيرٍ عن سعيدِ بن المسيب عن أم شريكٍ أن رسول اللَّه ﷺ أمرَ بقتل الوزغ وقال: «كان ينفخ على إبراهيم»[1].

ورواه مسلمٌ من حديث ابن جريج، وأخرجاه، والنسائى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة، كلاهما عن عبد الحميدَ ابن جبير بن شيبة به.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بكرٍ حدثنا ابن جريج أخبرنى عبد اللَّه ابن عبد الرحمن بن أبى أمية أن نافعًا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها أخبرته أن رسول اللَّه ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام النار»[2]. قال: وكانت عائشة تقتلهن.

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع أن امرأةً دخلت على عائشة رضى اللَّه تعالى عنها فإذا رمحٌ منصوبٌ فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول اللَّه ﷺ إن إبراهيم لما ألقى فى النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه، إلا الوزغ فإنه جعل ينفخها عليه[3]. تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال أحمد: حدثنا عفان حدثنا جريرٌ حدثنا نافعٌ حدثتنى سائبة مولاةٌ للفاكه

---

(١) رواه البخارى [٣٣٥٩]، ومسلم [٢٢٣٧/ ١٤٢]، والنسائى [٣٨٧٣]، ابن ماجه [٣٢٢٨].

(٢) رواه أحمد فى المسند [٦/ ٢٠٠] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف وعبد اللَّه بن عبد الرحمن بن أبى أمية لم نقف له على ترجمة، وباقى رجاله ثقات.

(٣) رواه أحمد فى المسند [٦/ ٢١٧] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

ابن المغيرة قالت: دخلت على عائشة رضى اللَّه عنها فرأيت فى بيتها رمحًا موضوعًا، قلت: يا أم المؤمنين ما تصنعون بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ، نقتلهن به؛ فإن رسول اللَّه ﷺ حدثنا أن إبراهيم عليه السلام حين أُلقى فى النار لم تكن فى الأرض دابةٌ إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول اللَّه ﷺ بقتله. رواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يونس بن محمدٍ عن جرير بن حازمٍ به[1].

☆☆☆

(١) رواه أحمد فى المسند [٦/ ٨٣] وقال الأرناؤوط: الأمر بقتل الوزغ صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير سائبة مولاة الفاكه، وابن ماجه [٣٢٣١] وصححه الألبانى.

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل
مع من أراد أن ينازع العظيم الجليل
فى إزار العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية
وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد، الذى ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه السلام دليله، وبين كثرة جهله. وقلة عقله، وألجمه الحجه وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل واسمه: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوحٍ. قاله مجاهدٌ.

وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشد بن سام بن نوحٍ.

قال مجاهدٌ وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا. فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعةٌ؛ مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران النمرود وبختنصر.

وذكروا أن نمرودًا هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنةٍ، وكان قد طغى وبغى، وتجبر وعتى، وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الإمهال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك، وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال له الخليل: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق: يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر. وهذا ليس بمعارضةٍ للخليل، بل هو كلامٌ خارجىٌ عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيبٌ محضٌ، وهو انقطاعٌ فى الحقيقة؛ فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات - من إحياء الحيونات وموتها - على وجود

فاعل ذلك الذى لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورةً، وعدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة؛ من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدةً ثم إماتتها؛ ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فقول هذا الملك الجاهل: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]: إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهداة فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق، فلم يقل شيئًا يتعلق بكلام الخليل؛ إذ لم يمنع مقدمةً ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثيرٍ من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرةً ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. أى: هذه الشمس مسخرةٌ، كل يوم تطلع من المشرق، كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شيءٍ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيءٍ ودان له كل شيءٍ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحدٍ أنك لا تقدر على شيءٍ من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضةً أو تنتصر منها. فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلامٌ يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت؛ ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذٍ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق عن معمرٍ عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعامٌ وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيءٌ من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيبٍ من التراب، فملأ منه عدليه، وقال: أشغل أهلى إذا قدمت عليهم. فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعامًا طيبًا فعملت منه طعامًا فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذى جئت به. فعرف أنه رزقٌ رزقهموه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله

فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم الثالثة فأبى عليه، وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس. فأرسل اللَّه عليه ذبابًا من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها اللَّه عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظامًا بالية، ودخلت واحدةٌ منها فى منخرى الملك فمكثت فى منخريه أربعمائة سنةٍ، عذبه اللَّه تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه اللَّه عز وجل بها. واللَّه تعالى أعلم.

☆☆☆

ذكر هجرة الخليل
عليه السلام إلى بلاد الشام
ودخوله الديار المصرية واستقراره
فى الأرض المقدسة

قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء].

لما هجر قومه فى الله، وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقرًا لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحدٌ بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب؛ فكل نبىٍّ بعث بعده فهو من ذريته وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعةً من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلدٍ يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه.

والأرض التى قصدها بالهجرة أرض الشام، وهى التى قال الله عز وجل: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]. قاله أبى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم.

وروى العوفى عن ابن عباسٍ: قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] مكة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وزعم كعب الأحبار أنها حران. وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوطٌ وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها.

وقال السدى: انطلق إبراهيم ولوطٌ قبل الشام فلقى إبراهيم سارة وهى ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها فى دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها. رواه ابن

جريرٍ وهو غريبٌ. والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذى تنسب إليه حران. ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوطٍ كما حكاه السهيلى عن القتيبى والنقاش، فقد أبعد النجعة وقال بلا علم، وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعًا فليس له على ذلك دليلٌ. ولو فرض أن هذا كان مشروعًا فى وقت كما هو منقولٌ عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه. واللّه أعلم. ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرًا من بلاده كما تقدم. واللّه أعلم.

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى اللّه إليه: إنى جاعلٌ هذه الأرض لخلفك من بعدك. فابتنى إبراهيم مذبحًا لله؛ شكرًا على هذه النعمة، وضرب قبته شرقى بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً إلى اليمن وأنه كان جوعٌ؛ أى: قحطٌ وشدةٌ وغلاءٌ فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها: قولى: أنا أخته. وذكروا إخدام الملك إياها هاجر، ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن يعنى أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيدٌ وأموالٌ.

وقد قال البخارى: حدثنا محمد بن محبوب حدثنا حماد بن زيدٍ عن أيوب عن محمدٍ عن أبى هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات؛ ثنتان منهن فى ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقال: بينا هو ذات يومٍ وسارة إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة فقيل له: ههنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسن الناس. فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختى. فأتى سارة، فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيرى وغيرك، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ فقال: ادعى اللّه لى ولا أضرك. فدعت اللّه فأطلق ثم تناولها الثانية، فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعى اللّه لى ولا أضرك. فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته، فقال: إنك لم تأتنى بإنسانٍ وإنما أتيتنى بشيطانٍ فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائمٌ يصلى فأومأ بيده؛ مهيم؟ فقالت: رد اللّه كيد الكافر - أو: الفاجر - فى نحره، وأخدم هاجر. قال أبو هريرة رضى اللّه تعالى عنه: فتلك أمكم يا بنى ماء السماء[1]. تفرد به من هذا الوجه موقوفًا.

وقد رواه الحافظ أبو بكرٍ البزار عن عمرٍو بن علىٍّ الفلاس عن عبدالوهاب الثقفى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذباتٍ كل ذلك فى ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة إذ نزل

(١) رواه البخارى [٣٣٥٨].

منزلاً فأتى الجبار فقيل له: إنه قد نزل ههنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسن الناس. فأرسل إليه، فسأله عنها فقال: إنها أختى. فلما رجع إليها قال: إن هذا سألنى عنك فقلت إنك أختى وإنه ليس اليوم مسلمٌ غيرى وغيرك وإنك أختى فلا تكذبينى عنده. فانطلق بها فلما ذهب يتناولها أُخذ فقال: ادعى اللَّه لى ولا أضرك. فدعت له فأرسل فذهب يتناولها فأُخذ مثلها أو أشد منها فقال: ادعى الله لى ولا أضرك. فدعت فأرسل ثلاث مراتٍ فدعا أدنى حشمه فقال: إنك لم تأتنى بإنسانٍ؛ ولكن أتيتنى بشيطانٍ أخرجها وأعطها هاجر. فجاءت وإبراهيم قائمٌ يصلى فلما أحس بها انصرف، فقال: مهيم؟ فقالت: كفى اللَّه كيد الظالم، وأخدمنى هاجر. وأخرجاه من حديث هشام. ثم قال البزار: لا نعلم أسنده عن محمدٍ عن أبى هريرة إلا هشامٌ، ورواه غيره موقوفًا[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن حفصٍ عن ورقاء هو ابن عمر اليشكرى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذباتٍ؛ قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله لسارة: إنها أختى. قال: ودخل إبراهيم قريةً فيها ملكٌ من الملوك - أو جبارٌ من الجبابرة - فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأةٍ من أحسن الناس. قال: فأرسل إليه الملك - أو الجبار-: من هذه معك؟ قال: أختى. قال: فأرسل بها. قال: فأرسل بها إليه، وقال: لا تكذبى قولى؛ فإنى قد أخبرته أنك أختى إن ما على الأرض مؤمنٌ غيرى وغيرك. فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تَوَضَّأُ وتصلى وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله. قال أبو الزناد: قال أبو سلمة ابن عبد الرحمن عن أبى هريرة: إنها قالت: اللهم إن يمت يقل: هى قتلته. قال: فأُرسل. قال: ثم قام إليها. قال: فقامت تَوَضَّأُ وتصلى وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجى إلا على زوجى، فلا تسلط على الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله. قال: أبو الزناد: وقال أبو سلمة عن أبى هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت يقل: هى قتلته. قال: فأُرسل قال: فقال فى الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إلى إلا شيطانًا أرجعوها إلى إبراهيم واعطوها هاجر. قال: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرتِ أن اللَّه رد كيد الكافر وأخدم وليدةً. تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط «الصحيح» وقد رواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب بن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ به مختصرًا[٢].

---

(١) رواه البخارى [٥٠٨٤].

(٢) رواه البخارى [٢٢١٧]، وأحمد فى المسند [٢/ ٤٠٣، ٤٠٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا سفيان عن على بن زيدٍ بن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال: ما منها كلمةٌ إلا ما حل بها عن دين اللّه. فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقال للملك حين أراد امرأته: هى أختى. فقوله فى الحديث: هى أختى أى فى دين اللّه. وقوله لها: إنه ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيرى وغيرك. يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ويتعين حمله على هذا؛ لأن لوطًا كان معهم وهو نبئ عليه السلام، وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم؟ معناه: ما الخبر؟ فقالت: إن اللّه رد كيد الكافر. وفى روايةٍ. الفاجر وهو: الملك. وأخدم جاريةً. وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى للّه عز وجل. ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوءٍ، وهكذا فعلت هى أيضًا، كلما أراد عدو اللّه أن ينال منها أمرًا قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت اللّه عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]. فعصمها اللّه وصانها؛ لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام. وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوةٍ؛ سارة وأم موسى، ومريم عليهن السلام. والذى عليه الجمهور أنهن صديقاتٌ رضى اللّه عنهن وأرضاهن. ورأيت فى بعض الآثار أن اللّه عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدًا لها وهى عند الملك، وكيف عصمها الله منه؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقر لعينه، وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبًّا شديدًا؛ لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأةٌ بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضى اللّه عنها ولله الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخًا للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملًا لأخيه على مصر.

ويقال: كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوحٍ. وذكر ابن هشام فى «التيجان» أن الذى أرادها عمرو بن امرئ القيس بن بايلبون ابن سبأ وكان على مصر. نقله السهيلى فاللّه أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعامٌ وعبيدٌ ومالٌ جزيلٌ وصحبتهم هاجر القبطية المصرية. ثم إن لوطا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك إلى أرض الغور بالمعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان، وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا، وأوحى اللّه تعالى إلى إبراهيم

الخليل يأمره أن يمد بصره، وينظر شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض. وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية، يؤيد ذلك قول رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه زوى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها» [١].

قالوا: ثم إن طائفةً من الجبارين تسلطوا على لوطٍ عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل عليه السلام سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، فاستنقذ لوطًا عليه السلام واسترجع أمواله، وقتل من أعداء اللّه ورسوله خلقًا كثيرًا وهزمهم، وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شمالى دمشق، وعسكر بظاهرها عند برزة. وأظن مقام إبراهيم المنسوب إليه ببرزة اليوم إنما سمى؛ لأنه كان موضع موقف جيش الخليل، واللّه أعلم. ثم رجع مؤيدًا منصورًا إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده صلوات اللّه وسلامه عليه.

☆☆☆

---

(١) رواه مسلم [١٩/٢٨٨٩].

ذكر مولد إسماعيل
عليه الصلاة والسلام من هاجر

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل اللَّه ذرية طيبةً، وأن اللَّه بشره بذلك، وإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشر سنين قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد أحرمنى الولد، فادخل على أمتى هذه لعل اللَّه يرزقنا منها ولدًا. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه. قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة، فشكت ذلك إلى إبراهيم فقال لها: افعلى بها ما شئت. فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملكٌ من الملائكة: لا تخافى، فإن اللَّه جاعلٌ من هذا الغلام الذى حملت خيرًا. وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ابنًا وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس، يده على الكل ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته. فشكرت اللَّه عز وجل على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمدٍ صلوات اللَّه وسلامه عليه؛ فإنه الذى سادت به العرب، وملكت جميع البلاد غربًا وشرقًا، وآتاها اللَّه من العلم النافع والعمل الصالح ما لم يؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته ويمن بشارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام قالوا: وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنةً، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنةً. ولما ولد إسماعيل أوحى اللَّه إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخر للَّه ساجدًا، وقال له: قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته، ونميته جدًا كبيرًا ويولد له اثنا عشر عظيمًا وأجعله رئيسًا لشعبٍ عظيم. وهذه أيضًا بشارةٌ بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيمًا هم الخلفاء الاثنا عشر المبشر بهم فى حديثه عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبى ﷺ قال: يكون اثنا عشر أميرًا. ثم قال كلمةً لم أفهمها فسألت أبى: ما قال؟ قال: كلهم من قريشٍ[1]. أخرجاه فى «الصحيحين». وفى رواية: لا يزال هذا الأمر قائما[2].

---

(١) رواه البخارى [٧٢٢٢، ٧٢٢٣] واللفظ له، ومسلم [٧/١٨٢١].

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٢/ ٢١٤/ ١٨٧٦] عن جابر رضى اللَّه تعالى عنه.

وفى رواية: عزيزا حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش[1]. فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة؛ أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعليٌ. ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضًا. ومنهم بعض بنى العباس. وليس المراد أنهم يكونون اثنى عشر نسقًا، بل لا بد من وجودهم. وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذى يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم على بن أبى طالبٍ، وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا؛ وهو محمد بن الحسن العسكرى فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علىٍّ وابنه الحسن بن علىٍّ حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة، وسكن رحى الحروب بين المسلمين والباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكمٌ على الأمة فى أمر من الأمور.

وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا، فذاك هوسٌ فى الرؤوس وهذيانٌ فى النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثرٌ.

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم. ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعًا، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا هاهنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها فلما أَلَحَّتْ عليه وهو لا يجيبها قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فإذًا لا يضيعنا.

وقد ذكر الشيخ أبو محمدٍ بن أبى زيدٍ رحمه اللَّه فى كتاب «النوادر» أن سارة تغضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاءٍ منها، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها.

قال السهيلى: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنيها منهن، وأول من طولت ذيلها.

☆☆☆

---

(١) رواه مسلم [١٨٢١/٨] عن جابر بن سمرة رضى اللَّه تعالى عنه.

ذكر مهاجرة إبراهيم
عليه السلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر
إلى جبال فاران؛ وهى أرض مكة،
وبنائه البيت العتيق

قال البخارى: حدثنا عبد اللَّه بن محمدٍ حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيدٍ ابن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل؛ اتخذت منطقًا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحةٍ فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماءٌ فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمرٌ وسقاءً فيه ماءٌ ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به إنس ولا شىءٌ؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: اللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا يضيعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبلٍ فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مراتٍ. قال ابن عباسٍ: قال النبى ﷺ: فلذلك سعى الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صهٍ. تريد نفسها. ثم تسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ. فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها، وهى تفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا. قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة؛ فإن ههنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقةٌ من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماءٌ. فأرسلوا جريًا أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء. قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبى ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس. فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٌ نحن فى ضيقٍ وشدة. وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال هل جاءكم من أحدٍ؟ فقالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشىءٍ؟ قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبى، وأمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغى لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخيرٍ وسعةٍ. وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال النبى ﷺ: ولم يكن لهم يومئذٍ حبٌّ، ولو كان لهم حبٌّ لدعا لهم فيه، فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بعين مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخٌ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخيرٍ. قال: فأوصاك بشىءٍ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبةَ بابك. قال: ذاك أبى،

وأنتِ العتبة، وأمرنى أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء اللَّه، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحةٍ قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد، ثم قال: يا إسماعيل إن اللَّه أمرنى بأمرٍ. قال: فاصنع ما أمركَ به ربك. قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك. قال: فإن اللَّه أمرنى أن أبنى ههنا بيتًا: وأشار إلى أكمةٍ مرتفعةٍ على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ثم قال البخارى: وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧][١].

ثم قال: حدثنا عبد اللَّه بن محمدٍ حدثنا أبو عامرٍ عبد اللَّه بن عمرٍو حدثنا إبراهيم ابن نافع عن كثير بن كثيرٍ عن سعيدِ بن جبيرٍ عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وأهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنةٌ فيها ماءٌ[٢]. وذكر تمامه بنحو ما تقدم. وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشحٌ برفع بعضه وفى بعضه غرابةٌ وكأنه مما تلقاه ابن عباسٍ عن الإسرائيليات. وفيه أن إسماعيل كان رضيعًا إذ ذاك.

وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم، فختنهم وذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر إسماعيل يومئذٍ ثلاث عشرة سنةً. وهذا امتثالٌ لأمرِ اللَّه عز وجل فى أهله، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب؛ ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجبٌ على الرجال، كما هو مقرر فى موضعه.

وقد ثبت فى الحديث الذى رواه البخارى: حدثنا قتيبة بن سعيدٍ حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ اختتن إبراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنةً بالقدوم[٣]. تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبى الزناد وتابعه عجلان عن أبى هريرة، ورواه محمد بن عمرٍو عن أبى سلمة عن أبى هريرة. وهكذا رواه مسلمٌ عن قتيبة به.

وفى بعض الألفاظ: اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنةً، واختتن بالقدوم. والقدوم هو الآلة، وقيل: موضعٌ. وهذا اللفظ لا ينافى الزيادة على الثمانين

---

(١) رواه البخارى [٣٣٦٤].

(٢) رواه البخارى [٣٣٦٥].

(٣) رواه البخارى [٣٣٥٦]، ومسلم [٢٣٧٠/ ١٥١].

والله أعلم لما سيأتى من الحديث عند ذكر وفاته، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: اختتن إبراهيم وهو ابن مائةٍ وعشرين سنةً وعاش بعد ذلك ثمانين سنةً[١].
رواه ابن حبان فى «صحيحه» وليس فى هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل ولم يذكر فى قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مراتٍ؛ أولاهن: بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر، وكيف يتركهم من حين صغر الولد على ما ذكر إلى حين تزويجه لا ينظر فى حالهم؟ وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له، وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم. فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم، وهم فى غاية الضرورة الشديدة، والحاجة الأكيدة؟ وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات، ومطرزٌ بشىءٍ من المرفوعات. ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح، فى سورة الصافات.

☆☆☆

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٢٠٥] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

قصة الذبيح

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا فبشره الله تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أول من ولد على رأس ستٍّ وثمانين سنةً من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل؛ لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. أي: شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه. قال مجاهدٌ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. أي: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل. فلما كان هذا أُرى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا.

وفي الحديث عن ابن عباسٍ مرفوعًا: رؤيا الأنبياء وحيٌ. قاله عبيد بن عميرٍ أيضًا[1]. وهذا اختبارٌ من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر وقد طعن في السن بعد ما أُمر بأن يسكنه هو وأمه في بلادٍ قفرٍ ووادٍ ليس به حسيسٌ ولا أنيسٌ ولا زرعٌ ولا ضرعٌ، فامتثل أمر الله في ذلك، وتركهما هناك ثقةً بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجًا ومخرجًا، ورزقهما من حيث لا يحتسبان، ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه، وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته، ثم عرض ذلك على ولده، ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرًا ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

---

(١) رواه البخاري [١٣٨، ٨٥٩] وعزاه ابن حجر في الفتح [١/ ٢٣٩] إلى مسلم مرفوعًا.

فبادر الغلام الحليم يبر والده الخليل إبراهيم فقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]. قيل: أسلما أي: استسلما لأمرِ الله، وعزما على ذلك. وقيل: هذا من المقدم والمؤخر، والمعنى ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ . أي: ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه. قاله ابن عباسٍ ومجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ وقتادة والضحاك؛ وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقًا بالأرض. ﴿ أَسْلَمَا﴾ أي: سمى إبراهيم وكبر، وتشهد وسلم الولد للموت.

قال السدي وغيره: أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئًا. ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحةٌ من نحاسٍ والله أعلم. فعند ذلك نودي من الله عز وجل: ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۝١٠٥ ﴾ [الصافات]. أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وَبَذْلِكَ ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مالك مبذولٌ للضيفان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]، أي: الاختبار الظاهر البين وقوله: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]. أي: وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه. والمشهور عن الجمهور أنه كبشٌ أبيض أعين أقرن، رآه مربوطًا بسمرةٍ في ثُبَيْر. قال الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيدِ بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: كبشٌ قد رعى في الجنة أربعين خريفًا.

وقال سعيد بن جبيرٍ: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبيرٌ، وكان عليه عهنٌ أحمر. وعن ابن عباسٍ: هبط عليه من ثُبَيْرٍ[1] كبشٌ أعين أقرن له ثغاءٌ فذبحه، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه. رواه ابن أبي حاتم. قال مجاهدٌ: فذبحه بمنًى. وقال عبيد بن عميرٍ: ذبحه بالمقام. فأما ما روي عن ابن عباسٍ، أنه كان وعلاً وعن الحسن أنه كان تيسًا من الأروى واسمه جريرٌ، فلا يكاد يصح عنهما. ثم غالب ما ههنا من الآثار مأخوذٌ من الإسرائيليات، وفي القرآن كفايةٌ عما جرى من الأمر العظيم، والاختبار الباهر، وأنه فدى بذبحٍ عظيمٍ. وقد ورد في الحديث أنه كان كبشًا، قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان حدثنا منصورٌ عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأةٌ من بني سُلَيم وَلَّدَتْ عامةَ أهل دارنا: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ابن طلحةَ: لم دعاك ﷺ؟ قال: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين

(١) ثُبَيْر: اسم جبل بمكة.

دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما؛ فإنه لا ينبغى» أن يكون فى البيت شيءٌ يشغل المصلى. قال سفيان: لم تزل قرنا الكبش فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا[1]. وهذا روى عن ابن عباسٍ أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس وهذا وحده دليلٌ علَى أن الذبيح إسماعيل؛ لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره والله أعلم. وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نصٌ على أن الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو اسرائيلياتٌ، وكتابهم فيه تحريفٌ ولا سيما ههنا قطعًا لا محيد عنه؛ فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفى نسخةٍ من المعربة: بكره إسحاق فلفظة إسحاق ههنا مقحمةٌ مكذوبةٌ مفتراةٌ؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر وإنما الوحيد البكر إسماعيل وإنما حملهم على هذا حسد العرب؛ فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحاق والد يعقوب، وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهتٍ لم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. وقد قال بأنه إسحاق طائفةٌ كثيرةٌ من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب، وليس فى ذلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغيرٌ قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم. وقد اعترض السهيلى على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: ٧١] جملة تامة وقوله ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. جملةٌ أخرى ليست فى حيز البشارة.

قال: لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضًا إلا أن يعاد معه حرف الجر، فلا يجوز أن يقال: مررت بزيد ومن بعده عمرٍو. حتى يقال: ومن بعده بعمرٍو.

وقال: فقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ

(١) رواه أحمد فى المسند [٤/٦٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير مسافع فمن رجال مسلم.

تقديره: ووهبنا لإسحاق يعقوب. وفى هذا الذى قاله نظرٌ. ورجح أنه إسحاق، واحتج بقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. قال: وإسماعيل لم يكن عنده إنما كان فى حال صغره هو وأمه بحيال مكة، فكيف يبلغ معه السعى؟ وهذا أيضًا فيه نظرٌ؛ لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب فى كثيرٍ من الأوقات راكبًا البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع. واللَّه أعلم.

فمن حكى القول عنه بأن الذبيح إسحاق كعب الأحبار وروى عن عمر والعباس وعلىٍّ وابن مسعودٍ ومسروقٍ وعكرمة وسعيد بن جبيرٍ ومجاهدٍ وعطاءٍ والشعبى ومقاتلٍ وعبيد بن عميرٍ وأبى ميسرة وزيد بن أسلم وعبد اللَّه بن شقيقٍ والزهرى والقاسم بن أبى بزة ومكحولٍ وعثمان بن حاضرٍ والسدى والحسن وقتادة وأبى الهذيل وابن سابطٍ. وهو اختيار ابن جريرٍ وهذا عجبٌ منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباسٍ.

ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام. قال مجاهدٌ وسعيدٌ والشعبى ويوسف بن مهران وعطاءٌ وغير واحدٍ عن ابن عباسٍ: هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جريرٍ: حدثنى يونس أنبأنا ابن وهبٍ أخبرنى عمرو بن قيسٍ عن عطاء بن أبى رباحٍ عن ابن عباسٍ أنه: قال المُفْدَى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود . وقال عبد اللَّه ابن الإمام أحمد عن أبيه هو إسماعيل وقال ابن أبى حاتمٍ: سألت أبى عن الذبيح فقال: الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام.

قال ابن أبى حاتمٍ: وروى عن علىٍّ وابن عمر وأبى هريرة وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرٍ والحسن ومجاهدٍ والشعبى ومحمد بن كعبٍ وأبى جعفرٍ محمد بن علىٍّ وأبى صالحٍ أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وحكاه البغوى أيضًا عن الربيع بن أنسٍ والكلبى وأبى عمرو بن العلاء.

قلت: وروى عن معاوية. وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول اللَّه ﷺ: يا ابن الذبيحين. فضحك رسول اللَّه ﷺ. وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسارٍ وكان الحسن البصرى يقول: لا شك فى هذا. وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمى عن محمد بن كعبٍ أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفةٌ إذ كان معه بالشام - يعنى استدلاله بقوله بعد القصة ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود:٧١] - فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجلٍ كان عنده بالشام. كان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم. قال: فسأله عمر بن

عبد العزيز عن ذلك. قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر بن عبد العزيز: أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم - معشر العرب - على أن يكون أباكم؛ الذى كان من أمر الله فيه، والفضل الذى ذكره الله منه، لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاةً بأدلتها وآثارها فى فى كتابنا «التفسير» ولله الحمد والمنة.



ذكر مولد إسحاق
عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة، لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوطٍ ليدمروا عليهم؛ لكفرهم وفجورهم كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الذاريات].

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا: وكانوا ثلاثةً؛ جبريل وميكائيل واسرافيل لما وردوا على الخليل حَسِبَهُم أولاً أضيافًا فعاملهم معاملة الضيوف؛ شوى لهم عجلاً سمينًا من خيار بقره، فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همةً إلى الأكل بالكلية؛ وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام، فنكر منهم إبراهيم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠]. أى: لندمر عليهم. فاستبشرت عند ذلك سارة غضبًا لله عليهم، وكانت قائمةً على رؤوس الأضياف، كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشارًا بذلك قال الله تعالى:

﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. أى: بشرتها الملائكة بذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] أى: فى صرخةٍ ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩]، أى: كما يفعل النساء عند التعجب ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، أى: كيف يلد مثلى وأنا كبيرةٌ وعقيمٌ أيضًا. ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ ، أى: زوجى ﴿ شَيْخًا﴾ ، تعجبت من وجود ولدٍ والحالة هذه؛ ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود].

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة، وتثبيتًا لها، وفرحًا بها ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) ﴾ [الحجر]، أكدوا الخبر بهذه البشارة، وقرروه معه فبشروهما ﴿ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ وهو إسحاق، وأخوه إسماعيل غلامٌ حليمٌ مناسبٌ لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه، بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ - وهو المشوى - رغيفًا من ملةٍ فيه ثلاثة أكيالٍ وسمنٌ ولبنٌ. وعندهم أنهم أكلوا. وهذا غلطٌ محضٌ. وقيل: كانوا يورون أنهم يأكلون، والطعام يتلاشى فى الهواء. وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم: أما سارة امرأتك فلا يدعى اسمها سارا، ولكن اسمها سارة، وأبارك عليها، وأعطيك منها ابنًا وأُباركه، ويكون للشعوب وملوك الشعوب منه. فخر إبراهيم على وجهه - يعنى ساجدًا - وضحك قائلاً فى نفسه: أبعد مائة سنةٍ يولد لى غلامٌ أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنةً؟ وقال إبراهيم لله تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك فقال الله لإبراهيم: بحقى إن امرأتك سارة تلد لك غلامًا وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابلٍ، وأوثقه ميثاقى إلى الدهر ولخلفه من بعده وقد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكبرته ونميته جدًا كبيرًا ويولد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعله رئيسا لشعبٍ عظيم. وقد تكلمنا على هذا بما تقدم. والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، دليلٌ على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ثم من بعده يولد ولده يعقوب، أى: يولد فى حياتهما، لتقر أعينهما به، كما قرت بولده. ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدةٌ، ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بمولده كما سرا بمولد أبيه من قبله. وقال تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٤٩]، وهذا إن شاء اللّه ظاهرٌ قوىٌ ويؤيده ما ثبت فى «الصحيحين» من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه عن أبى ذرٌ قال: قلت: يا رسول اللّه أى مسجدٍ وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنةً. قلت: ثم أى؟ قال: ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجدٌ. وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى وهو مسجد ايليا وهو مسجد بيت المقدس شرفه اللّه. وهذا متجهٌ ويشهد له ما ذكرناه من الحديث[(١)].

فعلى هذا يكون بناء يعقوب - وهو اسرائيل عليه السلام - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنةً سواءً، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال فى دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم].

وما جاء فى الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل اللّه خلالاً ثلاثًا كما ذكرناه عند قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾[(٢)] [ص: ٣٥]. وكما سنورده فى قصته. فالمراد من ذلك واللّه أعلم أنه جدد بناءه لما تقدم من أن بينهما أربعين سنةً ولم يقل أحدٌ: إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنةً سوى ابن حبان فى «تقاسيمه وأنواعه» وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه، واللّه تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) رواه البخارى [٣٣٦٦]، ومسلم [١/٥٢٠].

(٢) روى النسائى [٦٩٢]، وابن ماجه [١٤٠٨] عن عبد اللّه بن عمرو عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس، سأل اللّه ثلاثا: حكما يصادف حكمه، وملكا لا ينبغى لأحد من بعده، وألا يأتى هذا المسجد أحدٌ لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة». وصححه الألبانى.

ذكــر
بناية البيت العتيق

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه أفضل صلاةٍ وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجدٍ وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، وبوأه الله مكانه. أى: أرشده إليه ودله عليه. وقد روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالبٍ وغيره أنه أُرشد إليه بوحيٍ من الله عز وجل.

وقد قدمنا فى صفة خلق السماوات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها. وكذلك معابد السماوات السبع، كما قال بعض السلف: إن فى كل سماء، بيتًا يعبد الله فيه أهل كل سماءٍ وهو فيها كالكعبة لأهل الارض. فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبنى له بيتًا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماوات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له، المعين لذلك منذ خلق السماوات والأرض. كما ثبت فى «الصحيحين»: أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق

السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة [(١)]. ولم يجئ فى خبرٍ صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك فى هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ بناهض ولا ظاهرٍ؛ لأن المراد مكانه المقدر فى علم اللَّه المقدر فى قدره، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبةً، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يومًا، أو نحو ذلك. ولكن كل هذه أخبارٌ عن بنى إسرائيل، وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب، فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهى مردودةٌ. وقد قال اللَّه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. أى: أول بيتٍ وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذى ببكة. قيل: مكة. وقيل: محله الكعبة ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧]. أى: على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته؛ ولهذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. أى: الحجر الذى كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء، كما تقدم فى حديث ابن عباسٍ الطويل. وقد كان هذا الحجر ملصقًا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه، فأخره عن البيت قليلاً؛ لئلا يشغل المصلون عنده الطائفين بالبيت، واتبع عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه فى هذا، فإنه قد وافقه ربه فى أشياء؛ منها فى قوله لرسوله ﷺ: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى. فأنزل اللَّه: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد كانت آثار قدمى الخليل باقيةً فى الصخرة إلى أول الإسلام. وقد قال أبو طالبٍ فى قصيدته اللامية المشهورة:

وثورٍ ومن أرسى ثبيرا مكانه	وراق ليرقى فى حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة	وباللَّه إن اللَّه ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه	إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبةٌ	على قدميه حافيا غير ناعل

يعنى أن رجله الكريمة غاصت فى الصخرة، فصارت على قدر قدمه، حافيةً لا متنعلةً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أى: فى حال قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. فهما فى غاية الإخلاص والطاعة للَّه عز وجل، وهما يسألان من اللَّه السميع العليم أن يتقبل

(١) رواه البخارى [٣١٨٩]، ومسلم [١٣٥٣/ ٤٤٥].

منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أفضل البقاع، فى وادٍ غير ذى زرع، ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزُّروع والثمار، وأن يجعله حرمًا محرمًا وأمنا محتمًا، فاستجاب اللَّه - وله الحمد - له مسألته، ولبى دعوته، وآتاه طلبته؛ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وسأل اللَّه أن يبعث فيهم رسولا منهم؛ أى: من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة؛ لتتم عليهم النعمتان؛ الدنيوية والدينية بسعادة الأولى والأخرى. وقد استجاب اللَّه له، فبعث فيهم رسولاً، وأى رسول ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدًا قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة. كان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء؛ لشرفه فى نفسه وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته، وفصاحة لغته، وكمال شفقته على أمته، ولطفه ورحمته، وكريم محتده، وعظيم مولده، وطيب مصدره، وموردِه. ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام - إذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض - أن يكون منصبه ومحله وموضعه فى منازل السماوات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور، الذى هو كعبة أهل السماء السابعة، المبارك المبرور، الذى يدخله كل يومٍ سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور. وقد ذكرنا فى «التفسير» من سورة البقرة صفة بنائة للبيت وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفايةٌ فمن أراده فليراجعه ثَمّ. ولله الحمد.

فمن ذلك ما قال السدى: لما أمر اللَّه إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت لم يدريا أين مكانه، حتى بعث اللَّه ريحًا يقال لها: الخجوج. لها جناحان ورأسٌ فى صورة حيةٍ فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. فلما بلغا القواعد بنيا الركن قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجرٍ فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. فبنيا وهما يدعوان اللَّه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وذكر ابن أبى حاتم أنه بناه من خمسة أجبل، وأن ذا القرنين - وكان ملك الإرض إذ ذاك - مر بهما وهما يبنيانه فقال: من أمركما بهذا؟ فقال إبراهيم: اللَّه أمرنا به. فقال: وما يدرينى بما تقول؟ فشهدت خمسة أكبشٍ أنه أمره بذلك، فآمن وصدق. وذكر الأزرقى أنه طاف مع الخليل بالبيت.

وقد كانت على بناء الخليل مدةً طويلةً ثم بعد ذلك بنتها قريشٌ فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال، مما يلى الشام على ما هى عليه اليوم.

وفى «الصحيحين» من حديث مالكٍ عن ابن شهابٍ عن سالم أن عبد اللَّه بن محمدِ ابن أبى بكرٍ أخبر ابن عمر عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها أنّ رسول اللَّه ﷺ قال: ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ قالت: فقلت: يا رسول اللَّه ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال: لولا حدثان قومك لفعلت - وفى روايةٍ: لولا أن قومك حديثو عهدٍ بجاهليةٍ. أو قال: بكفرٍ - لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل اللَّه ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر[1].

وقد بناها ابن الزبير رحمه اللَّه فى أيامه على ما أشار إليه رسول اللَّه ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاثٍ وسبعين كتب إلى عبد الملك ابن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامى، وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط، وردموا الأحجار فى جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية، كما هو مشاهدٌ إلى اليوم، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك، ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنسٍ فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فقال له: إنى أخشى أن يتخذها الملوكَ لعبةً. يعنى كلما جاء ملكٌ بناها على الصفة التى يريد. فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم.



(١) رواه البخارى [١٥٨٣]، ومسلم [١٣٣٣/ ٣٩٩، ٤٠٠].

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم
على عبد الله وخليله إبراهيم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. لما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس إمامًا يقتدون به ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلةً بسببه وباقيةً فى نسبه وخالدةً فى عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام، وسلمت إليه الإمامة بزمام، واستثنى من نيلها الظالمون واختص بها من ذريته العلماء العاملون؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام]. فالضمير فى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ عائدٌ على إبراهيم على المشهور ولوطٌ وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل فى الذرية تغليبًا وهذا هو الحامل للقائل الآخر إن الضمير عائدٌ على نوح كما قدمنا فى قصته والله أعلم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ﴾ [الحديد: ٢٦].

فكل كتاب أنزل من السماء على نبيٍ من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعةٌ سنيةٌ لا تضاهى ومرتبةٌ عليةٌ لا تباهى؛ وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان، إسماعيل من هاجر ثم إسحاق من سارة وولد لهذا يعقوب، وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جدًا بحيث لا يعلم عددهم إلا الذى بعثهم، واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بنى إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بنى آدم فى الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى المكى ثم المدنى صلوات الله وسلامه

عليه، فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذى يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة. وقد ثبت عنه فى «صحيح مسلم» كما سنورده أنه قال: سأقوم مقامًا يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم(١). فمدح إبراهيم أباه مدحةً عظيمةً فى هذا السياق، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق فى هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساقٍ.

وقال البخارى: حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جريرٌ عن منصورٍ عن المنهال عن سعيدِ بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: كان رسول اللّه ﷺ يُعوذ الحسن والحسين، ويقول: أن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامةٍ ومن كل عينٍ لامةٍ. ورواه أهل «السنن» من حديث منصورٍ به(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابًا بسطناها فى «التفسير» وقررناها بأتم تقريرٍ. والحاصل أن اللّه عز وجل أجابه إلى ما سأل فأمره أن يعمد إلى أربعةٍ من الطيور، واختلفوا فى تعينها على أقوالٍ، والمقصود حاصلٌ على كل تقدير فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بعضه فى بعضٍ، ثم يقسمه قسمًا ويجعل على كل جبلٍ منهن جزءًا ففعل ما أُمر به، ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن، فلما دعاهن جعل كل عضوٍ يطير إلى صاحبه، وكل ريشةٍ تأتى إلى أختها، حتى اجتمع بدن كل طائرٍ على ما كان عليه، وهو ينظر إلى قدرة الذى يقول للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فأتين إليه سعيًا؛ ليكون أبين له، وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانًا. ويقال: إنه أمر أن يأخذ رءوسهن فى يده، فجعل كل طائر يأتى فتلقاه رأسه، فيتركب على جثته كما كان، فلا إله إلا اللّه. وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى علمًا يقينًا لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانًا، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه اللّه إلى سؤاله، وأعطاه غاية مأموله.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ

(١) رواه مسلم [٨٢٠/ ٢٧٣].

(٢) رواه البخارى [٣٣٧١]، وأبو داود [٤٧٣٧]، والترمذى [٢٠٦٠]، وابن ماجه [٣٥٢٥] والنسائى فى الكبرى [١٠٨٤٤، ١٠٨٤٥].

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران]. ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم، فبرأه الله منهم وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم، فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران: ٦٥]. أى: فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

فبين أنه كان على دين الله الحنيف؛ وهو القصد إلى الإخلاص والانحراف وعمدًا عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالفٌ لليهودية والنصرانية والمشركية؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة].

فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا، وبين أنه إنما كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكن من المشركين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران: ٦٨]. يعنى الذين كانوا على ملته من أتباعه فى زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ [آل عمران: ٦٨] يعنى محمدًا ﷺ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل، وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعط

نبيًّا ولا رسولاً قبله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل].

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشامٌ عن معمرٍ عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباسٍ أن النبى ﷺ لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال: قاتلهم الله؛ والله إن استقسما بالأزلام قط[١]. لم يخرجه مسلمٌ: وفى بعض ألفاظ البخارى: قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط[٢].

فقوله: ﴿أُمَّةً﴾ أى: قدوة إمامًا مهتديًا داعيًا إلى الخير يقتدى به فيه ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أى: خاشعا له فى جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ أى: مخلصا على بصيرة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل]، أى: قائمًا بشكر ربه بجميع جوارحه؛ من قلبه ولسانه وأعماله ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أى: اختاره الله لنفسه، واصطفاه لرسالته واتخذه خليلاً وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، يُرغب تعالى فى اتباع إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ومدحه تعالى بذلك فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٢٧]، ولهذا اتخذه الله خليلاً، والخلة: هى غاية المحبة. كما قال بعضهم:

وقد تخللت مسلك الروح منى   وبذا سمى الخليل خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت فى «الصحيحين» وغيرهما من حديث جندبٍ البجلى وعبد الله بن عمرٍو وابن مسعودٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال: يا أيها الناس إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً[٣]. وقال أيضًا فى آخر خطبةٍ خطبها: أيها الناس لو

---

(١) رواه البخارى [٣٣٥٢].

(٢) رواه البخارى [١٦٠١، ٤٢٨٨].

(٣) رواه مسلم [٥٣٢/٢٣] من حديث جندب رضى الله تعالى عنه.

كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله. أخرجاه من حديث أبى سعيدٍ. وثبت أيضًا من حديث عبد الله ابن الزبير وابن عباسٍ وابن مسعودٍ(١).

وروى البخارى فى صحيحه: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبةً عن حبيب ابن أبى ثابتٍ عن سعيدِ بن جبير عن عمرو بن ميمونٍ قال: إن معاذا لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم(٢). وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمدٍ بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيدٍ حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى بمكة حدثنا عبد الله الحنفى حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرامٍ عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: جلس ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول: عجبٌ أن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله. وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليمًا. وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته. وقال آخر: آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم فسلم، وقال: قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى كليمه وهو كذلك، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وإنى حبيب الله ولا فخر، ألا وإنى أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر.

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وله شواهد من وجوه أُخر والله أعلم(٣).

وروى الحاكم فى «مستدركه» من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(٤). وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا محمود بن خالدٍ المسلمى حدثنا الوليد عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً أُلقى فى قلبه الوجل، حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بعدٍ كما يسمع خفقان الطير فى الهواء. وقال عبيد بن عميرٍ: كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يومًا

---

(١) رواه البخارى [٣٦٥٤، ٣٦٥٦، ٣٦٥٨] ومسلم [٦/٢٣٨٢] من حديث ابن مسعود رضى الله تعالى عنه.

(٢) رواه البخارى [٤٣٤٨].

(٣) رواه الترمذى [٣٦١٦].

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك [١/ ٦٥] وقال: صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه.

يلتمس إنسانًا يضيفه، فلم يجد أحدًا يضيفه، فرجع إلى داره، فوجد فيها رجلاً قائمًا، فقال: يا عبد اللَّه ما أدخلك دارى بغير إذنى؟ قال: دخلتها بإذن ربها؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبدٍ من عباده أبشره بأن اللَّه قد اتخذه خليلاً. قال: من هو؟ فواللَّه إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه، ثم لا أبرح له جارًا حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا قال: نعم. قال: فيم اتخذنى ربى خليلاً؟ قال: بأنك تعطى الناس ولا تسألهم. رواه ابن أبى حاتم.

وقد ذكره اللَّه تعالى فى القرآن كثيرًا فى غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقيل إنه مذكورٌ فى خمسةٍ وثلاثين موضعًا، منها خمسة عشر فى البقرة وحدها. وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصًا من بين سائر الأنبياء فى آيتى الأحزاب والشورى؛ وهما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمدٍ ﷺ وهو الذى وجده عليه السلام فى السماء السابعة مسندًا ظهره بالبيت المعمور، الذى يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. وما وقع فى حديث شريكٍ بن أبى نمرٍ عن أنسٍ فى حديث الإسراء، من أن إبراهيم فى السادسة، وموسى فى السابعة فمما انتقد على شريك فى هذا الحديث[١] والصحيح الأول.

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى، الحديث الذى قال فيه: وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم، حتى إبراهيم. رواه مسلمٌ من حديث أبىّ بن كعبٍ رضى اللَّه عنه[٢]، وهذا المقام المحمود الذى أخبر عنه صلوات اللَّه وسلامه عليه بقوله: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر. ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكلهم يحيد عنها، حتى يأتوا محمدًا ﷺ فيقول: أنا لها، أنا لها، الحديث[٣].

قال البخارى: حدثنا على بن عبد اللَّه، حدثنا يحيى بن سعيدٍ، حدثنا عبيد اللَّه حدثنى سعيدٌ، عن أبيه عن أبى هريرة، قال: قيل: يا رسول اللَّه من أكرم الناس؟

---

(١) رواه البخارى [٧٥١٧].

(٢) ررواه مسلم [٢٧٣/٨٢٠].

(٣) رواه البخارى [٣٣٤٠]، ومسلم [٣٢٧/١٩٤].

قال: أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألونى؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا. وهكذا رواه البخارى فى مواضع أخر، ومسلمٌ والنسائى من طرقٍ، عن يحيى بن سعيدٍ القطان، عن عبيد الله، وهو ابن عمر العمرى، به(١).

ثم قال البخارى: قال أبو أسامة ومعتمرٌ: عن عبيد الله عن سعيدٍ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قلت: وقد أسنده فى موضعٍ آخر من حديثهما وحديث عبدة ابن سليمان، والنسائى من حديث محمد بن بشرٍ، أربعتهم عن عبيد الله بن عمرو عن سعيدٍ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ ولم يذكروا أباه(٢).

وقال أحمد حدثنا محمد بن بشرٍ حدثنا محمد بن عمرٍو حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله. تفرد به أحمد(٣).

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذى قال فيه: وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم.

وقال البخارى: حدثنا عبدة حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله ابن دينارٍ عن أبيه عن ابن عمر به(٤).

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن سفيان حدثنى مغيرة ابن النعمان عن سعيدٍ بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ عن النبى ﷺ: «يحشر الناس حفاةً عراةً غرلاً فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام». ثم قرأ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فأخرجاه فى «الصحيحين» من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعى الكوفى عن سعيدٍ بن جبير عن ابن عباسٍ به(٥). وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضى الأفضلية بالنسبة إلى ما قبلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود، الذى يغبطه به الأولون والآخرون.

---

(١) رواه البخارى [٣٤٩٠]، ومسلم [٢٣٧٨/١٦٨]، والنسائى فى الكبرى [١١٢٤٩].
(٢) رواه البخارى [٣٣٥٣، ٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٤٦٨٩]، والنسائى فى الكبرى [١١٢٤٩].
(٣) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٣٢] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح؛ وهذا إسناد حسن.
(٤) رواه البخارى [٣٣٩٠].
(٥) رواه البخارى [٤٦٢٥]، ومسلم [٢٨٦٠/٥٨] أحمد فى المسند [١/ ٢٢٣] واللفظ له.

وأما الحديث الآخر الذى قال الأمام أحمد: حدثنا وكيعٌ وأبو نعيم حدثنا سفيان هو الثورى عن مختار بن فلفلٍ عن أنسٍ بن مالكٍ قال: قال رجلٌ للنبىِّ ﷺ: يا خير البرية. فقال: «ذاك إبراهيم» فقد رواه مسلمٌ من حديث الثورى وعبد الله بن إدريس وعلى ابن مسهر ومحمد بن فضيلٍ أربعتهم عن المختار بن فلفلٍ. وقال الترمذى: حسنٌ صحيحٌ[(١)]. وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليلِ عليه السلام، كما قال: «لا تفضلونى على الأنبياء»[(٢)]. وقال: «لا تفضلونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور»[(٣)]. وهذا كله لا ينافى ما ثبت بالتواتر عنه صلوات اللّه وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة[(٤)]. وكذلك حديث أبى بن كعب فى «صحيح مسلم»: وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىَّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم[(٥)]. ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضلَ الرسل وأولى العزم بعد محمدٍ صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلى أن يقول فى تشهده ما ثبت فى «الصحيحين» من حديث كعب بن عجرة وغيره، قال: قلنا: يا رسول اللّه هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم صلى على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ. وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد[(٦)].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]؛ قالوا: وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمرٌ عن ابن طاوسٍ عن أبيه عن ابن عباسٍ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. قال: ابتلاه اللّه بالطهارة؛ خمسٌ فى الرأس، وخمسٌ فى الجسد. فأما التى فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الرأس. وأما التى فى الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء، رواه ابن أبى حاتمٍ. وقال:

---

(١) رواه مسلم [٢٣٦٩/ ١٥٠]، وأحمد فى المسند [٣/ ١٧٨]، والترمذى [٣٣٥٢].

(٢) رواه البخارى [٣٤١٤] بلفظ: «لا تفضلوا بين أولياء اللّه»، ومسلم [٢٣٧٣/ ١٥٩] بلفظ: «لا تفضلوا بين أنبياء اللّه».

(٣) رواه مسلم [٢٣٧٣/ ١٦٠].

(٤) رواه مسلم [٢٢٧٨/ ٣] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه.

(٥) رواه مسلم [٨٢٠/ ٢٧٣].

(٦) رواه البخارى [٣٣٧٠]، ومسلم [٤٠٦/ ٦٦].

وروى عن سعيدِ بن المسيب ومجاهدِ والشعبى والنخعى وأبى صالح وأبى الجلد نحو ذلك. قلت: وفى «الصحيحين» عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: الفطرة خمسٌ: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط[١]. وفى «صحيح مسلم» وأهل «السنن» من حديث وكيع عن زكريا بن أبى زائدة عن مصعب بن شيبة العبدرى المكى الحجبى عن طلق بن حبيب العترى عن عبد اللّه بن الزبير عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: عشرٌ من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء. قال مصعبٌ: ونسيت العاشرة إلا أن تكون - يعنى - الاستنجاء[٢].

وسيأتى فى ذكر مقدار عمره الكلام على الختان.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص للّه عز وجل، وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين من زيادة شعرٍ أو ظفرٍ أو وجود قلح أو وسخ، فهذا من جملة قوله تعالى فى حقه من المدح العظيم: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٧].

ذكر قصره فى الجنة

قال الحافظ أبو بكرِ البزار: حدثنا أحمد بن سنانٍ القطان الواسطى ومحمد ابن موسى القطان، قالا: حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن سماكٍ عن عكرمة عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: إن فى الجنة قصرًا - أحسبه قال: من لؤلؤةٍ - ليس فيه فصمٌ ولا وهنٌ أعده اللّه لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا[٣].

قال البزار: وحدثنا أحمد بن جميل المروزى حدثنا النضر بن شميلٍ حدثنا حماد بن سلمة عن سماكٍ عن عكرمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه. ثم قال: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فأسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميلٍ وغيرهما يرويه موقوفًا. قلت: لولا هذه العلة لكان على شرط «الصحيح» ولم يخرجوه.

☆☆☆

(١) رواه البخارى [٥٨٨٩]، ومسلم [٢٥٧/٤٩].
(٢) رواه مسلم [٢٦١/٥٦]، وأبو داود [٥٣]، والترمذى [٢٧٥٧]، وابن ماجه [٢٩٣].
(٣) رواه البزار كما فى كشف الأستار [٢٣٤٦].

ذكر صفة إبراهيم
عليه الصلاة السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس وحجينٌ، قالا: حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابرٍ عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «عُرِضَ عَلَيَّ الأنبياء فإذا موسى عليه السلام رجل ضربٌ من الرجال كأنه من رجال شنوءة. فرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهًا صاحبكم - يعني نفسه ﷺ - ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا دحية». تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ(١).

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامرٍ حدثنا إسرائيل عن عثمان يعني ابن المغيرة عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول اللّه ﷺ: رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم؛ فأما عيسى فأحمر جعدٌ عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيمٌ. قالوا له: فإبراهيم؟ قال: انظروا إلى صاحبكم. يعني نفسه(٢).

وقال البخاري: حدثنا بنان بن عمرو حدثنا النضر أنبأنا ابن عونٍ عن مجاهدٍ أنه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال؛ بين عينيه مكتوبٌ كافرٌ أو: «ك ف ر» فقال: لم أسمعه، ولكنه قال ﷺ: أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبةٍ كأني أنظر إليه انحدر في الوادي.

ورواه البخاري أيضًا في كتاب الحج وفي اللباس، ومسلمٌ جميعًا، عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عديٍّ عن عبد اللّه بن عون به(٣).

☆☆☆

---

(١) رواه مسلم [١٦٧/ ٢٧١]، وأحمد في المسند [٣/ ٣٣٤] واللفظ له.

(٢) رواه أحمد في المسند [١/ ٢٩٦] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عثمان بن المغيرة، فمن رجال البخاري.

(٣) رواه البخاري [٣٣٥٥]، ومسلم [١٦٦/ ٢٧٠].

ذكر وفاة إبراهيم الخليل
عليه السلام وما قيل فى عمره

ذكر ابن جرير فى «تاريخه» أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان، وهو - فيما قيل - الضحاك الملك المشهور الذى يقال: إنه ملك ألف سنةٍ، وكان فى غاية الغشم والظلم. وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوحٌ عليه السلام وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا. وذكروا أنه طلع نجمٌ أخفى ضوء الشمس والقمر، فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا: يولد مولودٌ فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه. فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل فى ذلك الحين، فحماه اللّه عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شبابًا باهرًا، وأنبته اللّه نباتًا حسنًا، حتى كان من أمره ما تقدم. وكان مولده بالسوس، وقيل: ببابل. وقيل: بالسواد من ناحية كوثى. وتقدم عن ابن عباسٍ أنه ولد ببرزة شرقى دمشق.

فلما أهلك اللّه نمرود على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل وإسحاق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التى فى أرض كنعان ولها من العمر مائةٌ وسبعٌ وعشرون سنةً، فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها اللّه واشترى من رجلٍ من بنى «حيث» يقال له: عفرون بن صخرٍ. مغارةً بأربعمائة مثقالٍ فضةً ودفن فيها سارة هنالك. قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه رفقا بنت ثبويل بن ناحور بن تارخ وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل. قالوا: ثم تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا، فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح. وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحدٍ من السلف، عن أخبار أهل الكتاب فى صفة مجىء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخبارًا كثيرةً اللّه أعلم بصحتها. وقد قيل: إنه مات فجأةً وكذا داود وسليمان.

والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك. قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن مائةٍ وخمسٍ وسبعين سنةً، ودفن فى المغارة المذكورة عند امرأته

سارة التى فى مزرعة عفرون الحيثى وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتى سنةٍ، كما قاله ابن الكلبى. وقال أبو حاتم بن حبان فى «صحيحه»: أنبأنا المفضل بن محمدِ الجندى بمكة حدثنا على بن زيادِ اللحجى حدثنا أبو قرة عن ابن جريجٍ عن يحيى بن سعيدٍ عن سعيدِ بن المسيب عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنةٍ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنةً[1]. وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عونٍ العمرى عن يحيى بن سعيدٍ عن سعيدٍ عن أبى هريرة موقوفا.

ثم قال ابن حبان: ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم، أخبرنا محمد بن عبد اللَّه بن الجنيد ببست حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: اختتن ابراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنةٍ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنةً واختتن بقدوم[2].

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيدٍ عن ابن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: وقد أتت عليه ثمانون سنةً[3]. ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال: القدوم اسم القرية[4]. قلت: الذى فى «الصحيح» أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنةً[5]. وفى روايةٍ: وهو ابن ثمانين سنة[6]. وليس فيهما تعرضٌ لما عاش بعد ذلك، واللَّه أعلم. وقال محمد بن إسماعيل الحسانى الواسطى راوى فى تفسير وكيع عنه، فيما ذكره من الزيادات: حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيدٍ عن سعيدِ بن المسيب عن أبى هريرة قال: كان إبراهيم أول من تسرول، وأول من فرق، وأول من استحد، وأول من اختتن بالقدوم، وهو ابن عشرين ومائة سنةٍ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنةً، وأول من قرى وأول من شاب هكذا رواه موقوفًا، وهو أشبه بالمرفوع خلافًا لابن حبان. واللَّه أعلم.

وقال مالكٌ: عن يحيى بن سعيد عن سعيدِ بن المسيب قال: كان إبراهيم أول من أضاف الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قص شاربه، وأول الناس رأى

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٢٠٤] وقال الأرناؤوط حديث صحيح.
(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٢٠٥]، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) تاريخ دمشق [٦/ ١٩٧].
(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه [١٤/ ٨٥].
(٥) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٢٢] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٦) رواه البخارى [٣٣٥٦]، ومسلم [٢٣٧٠/ ١٥٠].

الشيب، فقال: يا رب ما هذا؟ فقال اللَّه: وقارٌ. فقال: يا رب زدنى وقارًا. وزاد غيرهما: وأول من قص شاربه، وأول من استحد، وأول من لبس السراويل.

فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب فى المربعة التى بناها سليمان ابن داود عليه السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم. وهذا تلقى بالتواتر أمةً بعد أمةٍ وجيلاً بعد جيلٍ من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقًا. فأما تعيينه منها فليس فيه خبرٌ صحيحٌ عن معصومٍ، فينبغى أن تراعى تلك المحلة، وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل، وأن تجل أن يداس فى أرجائها؛ خشية أن يكون قبر الخليل أو أحدٍ من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبهٍ قال: وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجرٍ كتابةٌ خلقةٌ:

ألهى جهولا أمله ... يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه ... لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخره ... من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه ... فى القبر إلا عمله

ذكر أولاد إبراهيم الخليل
عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام

أول من وُلد له إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة: مدين، وزمران، وسرج، ويقشان، ونشق، ولم يسم السادس، ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين، فولدت له خمسةً. كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السهيلى فى كتابه «التعريف والإعلام».

☆☆☆

قصة لوط
عليه السلام
وما وقع فى حياة إبراهيم الخليل
من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام
وما حل بهم من النقمة العميمة

وذلك أن لوطًا بن هاران بن تارح، وهو آزر كما تقدم، ولوطٌ ابن أخى إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة، كما قدمنا. ويقال: إن هاران هذا هو الذى بنى حران. وهذا ضعيفٌ؛ لمخالفته ما بأيدى أهل الكتاب، والله أعلم. وكان لوطٌ قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكانت أم تلك المحلة ولها أرضٌ ومعملاتٌ وقرًى مضافةٌ إليها، ولها أهلٌ من أفجر الناس وأكفرهم، وأسوئهم طويةً وأردئهم سريرةً وسيرةً، يقطعون السبيل، ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا فاحشةً لم يسبقهم إليها أحدٌ من بنى آدم، وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوطٌ إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم وحسبانهم وجعلهم مُثلة فى العالمين؛ وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين، ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم فى غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى فى سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ

(٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ

لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨)﴾ [النمل].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾ [العنكبوت].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات].

وقال تعالى فى الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم، وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾ [القمر]. وقد تكلمنا على هذه القصص فى أماكنها من هذه السورة فى «التفسير»، وقد ذكر اللَّه لوطًا وقومه فى مواضع أخر من القرآن تقدم ذكرها مع قوم نوح وعادٍ وثمودَ. والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم، وما أحل اللَّه بهم مجموعًا من الآيات والآثار واللَّه المستعان. وذلك أن لوطًا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى ما ذكر اللَّه عنهم من الفواحش، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجلٌ واحدٌ منهم، ولم يتركوا ما عنه نُهوا، بل استمروا على حالهم، ولم يرعووا عن غيهم

وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم، إذ كانوا لا يعقلون ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل:٥٦]. فجعلوا غاية المدح ذمًا يقتضى الإخراج، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج، فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم فى محلتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماؤها ملحٌ أجاجٌ، وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى، التى لم يسبقهم إليها أحدٌ من أهل الدنيا، ولهذا صاروا مُثلةً فيها، وعبرةً لمن عليها، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون فى ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم ولا يستحيون من مجالسهم. وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوعظ واعظٍ، ولا نصيحةٍ من ناقل وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضى، ولا راموا فى المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذًا وبيلاً، وقالوا له فيما قالوا: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم، فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين، فغار الله لغيرته وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم، وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم، والخطب العميم، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [العنكبوت]. وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤].

وذلك إنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا، ويقلعوا ويرجعوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود]، أى: أعرض عن هذا وتكلم فى غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم، ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾، أى: قد أمر به من لا يرد أمره،

ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٦].

وذكر سعيد بن جبير والسدى وقتادة ومحمد بن إسحاق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قريةً فيها ثلاثمائة مؤمنٍ؟ قالوا: لا. قال: فمائتا مؤمنٍ؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: فأربعة عشر مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال ابن إسحاق: إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمنٌ واحدٌ؟ قالوا: لا. ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ [العنكبوت:٣٢]. وعند أهل الكتاب أنه قال: يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحًا؟ فقال الله: لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحًا. ثم تنازل إلى عشرة فقال الله: لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧]، قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم؛ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبانٍ حسانٍ اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط، وإقامةً للحجة عليهم، فاستضافوا لوطًا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره من القوم الفاسقين وحسبهم بشرًا من الناس ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧]. قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديدٌ بلاؤه. وذلك لما يعلم من مدافعته الليلةَ عنهم، كما كان يصنع بغيرهم معهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدًا، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو فى أرضٍ له يعمل فيها، فتضيفوا فاستحيى منهم، وانطلق أمامهم، وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا فى غيرها، فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلدٍ أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مراتٍ. قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوطٍ، فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوطٍ تستقى من الماء لأهلها - وكانت له ابنتان؛ اسم الكبرى أريثا والصغرى دغوثا - فقالوا لها: يا جارية هل من منزلٍ؟ فقالت لهم: مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم. فرقت عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيانٌ على باب المدينة ما رأيت وجوه قومٍ قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وقد كان قومه نهوه أن يضيفَ رجلاً فجاء بهم فلم يعلم أحدٌ إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن فى بيت لوطٍ رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط. فجاءه قومه يهرعون إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]. أي: هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. يرشدهم إلى غشيان نسائهم، وهن بناته شرعًا؛ لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث[١].

وكما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. وفى قراءة بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم. وهذا كقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء]

وهذا هو الذى نص عليه مجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ والربيع بن أنسٍ وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وهو الصواب. والقول الآخر خطأ مأخوذٌ من أهل الكتاب، وقد تصحف عليهم، كما أخطأوا فى قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب فى هذه القصة تخبيطًا عظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] نهيٌ لهم عن تعاطى ما لا يليق من الفاحشة، وشهادةٌ عليهم بأنه ليس فيهم رجلٌ رشيدٌ له مسكةٌ ولا فيه خيرٌ بل الجميع سفهاء، فجرةٌ أقوياء، كفرةٌ أعتياء؛ وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه. فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، يقولون عليهم لعائن الله: لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا فى نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم ذى العذاب الأليم؛ ولهذا قال عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. ود أن لو كان له بهم قوةٌ أو له منعةٌ وعشيرةٌ ينصرونه عليهم؛ ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب. وقد قال الزهرى عن سعيدِ بن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنهم مرفوعًا: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوى إلى ركنٍ شديدٍ، ولو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى[٢].

ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة.

---

(١) روى أبو داود [٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه» وحسنه الألبانى.

(٢) رواه البخارى [٣٣٧٢]، ومسلم [١٥١/ ٢٣٨].

وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رحمة الله على لوطٍ، إن كان ليأوى إلى ركنٍ شديدٍ. يعنى الله عز وجل «فما بعث الله بعده من نبىٍ إلا فى ثروةٍ من قومه»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر]. فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم، هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعوون، بل كلما نهاهم يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون، ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منتقلون؛ ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمدٍ صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر]. ذكر المفسرون وغيرهم أن نبى الله لوطًا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم، والباب مغلقٌ وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. لأحللت بكم النكال.

قالت الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقةً بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل: إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محلٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ. فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأنٌ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر]؛ فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوطٍ عليهم السلام آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]، يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه. وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ كأنه يقول: إلا امرأتك فلا تسر بها. ويحتمل أن يكون من قوله:

---

(١) روى البخارى [٣٣٧٥] شطره الأول بلفظ: «يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد»، وأحمد فى المسند [٢/ ٣٣٢] واللفظ له.

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ أى: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر فى المعنى، والله أعلم.

قال السهيلى: واسم امرأة لوطٍ «والهة»، واسم امرأة نوح «والغة». وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائنٍ مريبٍ: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١]، فلما خرج لوط عليه السلام بأهله، وهم ابنتاه، ولم يتبعه منهم رجلٌ واحدٌ. ويقال: إن امرأته خرجت معه، فالله أعلم. فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يُرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد، وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلى قريةٍ قريبةٍ منهم، فقالوا: اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب. فذكروا أنه ذهب إلى قرية «صغر»، التى يقول الناس: غور زغر، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]. قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن، وكن سبع مدنٍ بمن فيهن من الأمم - يقال إنهم كانوا أربع مائة نسمةٍ. وقيل: أربعة آلاف نسمةٍ - وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها. قال مجاهدٌ: فكان أول ما سقط منها شرفاتها. ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤]، والسجيل. فارسيٌ معربٌ؛ وهو الشديد الصلب القوى ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أى: يتبع بعضها بعضًا فى نزولها عليهم من السماء ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أى: معلمةً مكتوبٌ على كل حجرٍ اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه كما قال: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٤].

وكما قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم]، يعنى قلبها فأهوى بها منكسةً؛ عاليها سافلها وغشاها بمطرٍ من حجارةٍ من سجيلٍ متتابعةٍ مسومةٍ، مرقومٍ على كل حجرٍ اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبينَ عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها، ويقال: إن امرأة لوطٍ مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، والتفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا،

وقالت: واقوماه. فسقط عليها حجرٌ فدمغها وألحقها بقومها؛ إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على من يكون عند لوطٍ من الضيفان كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] أى: خانتاهما فى الدين فلم تتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما كانتا على فاحشةٍ؛ حاشا وكلا، فإن اللَّه لا يقدر على نبيه أن تبغى امرأته؛ كما قال ابن عباسٍ وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبيٍّ قط. ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا.

قال اللَّه تعالى فى قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول اللَّه ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فعاتب اللَّه المؤمنين، وأنب وزجر، ووعظ وحذر، وقال فيما قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور]، أى: سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

وقوله ههنا: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، أى: وما هذه العقوبة ببعيدةٍ ممن أشبههم فى فعلهم. ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم، سواء كان محصنًا أو لا. نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبلٍ، وطائفةٌ كثيرةٌ من الأئمة. واحتجوا أيضًا بما رواه الإمام أحمد وأهل «السنن» من حديث عمرو بن أبى عمرٍو عن عكرمة عن ابن عباسٍ أن رسول اللَّه ﷺ قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوطٍ فاقتلوا الفاعل والمفعول به[(١)]. وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهقٍ ويتبع بالحجارة؛ كما فعل بقوم لوطٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وجعل اللَّه مكان تلك البلاد بحرةً[(٢)] منتنةً لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها؛ لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرةً ومُثلةً وعظةً، وآيةً على قدرة اللَّه تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين فى انجائه إياهم من المهلكات وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٣٠٠] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف. والترمذى [١٤٥٦]، أبو داود [٤٤٦٢]، وابن ماجه [٢٥٦١] وقال الألبانى: صحيح.

(٢) البحرة: البلدة، والعرب تسمى المدن والقرى البحار.

سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر]. أى: من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلةً عامرةً هالكةً غامرةً؟ كما روى الترمذى وغيره مرفوعًا: اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1].

وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أى: لبطريق مهيع مسلوكٍ إلى الآن، كما قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الذاريات]. أى: تركناها عبرةً وعظةً لمن خاف عذاب الآخرة، وخشى الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله، وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوطٍ. و «من تشبه بقوم فهو منهم»[2]. وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه؛ كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوطٍ بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله؛ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، والجوارى من السرارى ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].

☆☆☆

---

(١) رواه الترمذى [٣١٢٧] وضعفه الألبانى.

(٢) رواه أبو داود [٤٠٣١] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، وقال الألبانى: حسن صحيح.

قصة مدين

قوم شعيب عليه الصلاة والسلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾ [الأعراف].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود].

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوطٍ أيضًا: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر].

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الشعراء].

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم مدين التي هي قريةٌ من أرض معانٍ من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوطٍ. وكانوا بعدهم بمدةٍ قريبةٍ. ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وشعيبٌ نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن. ذكره ابن إسحاق. قال: ويقال له بالسريانية. بثرون وفي هذا نظرٌ. ويقال: شعيب بن يشجن بن لاوى ابن يعقوب ويقال: شعيب بن ثويب بن عبقا بن مدين بن إبراهيم. ويقال: شعيب ابن صيفور بن عبقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. وقيل غير ذلك في نسبه.

قال ابن عساكر: ويقال: جدته - ويقال: أمه - بنت لوطٍ. وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه، ودخل معه دمشق. وعن وهب بن منبهٍ أنه قال: شعيبٌ وبلغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار، وهاجرا معه إلى الشام، فزوجهما بنتي لوطٍ عليه السلام. ذكره ابن قتيبة. وفي هذا كله نظرٌ أيضًا. والله أعلم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» في ترجمة سلمة بن سعيدٍ العنزي: قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة فقال: «نعم الحي عنزة مبغيٌّ عليهم منصورون قوم شعيبٍ وأختان موسى عليهما السلام»[1]. فلو صح هذا لدل على أن

(١) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب [٢/ ٦٤٤/ ١٠٣٥] والطبراني في المعجم الكبير [٧/ ٥٥/ ٦٣٦٤] وقال الهيثمي في المجمع [١٠/ ٥١]: وفيه من لم أعرفهم.

شعيبًا من موسى، وأنه من قبيلةٍ من العرب العاربة يقال لهم: عنزة. لا أنهم من عنزة ابن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان؛ فإن هؤلاء بعده بدهرٍ طويلٍ. والله أعلم.

وفى حديث أبى ذرٍّ الذى «فى صحيح ابن حبان» فى ذكر الأنبياء والرسل قال: أربعةٌ من العرب؛ هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ونبيك يا أبا ذرّ(١).

وكان بعض السلف يسمى شعيبًا خطيب الأنبياء. يعنى لفصاحته وعلو عبارته، وبلاغته فى دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وقد روى ابن إسحاق بن بشرٍ عن جويبرٍ ومقاتلٍ عن الضحاك عن ابن عباسٍ قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال: ذاك خطيب الأنبياء(٢).

وكان أهل مدين كفارا، يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكةَ؛ وهى شجرةٌ من الأيك، حولها غيضةٌ ملتفةٌ بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً منهم؛ وهو رسول الله شعيبٌ عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة؛ من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولى الحميد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]. أى: دلالةٌ وحجةٌ واضحةٌ وبرهانٌ قاطعٌ على صدق ما جئتكم به، وأنه أرسلنى، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم تنقل إلينا تفصيلاً وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]. أمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف، ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف]. أى: طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾. أى: تتوعدون الناس، بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك، وتخيفون السبل.

قال السدى فى «تفسيره» عن الصحابة ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾: أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٣٦١]، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف جدًا.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك [٢/٥٦٨] وقال: صحيح على شرط مسلم.

وقال إسحاق بن بشرٍ عن جويبرٍ عن الضحاك عن ابن عباسٍ قال: كانوا قومًا طغاةً بغاةً، يجلسون على الطريق يبخسون الناس، يعني: يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك.

﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف: ٨٦]. فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦]، ذكرهم بنعمة اللّه تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة اللّه بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه، كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤]، أي: لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه، فيمحق اللّه بركة ما في أيديكم، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم، وهذا مضافٌ إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا، فقد باء بالصفقة الخاسرة. فنهاهم أولاً: عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة اللّه عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في أخراهم، وعنفهم أشد تعنيف. ثم قال لهم آمرًا بعدما كان عن ضده زاجرًا: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود].

قال ابن عباسٍ والحسن البصري: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي: رزق اللّه خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. وقال ابن جريرٍ: ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. قال: وقد روى هذا عن ابن عباسٍ. وهذا الذي قاله وحكاه حسنٌ، وهو شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، يعني: أن القليل من الحلال خيرٌ لكم من الكثير من الحرام؛ فإن الحلال مباركٌ وإن قل، والحرام ممحوقٌ وإن كثرٌ؛ كما قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال رسول اللّه ﷺ: «إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قلٍّ»[١]. رواه أحمد. أى إلى قلةٍ. وقال رسول اللّه ﷺ: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما[٢].

والمقصود أن الربح الحلال مباركٌ فيه وإن قل، والحرام لا يجدى وان كثر؛ ولهذا قال نبي اللّه شعيبٌ: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

---

(١) رواه أحمد في المسند [١/ ٣٩٥] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، والطبراني في المعجم الكبير [١٠/ ٢٢٣/ ١٠٥٣٨] عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنهما.

(٢) رواه البخاري [٢٠٧٩]، ومسلم [١٥٣١/ ٤٥]، وأحمد في المسند [١/ ٣٩٥].

[هود: ٨٦]، أى: افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه اللَّه ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيرى. ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]، يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلواتك هذه التى تصليها هى الآمرة لك بأن تحجر علينا، فلا نعبد إلا إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو أنا لا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التى تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟ ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

قال ابن عباسٍ وميمون بن مهران وابن جريجٍ: وزيد بن أسلم وابن جريرٍ يقولون ذلك - أعداء اللَّه - على سبيل الاستهزاء.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

هذا تلطفٌ معهم فى العبارة، ودعوةٌ لهم إلى الحق بأبين إشارةٍ؛ يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾، أى: على أمرٍ بينٍ من اللَّه تعالى أنه أرسلنى إليكم ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعنى النبوة والرسالة. يعنى: وعمى عليكم معرفتها، فأى حيلةٍ لى بكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواءً.

وقوله: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾، أى: لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعلٍ له، وإذا نهيتكم عن الشىء فأنا أول من يتركه. وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هى المردودة الذميمة، كما تلبس بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون.

قال اللَّه تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وذكرنا عندها فى «الصحيح» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه - أى تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه[1].

وهذه صفة مخالفى الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبى اللَّه شعيبٌ:

---

(١) رواه البخارى [٣٢٦٧]، ومسلم [٢٩٨٩/ ٥١].

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ ، أي: ما أريد فى جميع أمرى إلا الإصلاح فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ ﴾ أى فى جميع أحوالى ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ، أى: عليه أتوكل فى سائر الأمور، وإليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى. وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩].

أي: لا تحملنكم مخالفتى وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هودٍ وقوم صالحٍ من المكذبين المخالفين.

وقوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ ، قيل: معناه فى الزمان. أى ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم. وقيل: معناه وما هم منكم ببعيدٍ فى المحلة والمكان. وقيل: فى الصفات والأفعال المستقبحات؛ من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرةً وخفيةً بأنواع الحيل والشبهات. والجمع بين هذه الأقوال ممكنٌ فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم؛ لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفاتٍ. ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠]، أى: أقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه تاب عليه، فإنه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها ﴿ وَدُودٌ ﴾ وهو الحبيب، ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام. ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود: ٩١].

روى عن ابن عباسٍ وسعيد بن جبيرٍ والثورى أنهم قالوا: كان ضرير البصر(١).

وقد روى فى حديثٍ مرفوعٍ أنه بكى من حب الله حتى عمى فرد الله عليه بصره، وقال: يا شعيب أتبكى خوفًا من النار أو من شوقك إلى الجنة؟ فقال: بل من محبتك، فإذا نظرت إليك فلا أبالى ماذا يصنع بى. فأوحى الله إليه: هنيئًا لك يا شعيب لقائى فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمى(٢). رواه الواحدى عن أبى الفتح محمد بن علىّ الكوفى عن على بن الحسن بن بندار عن أبى عبد الله محمد بن إسحاق الرملى عن هشام بن عمار عن إسماعيل بن عياشٍ عن بحيرٍ بن سعد عن شداد بن أوسٍ عن النبى ﷺ بنحوه وهو غريبٌ جدًا، وقد ضعفه الخطيب البغدادى.

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [٢/٥٦٨]، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية [١/٤٩] والخطيب فى تاريخه [٦/ ٣١٥] والسيوطى فى الدر المنثور [٣/٣٤٨] وانظر السلسلة الضعيفة للألبانى [٩٩٨].

وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]. وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، أي: ما نفهمه ولا نتعقله؛ لأنا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همةٌ إليه ولا إقبالٌ عليه. وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، أي: مضطهدًا مهجورًا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]، أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم، ولا تخافون جانب الله، ولا تراعوني لأني رسول الله فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] أي: جعلتم جانب الله وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢] أي: هو عليمٌ بما تعملونه وما تصنعونه ومحيطٌ بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]. وهذا أمر تهديدٍ شديدٍ ووعيدٍ أكيدٍ بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: ٩٣]. أي: في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٩٣] أي: في الأخرى ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر. ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وهذا كقوله:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف]. طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيبٌ للمحاجة عن قومه فقال: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]. أي: هؤلاء لا يعودون إليكم اختيارًا، وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطرارًا مكرهين؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحدٌ ولا يريد أحدٌ أن يزول عنه ولا محيد لأحدٍ منه؛ ولهذا قال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي فهو كافينا وهو العاصم لنا، وإليه ملجأنا في جميع أمرنا.

ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. أي: الحاكمين. فدعا عليهم، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله خالفوه، ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون وبه مستمسكون ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفةٌ، أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديدًا، أزهقت أرواحهم من أجسادهم وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها، وأصبحت جثتهم جاثيةً لا أرواح فيها ولا حركاتٍ بها ولا حواس لها.

وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وصنوفًا من المثلات، وأشكالاً من البليات؛ وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفَة شديدَة أسكنت الحركات، وصيحةً عظيمةً أخمدت الأصوات، وظلةً أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات. ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورةٍ بما يناسب سياقها ويوافق طباقها؛ في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة، وهذا مناسبٌ لهذا السياق، ومتعلقٌ بما تقدمه من السياق. وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي جَهَّلُوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحةٌ أسكتتهم مع رجفةٍ أسكنتهم. وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابةً لما طلبوا وتقريبًا إلى ما إليه رغبوا؛ فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء].

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيفٌ وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء].

ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦] لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا، ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمةٌ أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن.

فأما الحديث الذى أورده الحافظ ابن عساكر فى ترجمة النبى شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعدٍ عن شفيق بن أبى هلالٍ عن ربيعة بن سيفٍ عن عبد الله بن عَمرٍو مرفوعًا: إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبًا النبى عليه السلام. فإنه حديثٌ غريبٌ وفى رجاله من تكلم فيه، والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرٍو، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى إسرائيل. والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان، فدل على أنهم أمةٌ واحدةٌ أهلكوا بأنواعٍ من العذاب، وذكر فى كل موضعٍ ما يناسب من الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ذكروا أنهم أصابهم حرٌّ شديدٌ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماءٌ ولا ظلٌّ ولا دخولهم فى الأسراب فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابةٌ فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله عليهم ترميهم بشررٍ وشهبٍ من نارٍ ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحةٌ من السماء فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأعراف].

ونجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين؛ كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ

﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأعراف].

وهذا فى مقابلة قولهم: ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾.

ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخا ومؤنبا ومقرعا فقال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣]، أى: أعرض عنهم موليًا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾، أى: قد أديت ما كان واجبًا على من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك؛ لأن اللَّه لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَيْفَ آسَىٰ ﴾ أى: أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أى: لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون عليه فحل عليهم من بأس اللَّه الذى لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع، ولا محيد لأحدٍ أريد به عنه، ولا مناص منه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى «تاريخه» عن ابن عباسٍ أن شعيبًا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام. وعن وهبِ بن منبهٍ أن شعيبًا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربى الكعبة، بين دار الندوة ودار بنى سهمٍ.

☆☆☆

باب ذكر ذرية إبراهيم
عليه الصلاة والسلام

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم وما آل إليه أمره عليه السلام والتحية والإكرام. وذكرنا ما وقع فى زمانه من قصة قوم لوطٍ، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيبٍ عليه السلام؛ لأنها قرينتها فى كتاب الله عز وجل فى مواضع متعددةٍ يذكر تعالى بعد قصة قوم لوطٍ قصة مدين، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا، فذكرناها تبعا لها؛ اقتداءً بالقرآن العظيم. ثم نشرع الآن فى الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لأن الله جعل فى ذريته النبوة والكتاب، فكل نبىٍّ أرسل بعده فمن ولده.

☆☆☆

ذكر إسماعيل
عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان؛ أسنهما وأجلهما الذى هو الذبيح على الصحيح إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل.

ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق. فإنما تلقاه من نقله بنى إسرائيل، الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل، وخالفوا بأيديهم فى هذا من التنزيل. فإن إبراهيم أُمر بذبح ولده البكر. وفى رواية الوحيد.

وأيًا ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل؛ ففى نص كتابهم أن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ستٌّ وثمانون سنةً، وإنما ولد إسحاق بعد مضى مائة سنةٍ من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنىً على كل حالةٍ. أما فى الصورة: فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاث عشرة سنةً. وأما أنه وحيدٌ فى المعنى: فإنه هو الذى هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر، وكان صغيرًا رضيعًا فيما قيل، فوضعهما فى وهاد جبال فاران، وهى الجبال التى حول مكة، نعم المقيل، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل، وذلك ثقةً بالله وتوكلًا عليه، فحاطهما اللّه تعالى بعنايته وكفايته، فنعم الحسيب والكافى والوكيل والكفيل.

فهذا هو الولد الوحيد فى الصورة والمعنى، ولكن أين من يتفطن لهذا السر؟ وأين من يحل بهذا المحل؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيهٍ نبيلٍ.

وقد أثنى اللّه تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله؛ ليقيهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب. قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات].

فطاوع أباه على ما إليه دعاه، ووعده بأن سيصبر، فوفى بذلك وصبر.

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ

أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص].

وقال تعالى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ونظيرتها من السورة الأخرى.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٠]. فذكر اللَّه عنه كل صفةٍ جميلةٍ، وجعله نبيه ورسوله، وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون، وأمر بأن يؤمن عباده المؤمنون بما أنزل عليه.

وذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشًا، فأنسها وركبها. وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى «مغازيه»: حدثنا شيخٌ من قريشٍ حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: اتخذوا الخيل واغتبقوها؛ فإنها ميراث أبيكم إسماعيل. وكانت هذه العراب وحشًا، فدعا لها بدعوته التى كان أعطى فأجابته. وإنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهمٍ والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

قال الأموى: حدثنى على بن المغيرة حدثنا أبو عبيدة حدثنا مسمع بن مالكٍ عن محمد بن على بن الحسين عن آبائه عن النبى ﷺ أنه قال: أول من فتق لسانه بالعربية البينة: إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنةً فقال له يونس: صدقت يا أبا يسارٍ هكذا أبو جرىٍّ حدثنى[1].

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب من العماليق امرأةً، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها.

قال الأموى: هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العملاقى ثم نكح غيرها، فأمره أن يستمر بها فاستمر بها، وهى السيدة بنت مضاض بن عمرٍو الجرهمى.

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير [٢٥٨١]، وقال الألبانى: صحيح، والمتقى الهندى فى كنز العمال [٣٢٣٠٩].

وقيل: هذه ثالثةٌ. فولدت له اثني عشر ولدًا ذكرًا. وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه اللّه؛ وهم: نابتٌ، وقيدرٌ، وأذبل، وميشى، ومسمعٌ، وماشٌ، ودما، وأدر، ويطور، ونبشٌ، وطيما، وقذيما. وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتابهم، وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيمًا المبشر بهم المتقدم ذكرهم، وكذبوا فى تأويلهم ذلك.

وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات اللّه وسلامه عليه. ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحاق فولدت له الروم، ويقال لهم: بنو الأصفر. لصفرةٍ كانت فى العيص. وولدت له اليونان فى أحد الأقوال. ومن ولد العيص الأشبان. قيل: منهما أيضًا. وتوقف ابن جريرٍ رحمه اللّه.

ودفن إسماعيل نبى اللّه بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائةً وسبعًا وثلاثين سنةً. وروى عن عمر بن عبد العزيز، أنه قال شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة فأوحى اللّه إليه: إنى سأفتح لك بابًا إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه، تجرى عليك روحها إلى يوم القيامة.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابتٍ وقيدارٍ. وسنتكلم على أحياء العرب وبطونها وعمائرها وقبائلها وعشائرها من لدن إسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول اللّه ﷺ، وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة، بعد الفراغ من أخبار أنبياء بنى إسرائيل إلى زمان عيسى ابن مريم، خاتم أنبيائهم ومحقق أنبائهم، ثم نذكر ما كان فى زمن بنى اسرائيل، ثم ما وقع فى أيام الجاهلية، ثم ينتهى الكلام إلى سيرة نبينا رسول اللّه إلى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم من الأمم إن شاء اللّه تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم العزيز الحكيم.

☆☆☆

ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم
عليهما الصلاة والتسليم

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنةٍ بعد أخيه إسماعيل بأربع عشر سنةً، وكان عمر أمه سارة حين بُشرت به تسعين سنةً. قال اللَّه تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات]. وقد ذكره اللَّه تعالى بالثناء عليه فى غير ما آيةٍ من كتابه العزيز، وقدمنا فى حديث أبى هريرة عن رسول اللَّه ﷺ: «أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1].

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقا بنت ثبوائيل فى حياة أبيه كان عمره أربعين سنةً، وأنها كانت عاقرًا، فدعا اللَّه لها فحملت، فولدت غلامين توأمين:

أولهما: سموه عيصو وهو الذى تسميه العرب العيص؛ وهو والد الروم.

والثانى: خرج وهو آخذٌ بعقب أخيه فسموه يعقوب، وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه

بنو إسرائيل.

قالوا: وكان إسحاق يحب العيص أكثر من يعقوب؛ لأنه بكره، وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر؛ لأنه الأصغر. قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعامًا، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيدًا ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له، وكان العيص صاحب صيدٍ، فذهب يبتغى ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه، ويصنع منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه، ويأتى إليه به قبل أخيه؛ ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين؛ لأن العيص كان أشعر الجسد، ويعقوب ليس كذلك، فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك. فضمه إليه وجسه، وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الجس والثياب فالعيص. فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٣٢] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

إخوته قدرًا وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده، وأن يكثر رزقه وولده. فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده يقربه إليه، فقال له. ما هذا يا بنى؟ قال هذا الطعام الذى اشتهيته. فقال: أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله. وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد فى نفسه عليه وجدًا كثيرًا. وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما. وسأل أباه فدعا له بدعوةٍ أخرى، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذى بأرض حران وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه، وأن يتزوج من بناته، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل، فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء فى موضع فنام فيه؛ أخذ حجرا فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى فى نومه ذلك معراجًا منصوبًا من السماء إلى الأرض، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون، والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك.

فلما هب من نومه فرح بما رأى، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين فى هذا الموضع معبدًا لله عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شىءٍ يكون لله عشره. ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا؛ يتعرفه به، وسمى ذلك الموضع: بيت إيل. أى بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك، كما سيأتى. قالوا: فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان؛ اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل، فخطب إليه راحيل وكانت أحسنهما وأجملهما، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين، فلما مضت المدة عمل خاله لابان طعامًا وجمع الناس عليه، وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى ليا، وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر، فلما أصبح يعقوب إذا هى ليا، فقال لخاله: لقد غدرت بى، وأنت إنما خطبت إليك راحيل. فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها. فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها، وكان ذلك سائغًا فى ملتهم ثم نُسخ فى شريعة التوراة. وهذا وحده دليلٌ كافٍ على وقوع النسخ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليلٌ على جواز هذا وإباحته؛ لأنه معصومٌ. ووهب لابان لكل واحدةٍ من ابنتيه جاريةً؛ فوهب لليا جارية اسمها زلفى، ووهب لراحيل جاريةً اسمها بلها، وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولادًا، فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل ثم شمعون ثم لاوى ثم يهوذا، فغارت عند ذلك راحيل، وكانت لا تحبل، فوهبت ليعقوب جاريتها بلها فوطئها فحملت وولدت له غلامًا سمته دان، وحملت وولدت غلامًا آخر سمته يفثالى فعمدت عند ذلك ليا

فوهبت جاريتها زلفى من يعقوب عليه السلام، فولدت له جاد وأشير؛ غلامين ذكرين، ثم حملت ليا أيضًا، فولدت غلامًا خامسًا منها وسمته أيساخر ثم حملت وولدت غلامًا سادسًا سمته زابلون، ثم حملت وولدت بنتًا سمتها دينا، فصار لها سبعةٌ من يعقوب، ثم دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلامًا من يعقوب، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها؛ فحملت من نبى الله يعقوب، فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمته يوسف. كل هذا وهم مقيمون بأرض حران وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى، فصار مدة مقامه عشرين سنةً، فطلب يعقوب من خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله، فقال له خاله: إنى قد بورك لى بسببك، فسلنى من مالى ما شئت. فقال: تعطينى كل حملٍ يولد من غنمك هذه السنة أبقع، وكل حملٍ ملمع أبيض بسوادٍ، وكل أملح ببياضٍ، وكل أجلح أبيض من المعز. فقال: نعم. فعمدَ بنوه، فابرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس؛ لئلا يولد شيءٌ من الحملان على هذه الصفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيامٍ عن غنم أبيهم. قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبانٍ رطبةٍ بيضٍ من لوزٍ ودلبٍ، فكان يقشرها بلقاء وبيضاء ويضعها فى مساقى الغنم من المياه؛ لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك. وهذا يكون من باب خوارق العادات، وينتظم فى سلك المعجزات. فصار ليعقوب عليه السلام أغنامٌ كثيرةٌ ودوابٌ وعبيدٌ، وتغير له وجه خاله وبنيه، وكأنهم انحصروا منه. وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته، فتحمل بأهله وماله، وسرقت راحيل أصنام أبيها، فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه فى خروجه بغير إذنه وعلمه، وهلا أعلمه فيخرجهم فى فرحٍ ومزامر وطبولٍ، وحتى يودع بناته وأولادهن، ولم أخذوا أصنامه معهم، ولم يكن عند يعقوب علمٌ من أصنامه، فأنكر أن يكونوا أخذوا له أصنامًا، فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش، فلم يجد شيئًا، وكانت راحيل قد جعلتهن فى بردعة الجمل وهى تحتها، فلم تقم واعتذرت بأنها طامثٌ فلم يقدر عليهن، فعند ذلك تواثقوا على رابيةٍ هناك يقال لها: جلعاد. على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابية أحدهما ذاهبًا إلى بلاد الآخرة، لا لابان ولا يعقوب، وعملا طعامًا وأكل القوم معهم، وتودع كل منهما من الآخر، وتفارقوا راجعين إلى بلادهم، فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم، وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيص يترفق له ويتواضع له، فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة راجلٍ، فخشى يعقوب من ذلك ودعا الله عز وجل وصلى له

وتضرع إليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الذى وعده به، وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص، وأعد لأخيه هديةً عظيمةً؛ وهى مائتا شاة وعشرون تيسًا، ومائتا نعجةٍ وعشرون كبشًا، وثلاثون لقحةً، وأربعون بقرةً، وعشرةٌ من الثيران، وعشرون أتانًا، وعشرةٌ من الحمر، وأمر عبيده أن يسوقوا كلًا من هذه الأصناف وحده، ليكون بين كل قطيعٍ وقطيعٍ مسافةٌ، فإذا لقيهم العيص فقال للأول: لمن أنت؟ ولمن هذه معك؟ فليقلْ: لعبدك يعقوب، أهداها لسيدى العيص. وليقل الذى بعده كذلك، وكذا الذى بعده، ويقول كل منهم: وكذا الذى بعده وهو جاءٍ بعدنا. وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهارًا، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدى له ملكٌ من الملائكة فى صورة رجلٍ، فظنه يعقوب رجلاً من الناس، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه، فظهر عليه يعقوب فيما يرى، إلا أن الملك أصاب وركه، فعرج يعقوب، فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال: يعقوب. قال: لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل. فقال له يعقوب: ومن أنت؟ وما اسمك؟ فذهب عنه، فعلم أنه ملكٌ من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله. فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا، ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيص قد أقبل فى أربعمائة راجلٍ، فتقدم أمام أهله، فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مراتٍ، وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان، وكان مشروعًا لهم، كما سجدت الملائكة لآدم تحيةً له وكما سجد إخوة يوسف وأبواه له، كما سيأتى.

فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى، ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب اللَّه لعبدك. فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له، ودنت ليا وبنوها فسجدوا له، ودنت راحيل وابنها يوسف آخرًا فسجدا له وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه، فقبلها، ورجع العيص فتقدم أمامه، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال ساعير، فلما مر بساحورا ابتنى له بيتًا ولدوابه ظلالاً، ثم مر على أورشليم قرية سحيم، فنزل قبل القرية واشترى مزرعة بنى حمورٍ أبى سحيم بمائة نعجة فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى ثم مذبحًا، فسماه إيل إله إسرائيل، وأمره اللَّه ببنائه ليستعلن فيه وهو بيت المقدس اليوم الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام، وهو مكان الصخرة التى أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك، كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا من يعقوب من ليا وما كان من أمرها مع سحيم بن حمورٍ الذى قهرها على نفسها وأدخلها منزله، ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتها: لا نفعل إلا أن تختتنوا كلكم، فنصاهركم وتصاهرونا، فإنا

لا نصاهر قومًا غلفًا. فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم، فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا سحيمًا وأباه حمورًا؛ لقبيح ما صنعوا إليهم مضافًا إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم، فلهذا قتلهم بنو يعقوب، وأخذوا أموالهم غنيمةً.

ثم حملت راحيل فولدت غلامًا وهو بنيامين، إلا أنها جهدت فى طلقها به جهدًا شديدًا وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب فى أفراثٍ وهى بيت لحم، وصنع يعقوب على قبرها حجرًا، وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم. وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً. فمن ليا: روبيل، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، وأيساخر، وزابلون. ومن راحيل: يوسف، وبنيامين. ومن أمة راحيل: دان، ونفثالى. ومن أمة ليا: جاد، وأشير عليهم السلام. وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعانٍ حيث كان يسكن إبراهيم، ثم مرض إسحاق ومات عن مائةٍ وثمانين سنةً ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها كما قدمنا والله سبحانه أعلم بذلك.



ذكر ما وقع من الأمور العجيبة فى حياة إسرائيل عليه السلام

فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل عليه السلام

وقد أنزل الله عز وجل فى شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف].

قد تكلمنا على الحروف المقطعة فى أول تفسير سورة البقرة فمن أراد تحقيقه فلينظر ثم، وتكلمنا على هذه السورة مستقصىً فى موضعها من «التفسير» ونحن نذكر ههنا نبذًا مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز.

وجملة القول فى هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسانٍ عربىٍّ فصيح بينٍ واضح جلىٍّ، يفهمه كل عاقلٍ ذكىٍّ زكىٍّ، فهو أشرف كتابٍ نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق، فى أشرف زمانٍ ومكانٍ، بأفصح لغةٍ وأظهر بيانٍ، فإن كان السياق فى الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودمغ الباطل وزيفه ورده، وإن كان فى الأوامر والنواهى، فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكمًا وأعدل حكمًا فهو كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] يعنى صدقًا فى الأخبار عدلاً فى الأوامر والنواهى. ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. أى: بالنسبة إلى ما أُوحى إليك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طـه].
يعنى: من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد كما قال في الحديث المروى في «المسند» و «الترمذى» عن أمير المؤمنين عليٍّ، مرفوعًا وموقوفًا: من ابتغى الهدى في غيره أضله الله[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشيمٌ أنبأنا مجالدٌ عن الشعبى عن جابرٍ أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أتى النبى ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبى ﷺ. قال: فغضب وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبرونكم بحقٍّ فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى[٢]. إسنادٌ صحيحٌ.

رواه من وجهٍ آخر عن عمرٍو فيه: فقال رسول الله ﷺ: والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين[٣].

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف وفي بعضها أن رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال في خطبته: أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لى اختصارًا ولقد أتيتكم بها بيضاء نقيةً فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون. ثم أمر بتلك الصحيفة، فمحيت حرفا حرفا[٤].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا وسميناهم، وإليهم

---

(١) رواه أحمد في المسند [١/ ٩١] وقال الأرناؤوط: إسناد ضعيف لضعف الحارث ابن عبد الله الأعور، والترمذى [٢٩٠٦] وضعفه الألبانى.
(٢) رواه أحمد في المسند [٣/ ٣٨٧] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف مجالد: وهو ابن سعيد.
(٣) رواه أحمد في المسند [٣/ ٤٧٠، ٤٧١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف؛ لضعف جابر وفيه اضطراب.
(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه [١٠١٦٣] وابن أبي شيبة في مصنفه [٣١٧٧٢] وقال الهيثمى في مجمع الزوائد [١/ ١٧٨]: رواه أبو يعلى وفيه عبد الرحمن بن إسحاق ضعفه أحمد وجماعة.

ينتسب أسباط بنى إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام. وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبىٌّ غيره وباقى إخوته لم يوح إليهم. وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم فى هذه القصة يدل على هذا القول. ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة]. وزعم أن هؤلاء هم الأسباط، فليس استدلاله بقوى؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بنى إسرائيل، وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحى من السماء، والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه نص على نبوته والإيحاء إليه فى غير ما آيةٍ من كتابنا العزيز، ولم ينص على واحدٍ من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه. ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينارٍ عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم[1]. انفرد به البخارى ورواه عن عبد الله بن محمدٍ وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به. وقد ذكرنا طرقه فى قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة. قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغيرٌ قبل أن يحتلم كأن ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ وهم إشارةٌ إلى بقية أخوته ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ هما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك، فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلةً عاليةً ورفعةً عظيمةً فى الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر. وهذا يدل على ما ذكرناه ولهذا جاء فى بعض الآثار: استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها؛ فإن كل ذى نعمةٍ محسود[2]. وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معًا. وهو غلطٌ منهم ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦]. أى: وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة فإذا كتمتها ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أى: يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾، أى: يفهمك من معانى الكلام وتعبير المنام مالا يفهمه غيرك ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾، أى: بالوحى إليك

---

(١) رواه البخارى [٣٣٩٠، ٤٦٨٨]، وأحمد فى المسند [٢/ ٩٦].

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط: [٢٤٥٥] والصغير [١١٨٦] والكبير [٢٠/ ٩٤/ ١٨٣] وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٨/ ١٩٥]: قال العجلى: لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ.

﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ ﴾، أى: بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ﴾، أى: ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحاق ووالد جدك إبراهيم الخليل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أى الناس أكرم؟ قال: يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله(١).

وقد روى ابن جريرٍ وابن أبى حاتم فى «تفسيريهما» وأبو يعلى والبزار فى «مسنديهما» من حديث الحكم بن ظهيرٍ - وقد ضعفه الأئمة - عن السدى عن عبد الرحمن بن سابطٍ عن جابرٍ قال: أتى النبى ﷺ رجلٌ من اليهود يقال له: بستانة اليهودى. فقال: يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدةٌ له؛ ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبى ﷺ فلم يجبه بشىءٍ، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها. قال: فبعث إليه رسول الله، فقال: هل أنت مؤمنٌ إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم. فقال: هى جربان، والطارق، والذيال، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق والمصبح والصروح وذو الفرع والضياء، والنور. فقال اليهودى: إى والله، إنها لأسماؤها(٢).

وعند أبى يعلى: فلما قصها على أبيه قال: هذا أمرٌ مشتتٌ يجمعه الله، والشمس أبوه والقمر أمه.

﴿ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾ [يوسف]. ينبه تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات. ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه بنيامين - أكثر منهم وهم عصبةٌ. أى: جماعةٌ. يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ أى: بتقديمه حبهما علينا.

ثم اشتوروا فيما بينهم فى قتل يوسف أو إبعاده إلى أرضٍ لا يرجع منها، ليخلو لهم وجه أبيهم؛ أى لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد

---

(١) رواه البخارى [٣٣٧٤]، ومسلم [٢٣٧٨/١٦٨].

(٢) رواه العقيلى فى الضعفاء [١/٢٥٩]، وابن حبان فى المجروحين [١/ ٢٥٠] والطبرى فى التفسير [١٢/ ٩٠].

ذلك. فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [يوسف: ١٠].

قال مجاهدٌ: هو شمعون. وقال السدى: هو يهوذا. وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم روبيل. ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ [يوسف: ١٠]. أى: المارة من المسافرين ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾. ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذى أقول لكم فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه، فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يوسف]. طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليمٌ، فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بنى يشق على أن أفارقه ساعةً من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا فى لعبكم وما أنتم فيه فيأتى الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه؛ لصغره وغفلتكم عنه. ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١٤]. أى لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾. أى: عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن الطريق حتى أرشده رجلٌ إليهم، وهذا أيضًا من غلطهم وخطئهم فى التعريب؛ فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده؟ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف].

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا أن غابوا عنه عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه ﴿ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾؛ أى: فى قعره على راعوفته - وهى الصخرة التى تكون فى وسطه يقف عليها المائح؛ وهو الذى ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء، والذى يرفعها بالحبل يسمى الماتح - فلما ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بد لك من فرج ومخلص ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا، فى حالٍ أنت فيها عزيزٌ وهم محتاجون إليك خائفون منك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٥] قال مجاهدٌ وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك. وعن ابن عباسٍ: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٥]. أى:

لتخبرنهم بأمرهم هذا في حالٍ لا يعرفونك فيها. رواه ابن جرير عنه.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشيءٍ من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاءً وهم يبكون؛ أي: على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف: "لا يغرنك بكاء المتظلم، فرب ظالم وهو باكٍ. وذكر بكاء إخوة يوسف: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾، أي: في ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ [يوسف: ١٧]. أي: ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ أي: في غيبتنا عنه في استباقنا. وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ . أي: وما أنت بمصدقٍ لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك فكيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك فمعذورٌ أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ [يوسف: ١٨] أي مكذوبٍ مفتعلٍ. لأنهم عمدوا إلى سخلةٍ[1] ذبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه؛ ليوهموا أباهم أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه. وآفة الكذب النسيان. ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته، ولما راودوه عن أخذه، فبمجرد ما أخذوه أعدموه وغيبوه عن عينيه، وجاءوا وهم يتباكون، وعلى ما تمالؤا عليه يتواطئون؛ ولهذا ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وعند أهل الكتاب أن روبيل أشار بوضعه في الجب؛ ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة، فلما جاء روبيل من آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشق ثيابه وحزن وعمد أولئك إلى جديٍ فذبحوه ولطخوا من دمه جبة يوسف فلما علم يعقوب شق ثيابه ولبس مئزرًا أسود وحزن على ابنه أيامًا كثيرةً. وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف].

---

(١) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكرا أو أنثى والجمع سَخْل وسخال.

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع فى الجب، أنه جلس ينتظر فرج اللَّه ولطفه به ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أى: مسافرون. قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم[1]، قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف، فلما رآه ذلك الرجل ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ ﴾ أى: يا بشارتى ﴿هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ﴾ [يوسف: ١٩] أى: أوهموا أنه معهم غلامًا من جملة متجرهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: ١٩]. أى: هو عالمٌ بما تمالأ عليه إخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعةٌ لهم، ومع هذا لا يغيره تعالى؛ لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأرض مصر بما يجرى اللَّه على يدى هذا الغلام الذى يدخلها فى صورة أسيرٍ رقيقٍ، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور، وينفعهم اللَّه به فى دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا أبق منا. فاشتروه منهم بثمنٍ بخسٍ؛ أى قليلٍ نزرٍ. وقيل: هو الزيف.

﴿ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠]. قال ابن مسعودٍ وابن عباسٍ ونوفٌ البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى: باعوه بعشرين درهمًا اقتسموها درهمين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهما. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهمًا. فاللَّه أعلم. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف: ٢١]. أى: أحسنى إليه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] وهذا من لطف اللَّه به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خير الدنيا والآخرة. قالوا: وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها؛ وهو الوزير بها الذى الخزائن مسلمةٌ إليه.

قال ابن إسحاق: واسمه أطفير بن روحيب. قال: وكان ملك مصر يومئذٍ: الريان ابن الوليد رجل من العماليق. قال: واسم امرأة العزيز: راعيل بنت رعاييل.

وقال غيره: كان اسمها: زليخا، والظاهر أنه لقبها. وقيل: فكا بنت ينوس.

رواه الثعلبى عن أبى هشامٍ الرفاعى.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبى صالح عن ابن عباسٍ: كان اسم الذى باعه بمصر - يعنى الذى جلبه إليها - مالك بن ذعر بن ثويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم. فاللَّه أعلم.

---

(١) البطم: الحبة الخضراء أو شجرها، ثمره نافع للسعال واللقوة والكلية، وتغليف الشعر بورقه الجاف المتحول ينبته ويحسنه.

وقال ابن إسحاق عن أبى عبيدة عن ابن مسعودٍ قال: أفرس الناس ثلاثةٌ؛ عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وأبو بكرٍ الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنهما.

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا. وقيل: بوزنه مسكًا ووزنه حريرًا ووزنه ورقًا. فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] أى: وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له فى أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]. أى: فهمها وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]. أى: إذا أراد شيئًا فإنه يقيض له أسبابا وأمورا لا يهتدى إليها العباد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد؛ وهو حد الأربعين الذى يوحى اللّه فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين.

وقد اختلفوا فى مدة العمر الذى هو بلوغ الأشد؛ فقال مالكٌ وربيعة وزيد ابن أسلم والشعبى: هو الحلم. وقال سعيد بن جبير: ثمانى عشرة سنةً. وقال الضحاك: عشرون سنةً. وقال عكرمة: خمسٌ وعشرون سنةً. وقال السدى: ثلاثون سنةً. وقال ابن عباسٍ ومجاهدٌ وقتادة: ثلاثٌ وثلاثون سنةً. وقال الحسن: أربعون سنةً. ويشهد له قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف]. يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه، وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهى فى غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهى مع هذا كله امرأة الوزير. قال ابن إسحاق:

وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر. وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شابٌ بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبيٌ من سلالة الأنبياء فعصمه ربه عن الفحشاء وحماه من مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء المذكورين فى «الصحيحين» عن خاتم الأنبياء فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: سبعةٌ يظلهم اللَّه فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمامٌ عادلٌ، ورجلٌ ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه، ورجلٌ معلقٌ قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشابٌ نشأ فى عبادة الله، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصب وجمالٍ فقال: إنى أخاف اللَّه(١).

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٢٣]. يعنى: زوجها صاحب المنزل سيدى ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أى: أحسن إلى وأكرم مقامى عنده ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وقد تكلمنا على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]. بما فيه كفايةٌ ومقنعٌ فى «التفسير» وأكثر أو قال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا. والذى يجب أن يعتقد أن اللَّه تعالى عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة، وحماه عنها، وصانه منها.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٤] أى: هرب منها طالبًا إلى الباب ليخرج منه فرارًا منها، فاتبعته فى أثره ﴿وَأَلْفَيَا﴾ أى: وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أى زوجها ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ فبادرته بالكلام وحرضته عليه ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]. اتهمته وهى المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها؛ فلهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦] احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦] قيل: كان صغيرًا فى المهد. قاله ابن عباسٍ. وروى عن أبى هريرة وهلال بن يسافٍ والحسن البصرى وسعيد بن جبيرٍ والضحاك واختاره ابن جرير وروى فيه حديثًا مرفوعًا عن ابن عباسٍ ووقفه غيره عنه. وقيل: كان رجلاً قريبًا إلى أطفير بعلها. وقيل: قريبًا إليها.

وممن قال إنه كان رجلاً: ابن عباسٍ وعكرمة ومجاهدٌ والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]. أى: لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه

(١) رواه البخارى [٦٦٠]، ومسلم [٩١/١٠٣١] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧]. أى: لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك. وكذلك كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. أى: هذا الذى جرى من مكركن أنت راودته عن نفسه ثم اتهمته بالباطل. ثم أضرب بعلها عن هذا صفحًا فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾. أى: لا تذكره لأحدٍ؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها والتوبة إلى ربها؛ فإن العبد إذا تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه. وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو اللَّه وحده لا شريك له فى ذلك. ولهذا قال لها بعلها - وعذرها من بعض الوجوه؛ لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله إلا أنه عفيفٌ نزيهٌ برىء العرض سليم الناحية - فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف]. يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة - يعنى مصر - من نساء الأمراء وبنات الكبراء، فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، يعنين: وهو لا يساوى هذا؛ لأنه مولىً من الموالى، وليس مثله أهلاً لهذا. ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]. أى: فى وضعها الشىء فى غير محله ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١]. أى: بتشنيعهن عليها والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها. فأظهرن ذمًّا، وهى معذورةٌ فى نفس الأمر، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن، فأرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها، واعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت فى جملة ذلك شيئًا مما يقطع بالسكاكين؛ كالأترج ونحوه ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف:٣١]. وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب، وهو فى غاية طراوة الشباب، وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١]. أى: أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن

عن أنفسهن وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

وقد جاء فى حديث الإسراء: فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن[1]. قال السهيلى وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق آدم، بيده ونفخ فيه من روحه فكان فى غاية نهايات الحسن البشرى، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعودٍ: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أتته امرأةٌ لحاجةٍ غطى وجهه. وقال غيره: كان فى الغالب مبرقعًا؛ لئلا يراه الناس. ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]. ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢]. أى: امتنع ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢]. وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى؛ لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]. يعنى: إن وكلتنى إلى نفسى فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله، فأنا ضعيفٌ إلا ما قويتنى وعصمتنى وحفظتنى وحطتنى بحولك وقوتك.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟

(١) رواه مسلم [١٦٢/ ٢٥٩] وأحمد فى المسند [٣/ ١٤٨].

إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف].

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم ﴿ بَدَا لَهُم ﴾؛ أي: ظهر لهم من الرأى بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقتٍ؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية وأخمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا. وكان هذا مما قدر اللّه له ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعى أن من العصمة أن لا تجد. قال اللّه تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦].

قيل: كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل بنو. والآخر خبازه - يعنى الذى يلى طعامه، وهو الذى يقول له الترك: الجاشنكير - واسمه فيما قيل مجلث. كان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما، فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه، ودِلّه وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا فى ليلةٍ واحدةٍ؛ أما الساقى: فرأى كأن ثلاث قضبانٍ من حبلةٍ وقد أورقت، وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه.

ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلالٍ من خبزٍ، وضوارى الطيور تأكل من السل الأعلى. فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما. وقالا: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها و ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ﴾ [يوسف: ٣٧].

قيل: معناه مهما رأيتما من حلم فإنى أعبره لكما قبل وقوعه، فيكون كما أقول. وقيل: معناه إنى أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه؛ حلوًا أو حامضًا كما قال عيسى عليه السلام: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وقال لهما: إن هذا من تعليم اللّه إياى؛ لأنى مؤمنٌ به موحدٌ له متبعٌ ملة آبائى الكرام؛ إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٣٨] أى: بأن هدانا لهذا ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أى: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه، وهو فى فطرهم مركوزٌ وفى جبلتهم مغروزٌ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨].

ثم دعاهم إلى التوحيد، وذم عبادة ما سوى اللّه عز وجل، وصغر أمر الأوثان

وحقرها وضعف أمرها، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ . . . ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف].

أى: هو المتصرف فى خلقه الفعال لما يريد، الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ [يوسف: ٤٠]. أى: وحده لا شريك له و ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠]. أى: المستقيم والصراط القويم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]. أى: فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره. وكانت دعوته لهما فى هذه الحال فى غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمةٌ له منبعثةٌ على تلقى ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ [يوسف: ٤١]. قالوا: وهو الساقى. ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ [يوسف: ٤١]. قالوا وهو الخباز: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]. أى: وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالةٍ. ولهذا جاء فى الحديث: الرؤيا على رجل طائرٍ ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت[(١)]. وقد روى عن ابن مسعودٍ ومجاهدٍ وعبد الرحمن بن زيدٍ بن أسلم أنهما قالا: لم نر شيئًا. فقال لهما: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١].

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢].

يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذى ظن أنه ناج منهما وهو الساقى: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف: ٤٢]. يعنى: اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفى هذا دليلٌ على جواز السعى فى الأسباب، ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب. وقوله ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٤٢] أى: فأنسى الناجى منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام.

قاله مجاهدٌ ومحمد بن إسحاق وغير واحدٍ. وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢]. والبضع؛ ما بين الثلاث إلى التسع. وقيل: إلى السبع. وقيل: إلى الخمس. وقيل: ما دون العشرة. حكاها

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٤/ ١٠] وقال الأرناؤوط: حديث حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف، وأبو داود [٥٠٢٠]، والترمذى [٢٢٧٨] وصححه الألبانى.

الثعلبى. ويقال: بضع نسوةٍ وبضعة رجالٍ. ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر، قال: وإنما يقال: نيفٌ.

وقال اللَّه تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]. وهذا ردٌّ لقوله قال الفراء: ويقال: بضعة عشر وبضعة وعشرون. إلى التسعين، ولا يقال: بضعٌ ومائةٌ وبضعٌ وألفٌ وخالف الجوهرى فيما زاد على بضعة عشر فمنع أن يقال: بضعةٌ وعشرون إلى تسعين، وفى «الصحيح»: «الإيمان بضعٌ وستون» وفى رواية: «وسبعون شعبة أعلاها قول: لا إله إلا اللَّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» (١).

ومن قال: إن الضمير فى قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]. عائدٌ على يوسف فقد ضعف ما قاله وإن كان قد روى عن ابن عباسٍ وعكرمة، والحديث الذى رواه ابن جريرٍ فى هذا الموضع ضعيفٌ من كل وجهٍ؛ تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزى المكى وهو متروكٌ، ومرسل الحسن وقتادة لا يُقبل ولا سيما ههنا بطريق الأولى والأحرى. واللَّه أعلم.

فأما قول ابن حبان فى صحيحه: ذكر السبب الذى من أجله لبث يوسف فى السجن ما لبث، أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحى ثنا مسدد بن مسرهدٍ ثنا خالد بن عبد اللَّه ثنا محمد ابن عمروٍ عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: رحم اللَّه يوسف لولا الكلمة التى قالها: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث فى السجن ما لبث، ورحم اللَّه لوطًا أن كان ليأوى إلى ركنٍ شديدٍ إذ قال لقومه: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]. قال: فما بعث اللَّه نبيًا بعده إلا فى ثروةٍ من قومه(٢). فإنه حديثٌ منكرٌ من هذا الوجه. ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارةٌ وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها.

والذى فى «الصحيحين» يشهد بغلطها. واللَّه أعلم(٣).

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ

(١) رواه البخارى [٩]، ومسلم [٥٨/٣٥] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه.

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٢٠٦] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٣) روى البخارى [٣٣٧٢]، ومسلم [٢٣٨/١٥١] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحي المَوْتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾** [البقرة: ٢٦٠] ويرحم اللَّه لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى».

بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف]. هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام؛ وذلك أن ملك مصر - وهو: الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح - رأى هذه الرؤيا. قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهرٍ، وكأنه قد خرج منه سبع بقراتٍ سمانٍ، فجعلن يرتعن فى روضةٍ هناك، فخرجت سبعٌ هزالٌ ضعافٌ من ذلك النهر فرتعن معهن، ثم ملن عليهن فأكلنهن، فاستيقظ مذعورًا، ثم نام فرأى سبع سنبلاتٍ خضرٍ فى قصبةٍ واحدةٍ، وإذا سبعٌ أخر دقاقٌ يابساتٌ تأكلهن فاستيقظ مذعورًا فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها، بل ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ [يوسف: ٤٤] أى: أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك. ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ٤٤]. فعند ذلك تذكر الناجى منهما الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة فى ذلك، فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ ﴾ [يوسف: ٤٥] أى: تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] أى بعد مدةٍ من الزمان؛ وهو بضع سنين وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباسٍ وعكرمة والضحاك: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ ﴾ أى: بعد نسيانٍ وقرأها مجاهدٌ: (بعد أمه) بإسكان الميم، وهو النسيان أيضًا، يقال: أمه الرجل يأمه أمها وأمهًا. إذا نسى. قال الشاعر:

أمهت وكنت لا أنسى حديثا ... كذاك الدهر يردى بالعقول

فقال لقومه وللملك: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف: ٤٥]. أى: فأرسلونى إلى يوسف فجاءه فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٦].

وعند أهل الكتاب أن الملك لما ذكره له الناجى استدعاه إلى حضرته وقص عليه ما رآه ففسره له. وهذا غلطٌ والصواب ما قصه الله فى كتابه القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران من قرائين وربانٍ فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا

تأخرٍ ولا شرطٍ ولا طلب الخروج سريعًا، بل أجابهم إلى ما سألوا وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبعٌ جدبٌ. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ [يوسف: ٤٩]. يعنى: يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعنى: ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها. فعبر لهم وعلى الخير دلهم وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم، وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية؛ إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم، وكمال الرأى والفهم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]. لما أحاط الملك علمًا بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته؛ ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحدٍ أنه حُبس ظلمًا وعدوانًا، وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] يعنى الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

قيل: معناه: إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إلى. أى: فمر الملك فليسألهن كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى، وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيدٍ ولا سديدٍ. فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من خطأ الأمر، وما كان منه من الأمر الحميد، ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾. فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١] وهى زليخا، ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أى: ظهر وتبين ووضح. والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. أى: فيما يقوله من أنه برىءٌ وأنه لم يراودنى، وأنه حبس ظلمًا وعدوانًا وزورًا وبهتانًا. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] قيل: إنه من كلام يوسف. أى: إنما طلبت تحقيق هذا؛ ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب. وقيل: إنه من تمام كلام زليخا. أى: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر، وإنما كان مراودةً لم يقع معها فعل فاحشةٍ. وهذا القول هو الذى نصره طائفةٌ كثيرةٌ من أئمة المتأخرين وغيرهم، ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الأول. ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

قيل: إنه من كلام يوسف. وقيل: من كلام زليخا وهو مفرعٌ على القولين الأولين. وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى، والله أعلم.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف].

لما ظهر للملك براءة عرضه، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه قال: ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ [يوسف: ٥٤] أى: أجعله من خاصتى ومن أكابر دولتى ومن أعيان حاشيتى. فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤]. أى: ذو مكانةٍ وأمانةٍ ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]. طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالاهراء؛ لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضى سبع سنى الخصب؛ لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك إنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾، أى: قوىٌ على حفظ ما لديه، أمينٌ عليه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بضبط الأشياء ومصالح الاهراء. وفى هذا دليلٌ على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدًا وسلطه على جميع أرض مصر، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير، وطوقه الذهب، وحمله على مركبه الثانى، ونودى بين يديه: أنت ربٌ - أى: مالكٌ - ومسلطٌ. وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسى. قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن. وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف.

وقيل: إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء؛ لأن زوجها كان لا يأتى النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين؛ وهما أفرائيم ومنشا.

قال: واستوثق ليوسف ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء. وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنةً، وأن الملك خاطبه بسبعين لغةً وكل ذلك يجاوبه بكل لغةٍ منها، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه. فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾. أى: بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب بديار مصر. ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ [يوسف: ٥٦]. أى: أين شاء حل منها مكرمًا محسودًا معظمًا.

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦]. أى: هذا كله من

جزاء اللَّه وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له فى آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧]. ويقال: إن أطفير زوج زليخا كان قد مات فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا فكان وزير صدقٍ. وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر الوليد بن الريان أسلم على يدى يوسف عليه السلام. فاللَّه أعلم. وقد قال بعضهم:

وراء مضيق الخوف يتسع الأمن ... وأول مفروح به آخر الحزن

فلا تيأسن فالله ملك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف].

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعامًا، وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد. وكان يوسف عليه السلام - إذ ذاك - الحاكم فى أمور الديار المصرية دينًا ودنيا، فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

وعند أهل الكتاب أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم، وأراد أن لا يعرفوه فأغلظ لهم فى القول وقال: أنتم جواسيس جئتم لتأخذوا خبر بلادى. فقالوا: معاذ اللَّه إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ونحن بنو أبٍ واحدٍ من كنعان، ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحدٌ وصغيرنا عند أبينا. فقال: لا بد أن أستعلم أمركم. وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم، واحتبس شمعون عنده؛ ليأتوه بالأخ الآخر. وفى بعض هذا نظرٌ.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٥٩]. أى: أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته فى إعطاء كل إنسانٍ حمل بعيرٍ، لا يزيده عليه ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩].

وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم فقالوا: كنا إثنى عشر رجلا، فذهب منا واحدٌ وبقى شقيقه عند أبينا. فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]. أى: قد أحسنت نزلكم وقراكم. فرغبهم ليأتوه به، ثم رهبهم إن لم يأتوه به، قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠]. أى: فلست أعطيكم ميرةً ولا أقربكم بالكلية. عكس ما

أسدى إليهم أولاً، فاجتهد فى إحضاره معهم؛ ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١]. أى: سنجتهد فى مجيئه معنا، وإتيانه إليك بكل ممكن ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١] أى: وإنا لقادرون على تحصيله. ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم - وهى ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة - فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]. قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم. وقيل: خشى أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرةً ثانيةً. وقيل: تذمم أن يأخذ منهم عوضًا عن الميرة وقد اختلف المفسرون فى بضاعتهم على أقوالٍ سيأتى ذكرها. وعند أهل الكتاب أنها كانت صررًا من ورقٍ. وهو أشبه. والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣]. أى: بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ [يوسف: ٦٥]. أى: أى شىءٍ تريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف: ٦٥]. أى؛ نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ [يوسف: ٦٥]. بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]. أى: فى مقابلة ذهاب ولده الآخر. وكان يعقوب عليه السلام أضن شىءٍ بولده بنيامين؛ لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه يوسف، ويتسلى به عنه ويتعوض بسببه منه؛ فلهذا قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أى إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]. أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه فى ولده، ولن يغنى حذرٌ من قدرٍ، ولولا حاجته

وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكامٌ والرب تعالى يُقدر ما يشاء، ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم. ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من بابٍ واحدٍ، ولكن ليدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ. قيل: أراد أن لا يصيبهم أحدٌ بالعين؛ وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنةً وصورًا بديعةً. قاله ابن عباسٍ ومجاهدٌ ومحمد بن كعبٍ وقتادة والسدى والضحاك.

وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرًا ليوسف، أو يحدثون عنه بأيسر شيء. قاله إبراهيم النخعى: والأول أظهر. ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

وعند أهل الكتاب أنه بعث معهم هديةً إلى العزيز، من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضًا آخر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه وإخباره له سرًا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه، ثم احتال على أخذه منهم، وتركه إياه عنده دونهم فأمر فتيانه بوضع سقايته - وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام عن عزته - فى متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالةً على رده حمل بعيرٍ، وضمنه المنادى لهم، فأقبلوا على من اتهمهم بذلك، فأنبوه وهجنوه فيما

قاله لهم: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ [يوسف: ٧٣]. يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف]. وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع إلى المسروق منه؛ ولهذا قالوا: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ٧٥].

قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]. ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ فى الحيلة. ثم قال اللَّه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ [يوسف: ٧٦]. أى لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد فى رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦]. أى: فى العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتم رأيًا، وأقوى عزمًا وحزما وإنما فعل ذلك عن أمر اللَّه له فى ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحةٌ عظيمةٌ بعد ذلك، من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه. فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]. يعنون يوسف. قيل: كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره. وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغيرٌ منطقة كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه، وهو لا يشعر بما صنعت وإنما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له. وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل غير ذلك. فلهذا ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٧٧]. وهى كلمته بعدها.

وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]. أجابهم سرًّا لا جهرًا، حلمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا. فدخلوا معه فى الترقق والتعطف فقالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف]. أى: إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء هذا ما لا نفعله ولا نسمح به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده. وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرف إليهم حينئذ وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيدًا. ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف].

يقول تعالى مخبرًا عنهم: إنهم لما استيأسوا من أخذه منه خلصوا يتناجون فيما بينهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو روبيل ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٠]. وقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم فى أخيه يوسف من قبله فلم يبق لى وجهٌ أقابله به ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ [يوسف: ٨٠]. أى: لا أزال مقيمًا ههنا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ [يوسف: ٨٠]. فى القدوم عليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ [يوسف: ٨٠]. بأن يقدرنى على رد أخى إلى أبى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ [يوسف:٨٠-٨١] أى: أخبروه بما رأيتم من الأمر فى ظاهر المشاهدة ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف]. أى: فإن هذا الذى أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه مع العير التى كنا نحن وهم هناك ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣]. أى: ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس بسجيةٍ له ولا خلقه، وإنما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣].

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتبًا على صنيعهم فى يوسف قال لهم ما قال. وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها. ثم قال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾. يعنى يوسف وبنيامين وروبيل ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣] أى: بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في جميع ما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أى: أعرض عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾. ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم، وحرك ما كان كامنًا، كما قال بعضهم:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر:

لقد لامنى عند القبور على البكا ... رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعنى فهذا كله قبر مالك

وقوله: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ [يوسف: ٨٤]. أى: من كثرة البكاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى: مكمدٌ من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوحدة وألم الفراق قالوا له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥]. يقولون: لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك، وتضعف قوتك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦].

يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحدٍ من الناس ما أنا فيه، إنما أشكوه إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى. ولهذا قال: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦].

ثم قال لهم محرضًا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]. أى: لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة؛ فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج فى المضايق إلا القوم الكافرون.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف].

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه، وقدومهم عليه، ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ [يوسف: ٨٨]. أى: من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ [يوسف: ٨٨]. أى: ضعيفةٍ لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا. قيل: كانت دراهم رديئةً. وقيل: قليلةً. وقيل: حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك. وعن ابن عباس: كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: ٨٨]. قيل: بقبولها. قاله السدى. وقيل: برد أخينا إلينا. قاله ابن جريج.

وقال سفيان بن عيينة: إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ. ونزع بهذه الآية. رواه ابن جرير. فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم، وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذى يعرفون منه: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوٓا۟﴾ [يوسف: ٨٩]. وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مرارًا عديدةً وهم لا يعرفون أنه هو ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ [يوسف: ٩٠] يعنى: أنا يوسف الذى صنعتم معه ما صنعتم، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم. وقوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ [يوسف: ٩٠] تأكيدٌ لما قال، وتنبيهٌ على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد، وأعملوا فى أمرهما من الإحتيال؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٩٠]. أى: بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا؛ وذلك بما أسلفنا من طاعته وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠-٩١] أى: فضلك وأعطاك ما لم يعطنا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]. أى: فيما أسدينا إليك، وها نحن بين يديك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. أى: لست أعاتبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا.

ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] ومن زعم أن الوقف على قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢] وابتدأ بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]. فقوله ضعيفٌ والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذى يلى جسده فيضعوه على عينى أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله. وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات. ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف].

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل عن أبى سنانٍ عن عبد الله بن أبى الهذيل سمعت ابن عباسٍ يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] قال: لما خرجت العير

هاجت ريحٌ فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤]. قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

وكذا رواه الثورى وشعبة وغيرهما عن أبى سنانٍ به. وقال الحسن البصرى وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخًا وكان له منذ فارقه ثمانون سنةً وقوله: ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف:٩٤] أى: تقولون: إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن. قال ابن عباس: وعطاءٌ ومجاهدٌ وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ تسفهون. وقال مجاهدٌ أيضًا والحسن: تهرمون. ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]. قال قتادة والسدى: قالوا له كلمةً غليظةً.

قال اللّه تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف: ٩٦]. أى: بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرًا بعدما كان ضريرًا؛ وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. أى: أعلم أن اللّه سيجمع شملى بيوسف وستقر عينى به وسيرينى فيه ومنه ما يسرنى. فعند ذلك ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩٧]. طلبوا إليه أن يستغفر لهم اللّه عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليه. ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل، وفقهم اللّه للاستغفار عند وقوع ذلك منهم، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلاً: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف: ٩٨]. قال ابن مسعودٍ وإبراهيم التيمى وعمرو بن قيسٍ وابن جريجٍ وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

قال ابن جريرٍ: حدثنى أبو السائب حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثارٍ قال: كان عم لى يأتى المسجد فسمع إنسانًا يقول: اللهم دعوتنى فأجبت وأمرتنى فأطعت وهذا السحر فاغفر لى. قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد اللّه بن مسعود فسأل عبد اللّه عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾. وقد قال اللّه تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]. وثبت فى «الصحيحين» عن رسول اللّه ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلةٍ إلى سماء الدنيا فيقول: هل من تائبٍ فأتوب عليه، هل من سائلٍ فأعطيه، هل من مستغفرٍ فأغفر له»(١).

وقد ورد فى حديثٍ أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة، قال ابن جرير: حدثنى المثنى، ثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أيوب الدمشقى، حدثنا الوليد أنبأنا

---

(١) رواه البخارى [١١٤٥]، مسلم [٧٥٨/ ١٧٠] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه.

ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباسٍ عن رسول الله ﷺ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة، وهو قول أخى يعقوب لبنيه. وهذا غريبٌ من هذا الوجه، وفى رفعه نظرٌ. والأشبه أن يكون موقوفًا على ابن عباسٍ رضى الله عنهما.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

هذا إخبارٌ عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التى قيل: إنها ثمانون سنةً. وقيل: ثلاثٌ وثمانون سنة. وهما روايتان عن الحسن. وقيل: خمسٌ وثلاثون سنةً. قاله قتادة. وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنةً. قال: وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنةً. وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبًا فإن المرأة راودته وهو شابٌ ابن سبع عشرة سنةً فيما قاله غير واحدٍ فامتنع فكان فى السجن بضع سنين وهى سبعٌ عند عكرمة وغيره، ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمحل الناس فى السبع البواقى جاء إخوته يمتارون السنة الأولى وحدهم، وفى الثانية ومعهم أخوه بنيامين، وفى الثالثة تعرف إليهم، وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين، فجاءوا كلهم. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾. اجتمع بهما خصوصًا وحدهما دون إخوته ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ قال: قيل: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: قال: ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه. وضعفه ابن جريرٍ وهو معذورٌ. وقيل: تلقاهما وآواهما فى منزل الخيام، ثم لما اقتربوا من باب مصر قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ قاله السدى. ولو قيل: إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضًا وأنه ضمن قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ معنى: اسكنوا مصر أو أقيموا بها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ لكان صحيحًا مليحًا أيضًا.

وعند أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر؛ وهى أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرًا بقدومه. وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم.

وقد ذكر جماعةٌ من المفسرين أنه لما أزف قدوم نبى الله يعقوب وهو إسرائيل أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده؛ خدمةً ليوسف وتعظيمًا لنبى الله إسرائيل وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سنى الجدب ببركة قدومه

إليهم. فالله أعلم. وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم - فيما قاله أبو إسحاق السبيعى عن أبى عبيدة عن ابن مسعودٍ - ثلاثةً وستين إنسانًا. وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعبٍ عن عبد اللَّه بن شدادٍ: كانوا ثلاثةً وثمانين إنسانًا.

وقال أبو إسحاق عن مسروقٍ: دخلوا وهم ثلثمائةٍ وتسعون إنسانًا. قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتلٍ. وفى نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفسا وسموهم.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. قيل: كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسرين: فأحياها اللَّه تعالى. وقال آخرون: بل كانت خالته ليا، والخالة بمنزلة الأم. وقال ابن جريرٍ وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضى بقاء حياة أمه إلى يومئذٍ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه. وهذا قوىٌّ واللَّه أعلم. ورفعهما على العرش أى: أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أى: سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيمًا وتكريمًا. وكان هذا مشروعا لهم ولم يزل ذلك معمولاً به فى سائر الشرائع حتى حُرم فى ملتنا. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أى: هذا تعبير ما كنت قصصته عليك؛ من رؤيتى الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر حين رأيتهم لى ساجدين وأمرتنى بكتمانها ووعدتنى ما وعدتنى عند ذلك ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أى: بعد الهم والضيق جعلنى حاكمًا نافذ الكلمة فى الديار المصرية حيث شئت ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أى: البادية وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أى: فيما كان منهم إلى من الأمر الذى تقدم وسبق ذكره. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أى: إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أى: بجميع الأمور ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فى خلقه وشرعه وقدره.

وعند أهل الكتاب أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذى كان تحت يده بأموالهم كلها؛ من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء، ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خُمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الثعلبى أنه كان لا يشبع فى تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلةً واحدةً نصف النهار قال: فمن ثم اقتدى به الملوك الأخيار فى ذلك.

قلت: وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب.

قال الشافعي: قال رجلٌ من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرةٍ.

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يقر بها من قرارٍ، وأن كل شيءٍ فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسئولين أن يتوفاه - أى حين يتوفاه - على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين. وهذا كما يقال فى الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين». أى حين تتوفانا. ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام، كما سأل النبى ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى، والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال: «اللهم فى الرفيق الأعلى». ثلاثًا [(١)].

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزًا فى صحة منه وسلامته، وأن ذلك كان سائغًا فى ملتهم وشرعتهم، كما روى عن ابن عباسٍ أنه قال: ما تمنى نبى قط الموت قبل يوسف.

فأما فى شريعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن، كما فى حديث معاذٍ فى الدعاء الذى رواه أحمد: «وإذا أردت فتنةً فتوفنا إليك غير مفتونين»[(٢)].

وفى الحديث الآخر: ابن آدم الموت خيرٌ لك من الفتنة[(٣)]. وقالت مريم عليها السلام: ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٢].

وتمنى الموت على بن أبى طالبٍ لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن، واشتد القتال، وكثر القيل والقال. وتمنى ذلك البخارى أبو عبد الله صاحب «الصحيح» لما اشتد عليه الحال ولقى من مخالفيه الأهوال.

فأما فى حال الرفاهية فقد روى البخارى ومسلمٌ فى «صحيحيهما» من حديث

(١) رواه البخارى [٥٦٧٤]، ومسلم [٢١٩١/٤٦] عن عائشة رضى الله تعالى عنها.

(٢) رواه الترمذى [٣٢٨٦، ٣٢٨٧]، وأحمد فى المسند [٥/٢٤٣] وقال الأرناؤوط: ضعيف لاضطرابه ومداره على عبد الرحمن بن عائش، وقد اختلف فيه عليه.

(٣) رواه أحمد فى المسند [٥/٤٢٧] عن محمود بن لبيد رضى الله تعالى عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد.

أنس ابن مالكٍ قال: قال رسول اللّه ﷺ: لا يتمنى أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، إما محسنًا فيزداد، وإما مسيئًا فلعله يُستعتب، ولكن ليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى[1].

والمراد بالضر ههنا: ما يخص العبد فى بدنه؛ من مرضٍ ونحوه لا فى دينه. والظاهر أن نبى اللّه يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند احتضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنةً ثم توفى عليه السلام وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق: قال السدى فصبره: وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام. وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائةٌ وثلاثون سنةً. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنةً، ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة. هذا نص كتابهم وهو غلطٌ؛ إما فى النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر، وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا؟ وقد قال اللّه تعالى فى كتابه العزيز: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. فوصى بنيه بالإخلاص، وهو دين الإسلام، الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام. وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحدًا واحدًا، وأخبرهم بما يكون من أمرهم، وبشر يهوذا بخروج نبىٍّ عظيم من نسله تطيعه الشعوب، وهو عيسى بن مريم. واللّه أعلم.

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يومًا وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيبٍ، ومكث فيه أربعين يومًا، ثم استأذن يوسف ملك مصر فى الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأذن له، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا حبرون دفنوه فى المغارة التى كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثى، وعملوا له عزاءً سبعة أيام. قالوا: ثم رجعوا إلى بلادهم، وعزى إخوة يوسف ليوسف فى أبيهم وترفقوا له، فأكرمهم وأحسن منقلبهم، فأقاموا ببلاد مصر. ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة، فأوصى أن يُحمل معهم إذا خرجوا من مصر، فيدفن عند آبائه، فحنطوه ووضعوه فى تابوتٍ، فكان

(١) رواه البخارى [٥٦٧١]، ومسلم [٢٦٨٠/ ١٠].

بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتى. قالوا: فمات وهو ابن مائة سنةٍ وعشر سنين. هذا نصهم فيما رأيته، وفيما حكاه ابن جريرٍ أيضًا. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنةً وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة. وقال غيره: أوصى إلى أخيه يهوذا. صلوات اللّه عليه وسلامه وعلى الأنبياء أجمعين.

☆☆☆

قصة نبى الله أيوب
عليه السلام

قال ابن إسحاق: كان رجلاً من الروم وهو أيوب بن موص بن زارح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب. وقيل: غير ذلك فى نسبه.

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوطٍ عليه السلام. وقيل: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقى فى النار فلم تحرقه. والمشهور الأول؛ لأنه من ذرية إبراهيم، كما قررنا عند قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤]. من أن الصحيح أن الضمير عائدٌ على إبراهيم دون نوح عليهما السلام، وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم فى سورة «النساء» فى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣]

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل: اسمها ليا بنت يعقوب. وقيل: رحمه بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب. وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا، ثم نعطف بذكر أنبياء بنى إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء اللّه، وبه الثقة وعليه التكلان. قال اللّه تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

وروى ابن عساكر من طريق الكلبى أنه قال: أول نبىٍّ بُعث إدريس، ثم نوحٌ، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوطٌ، ثم هودٌ، ثم صالحٌ، ثم شعيبٌ، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم عرفى بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، ثم يونس بن متى من بنى يعقوب، ثم أيوب بن زراح ابن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم. وفى بعض هذا الترتيب نظرٌ

فإن هودًا وصالحًا المشهور أنهما بعد نوحٍ، وقبل إبراهيم. واللَّه أعلم.

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه؛ من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثنية من أرض حوران. وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولادٌ وأهلون كثيرٌ فسُلب من ذلك جميعه، وابُتلى فى جسده بأنواع البلاء، ولم يبق منه عضوٌ سليمٌ سوى قلبه ولسانه، يذكر اللَّه عز وجل بهما، وهو فى ذلك كله صابرٌ محتسبٌ ذاكرٌ للَّه عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه. وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأُخرج من بلده، وأُلقى على مزبلةٍ خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه، فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته، وضعف حالها، وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر؛ لتطعمه وتقود بأوده رضى اللَّه عنها وأرضاها وهى صابرةٌ معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وقد ثبت فى «الصحيح» أن رسول اللَّه ﷺ قال: أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابةٌ زيد فى بلائه[1]. ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا. وقد روى عن وهب بن منبهٍ وغيره من علماء بنى إسرائيل فى قصة أيوب خبرٌ طويلٌ فى كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه فى جسده، واللَّه أعلم بصحته.

وعن مجاهدٍ أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى. وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوالٍ؛ فزعم وهبٌ أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص.

وقال أنسٌ: ابتلى سبع سنين وأشهرًا، وأُلقى على مزبلةٍ لبنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده حتى فرج اللَّه عنه، وعظم له الأجر، وأحسن الثناء عليه.

وقال حميدٌ: مكث فى بلواه ثماني عشرة سنةً. وقال السدى: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال

(١) رواه الترمذى [٢٣٩٨]، وابن ماجه [٤٠٢٣] وصححه الألبانى، وأحمد فى المسند [١/ ١٧٢] واللفظ له، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبى النجود، وباقى رجاله ثقات رجال الشيخين.

عليها قالت: يا أيوب، لو دعوت ربك لفرج عنك. فقال: قد عشت سبعين سنةً صحيحًا، فهو قليلٌ للَّه أن أصبر له سبعين سنةً. فجزعت من هذا الكلام. وكانت تخدم الناس بالأجر، وتطعم أيوب عليه السلام. ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها؛ لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفًا أن ينالهم من بلائه، أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحدًا يستخدمها، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيبٍ كثيرٍ، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسًا.

فلما كان الغد لم تجد أحدًا، فباعت الضفيرة الأخرى بطعام، فأتته به فأنكره أيضًا، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقًا قال في دعائه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله ابن عبيد بن عميرٍ قال: كان لأيوب أخوان فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيدٍ، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان اللَّه علم من أيوب خيرًا ما ابتلاه بهذا. فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع من شيءٍ قط مثله، فقال: اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلةً قط شبعانَ وأنا أعلم مكان جائعٍ فصدقنى. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقنى. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم بعزتك - وخر ساجدًا - فقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبدًا حتى تكشف عنى. فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير جميعًا: حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرنى نافع بنُ يزيد عن عقيلٍ عن الزهرى عن أنس بن مالكٍ أن النبى ﷺ قال: «إن أيوب نبى اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لبث فى بلائه ثمانِ عشرة سنةً، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم، واللَّه لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحدٌ من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانِ عشرة سنةً لم يرحمه اللَّه فيكشف ما به.

فلما راح إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن اللَّه عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران اللَّه، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما؛ كراهية أن يُذكر اللَّه إلا فى حق. قال: وكان يخرج فى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى اللَّه إلى أيوب فى مكانه أن: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢]. فاستبطأته

فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب اللَّه ما به من البلاء، فهو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى اللَّه هذا المُبْتَلَى؟ والله على ذلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: فإنى أنا هو. وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث اللَّه سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاضت». هذا لفظ ابن جريرٍ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان فى «صحيحه» عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهبٍ به[1]. وهذا غريبٌ رفعه جدًّا والأشبه أن يكون موقوفًا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى ثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حمادٌ حدثنا على بن زيدٍ عن يوسف بن مهران عن ابن عباسٍ قال: وألبسه اللَّه حلةً من الجنة، فتنحى أيوب وجلس فى ناحيةٍ وجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد اللَّه هذا المبتلى الذى كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب؟ وجعلت تكلمه ساعةً. قال: أنا أيوب. قالت: ويحك أتسخر منى يا عبد الله؟ فقال: ويحك، أنا أيوب قد رد اللَّه على جسدى. قال ابن عباسٍ: ورد اللَّه عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبهٍ: أوحى اللَّه إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم؛ فإنهم قد عصونى فيك. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن أبى حاتم: ثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوقٍ حدثنا همامٌ عن قتادة عن النضر بن أنسٍ عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لما عافى اللَّه أيوب عليه السلامَ أمطر عليه جرادًا من ذهبٍ، فجعل يأخذ بيده ويجعل فى ثوبه.

قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك؟ »[2].

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبى داود الطيالسى وعبد الصمد عن همامٍ عن قتادة به[3].

ورواه ابن حبان فى «صحيحه» عن عبد اللَّه بن محمدٍ الأزدى عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به[4].

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٢٨٩٨] وقال الأرناؤوط: إسناده على شرط مسلم.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٠٤] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين عدا أبى داود فمن رجال مسلم.

(٣) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٠٤] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين عدا أبى داود فمن رجال مسلم.

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٢٣٠] وقال الارناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب، وهو على شرط «الصحيح» فاللّه أعلم.

وقال الإمام أحمد: ثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة: أُرسل على أيوب رجلٌ من جرادٍ من ذهبٍ، فجعل يقبضها فى ثوبه فقيل: يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال: أى رب ومن يستغنى عن فضلك. هذا موقوفٌ. وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر مرفوعًا[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن همام بن منبهٍ قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جرادٌ من ذهبٍ فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لى عن بركتك». رواه البخارى من حديث عبد الرزاق به[2].

وقوله: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أى: اضرب الأرض برجلك. فامتثل ما أمر به، فأنبع اللّه له عينًا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب اللّه عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذى كان فى جسده ظاهرًا وباطنًا، وأبدله اللّه بعد ذلك كله صحةً ظاهرةً وباطنةً، وجمالاً تامًا، ومالاً كثيرًا حتى صب له من المال صبًّا؛ مطرًا عظيمًا جرادًا من ذهبٍ، وأخلف اللّه له أهله كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. فقيل: أحياهم اللّه بأعيانهم. وقيل: آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ أى: رفعنا عنه شدته ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ رحمةً منا به ورأفةً واحسانًا ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أى: تذكرةً لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده فله أسوةٌ بنبى اللّه أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرج اللّه عنه. ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال: هى رحمة. من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع، وقال الضحاك عن ابن عباسٍ رد اللّه إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستةً وعشرين ولدًا ذكرًا وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنةً بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]. هذه رخصةٌ من اللّه تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٢٤٣]، ورواه مرفوعًا فى المسند [٢/ ٣٠٤] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه البخارى [٣٣٩١]، وأحمد فى المسند [٢/ ٣١٤].

حلفه ليضربن امرأته مائة سوطٍ. فقيل: حلفه ذلك لبيعها ضفائرها. وقيل: لأنه اعترضها الشيطان فى صورة طبيبٍ يصف لها دواءً لأيوب، فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربنها مائة سوطٍ. فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثًا؛ وهو كالعثكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربةً واحدةً، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوطٍ ويبر ولا يحنث. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضى الله عنها. ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]. وقد استعمل كثيرٌ من الفقهاء هذه الرخصة فى باب الأيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل فى الخلاص من الأيمان وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب، وسنذكر طرفا من ذلك فى كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثًا وتسعين سنةً. وقيل: إنه عاش أكثر من ذلك.

وقد روى ليثٌ عن مجاهدٍ ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء. رواه ابن عساكر بمعناه. وأنه أوصى إلى ولده حوملٍ، وقام بالأمر بعده ولده بشر ابن أيوب، وهو الذى يزعم كثيرٌ من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم. ومات ابنه هذا - وكان نبيًا فيما يزعمون - وكان عمره من السنين خمسا وسبعين. ولنذكر ههنا قصة ذى الكفل؛ إذ قال بعضهم: إنه ابن أيوب عليه السلام.

☆☆☆

قصة ذى الكفل
الذى زعم قومٌ أنه ابن أيوب
عليه السلام

قال اللّه تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة «ص»: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص]. فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبىٌّ عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًا وإنما كان رجلاً صالحًا وحكمًا مقسطًا عادلاً. وتوقف ابن جريرٍ فى ذلك، فالله أعلم.

وروى ابن جريج وابن أبى نجيح عن مجاهدٍ أنه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلاً صالحًا وكان قد تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمرهم ويقضى بينهم بالعدل ففعل فسمى ذا الكفل.

وروى ابن جريرٍ وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هندٍ عن مجاهدٍ أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس فقال: من يتقبل لى بثلاثٍ استخلفه؛ يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ قال: فقام رجلٌ تزدريه العين فقال: أنا. فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب؟ قال: نعم. قال: فردهم ذلك اليوم وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل. فقال: أنا فاستخلفه. قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلانٍ فأعياهم ذلك فقال: دعونى وإياه فأتاه فى صورة شيخ كبيرٍ فقيرٍ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال: من هذا ؟ قال: شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. قال: فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه؛ فقال: إن بينى وبين قومى خصومةً وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا. وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة. وقال: إذا رحت فأتنى آخذ لك بحقك. فانطلق وراح فكان فى مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ الكبير المظلوم.

ففتح له فقال: ألم أقل لك: إذا قعدت فأتنى؟ فقال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعدٌ قالوا: نحن نعطيك حقك. وإذا قمت جحدونى قال: فانطلق فإذا رحت فأتنى قال: ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنى قد شق على النوم.

فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل: وراءك وراءك. فقال: إنى قد أتيته أمس فذكرت له أمرى. فقال: لا، واللَّه لقد أمرنا أن لا ندع أحدًا يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كوةً فى البيت فتسور منها فإذا هو فى البيت وإذا هو يدق الباب من داخلٍ. قال: فاستيقظ الرجل، فقال: يا فلان ألم آمرك؟ قال: أما من قبلى واللَّه لم تؤت فانظر من أين أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلقٌ كما أغلقه وإذا الرجل معه فى البيت فعرفه فقال: أعدو اللَّه؟ قال: نعم أعييتنى فى كل شىءٍ ففعلت ما ترى لأغضبنك. فسماه اللَّه ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر فوفى به.

وقد روى ابن أبى حاتم أيضًا عن ابن عباسٍ قريبًا من هذا السياق. وهكذا روى عن عبد اللَّه بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر أنبأنا سعيد بن بشيرٍ حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعرى - يعنى أبا موسى رضى اللَّه عنه - وهو على هذا المنبر يقول: ما كان ذو الكفل نبيًا ولكن كان رجلاً صالحًا يصلى كل يوم مائة صلاةٍ، فتكفل له ذو الكفل من بعده يصلى كل يومٍ مائة صلاةٍ، فسمى ذا الكفل.

ورواه ابن جريرٍ من طريق عبد الرزاق عن معمرٍ عن قتادة قال: قال أبو موسى الأشعرى. فذكره منقطعًا.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا أسباط بن محمدٍ حدثنا الأعمش عن عبد اللَّه بن عبد اللَّه عن سعدٍ مولى طلحة عن ابن عمر قال: سمعت من رسول اللَّه ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرةً أو مرتين - حتى عد سبع مرار - ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: «كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنبٍ عمله، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجلِ من امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أَكْرَهْتُكِ؟ قالت: لا، ولكن هذا عملٌ لم أعمله قط، وإنما حملتنى عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ قال: ثم نزل، فقال: اذهبى فالدنانير لك. ثم قال: واللَّه لا يعصى اللَّه الكفل أبدًا. فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر اللَّه عز وجل للكفل»[1].

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/٢٣] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

ورواه الترمذى من حديث الأعمش به، وقال: حسنٌ وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهو حديثٌ غريبٌ جدًّا وفى إسناده نظرٌ؛ فإن سعدًا هذا قال أبو حاتم: لا أعرفه إلا بحديثٍ واحدٍ. ووثقه ابن حبان. ولم يرو عنه سوى عبد اللَّه بن عبدَ اللَّه الرازى هذا فاللَّه أعلم وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل، وإنما لفظ الحديث «الكفل» من غير إضافة، فهو رجلٌ آخر غير المذكور فى القرآن الكريم. واللَّه أعلم بالصواب[١].

☆☆☆

(١) رواه الترمذى [٢٤٩٦] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما، وضعفه الألبانى.

باب ذكر
أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. كما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم والبزار من حديث عوفى الأعرابى عن أبى نضرة عن أبى سعيدٍ الخدرى قال: ما أهلك الله قوما بعذابٍ من السماء أو من الأرض، بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التى مسخوا قردةً؛ ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

ورفعه البزار فى روايةٍ له والأشبه والله أعلم وقفه فدل على أن كل أمةٍ أهلكت بعامةٍ قبل موسى عليه السلام. فمنهم:

أصحاب الرس قال الله تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان].

وقال تعالى فى سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق].

وهذا السياق والذى قبله يدل على أنهم أُهلكوا ودُمروا وتُبروا وهو الهلاك. وهذا يُرد اختيار ابن جريرٍ؛ من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج؛ لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعةٍ كانوا بعد المسيح عليه السلام. وفيه نظرٌ أيضًا. وروى ابن جريرٍ قال: قال ابن عباسٍ: أصحاب الرس أهل قريةٍ من قرى ثمود.

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر فى أول «تاريخه» عند ذكر بناء دمشق عن «تاريخ» أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة وغيره أن أصحاب الرس كانوا بحضورٍ فبعث الله إليهم نبيًا يقال له: حنظلة بن صفوان. فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الأحقاف وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا فى اليمن كلها، وفشوا مع ذلك فى الأرض كلها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق، وبنى مدينتها، وسماها جيرون، وهى إرم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة فى موضع أكثر منها بدمشق فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الخلود ابن عادٍ إلى

عادٍ يعنى أولاد عادٍ بالأحقاف فكذبوه، وأهلكهم اللَّه عز وجل. فهذا يقتضى أن أصحاب الرس قبل عادٍ بدهور متطاولةٍ. فالله أعلم.

وروى ابن أبى حاتم عن أبى بكير بن أبى عاصم عن أبيه عن شبيب بن بشرٍ عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: الرس بئرٌ بآذربيجان. وقال الثورى عن أبى بكيرٍ عن عكرمة قال: الرس بئر رسوا فيها نبيهم. أى: دفنوه فيها. وقال ابن جريجٍ: قال عكرمة: أصحاب الرس بفلجٍ، وهم أصحاب ياسين.

وقال قتادة: فلجٌ من قرى اليمامة. قلت: فإن كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمة فقد أُهلكوا بعامةٍ قال الله تعالى فى قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] وستأتى قصتهم بعد هؤلاء. وإن كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أُهلكوا أيضا وتُبروا. وعلى كل تقديرٍ فينافى ما ذكره ابن جريرٍ. وقد ذكر أبو بكرٍ محمد بن الحسن النقاش أن أصحاب الرس كانت لهم بئرٌ ترويهم وتكفى أرضهم جميعها وكان لهم ملكٌ عادلٌ حسن السيرة فلما مات وجدوا عليه وجدًا عظيمًا، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان فى صورته، وقال: إنى لم أمت، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم. ففرحوا أشد الفرح، وأمر بضرب حجابٍ بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبدًا فصدق به أكثرهم، وافتتنوا به، وعبدوه، فبعث اللَّه فيهم نبيًا، وأخبرهم أن هذا شيطانٌ يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة اللَّه وحده لا شريك له. قال السهيلى: وكان يُوحى إليه فى النوم، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فعدوا عليه فقتلوه، وألقوه فى البئر، فغار ماؤها، وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن فى مساكنهم الجن والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن، وزئير الأُسد، وصوت الضباع.

فأما ما رواه أعنى ابن جريرٍ عن محمد بن حميدٍ عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول اللَّه ﷺ إن: «أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود وذلك أن اللَّه تعالى بعث نبيًا إلى أهل قريةٍ فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الأسود؛ ثم إن أهل القرية عدوا على النبى، فحفروا له بئرًا، فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجرٍ أصم. قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ويشترى به طعامًا وشرابًا، ثم يأتى به إلى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه اللَّه عليها ويدلى إليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت. قال: فكان كذلك ما شاء اللَّه أن يكون، ثم إنه ذهب يومًا يحتطب، كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم

حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها، وجد سنة فاضطجع ينام فضرب اللّه على أذنه سبع سنين نائمًا، ثم إنه هب فتمطى وتحول لشقه الآخر فاضطجع، فضرب اللّه على أذنه سبع سنين أخرى؛ ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعةً من نهارٍ، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع، ثم إنه ذهب الى الحفرة إلى موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداءٌ فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه.

قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود: ما فعل؟ فيقولون له: ما ندرى. حتى قبض اللّه النبى عليه السلام وأهب الأسود من نومه بعد ذلك. فقال رسول اللّه ﷺ: إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة. فإنه حديثٌ مرسلٌ ومثله فيه نظرٌ ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعبٍ القرظى». واللّه أعلم.

ثم قد رده ابن جريرٍ نفسه، وقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن قال: لأن اللّه أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداثٌ آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم. واللّه أعلم. ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود، وهو ضعيفٌ؛ لما تقدم ولما ذكر فى قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب فى الآخرة إن لم يتوبوا ولم يُذكر هلاكهم وقد صُرح بهلاك أصحاب الرس. واللّه أعلم.

☆☆☆

قصة قوم «يس» . .
وهم أصحاب القرية

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس].

اشتهر عن كثيرٍ من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية. رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباسٍ وكعب الأحبار ووهب بن منبهٍ.

وكذا روى عن بُريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم. قال ابن إسحاق، فيما بلغه عن ابن عباسٍ وكعبٍ ووهبٍ أنهم قالوا: وكان لها ملكٌ اسمه أنطيخس بن أنطيحس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثةً من الرسل؛ وهم صادقٌ، ومصدوقٌ، وشلوم، فكذبهم. وهذا ظاهرٌ أنهم رسلٌ من الله عز وجل. وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح.

وكذا قال ابن جريج عن وهب عن ابن سليمان عن شعيب الجبائى. كان اسم الرسولين الأولين: شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية. وهذا القول ضعيفٌ جدًا؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثةً من الحواريين كانوا أول مدينةٍ آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت، ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التى تكون فيها بطارقة النصارى؛ وهن أنطاكية، والقدس، وإسكندرية، ورومية. ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا، وأهل هذه القرية المذكورة، فى القرآن أهلكوا كما قال فى آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩]. لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون فى القرآن بعثوا إلى

أهل أنطاكية قديمًا فكذبوهم وأهلكم الله ثم عُمرت بعد ذلك، فلما كان فى زمن المسيح آمنوا برسله إليهم، فلا يمنع هذا. والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة فى القرآن فى قصة أصحاب المسيح، فضعيفٌ لما تقدم، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله.

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾ [يس: ١٣]. يعنى لقومك يا محمد ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يعنى: المدينة ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [يس]. أى: أيدناهما بثالثٍ فى الرسالة ﴿ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

فردوا عليهم بأنهم بشرٌ مثلهم كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث الله نبيًا بشريًا، فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [يس: ١٧]. أى: إنما علينا أى نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، والله هو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس: ١٨]. أى: تشاءمنا بما جئتمونا به ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ [يس: ١٨]. وقيل: بالمقال. وقيل: بالفعال.

ويؤيد الأول قوله: ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٨].

توعدوهم بالقتل والإهانة. ﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس: ١٩]. أى: مردودٌ عليكم ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أى: بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٩]. أى: لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يس: ٢٠]. يعنى: لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يس]. أى: يدعونكم إلى الحق المحض، بلا أجرةٍ ولا جعالةٍ. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٢٤]. أى: إن تركت عبادة الله وعبدت معه سواه. ثم قال مخاطبًا للرسل: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥]. قيل: فاسمعوا مقالتى واشهدوا لى بها عند ربكم. وقيل: معناه فاسمعوا يا قومى إيمانى برسل الله جهرةً فعند ذلك قتلوه. قيل: رجمًا. وقيل: عضًا. وقيل: وثبوا إليه وثبة رجلٍ واحدٍ فقتلوه. وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعودٍ قال: وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبه.

وقد روى الثورى عن عاصم الأحول عن أبى مجلزٍ: كان اسم هذا الرجل حبيب ابن مرى ثم قيل: كان نجارًا. وقيل: حبالا. وقيل: إسكافا. وقيل: قصارا.

وقيل: كان يتعبد فى غارٍ هناك. فالله أعلم. وعن ابن عباسٍ كان

حبيبٌ النجار قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، قتله قومه.

ولهذا قال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦]. يعني: لما قتله قومه أدخله اللَّه الجنة فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس]. يعني: ليؤمنوا بما آمنت به، فيحصل لهم ما حصل لي. قال ابن عباس: نصح قومه في حياته: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] وبعد مماته: قال: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس]. رواه ابن أبي حاتم. وكذلك قال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحًا لا يلقى غاشًا، لما عاين ما عاين من كرامة الله قال: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس] . تمنى واللَّه أن يعلم قومه بما عاين من كرامة اللَّه وما هو عليه. قال قتادة: فلا واللَّه ما عاتب اللَّه قومه بعد قتله ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [يس: ٢٨]. أي: ما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جندٍ من السماء عليهم. هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعودٍ قال مجاهدٌ وقتادة: وما أنزل عليهم جندًا أي رسالةً أخرى. قال ابن جريرٍ: والأول أولى. قلت: وأقوى ولهذا قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي: وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩]

قال المفسرون: بعث اللَّه إليهم جبريل عليه السلام، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ أي: قد أخمدت أصواتهم وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عينٌ تطرف. وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل اللَّه إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم؛ فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينةٍ آمنت بالمسيح.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسينٍ الأشقر عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ عن النبي ﷺ قال: «السبق ثلاثةٌ؛ فالسابق إلى موسى يوشعُ بن نونٍ، والسابق إلى عيسى صاحب يس، والسابق إلى محمد صلى اللَّه عليه وسلم عليٌّ بن أبي طالب». فإنه حديثٌ لا يثبت؛ لأن حسينًا هذا متروكٌ وشيعيٌّ من الغلاة. وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية[1]. واللَّه أعلم.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١١/ ٧٧/ ١١١٥٢] وقال الهيثمي في المجمع [٩/ ١٠٢] وفيه حسين بن حسن الأشقر. وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور وبقية رجاله حديثهم حسن أو صحيح. قلت: قال شيخنا في السلسلة الضعيفة [١/ ٣٦٠-٣٦١]: ضعيف جدا.

قصة يونس
عليه الصلاة السلام

قال اللَّه سبحانه وتعالى فى سورة «يونس»: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى فى سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات]. وقال تعالى فى سورة القلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم].

قال أهل التفسير: بعث اللَّه يونس عليه السلام إلى أهل نينوى؛ من أرض الموصل فدعاهم إلى اللَّه عز وجل فكذبوه وتمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعودٍ ومجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ وقتادة وغير واحدٍ من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف اللَّه فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمةٍ وولدها، ثم عجوا إلى اللَّه عز وجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات، والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشى ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعةً عظيمةً هائلةً، فكشف اللَّه العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨]. أى: هلا وجدت فيما سلف من القرون قريةٌ آمنت بكمالها. فدل على أنه لم يقع

ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]. أى: آمنوا بكمالهم وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الايمان فى الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى؟ على قولين، الأظهر من السياق: نعم إن شاء الله والله أعلم.

كما قال تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات]. وهذا المتاع إلى حينٍ لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروى. والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألفٍ لا محالة. واختلفوا فى الزيادة؛ فعن مكحول: عشرة آلافٍ. وروى الترمذى وابن جريرٍ وابن أبى حاتم من حديث زهيرٍ عمن سمع أبا العالية؛ حدثنى أبى بن كعبٍ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات].

قال: «عشرون ألفًا»[1]. فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً فى هذا الباب. وعن ابن عباسٍ: كانوا مائة ألفٍ وثلاثين ألفًا. وعنه وبضعةً وثلاثين ألفًا. وعنه، وبضعةً وأربعين ألفًا. وقال سعيد بن جبيرٍ: كانوا مائة ألفٍ وسبعين ألفًا، واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده أو هما أمتان؟ على ثلاثة أقوالٍ، هى مبسوطة فى «التفسير». والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مُغاضبًا بسبب قومه ركب سفينةً فى البحر، فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة؛ ليتحفظوا منه فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا؛ لما يريده الله به من الأمر العظيم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات] وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أُلقى فى البحر وبعث الله عز وجل حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى: أن لا يأكل له لحمًا، ولا يهشم له عظمًا، فليس لك برزقٍ، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوتٌ آخر أكبر منه. قالوا: ولما

---

(١) رواه الترمذى [٣٢٢٩] وضعفه الألبانى.

استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حىٌ فخر للَّه ساجدًا وقال: يا رب اتخذت لك مسجدًا لم يعبدك أحدٌ فى مثله.

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه؛ فقال مجالدٌ: عن الشعبى: التقمه ضحىً، ولفظه عشيةً. وقال قتادة: مكث فيه ثلاثًا. وقال جعفر الصادق: سبعة أيامٍ. ويشهد له شعر أمية بن أبى الصلت:

وأنت بفضلٍ منك نجيت يونسًا وقد بات فى أضعاف حوتٍ لياليا

وقال سعيد بن أبى الحسن، وأبو مالكٍ: مكث فى جوفه أربعين يومًا واللَّه أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجى، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السماوات السبع، والأرضين السبع، وما بينهما، وما تحت الثرى فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال فى كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، وإله المرسلين: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. إلى أهله ﴿ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء]. ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. أى: أن نضيق. وقيل: معناه نقدر من التقدير. وهى لغةٌ مشهورةٌ: قدر وقدر. كما قال الشاعر:

فلا عائدٌ ذاك الزمان الذى مضى تباركت ما يقدر يكن فلك الأمر

﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ . قال ابن مسعودٍ وابن عباسٍ وعمرو بن ميمونٍ وسعيد ابن جبيرٍ ومحمد بن كعبٍ والحسن وقتادة والضحاك: ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل: وقال سالم بن أبى الجعد: ابتلع الحوت حوتٌ آخر، فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر. وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات].

قيل: معناه؛ لولا أنه سبح اللَّه هنالك وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف للَّه بالخضوع والتوبة والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة ولبعث من جوف ذلك الحوت. هذا معنى ما روى عن سعيد بن جبيرٍ فى إحدى الروايتين عنه.

وقيل: معناه: فلولا أنه كان من قبل أخذ الحوت له من المسبحين أى: المطيعين المصلين الذاكرين اللَّه كثيرًا. قاله الضحاك بن قيسٍ وابن عباسٍ وأبو العالية ووهب بن منبهٍ وسعيد ابن جبيرٍ والضحاك والسدى وعطاء بن السائب والحسن البصرى وقتادة وغير واحدٍ. واختاره ابن جريرٍ.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباسٍ أن رسول اللَّه ﷺ قال لى: «يا غلام، إنى معلمك كلماتٍ؛ احفظ اللَّه يحفظك احفظ اللَّه تجده تجاهك، تعرف إليه فى الرخاء يعرفك فى الشدة»[١].

وروى ابن جرير فى «تفسيره» والبزار فى «مسنده» من حديث محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عبد اللَّه بن رافعٍ مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما أراد اللَّه حبس يونسَ فى بطن الحوت أوحى اللَّه إلى الحوت أن خذ، ولا تخدش لحمًا، ولا تكسر عظمًا. فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى اللَّه إليه وهو فى بطن الحوت. إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرضٍ غريبةٍ قال: ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلةٍ عملٌ صالحٌ؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحلِ».

كما قال اللَّه: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ هذا لفظ ابن جرير إسنادًا ومتنًا، ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد. كذا قال[٢].

وقد قال ابن أبى حاتم فى «تفسيره»: حدثنا أبو عبيد اللَّه أحمد بن عبد الرحمن ابن أخى ابن وهبٍ حدثنا عمى حدثنى أبو صخرٍ أن يزيد الرقاشى حدثه قال: سمعت أنس بن مالكٍ ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلى رسول اللَّه ﷺ: «إن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحن بالعرش، فقالت الملائكة: يا رب صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ من بلادٍ غريبةٍ. فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عملٌ متقبلٌ ودعوةٌ مجابةٌ؟ قال: نعم. قالوا: يا رب أو لا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه فى العراء»[٣].

ورواه ابن جريرٍ عن يونس عن ابن وهبٍ به. زاد ابن أبى حاتمٍ: قال أبو

(١) رواه الترمذى [٢٥١٦]، وأحمد فى المسند [١/ ٣٠٧] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.
(٢) رواه البزار فى المسند [٢٢٥٤].
(٣) عزاه فى الدر المنثور [٥/ ٢٨٧] إلى ابن أبى حاتم.

صخرٍ حميد بن زيادٍ: فأخبرنى ابن قسيطٍ وأنا أحدثه هذا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طُرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهيأ الله له أُروية وحشيةً تأكل من خشاش الأرض - أو قال: هشاش الأرض - قال: فتنفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشيةٍ وبكرةٍ حتى نبت. وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتًا من شعره:

فأنبت يقطينًا عليه برحمةٍ من الله لولا الله ألفى ضاحيا

وهذا غريبٌ أيضًا من هذا الوجه، ويزيد الرقاشى ضعيفٌ، ولكن يتقوى بحديث أبى هريرة المتقدم، كما يتقوى ذاك بهذا. والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ أى ألقيناه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىءٌ من الأشجار، بل هو عارٍ منها ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعودٍ: كهيئة الفرخ، ليس عليه ريشٌ، وقال ابن عباسٍ والسدى وابن زيدٍ: كهيئة الضبى حين يولد وهو المنفوس ليس عليه شىءٌ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦].

قال ابن مسعودٍ وابن عباسٍ وعكرمة ومجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ ووهب بن منبهٍ وهلال ابن يسافٍ وعبد الله بن طاووسٍ والسدى وقتادة والضحاك وعطاءٌ الخراسانى وغير واحدٍ: هو القرع.

قال بعض العلماء: فى إنبات القرع عليه حكمٌ جمةٌ؛ منها أن ورقه فى غاية النعومة، وكثيرٌ وظليلٌ، ولا يقربه ذبابٌ ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيئًا ومطبوخًا وبقشره وببذره أيضًا، وفيه نفعٌ كثيرٌ وتقويةٌ للدماغ وغير ذلك.

وتقدم كلام أبى هريرة فى تسخير الله تعالى له تلك الأروية التى كانت ترضعه لبنها، وترعى فى البرية، وتأتيه بكرةً وعشيةً. وهذا من رحمة الله به، ونعمته عليه، وإحسانه إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. أى: الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. أى: وهذا صنيعنا بكل مؤمن دعانا واستجار بنا.

قال ابن جريرٍ: حدثنى عمران بن بكارٍ الكلاعى حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى ابن عبد الرحمن حدثنى بشر بن منصورٍ عن على بن زيدٍ عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالكٍ وهو ابن أبى وقاصٍ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى. قال: فقلت: يا رسول الله هى ليونس خاصةً أم لجماعة المسلمين؟

قال: هى ليونس خاصةً وللمؤمنين عامةً إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء]. فهو شرطٌ من الله لمن دعاه به»[١]. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيدِ الأشج حدثنا أبو خالدِ الأحمر عن كثير بن زيدٍ عن المطلب بن حنطبٍ - قال أبو خالدٍ: أحسبه عن مصعبٍ يعنى ابن سعدٍ - عن سعدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس استجيب له».

قال أبو سعيدِ الأشج: يريد به ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وهذان طريقان عن سعدٍ[٢].

وثالثٌ أحسن منهما؛ قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عمر حدثنا يونس بن أبى إسحاق الهمدانى حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعدٍ حدثنى والدى محمدٌ عن أبيه سعدٍ - وهو ابن أبى وقاص - قال: مررت بعثمان بن عفان فى المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يردد على السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث فى الإسلام شيءٌ؟ مرتين. قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنى مررت بعثمان آنفًا فى المسجد، فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال: سعدٌ: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت. قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بى آنفًا، وأنا أحدث نفسى بكلمةٍ سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوةٌ. قال سعد: فأنا أنبئك بها إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوةٍ ثم جاء أعرابىٌ فشغله حتى قام رسول الله فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقنى الى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلىّ رسول الله ﷺ فقال: «من هذا أبو إسحاق قال: قلت: نعم يا رسول الله: قال: فمه؟ قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوةٍ ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: نعم دعوة ذى النون؛ إذ هو فى بطن الحوت: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فإنه لم يدع بها مسلمٌ ربه فى شيءٍ قط إلا استجاب له».

ورواه الترمذى والنسائى من حديث إبراهيم بن محمد بن سعدٍ به[٣].

☆☆☆

---

(١) تفسير الطبرى [١٧، ٨٢].

(٢) عزاه السيوطى فى الدر المنثور [٤/ ٣٣٤] إلى ابن أبى حاتم.

(٣) رواه الترمذى [٣٥٠٥]، والنسائى فى الكبرى [١٠٤٩١، ١٠٤٩٢] وصححه الألبانى.

ذكر فضل يونس
عليه السلام

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩]. وذكره تعالى فى جملة الأنبياء الكرام فى سورتى النساء والأنعام عليهم من اللّه أفضل الصلاة والسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى وائلٍ عن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا ينبغى لأحد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس ابن متى»[١]. ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى به.

وقال البخارى أيضًا: حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن قتادة عن أبى العالية عن ابن عباسٍ عن النبى ﷺ قال: «ما ينبغى لعبدٍ أن يقول: إنى خيرٌ من يونس بن متى»، ونسبه إلى أبيه[٢].

ورواه أحمد ومسلمٌ وأبو داود من حديث شعبة به. قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه: لم يسمع قتادة من أبى العالية سوى أربعة أحاديث، هذا أحدها.

وقد رواه الإمام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن على بن زيدٍ عن يوسف ابن مهران عن ابن عباسٍ عن النبى ﷺ قال: «وما ينبغى لعبدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى». تفرد به أحمد[٣].

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان حدثنا عبد اللّه بن رجاءٍ أنبأنا اسرائيل عن أبى يحيى العتاب عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا ينبغى لأحدٍ أن يقول: أنا عند اللّه خيرٌ من يونس بن متى»[٤]. إسناده جيدٌ ولم يخرجوه.

وقال البخارى: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم سمعت حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لا ينبغى لعبدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى». وكذا رواه مسلمٌ من حديث شعبة به[٥].

---

(١) رواه البخارى [٣٤١٢، ٤٦٠٣]، وأحمد فى المسند [١/ ٣٩٠].
(٢) رواه البخارى [٣٤١٣]، ومسلم [١٦٦/٢٣٧٦]، وأبو داود [٤٦٦٩]، وأحمد فى المسند [١/ ٣٤٢].
(٣) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٥٤] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.
(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [١١/ ٧٠/ ١١١٢٢].
(٥) رواه البخارى [٣٤١٦]، ومسلم [١٦٦/٢٣٧٦].

وفى البخارى ومسلم من حديث عبد اللّه بن الفضل عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة فىّ قصة المسلم الذى لطم وجه اليهودى حين قال: لا، والذى اصطفى موسى على العالمين. قال البخارى فى آخره: «ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى». أى: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس[١].

وفى رواية لا ينبغى لأحدٍ أن يفضلنى على يونس بن متى. كما قد رود فى بعض الأحاديث: لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى. وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء اللّه والمرسلين.

☆☆☆

(١) رواه البخارى [٣٤١٤، ٣٤١٥]، ومسلم [٢٣٧٣/١٥٩].

ذكر قصة موسى الكليم
عليه الصلاة السلام

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ [مريم].

ذكره بالرسالة والنبوة والإخلاص والتكليم والتقريب، ومن عليه بأن جعل أخاه هارون نبيًا.

وقد ذكره اللّه تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصته فى مواضع متعددةٍ مبسوطةً ومتوسطة ومختصرة وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه من «التفسير» وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد فى الآثار المنقولة من الإسرائيليات التى ذكرها السلف وغيرهم إن شاء اللّه وبه الثقة وعليه التكلان.

قال اللّه تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص]

يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه سبحانه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق؛ أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهدٌ للأمر معاين له ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ [القصص: ٤]. أى: تجبر وعتا وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى قسم رعيته إلى أقسام وفرقٍ وأنواعٍ ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى اللّه يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم خليل اللّه.

وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف: أردئها وأدناها ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ما جرى من إرادته إياها على السوء، وعصمة الله لها.

وكانت هذه البشارة مشهورةً فى بنى إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون فى مجلس مسامرته مع أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل؛ حذرًا من وجود هذا الغلام، ولن يغنى حذرٌ من قدرٍ.

وذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباسٍ وعن مرة عن ابن مسعودٍ وعن أناسٍ من الصحابة أن فرعون رأى فى منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحزاة والسحرة وسألهم عن ذلك فقال له الكهنة: هذا غلامٌ يولد من بنى إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه. فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. وهم بنو إسرائيل ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]. أى: الذين يئول ملك مصر وبلادها إليهم ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦]. أى: سنجعل الضعيف قويًا والمقهور قاهرا والذليل عزيزًا. وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الشعراء]. وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأةٌ ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بذبح الغلمان لتضعف شوكة بنى إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وفى هذا نظرٌ، بل هو باطلٌ وإنما وقع هذا بعد بعثة موسى فجعل يقتل الولدان كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر: ٢٥]. ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف: ١٣٩] فالصحيح أن

فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً حذرًا من وجود موسى عليه السلام. هذا، والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذى لا يُغالب ولا يُمانع ولا تخالف أقداره أن هذا المولود الذى تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يُعد ولا يُحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يُغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه؛ لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم، والحول والقوة والمشيئة التى لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحدٍ من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشوا أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان يليه بنو إسرائيل من الأعمال الشاقة فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا، وأن يتركوا عامًا فولد هارون عليه السلام فى عام المسامحة عن قتل الأبناء، وولد موسى عليه السلام فى عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعًا واحترزت من أول ما حبلت به ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل، فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتًا، فربطته فى حبلٍ، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت تُرضعه فإذا خشيت من أحدٍ وضعته فى ذلك التابوت فأرسلته فى البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص].

هذا الوحى وحى إلهام وإرشادٍ كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل].

وليس هو بوحى نبوةٍ؛ كما زعمه ابن حزم وغير واحدٍ من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة. قال السهيلى: واسم أم موسى ياوخ وقيل أياذخت.

والمقصود أنها أُرشدت إلى هذا الذى ذكرناه، وأُلقى فى خلدها وروعها أن لا تخافى ولا تحزنى، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيًا مرسلاً

يُعلى كلمته فى الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص: ٨].

قال اللَّه تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨]. قال بعضهم: هذه لام العاقبة. وهو ظاهرٌ إن كان متعلقا بقوله: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ﴾ وأما إن جعل متعلقًا بمضمون الكلام؛ وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه؛ ليكون لهم عدوًا وحزنًا صارت اللام معللةً لغيرها واللَّه أعلم. ويقوى هذا التفسير الثانى قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ﴾ [القصص: ٨]. وهو الوزير السوء ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ المتابعين لهما ﴿ كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ أى: كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوتٍ مغلقٍ عليه، فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون؛ آسية بنت مزاحم بن عبيد ابن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف. وقيل: إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى. وقيل: بل كانت عمته. حكاه السهيلى. فالله أعلم.

وسيأتى مدحها والثناء عليها فى قصة مريم بنت عمران، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول اللَّه ﷺ فى الجنة. فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًا شديدًا فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه، وقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ [القصص: ٩]. فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأما لى فلا. أى: لا حاجة لى به. والبلاء موكلٌ بالمنطق. وقولها: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ [القصص: ٩]. وقد أنالها اللَّه ما رجت من النفع؛ أما فى الدنيا فهداها اللَّه به، وأما فى الآخرة فأسكنها جنته بسببه ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ وذلك أنهما تبنياه؛ لأنه لم يكن لهما ولدٌ.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى: لا يدرون ماذا يريد اللَّه بهم، أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده.

وعند أهل الكتاب أن الذى التقطت موسى وربته ابنة فرعونُ، وليس لامرأته ذكر بالكلية. وهذا من غلطهم على كتاب اللَّه عز وجل.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص]. قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ وعكرمة وسعيد بن جبيرٍ وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أى: من كل شىءٍ من أمور الدنيا إلا من أمر موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أى: لتظهر أمره وتسأل عنه جهرةً. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أى: صبرناها وثبتناها ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ وهى ابنتها الكبيرة قصيه أى اتبعى أثره واطلبى له خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ قال مجاهدٌ: عن بعد وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعةٍ فلم يقبل ثديًا ولا أخذ طعامًا فحاروا فى أمره، واجتهدوا فى ذلك أى على تغذيته بكلِ ممكنٍ فلم يفعل كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق؛ لعل يجدون من يوافق رضاعته فبينما هم وقوفٌ به والناس عكوفٌ عليه، إذ بصرت به أخته، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

قال ابن عباسٍ: لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقهم عليه؟ فقالت: رغبةً فى صهر الملك، ورجاء منفعته. فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها، وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تُحسن إليها فأبت عليها وقالت: إن لى بعلاً وأولادًا، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى. فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها، وقد جمع الله شمله بشملها قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]. أى كما وعدناها برده ورسالته فهذا رده، وهو دليلٌ على صدق البشارة برسالته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه فقال له فيما قال له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴿٣٩﴾﴾ [طه]. وذلك أنه لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

قال قتادة وغير واحدٍ من السلف: أى: تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس؛ بمرأى منى وذلك كله بحفظى وكلاءتى لك فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ

فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طـه: ٤٠].
وسنورد حديث الفتون فى موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص] لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها، وإحسانه بذلك، وامتنانه عليها شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى؛ وهو احتكام الخلق والخُلُق وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين آتاه الله حكمًا وعلمًا؛ وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]. ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد، وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى.

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [القصص: ١٥]. قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى: وذلك نصف النهار.

وفى رواية عن ابن عباس: بين العشاءين ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى: يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أى: إسرائيلىٌ ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أى: قبطىٌ. قاله ابن عباس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥]. وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولةٌ بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله، أى من الرضاعة، فلما استغاث ذلك الاسرائيلى موسى عليه السلام على ذلك القبطى أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ قال مجاهدٌ: أى طعنه بجمع كفه. وقال قتادة: بعصًا كانت معه ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى: فمات منها. وقد كان ذلك القبطى كافرًا مشركًا بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا قال موسى: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ [القصص]. أى: من العز والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧].

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ

إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص]. يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفًا أى من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رُفع إليه أمره إنما قتله موسى فى نصرة: رجلٍ من بنى إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمرٌ عظيمٌ، فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أى: يلتفت. فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس ﴿ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أى: يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عدوٌّ لموسى وللإسرائيلى فيردعه عنه ويخلصه منه فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطى ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩].

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلى الذى اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطى، اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذى كان وقع بالأمس، فذهب القبطى فاستعدى فرعون على موسى. وهذا الذى لم يذكره كثيرٌ من الناس سواه. ويحتمل أن قائل هذا هو القبطى، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه؛ ورأى من سجيته انتصارًا جيدًا للإسرائيلى، فقال ما قال من باب الظن والفراسة، إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلى حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم.

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل فى طلبه وسبقهم رجلٌ ناصحٌ عن طريق أقرب إليه ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ [القصص: ٢٨]. ساعيًا إليه مشفقًا عليه فقال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ [القصص: ٢٠]. أى: من هذه البلدة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠]. أى: فيما أقوله لك. قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص: ٢١]. أى: فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه، لا يهتدى إلى طريقٍ ولا يعرفه قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ

خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص] يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي: يتلفت خشية أن يدركه أحدٌ من قوم فرعون، وهو لا يدرى أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب؛ وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي: اتجه له طريقٌ يذهب فيه ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص: ٢٢]. أي: عسى أن تكون هذه الطريق موصلةً إلى المقصود. وكذا وقع أو صلته إلى مقصودٍ وأى مقصودٍ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص: ٢٣]. وكانت بئرًا يستقون منها. ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيبٍ عليه السلام وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾. أي: تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس. وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بناتٍ. وهذا أيضًا من الغلط ولعله كان له سبع ولكن إنما كان تسقى اثنتان منهن. وهذا الجمع ممكن إن كان ذلك محفوظًا وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾. أي: لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء؛ لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره. قال الله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرةً عظيمةً، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الصخرة كما كانت. قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرةٌ. وإنما استقى ذنوبًا واحدًا فكفاهما، ثم تولى إلى الظل. قالوا: وكان ظل شجرةٍ من السمر: روى ابن جريرٍ عن ابن مسعودٍ أنه رآها خضراء ترف. ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤]. قال ابن عباسٍ: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافيًا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصقٌ بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاجٌ إلى شق تمرةٍ. قال عطاء بن السائب: لما قال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤] أسمع المرأة.

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ

أن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص].

لما جلس موسى عليه السلام فى الظل وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤]. سمعته المرأتان، فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص: ٢٥]. أى: مشى الحرائر قال عمر رضى اللَّه عنه: تستر وجهها بكم درعها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ ﴾ [القصص: ٢٥].

صرحت له بهذا؛ لئلا يوهم كلامها ريبةً وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [القصص: ٢٥]. أى: وأخبره خبره وما كان من أمره؛ فى خروجه من بلاد مصر فرارًا من فرعونها، قال له ذلك الشيخ: ﴿ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥]. أى: خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم.

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ؛ من هو؟ فقيل: هو شعيبٌ عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين. وممن نص عليه الحسن البصرى ومالك بن أنسٍ وجاء مصرحًا به فى حديثٍ ولكن فى إسناده نظرٌ. وصرح طائفةٌ بأن شعيبًا عليه السلام عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيبٌ وكانَ سيد الماء، ولكن ليس بالنبى صاحب مدين. وقيل: إنه ابنُ أخى شعيبٍ. وقيل: ابن عمه. وقيل: رجلٌ مؤمنٌ من قوم شعيبٍ. وقيل: رجلٌ اسمه يثرونُ. هكذا هو فى كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أى: كبيرها وعالمها. قال ابن عباسٍ وأبو عبيدة بن عبد اللَّه: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخى شعيبٍ. زاد ابن عباسٍ: صاحب مدين.

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ ﴾ أى: لرعى غنمك. ثم مدحته بأنه قوىٌ أمينٌ.

قال عمر وابن عباسٍ وشريحٌ القاضى وأبو مالكٍ وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحدٍ: لما قالت ذلكَ قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرةً لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كونى من ورائى، فإذا اختلف الطريق فاحذفى لى بحصاةٍ أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعودٍ: أفرس الناس ثلاثةٌ؛ صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وأبو بكر حين استخلف عمر ابن الخطاب.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]. استدل بهذا جماعةٌ من أصحاب أبى حنيفة رحمه اللّه على صحة ما اذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين، ونحو ذلك أنه يصح؛ لقوله: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ وفى هذا نظرٌ؛ لأن هذه مراوضةٌ لا معاقدةٌ. واللّه أعلم. واستدل أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة، واستأنسوا بالحديث الذى رواه ابن ماجه فى «سننه» مترجمًا فى كتابه «باب استئجار الأجير على طعام بطنه»: حدثنا محمد بن المصفى الحمصى حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن علىّ عن سعيد بن أبى أيوب عن الحارث بن يزيد عن علىّ بن رباح قال: سمعت عتبة بن النذر يقول: كنا عند رسول اللّه ﷺ فقرأ: ﴿طسٓمٓ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال: «إن موسى صلى اللّه عليه وسلم أَجَرَ نفسه ثمانى سنين أو عُشْرًا على عفة فرجه وطعام بطنه»[1].

وهذا من هذا الوجه لا يصح؛ لأن مسلمة بن علىّ الخشنى الدمشقى البلاطى ضعيفٌ عند الأئمة، لا يحتج بتفرده، ولكن قد روى من وجهٍ آخر؛ فقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبوزرعة حدثنا يحيى بن عبد اللّه بن بكير حدثنى ابن لهيعة وحدثنا أبو زرعةَ حدثنا صفوان حدثنا الوليد؛ حدثنا عبد اللّه بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن علىّ بن رباح اللخمى قال: سمعت عتبة بن الندر السلمى صاحب رسول اللّه ﷺ يحدث أن رسول اللّه ﷺ قال: إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]. يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان على، واللّه على مقالتنا سامعٌ وشاهدٌ ووكيلٌ على وعليك. ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما، وهو العشر سنين كوامل تامةً.

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبيرٍ قال: سألنى يهودىٌّ من أهل الحيرة: أى الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب

(١) رواه ابن ماجه [٢٤٤٤] قال الألبانى: ضعيف جدا.

فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباسٍ فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذا قال فعل. تفرد به البخارى من هذا الوجه[١]. وقد رواه النسائى فى حديث الفتون، كما سيأتى من طريق القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبيرٍ.

وقد رواه ابن جريرٍ عن أحمد بن محمدٍ الطوسى وابن أبى حاتمٍ عن أبيه كلاهما عن الحميدى عن سفيان بن عيينة حدثنى إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباسٍ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «سألت جبريل: أى الأجلين قضى موسى؟ قال أتمهما وأكملهما». وإبراهيم هذا غير معروفٍ إلا بهذا الحديث.

وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباسٍ عن النبى ﷺ فذكره[٢].

وقد رواه سنيدٌ عن حجاجٍ عن ابن جريجٍ عن مجاهدٍ مرسلاً أن رسول اللَّه سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال: أبرهما وأوفاهما. وبنحوه رواه ابن أبى حاتمٍ من حديث يوسف بن سرحج مرسلاً. ورواه ابن جريرٍ من طريق محمد بن كعبٍ أن رسول اللَّه ﷺ سئل: «أى الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأتمهما»[٣].

وقد رواه البزار وابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران الجونى - وهو ضعيفٌ - عن أبيه عن عبد اللَّه بن الصامت عن أبى ذرٍّ أن رسول اللَّه ﷺ سئل: «أى الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبرهما. قال: وإن سئلت: أى المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما»[٤].

وقد رواه البزار وابن أبى حاتمٍ من طريق عبد اللَّه بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح عن عتبة بن النذر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه. فلما وفى الأجل قيل: يا رسول اللَّه أى الأجلين؟ قال: أبرهما وأوفاهما، فلما أراد فراق شعيبٍ أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لونٍ من ولد ذلك العام، وكانت غنمةً سودًا حسانًا، فانطلق موسى عليه السلام إلى عصًا قسمها من

---

(١) رواه البخارى [٢٦٨٤].

(٢) رواه البزار والسيوطى فى الدر المنثور [٥/ ١٢٧].

(٣) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه [٦/ ٣٣٥].

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط [٥٤٣٠] بلفظ: «إذا سئلت أى الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأوفرهما وإن سئلت أى المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما»، وفى المعجم الصغير [٨١٥].

طرفها، ثم وضعها فى أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاةٌ إلا ضرب جنبها شاةً شاةً قال: فأتأمت وأثلثت ووضعت كلها قوالب ألوانٍ إلا شاةً أو شاتين؛ ليس فيها فشوشٌ، ولا ضبوبٌ، ولا عزوزٌ، ولا ثعولٌ، ولا كمشة تفوت الكف. قال النبى ﷺ: لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم» وهى السامرية. قال ابن لهيعة: الفشوش: واسعة الشخب. والضبوب: طويلة الضرع تجره. والعزوز: ضيقة الشخب. والثعول: الصغيرة الضرع كالحلمتين. والكمشة التى لا يحكم الكف على ضرعها لصغره[1].

وفى صحة رفع هذا الحديث نظرٌ، وقد يكون موقوفًا، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة حدثنا أنس بن مالكٍ قال: لما دعا نبى اللَّه موسى صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما قال له صاحبه: كل شاةٍ ولدت على لونها فلك ولدها. فعمد فوضع خيالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت، فجالت جولةً فولدن كلهن بلقًا إلا شاةً واحدةً، فذهب بأولادهن ذلك العام. وهذا إسنادٌ رجاله ثقاتٌ واللَّه أعلم. وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يُولد من غنمه بُلقًا ففعل نحو ما ذُكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم.

قال اللَّه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص]. تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ وعن مجاهدٍ أنه أكمل عشرًا، وعشرًا بعدها.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ أى: من عند صهره ذاهبًا فيما ذكره غير واحدٍ من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة متخفٍ، فلما سار بأهله، ومعه ولدانٌ منهم وغنمٌ قد استفادها مدة مقامه. قالوا: واتفق ذلك فى ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، وتاهوا فى طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف، وجعل يورى زناده فلا يورى شيئًا، واشتد الظلام والبرد، فبينما هو كذلك

(١) سبق تخريجه.

إذ أبصر عن بعدٍ نارًا تأجج فى جانب الطور، وهو الجبل الغربى منه عن يمينه قال لأهله: ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ وكأنه - والله أعلم - رآها دونهم؛ لأن هذه النار هى نورٌ فى الحقيقة، ولا تصلح رؤيتها لكل أحدٍ ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى: لعلى أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلةٍ باردةٍ ومظلمةٍ؛ لقوله فى الآية الأخرى: ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ ﴾ [طه]. فدل على وجود الظلام، وكونهم تاهوا عن الطريق.

وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله: ﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ [النمل: ٧]. وقد أتاهم منها بخبرٍ وأى خبرٍ؟ ووجد عندها هدىً، وأى هدىً؟ واقتبس منها نورًا، وأى نورٍ؟.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال فى النمل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٨]. أى: سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [النمل: ٩].

وقال فى سورة طه: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝١٦ ﴾ [طه].

قال غير واحدٍ من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها وجدها تأجج فى شجرةٍ خضراءٍ من العوسج وكل ما لتلك النار فى اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازديادٍ فوقف متعجبًا، وكانت تلك الشجرة فى لحف جبلٍ غربىٍّ عن يمينه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤].

وكان موسى فى وادٍ اسمه طوىً، فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوىً، فأمر أولاً بخلع نعليه؛ تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعة المباركة، ولا سيما فى تلك الليلة المباركة. وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور؛ مهابةً له وخوفًا على بصره.

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]. أى: أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو الذى، لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له. ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يوم القيامة التى لا بد من كونها ووجودها ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٥]. أى: من خيرٍ وشرٍّ. وحضه وحثه على العمل لها، ومجانبة من لا يؤمن بها، ممن عصى مولاه واتبع هواه.

ثم قال له مخاطبًا ومؤانسًا ومبينًا له أنه القادر على كل شىء الذى يقول: للشىء كن. فيكون: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٧]. أى: أما هذه عصاك التى نعرفها منذ صحبتها؟ ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨]. أى: بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه].

وهذا خارقٌ عظيمٌ وبرهانٌ قاطعٌ على أن الذى يكلمه يقول للشىء: كن. فيكون. وأنه الفعال بالاختيار.

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهانًا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر، فقال له الرب عز وجل: ما هذه التى فى يدك؟ قال: عصاى قال: ألقها إلى الأرض ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٢٠]. فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصًا فى يده.

وقد قال اللّه تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ [القصص: ٣١]. أى: قد صارت حيةً عظيمةً لها ضخامةٌ هائلةٌ وأنيابٌ تصطك وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان وهو ضربٌ من الحيات، يقال له: الجان والجنان. وهو لطيفٌ، ولكن سريع الاضطراب والحركة جدًّا، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة، فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أى: هاربًا منها؛ لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ أى ولم يلتفت فناداه ربه قائلاً له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١]. فلما رجع أمره اللّه سبحانه وتعالى أن يمسكها ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١]. فيقال: إنه هابها شديدًا فوضع يده فى كُم مدرعته، ثم وضع يده فى وسط فمها - وعند أهل الكتاب: بذنبها - فلما استمكن منها، إذا هى قد عادت كما كانت عصًا ذات شعبتين. فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين. ثم أمره تعال بإدخال يده فى جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضًا ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أى: من غير برصٍ ولا بهقٍ.

ولهذا قال: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ

ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]. قيل: معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك. وهذا وإن كان خاصا به إلا أن ببركة الإيمان به حق الإيمان ينتفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]. أي: هاتان الآيتان وهما العصا واليد، وهما البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]. ومع ذلك سبع آياتٍ أُخر، فذلك تسع آيات بيناتٍ، وهي المذكورة في آخر سورة الإسراء حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء].

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف]. كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه. وهذه التسع آيات غير العشر كلمات؛ فإن التسع من آيات الله القدرية، والعشر من كلماته الشرعية. وإنما نبهنا على هذا؛ لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هي هذه كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة الإسراء.

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص].

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فرارًا من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، ولهذا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص]. أي: اجعله معي معينًا ردءًا ووزيرًا يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم؛ فإنه أفصح مني لسانًا وأبلغ بيانًا.

قال الله سبحانه وتعالى مجيبًا له إلى سؤاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ

لَكُمَا سُلْطَـٰنًا ﴾ [القصص: ٣٥]. أى: برهانًا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ أى: فلا ينالون منكما مكروهًا بسبب قيامكما بآياتنا. وقيل: ببركة آياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ وقال في سورة طه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه] قيل: إنه أصابه فى لسانه لثغة؛ بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسانه، التى كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغيرٌ فهم بقتله فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفلٌ. فاختبره بوضع تمرةٍ وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها على لسانه فأصابته لثغةٌ بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية. قال الحسن البصرى: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة. ولهذا بقيت فى لسانه بقيةٌ ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم إنه يعيب به الكليم: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أى: يفصح عن مراده ويعبر عما فى ضميره وفؤاده ثم قال موسى عليه السلام: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه].

أى: قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذى طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه وهذا جاهٌ عظيمٌ قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣]. وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها رجلاً يقول لأناسٍ وهم سائرون فى طريق الحج: أى أخٍ أمن على أخيه؟ فسكت القوم فقالت عائشةُ لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه أن يكون نبيًا يوحى إليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

قال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء]. تقدير الكلام فأتياه فقولا له ذلك وبلغاه ما أرسلتما به؛ من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ويتفرغون لتوحيده، ودعائه، والتضرع لديه. فتكبر فرعون فى نفسه، وعتا وطغى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ

﴿فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]. أى: أما أنت الذى ربيناه فى منزلنا وأحسنا إليه، وأنعمنا عليه مدةً من الدهر؟ وهذا يدل على أن فرعون الذى بُعث إليه هو الذى فر منه، خلافًا لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فر منه مات فى مدة مقامه بمدين وأن الذى بعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]. أى: وقتلت الرجل القبطى وفررت منا، وجحدت نعمتنا ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى: قبل أن يوحى إلى، وينزل على ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]. ثم قال مجيبًا لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. أى: وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجلٌ واحدٌ من بنى إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم فى أعمالك وخدمك وأشغالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية. وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وهو فى هذه المقالةٌ معاندٌ يعلم أنه عبدٌ مربوبٌ، وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ما ثم رب أرسله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فكأنه يقول لهما: ومن رب العالمين الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟ فأجابه موسى قائلاً: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧] يعنى رب العالمين خالق هذه السماوات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة؛ من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولا بد لها من موجدٍ ومحدثٍ وخالقٍ، وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين. ﴿قَالَ﴾ أى: فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من امرائه ومرازبته ووزرائه على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام: ﴿

تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعنى كلامه هذا قال موسى مخاطبًا له ولهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦]. أى: هو الذى خلقكم والذين من قبلكم؛ من الآباء والأجداد والقرون السالفة فى الآباد، فإن كل أحدٍ يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه، ولم يحدث من غير محدثٍ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين.

وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء]. أى: هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة خالق الظلام والضياء ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر، والكواكب السائرة والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفى فلكٍ يسبحون، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء.

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قولٌ سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته، ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده اللَّه بهما وهما العصا واليد. وذلك مقامٌ أظهر فيه الخارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبانٌ مبينٌ أى: عظيم الشكل بديعٌ فى الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رعب شديدٌ وخوفٌ عظيمٌ بحيث أنه حصل له إسهالٌ عظيمٌ أكثر من أربعين مرةً فى يومٍ واحد وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يومًا إلا مرةً واحدةً فانعكس عليه الحالُ.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه واستخرجها أخرجها وهى كفلقة القمر تتلألأ نورًا بهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه اللَّه بشىءٍ من ذلك، بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله سحرٌ وأراد معارضته بالسحرة فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن فى رعيته وتحت قهره ودولته كما سيأتى بسطه وبيانه فى موضعه؛ من إظهار اللَّه الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه وأهل دولته وملته ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى فى سورة طه: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه].

يقول تعالى مخاطبًا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه، وأنعم بالنبوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهدًا لك وأنت فى دار فرعون، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتى وقدرتى وتدبيرى فلبثت فيها سنين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ [طه: ٤٠]. أى: منى لذلك، فوافق ذلك تقديرى وتسييرى ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أى: اصطفيتك لنفسى برسالتى وبكلامى ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: ٤٢]. يعنى: ولا تفترا فى ذكرى إذ قدمتما عليه، ووفدتما إليه؛ فإن ذلك عونٌ لكما على مخاطبته ومجاوبته وإهداء النصيحة إليه، وإقامة الحجة عليه. وقد جاء فى بعض الأحاديث: يقول اللّه تعالى: «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاقٍ قرنه» وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]

ثم قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]. وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره وهو إذ ذاك أردى خلقه وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتى هى أحسن؛ برفقٍ ولينٍ ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى كما قال تعالى لرسوله صلى اللّه عليه وسلم: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال الحسن البصرى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤]. أعذرا إليه قولا له إن لك ربًّا، ولك معادًا وإن بين يديك جنةً ونارًا.

وقال وهب بن منبهٍ قولاً له: إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة. قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه: ٤٥].

وذلك أن فرعونَ كان جبارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا، له سلطانٌ فى بلاد مصر طويلٌ عريضٌ، وجاهٌ وجنودٌ وعساكر وسطوةٌ، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن

يسطو عليهما في بادئ الأمر فثبتهما تعالى وهو العلى الأعلى فقال: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦] كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥]. ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه].

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى؛ أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يرسل معهم بنى إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧]. وهو البرهان العظيم في العصا واليد ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧]. تقيدٌ مفيدٌ بليغٌ عظيمٌ. ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب، فقالا: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨]. أي: كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه.

وقد ذكر السدى وغيره أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما ثم قال: يا هارون إن الله أمرنى وأمركَ أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معى. فقاما يقصدان باب فرعون، فإذا هو مغلقٌ فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب. فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل. وقال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين؛ لأنه لم يك أحدٌ يتجاسر على الاستئذان لهما فالله أعلم.

ويقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما، فوقفا بين يديه، فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما. وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام: إن هارون اللاوى - يعنى الذى من نسل لاوى بن يعقوب - سيخرج ويتلقاك. وأمره أن يأخذ معه مشايخ بنى إسرائيل إلى فرعون، وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات. وقال له: سأقسى قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتى وأعاجيبى بأرض مصر. وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه، يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه، فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بنى إسرائيل وذهبا إلى فرعون فلما بلغاه رسالة الله قال من هو الله؟ لا أعرفه، ولا أرسل بنى إسرائيل.

وقد قال الله مخبرا عن فرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا

نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه]. يقول تعالى مخبرًا عن فرعونٍ أنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه]. أى: هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقًا وآجالاً، وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوقٍ إلى ما قدره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره وعلمه؛ لكمال علمه وقدرته وقدره. وهذه الآيه كقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]. أى: قدر قدرا وهدى الخلائق إليه ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٥١]. يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه فلم عبد الأولون غيره، وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]. أى: هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجةٍ لك، ولا يدل على خلاف ما أقول؛ لأنهم جهلةٌ مثلك، كل شىءٍ فعلوه مستطرٌ عليهم فى الزبر من صغيرٍ وكبيرٍ وسيجزيهم على ذلك ربى عز وجل، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرةٍ؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبةٌ عنده فى كتابٍ لا يضل عنه شىءٌ ولا ينسى ربى شيئًا. ثم ذكر له عظمة الرب، وقدرته على خلق الأشياء وجعله الأرض مهادًا والسماء سقفًا محفوظًا، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم؛ كما قال: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤]. أى: لذوى العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة. فهو تعالى الخالق الرزاق. وكما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]. ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

كما قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه]. يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله، وقلة عقله فى تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله

لموسى: إن هذا الذى جئت به سحرٌ ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقتٍ معلومٍ ومكانٍ معلومٍ وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام؛ أن يظهر آيات اللّه وحججه وبراهينه جهرةً بحضرة الناس ولهذا قال: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩].

وكان يوم عيدٍ من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. أى: من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى. ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام، كيما يُروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهارًا جهرةً؛ لأنه على بصيرةٍ من ربه ويقينٍ من أن اللّه سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال اللّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه].

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءةً سحرةً فضلاء فى فنهم غايةٌ، فجمعوا له من كل بلدٍ ومن كل مكانٍ، فاجتمع منهم خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ. فقيل: كانوا ثمانين ألفًا، قاله محمد ابن كعب. وقيل: سبعين ألفًا. قاله القاسم بن أبى بزة وقال السدى: بضعةً وثلاثين ألفًا. وعن أبى أمامة: تسعة عشر ألفًا.

وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفًا.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفًا.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباسٍ: كانوا سبعين رجلاً. وروى عنه أيضًا أنهم كانوا أربعين غلامًا من بنى إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر. ولهذا قالوا: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣] وفى هذا نظرٌ.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل مصر عن بكرة أبيهم؛ وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠].

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة، فوعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل، الذى فيه معارضةٌ لآيات الله وحججه فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم؛ فقائلٌ يقول: هذا كلام نبيٍّ وليس بساحرٍ، وقائلٌ منهم يقول. بل هو ساحرٌ. فالله أعلم.

وأسروا التناجي بهذا وغيره ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه: ٦٣] يقولون: إن هذا وأخاه هارون ساحران، عليمان، مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما، ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤]. وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان. وهيهات، كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أنى يعارض البهتان والسحر والهذيان خوارق العادات، التى أجراها الديان على يدى عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ أى: جميع ما عندكم ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أى: جملةً واحدةً؛ ثم حض بعضهم بعضًا على التقدم فى هذا المقام؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه].

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم، قالوا له: إما أن تلقى قبلنا، وإما أن نلقى قبلك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ أنتم. وكانوا قد عمدوا إلى حبالٍ وعصيٍّ، فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابًا يُخيل للرائى أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم، وعصيهم وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه]. أى: خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقى ما فى يده، فإنه لا يضع شيئًا قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه]. فعند ذلك ألقى موسى عصاه، وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس]

وقال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف]. وذلك أن موسى عليه السلام لما تقدم وألقاها صارت حيةً عظيمة ذات قوائم - فيما ذكره غير واحدٍ من علماء السلف - وعنقٍ عظيم، وشكلٍ هائلٍ مزعجٍ، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعًا، وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصى، فجعلت تلقفه واحدًا واحدًا في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها. وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطلعوا على أمرٍ لم يكن في خلدهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحرٍ. ولا شعبذة ولا محالٍ ولا خيالٍ ولا زورٍ ولا بهتانٍ ولا ضلالٍ، بل حقٌّ لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرةً للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: آمنا برب هارون وموسى، كما قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه].

قال سعيد بن جبيرٍ وعكرمة والقاسم بن أبي بزة والأوزاعى وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده. وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكرو موسى وهارون فى الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمرًا بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيدٌ ومكرٌ وخداعٌ وصنعةٌ بليغةٌ فى الصد عن سبيل الله فقال مخاطبًا للسحرة بحضرة الناس: ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: ٧١]. أى: هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ثم تهدد وتوعد، وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد، قائلاً: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه: ٧١]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. وهذا الذى قاله من البهتان الذى يعلم كل فردٍ

عاقلٍ ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصبيان؛ فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يومًا من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر؟! ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فجٍّ عميقٍ ووادٍ سحيقٍ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف. ومن المدن والأرياف.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ

ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء].

والمقصود أن فرعون كذب وافترى، وكفر غاية الكفر فى قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [الشعراء: ٤٩].

وأتى ببهتانٍ يعلمه العالمون، بل العالمون فى قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. وقوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ [الشعراء: ٤٩]. يعنى: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى: ليجعلهم مثلةً ونكالاً؛ لئلا يقتدى بهم أحدٌ من رعيته وأهل ملته ولهذا قال: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]. أى: على جذوع النخل؛ لأنها أعلى وأشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١].

يعنى: فى الدنيا ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه: ٧٢]. أى: لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات، والدلائل القاطعات، ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ قيل: معطوفٌ. وقيل: قسمٌ ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أى: فافعل ما قدرت عليه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢]. أى: إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله، ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣]. أى: وثوابه خيرٌ مما وعدتنا به من التقريب والترغيب، ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أى: وأدوم من هذه الدار الفانية. وفى الآية الأخرى: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء]. أى: ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥١]. أى: من القبط بموسى وهارون عليهما السلام وقالوا له أيضاً: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. أى: ليس لنا عندك ذنبٌ إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا، ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. أى: ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد، ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه: ٧٤]. يقولون له: فإياك أن تكون منهم. فكان منهم. ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٥]. أى المنازل العالية ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٦]. فاحرص أن تكون منهم. فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تُغالب ولا تُمانع وحكم العلى العظيم بأن فرعون لعنه اللّه من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يُصب من فوق رأسه الحميم.

ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح، الذميم اللئيم: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه اللّه صلبهم وعذبهم رضى اللّه عنهم. قال عبد اللّه بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرةً، فصاروا من آخره شهداء بررةً.

ويؤيد هذا قولهم: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

☆☆☆

فصل

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغلب الذى غلبه فرعون وقومه من القبط فى ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحق.

قال اللّه تعالى بعد قص ما تقدم فى سورة الأعراف: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف].

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون، وهم الأمراء والكبراء، أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبى اللّه موسى عليه السلام، ومقابلته - بدل التصديق بما جاء به - بالكفر والرد والأذى، فقالوا: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. يعنون قبحهم اللّه أن دعوته إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة ماسواه فسادٌ بالنسبة إلى اعتقاد القبط لعنهم الله وقرأ بعضهم: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ أى: وعبادتك. ويحتمل شيئين:

أحدهما: ويذر دينك. وتقويه القراءة الأخرى.

والثانى: ويذر أن يعبدك؛ فإنه كان يزعم أنه إلهٌ؛ لعنه الله. ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. أى: لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أى: غالبون ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. أى: إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. أى: فكونوا أنتم من المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس].

وقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]. أى: قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك، وبعد مجيئك إلينا، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر]

وكان فرعون الملك وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليًا من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون وملئه، وكان ذا مال جزيل جدًا كما ستأتى قصته فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل لملأ بنى إسرائيل؛ لئلا يكون لهم شوكةٌ يمتنعون بها أو يصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون فلم ينفعهم ذلك ولم يرد عنهم قدر الذى يقول للشيء: كن. فيكون. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم صار فرعون مذكرا وهذا منه، فإن فرعون فى زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]. أى: عذت بالله ولجأت واستجرت بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء. وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: جبارٍ عنيدٍ لا يرعوى ولا ينتهى، ولا يخاف عذاب الله وعقابه؛ لأنه لا يعتقد معادًا ولا جزاءً، ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ

رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [غافر]. وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه عن قومه خوفًا منهم على نفسه. وزعم بعض الناس أنه كان اسرائيليًا وهو بعيدٌ مخالفٌ لسياق الكلام لفظًا ومعنى. والله أعلم

قال ابن جريج: قال ابن عباسٍ: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا، والذى جاء من أقصى المدينة، وامرأة فرعون. رواه ابن أبى حاتم. قال الدارقطنى: لا يُعرف من اسمه شمعان - بالشين المعجمة - إلا مؤمن آل فرعون. حكاه السهيلى. وفى «تاريخ الطبرانى» أن اسمه: جبرٌ. فالله أعلم.

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال كلمة الحق على وجه المشورة والرأى. وقد ثبتَ فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطانٍ جائرٍ»[1]. وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا يكون أشد جورًا منه، وهذا الكلام لا أعدل منه؛ لأن فيه عصمة نبىٍّ. ويحتمل أنه أشار لهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه. والأول أظهر. والله أعلم قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨]. أى: من أجل أنه قال: ربى الله، فمثل هذا لا يُقابل بمثل هذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام، يعنى: لأنه ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]. أى: بالخوارق التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامةٍ؛ لأنه ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ [غافر: ٢٨]. ولا يضركم ذلك، ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]. أى: وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاءٍ مما يتوعدكم به، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم؟ وهذا الكلام فى هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام. وقوله: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [غافر: ٢٨]. يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم، وكذا وقع لآل فرعون؛ ما زالوا فى شكٍّ وريبٍ، ومخالفةٍ ومعاندةٍ لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه

---

(١) رواه أبو داود [٤٣٤٤]، والترمذى [٢١٧٤]، وابن ماجه [٤٠١١] وصححه الألبانى.

من الملك والأملاك، والدور والقصور والنعمة والحبور، ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين. ولهذا قال هذاالرجل المؤمن المصدق، البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه، الكامل العقل: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى: عالين على الناس حاكمين عليهم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]. أى: لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة، لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الممالك. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أى: فى جواب هذا كله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩] أى: ما أقول لكم إلا ما عندى ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. وكذب فى كل من هذين القولين، وهاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق ويعلم فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى حق من عند اللَّه لا محالة، وإنما كان يُظهر خلافه بغيًا وعدوانًا، وعتوًّا وكفرانًا.

قال اللَّه تعالى إخبارًا عن موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

وأما قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. فقد كذب أيضًا، فإنه لم يكن على رشادٍ من الأمر، بل كان على سفهٍ وضلالٍ، وخبال وكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه، وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال فى دعواه أنه ربٌّ، تعالى اللَّه ذو الجلال والإكرام. قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود].

والمقصود بيان كذبه في قوله: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ وفي قوله: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٣٣ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر]. يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم؛ مما حل بقوم نوح، وعادٍ، وثمودٍ، ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك، مما أقام الله به الحجج على أهل الأرض قاطبةً في صدق ما جاءت به الأنبياء بما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء، وخوفهم يوم القيامة، وهو يوم التناد أي: حين ينادي الناس بعضهم بعضًا حين يولون مدبرين إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيلٌ ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ [القيامة].

وقال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن].

وقرأ بعضهم: يوم التناد بتشديد الدال أي: يوم الفرار. ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس فيودون الفرار ولات حين مناص. ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء].

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر؛ وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وأن لا يشركوا به أحدًا من بريته، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، أن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ [غافر: ٣٤]. وكذبتم في هذا. ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر]. أي: يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل

توحيده بلا حجةٍ ولا دليلٍ عندهم من اللَّه، فإن هذا أمرٌ يمقته اللَّه غاية المقت. أى: يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]. قرئ بالإضافة وبالنعت وكلاهما متلازمٌ أى: هكذا إذا خالفت القلوب الحق، ولا تخالفه إلا بلا برهانٍ، فإن اللَّه يطبع عليها أى: يختم عليها.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر]. كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه أن اللَّه أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٢٨].

وقال ههنا: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ. . . ﴾ [غافر]. أى: طرقها ومسالكها ﴿ . . . فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر: ٣٧]. ويحتمل هذا معنيين؛ أحدهما، وإنى لأظنه كاذبًا فى قوله: إن للعالم ربًا غيرى. والثانى؛ فى دعواه أن اللَّه أرسله. والأول أشبه بظاهر حال فرعون، فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع، والثانى أقرب إلى اللفظ؛ حيث قال: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أى: فاسأله هل أرسله أم لا ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ أى فى دعواه ذلك وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام، وأن يحثهم على تكذيبه.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ ﴾ [غافر: ٣٧] وقرئ: ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾.

قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ: يقول: إلا فى خسار. أى: باطلٍ، لا يحصل له شىءٌ من مقصوده الذى رامه، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبدًا - أعنى السماء الدنيا - فكيف بما بعدها من السماوات العلى، وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا اللَّه عز وجل.

وذكر غير واحدٍ من المفسرين أن هذا الصرح، وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له، لم ير بناءٌ أعلى منه، وإنه كان مبنيًا من الآجُر المشوى بالنار، ولهذا قال: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ [القصص:٣٨]. وعند أهل الكتاب أن بنى إسرائيل كانوا يسخرون فى ضرب اللبن، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شىءٍ مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويُطلب منهم كل يومٍ قسطٌ معينٌ إن لم يفعلوه وإلا ضُربوا وأهينوا غاية الإهانة،

وأوذوا غاية الأذية. ولهذا قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩]. فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط، وكذلك وقع، وهذا من دلائل النبوة.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه، قال اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر].

يدعوهم رضى اللّه عنه إلى طريق الرشاد والحق، وهى متابعة نبى اللّه موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه، ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، ورغبهم فى طلب الثواب عند اللّه الذى لا يضيع عمل عاملٍ لديه، القدير الذى ملكوت كل شىءٍ بيديه، الذى يعطى على القليل كثيرًا، ومن عدله لا يُجازى على السيئة إلا مثلها. وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار التى من وافاها مؤمنًا قد عمل الصالحات، فلهم الجنات العاليات، والغرف الآمنات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد، والخير الذى كل ما لهم منه فى مزيدٍ.

ثم شرع فى إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]. كان يدعوهم إلى عبادة رب السماوات والأرض، الذى يقول للشىء: كن؛ فيكون. وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون؛ ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر].

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى اللّه من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرارٍ.

فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]. أى لا تملك تصرفًا ولا حكمًا فى هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار؟ وأما اللّه عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار

وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار.

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ [غافر: ٤٥]. أى: بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله، ومكرهم فى صدهم عن سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التى لبسوا بها على عوامهم وطغامهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَحَاقَ ﴾ أى: أحاط ﴿ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۝٤٦ ﴾ [غافر]. أى: تعرض أرواحهم فى برزخهم صباحًا ومساءً على النار، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]. وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر فى «التفسير» ولله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسال الرسول إليهم، وإزاحة الشبه عنهم، وأخذ الحجة عليهم منهم، فبالترهيب تارةً والترغيب أخرى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝١٣٣ ﴾ [الأعراف].

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون، وهم قومه من القبط بالسنين، وهى أعوام الجدب التى لا يستغل فيها زرعٌ ولا ينتفع بضرع. وقوله: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهى قلة الثمار من الأشجار، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى: فلم ينتفعوا ولم يرعووا بل تمردوا، واستمروا على كفرهم وعنادهم، ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وهو الخصب ونحوه ﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أى: هذا الذى نستحقه، وهذا الذى يليق بنا، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]. أى: يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا. ولا يقولون فى الأول: انه ببركتهم وحسن مجاورتهم، ولكن قلوبهم منكرةٌ مستكبرةٌ نافرةٌ عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه، وإن رأوا خيرًا ادعوه لأنفسهم، قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢]. أى: مهما جئتنا به من الآيات، وهى الخوارق للعادات، فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكل آيةٍ.

وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس].

قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

أما الطوفان فعن ابن عباسٍ: هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار. وبه قال سعيد ابن جبيرٍ وقتادة والسدى والضحاك. وعن ابن عباسٍ وعطاء: هو كثرة الموت. وقال مجاهدٌ: الطوفان الماء، والطاعون على كل حالٍ. وعن ابن عباسٍ: أمرٌ طاف بهم وقد روى ابن جريرٍ وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى ﷺ: «الطوفان الموت». وهو غريبٌ[(١)]. وأما الجراد فمعروفٌ. وقد روى أبو داود عن أبى عثمان عن سلمان الفارسى قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله لا آكله ولا أُحرمه»[(٢)]. وترك النبى ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له؛ كما ترك أكل الضب[(٣)]. وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث[(٤)] لما ثبت فى «الصحيحين» عن عبد الله بن أبى أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزواتٍ نأكل الجراد[(٥)]. وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار فى «التفسير» والمقصود أنه استاق خضراءهم، فلم يترك لهم زروعًا ولا ثمارًا ولا سبدًا ولا لبدًا. وأما القمل، فعن ابن عباسٍ: هو السوس الذى يخرج من الحطنة، وعنه أنه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له. وبه قال مجاهدٌ وعكرمة وقتادة.

وقال سعيد بن جبيرٍ والحسن: هو دوابٌ سودٌ صغارٌ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى البراغيث.

وحكى ابن جريرٍ عن أهل العربية: أنها الحمنان. وهو صغار القردان، فرق القمقامة فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقر لهم قرارٌ ولم يمكنهم معه الغمض

(١) الدر المنثور [٣/١٠٨].

(٢) رواه أبو داود [٣٨١٣] وضعفه الألبانى.

(٣) روى البخارى [٥٥٣٦] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «الضب لست آكله ولا أحرمه». ومسلم [١٩٤٣/٣٩].

(٤) روى مسلم [٥٦٤/٧٢] عن جابر رضى الله تعالى عنه قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل البصل والكراث فغلبتنا الحاجة فأكلنا منها. فقال: من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تأذى مما يتأذى منه الإنس.

(٥) رواه البخارى [٥٤٩٥] مسلم [١٩٥٢/٥٢].

ولا العيش. وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف. وقرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف.

وأما الضفادع فمعروفةٌ لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعامٍ أو شرابٍ سقطت فى فيه ضفدعةٌ من تلك الضفادع.

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به، فلا يستقون من النيل شيئًا إلا وجدوه دمًا عبيطًا، ولا من نهرٍ ولا بئرٍ ولا شيءٍ إلا كان دمًا فى الساعة الراهنة. هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شيءٌ بالكلية. وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم، ولا يحل هذا لأحدٍ من بنى إسرائيل، وفى هذا أدل دليل.

قال محمد بن إسحاق: فرجع عدو اللّه فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مفلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر، فتابع اللّه عليه بالآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم آياتٍ مفصلاتٍ؛ فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا جوعًا فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلما لم يفوا له بشيءٍ، فأرسل اللّه عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل اللّه عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيبٍ حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيبٍ أهيلٍ عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم، فلما لم يفوا له بشيءٍ مما قالوا؛ فأرسل اللّه عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحدٌ ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيءٍ مما قالوا؛ فأرسل اللّه عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئرٍ ولا نهرٍ ولا يغترفون من إناءٍ، إلا عاد دمًا عبيطًا.

وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم الرعاف. رواه ابن أبى حاتم.

قال اللّه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ

أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف].

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التى أراهم الله إياها عيانًا وجعلها عليهم دليلاً وبرهانًا، وكلما شاهدوا آيةً وعاينوها، وجهدهم وأضنكهم، حلفوا وعاهدوا موسى؛ لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به، وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق، ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آيةً أخرى هى أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون. ويعدون ولا يفون ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل هذا، والعظيم الحليم القدير ينظرهم، ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم - بعد إقامة الحجة عليهم، والإعذار إليهم - أخذ عزيزٍ مقتدرٍ فجعلهم عبرةً ونكالاً وسلفًا لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين.

قال تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين فى سورة الزخرف: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف]

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم، وأنه تعالى أيد رسوله بآياتٍ بيناتٍ واضحاتٍ تستحق أن تقابل بالتصديق والتعظيم وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون، وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدون، وعن الحق يحيدون فأرسل الله عليهم الآيات تترى، يتبع بعضها بعضًا، وكل آيةٍ أكبر من أختها التى تتلوها لأن الموكَّد أبلغ مما قبله، ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف]. لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصًا ولا

عييًا؛ لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة؛ ولهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]. ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها، وتخرق الأنهار فيها، وهى الخلجان التى يكسرونها أمام زيادة النيل، ثم تبجح بنفسه وحليته، وأخذ يتنقص رسول اللَّه موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى كلامه، بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة التى هى شرفٌ له وكمالٌ وجمالٌ، ولم تكن مانعةً له أن كلمه اللَّه تعالى وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه، وتنقصه فرعون لعنه اللَّه، بكونه لا أساور فى يديه ولا زينة عليه، وإنما ذلك من حلية النساء، لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً، وأتم معرفةً، وأعلى همةً وأزهد فى الدنيا، وأعلم بما أعد اللَّه لأوليائه فى الأخرى. وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. لا يحتاج الأمر إلى ذلك، إن كان المراد أن تعظمه الملائكة. فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثيرٍ، كما جاء فى الحديث: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع»[(١)]. فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم؟ وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوى الألباب ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور، وترك لب اللباب، وطبع على قلبه رب الأرباب، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب، قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. أى: استخف عقولهم ودرجهم من حالٍ إلى حالٍ إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية، لعنه اللَّه وقبحهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف]. أى: أغضبونا؛ ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى: بالغرق والإهانة، وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرفاهية، والنار بعد طيب العيش عياذًا بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أى: لمن اتبعهم فى الصفات ﴿وَمَثَلًا﴾ أى: لمن اتعظ بهم، وخاف من وبيل مصرعهم، ممن بلغه جليه خبرهم، وما كان من أمرهم؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ

(١) تقدم تخريجه.

عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص].

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد غضب الرب القدير العزيز الذى لا يغالب ولا يُمانع عليهم، فانتقم منهم أشد الانتقام، وأغرقه هو وجنوده فى صبيحةٍ واحدةٍ، فلم يفلت منهم أحدٌ، ولم يبق منهم ديارٌ، بل كل قد غرق، فدخل النار، وأُتبعوا فى هذه الدار لعنةً بين العالمين، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

☆☆☆

ذكر هلاك
فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعةً لملكهم فرعون، ومخالفةً لنبى اللّه ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، وأقام اللّه على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلا القليل قيل: ثلاثةٌ؛ وهم امرأة فرعون، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها، ومؤمن آل فرعون الذى تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة فقال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠]. قاله ابن عباسٍ فيما رواه ابن أبى حاتم عنه. ومراده غير السحرة، فإنهم كانوا من القبط. وقيل: بل آمن به طائفةٌ من القبطِ من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بنى إسرائيل.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس: ٨٣]. فالضمير فى قوله: ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ عائدٌ على فرعون؛ لأن السياق يدل عليه. وقيل: على موسى؛ لقربه. والأول أظهر، كما هو مقررٌ فى «التفسير» وإيمانهم كان خفيةً لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه، فيفتنهم عن دينهم قال اللّه تعالى مخبرًا عن فرعون، وكفى بالله شهيدًا: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٨٣]. أى: جبارٌ عنيدٌ مستعلٍ بغير الحق، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أى: فى جميع أموره وشئونه وأحواله، ولكنه جرثومةٌ قد حان انجعافها وثمرةٌ خبيثةٌ قد آن قطافها، ومهجةٌ ملعونةٌ قد حتم إتلافها. وعند ذلك قال موسى: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس].

يأمرهم بالتوكل على اللّه والاستعانة به والالتجاء إليه فأتمروا بذلك، فجعل اللّه لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا. ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧]. أوحى اللّه تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا لقومهما بيوتًا متميزةً فيما بينهم عن بيوت

القبط؛ ليكونوا على أهبةٍ من الرحيل، إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض. وقوله: ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس: ٨٧]. قيل: مساجدَ. وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها. قاله مجاهدٌ وأبو مالكٍ وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم. ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة. كما قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى[(١)]. وقيل: معناه أنهم لم يكونوا حينئذٍ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم عوضًا عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق فى ذلك الزمان الذى اقتضى حالهم إخفاءه، خوفًا من فرعون وملئه. والمعنى الأول أقوى؛ لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإن كان لا ينافى الثانى أيضًا والله أعلم. وقال سعيد بن جبيرٍ: ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أى: متقابلةً.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس].

هذه دعوةٌ عظيمةٌ دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون؛ غضبا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلى الحسى والمعنوى والبرهان القطعى فقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ ﴾ [يونس: ٨٨]. يعنى: قومه من القبط، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ [يونس: ٨٨]. أى: وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شيء لكون هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض فى الدنيا لا الدين ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ: أى: أهلكها: وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارةً منقوشة كهيئة ما كانت وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة وقال محمد بن كعبٍ: جعل سكرهم حجارة، وقال أيضا صارت أموالهم كلها حجارة ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: قم إيتنى بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة. رواه ابن أبى حاتمٍ.

---

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] وحسنه الألبانى عن حذيفة رضى الله تعالى عنه.

وقوله: ﴿ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]. قال ابن عباس: أى اطبع عليها وهذه دعوة غضب للّه تعالى ولدينه ولبراهينه فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح فى قومه حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح].

ولهذا قال تعالى مخاطبًا لموسى حين دعا على فرعون وملئه، وأمن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعى أيضًا: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٩٨].

قال المفسرون: وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيدٍ لهم، فأذن لهم وهو كارهٌ، ولكنهم تجهزوا للخروج، وتأهبوا له وإنما كان فى نفس الأمر مكيدةً بفرعون وجنوده؛ ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم وأمرهم اللّه تعالى - فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعيروا حليًا منهم، فأعاروهم شيئًا كثيرًا فخرجوا بليلٍ فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام فلما علم فرعون بذهابهم حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوه ليلحقهم ويمحقهم. قال اللّه تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء].

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون فى جنوده طالبًا بنى إسرائيل يقفو أثرهم كان فى جيشٍ كثيفٍ عرمرم حتى قيل: كان فى خيوله مائة ألف فحلٍ أدهم. وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألفٍ. وستمائة ألفٍ. فالله أعلم.

وقيل: إن بنى إسرائيل كانوا نحوًا من ستمائة ألف مقاتلٍ غير الذرية، وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام، ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنةٍ وست وعشرون سنة شمسيةً.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان، ولم يبق ثم ريبٌ ولا لبسٌ وعاين كل من الفريقين صاحبه، وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريقٌ ولا

محيدٌ إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحدٌ، ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم، وهى شاهقةٌ منيفةٌ وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعَدَده وعُدَده وهم منه فى غاية الخوف والذعر، لما قاسوا فى سلطانه من الإهانة والنكر فشكوا إلى نبى اللّه ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وكان فى الساقة فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر، وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزايد زبد أجاجه، وهو يقول: ههنا أُمرت. ومعه أخوه هارون؛ ويوشع بن نونٍ، وهو يومئذٍ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار، وقد أوحى اللّه إليه وجعله نبيًا بعد موسى وهارون عليهما السلام، كما سنذكره فيما بعد إن شاء اللّه ومعهم أيضًا مؤمن آل فرعون، وهم وقوفٌ وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوفٌ. ويقال: إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارًا فى البحر، هل يمكن سلوكه؟ فلا يمكن، ويقول لموسى عليه السلام: يا نبى اللّه أههنا أمرت؟ فيقول: نعم. فلما تفاقم الأمر، وضاق الحال، واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم، وغضبهم، وحنقهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم إلى موسى الكليم: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. فلما ضربه يقال: إنه قال له: انفلق بإذن اللّه. ويقال: إنه كناه بأبى خالد فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ويقال: إنه انفلق اثنتى عشرة طريقًا، لكل سبط طريقٌ يسيرون فيه، حتى قيل: إنه صار أيضًا شبابيك؛ ليرى بعضهم بعضًا، وفى هذا نظرٌ؛ لأن الماء جرمٌ شفافٌ إذا كان من ورائه ضياءٌ حكاه. وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال، مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء: كن فيكون. وأمر اللّه ريح الدبور، فلقحت حال البحر، فأذهبته حتى صار يابسًا لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب.

قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [طه].

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، ويهدى قلوب المؤمنين،

فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه. فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفرعون وجنوده وصولٌ إليه ولا سبيلٌ عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق فى المقال.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الدخان].

فقوله تعالى: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي: ساكنًا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة. قاله عبد اللَّه بن عباسٍ ومجاهدٌ وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حربٍ وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم. فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلدًا وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدى، الخارجين عن طاعتى وبلدى؟ وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارةً، ويحجم تاراتٍ، فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى فى صورة فارسٍ، راكبٍ على رمكةٍ حائل فمر بين يدى فحل فرعون لعنه اللَّه فحمحم إليها، وأقبلَ عليها وأسرع جبريل بين يديه، فاقتحم البحر، واستبق الجواد، وقد أجاد فبادر مسرعًا، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ولا لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين، حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر اللَّه تعالى كليمه ﷺ فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه، فارتطم ﷺ عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسانٌ.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء]. أي: فى إنجائه أولياءه

فلم يغرق منهم أحدٌ وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحدٌ آيةٌ عظيمةٌ وبرهانٌ قاطعٌ على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس]. يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا حل به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل وأشفى لنفوسهم، فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حينئذٍ وتاب وآمن حين لا ينفع نفسًا إيمانها.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يُطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم، ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أى: حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرةً عليهم، وقد قال تعالى لهما - أى: لموسى وهارون - حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾. فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

ومن ذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيدٍ عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لما قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قال: «قال لى جبريل: لو رأيتنى وقد أخذت من حال البحر فدسسته فى فيه؛ مخافة أن تناله الرحمة»(١).

ورواه الترمذى وابن جريرٍ وابن أبى حاتمٍ عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة. وقال الترمذى: حديثٌ حسنٌ(٢).

(١) رواه أحمد فى المسند [١/٣٠٩] واللفظ له. وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.
(٢) رواه الترمذى [٣١٠٧] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه وصححه الألبانى.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة عن عدى بن ثابتٍ وعطاء بن السائب عن سعيد ابن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل. لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فم فرعون؛ مخافة أن تدركه الرحمة»(١).

ورواه الترمذى، وابن جريرٍ من حديث شعبة: وقال الترمذى: حسنٌ غريبٌ صحيحٌ، وأشار ابن جريرٍ فى روايةٍ إلى وقفه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيدٍ الأشج حدثنا أبو خالدٍ الأحمر عن عمر بن عبد الله ابن يعلى الثقفىّ عن سعيد بن جبير عن ابن عباسٍ قال: لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]. قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه. ورواه ابن جريرٍ من حديث أبى خالدٍ به. وقد رواه ابن جريرٍ من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروفٍ وعن أبى حازم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال لى جبريل: يا محمدُ لو رأيتنى وأنا أغطهُ وأدس من الحال فى فيه؛ مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له. يعنى فرعون وقد أرسله غير واحدٍ من السلف؛ كإبراهيم التيمى وقتادة وميمون بن مهران ويقال: إن الضحاك بن قيسٍ خطب به الناس. وفى بعض الروايات: إن جبريل قال: ما بغضت أحدًا بغضى لفرعون حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. ولقد جعلت أدس فى فيه الطين حين قال ما قال.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]. استفهام إنكارٍ، ونصٌّ على عدم قبوله تعالى منه ذلك، لأنه والله أعلم لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

قال ابن عباسٍ وغير واحدٍ: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون حتى قال بعضهم: إنه لا يموت. فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع - قيل: على وجه الماء. وقيل: على نجوةٍ من الأرض - وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه؛ ليتحققوا بذلك من هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى: مصاحبًا درعك المعروفة بك ﴿لِتَكُونَ﴾ أى: أنت آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أى: من بنى

---

(١) انظر السابق.

إسرائيل، دليلاً على قدرة اللّه الذى أهلكه. ولهذا قرأ بعض السلف: لتكون لمن خلقك آية ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك مصاحبًا درعك؛ ليكون درعك علامةً لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك، وإنك هلكت واللّه أعلم.

وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء.

كما قال الإمام البخارى فى «صحيحه»: حدثنا محمد بن بشارٍ حدثنا غندرٌ حدثنا شعبة عن أبى بشرٍ عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقالوا: هذا يومٌ ظهر فيه موسى على فرعون فقال النبى ﷺ: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا». وأصل هذا الحديث فى «الصحيحين» وغيرهما واللّه أعلم[1].

☆☆☆

(١) رواه البخارى [٢٠٠٤، ٣٣٩٧، ٣٩٤٣، ٤٦٨٠]، ومسلم [١١٣٠/١٢٧].

فصلٌ فيما كان من أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى: ﴿ فَأَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف].

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم، وأورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم، كما قال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩]. وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

وقال هاهنا: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أى أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا. فذكر ابن عبد الحكم فى «تاريخ مصر» أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها؛ بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم، واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومك هذا. وعند أهل الكتاب أن بنى إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم، وأُمروا أن يذبح كل أهل بيتٍ حملاً من الغنم، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حملٍ فليشترك الجار وجاره فيه، فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم؛ ليكون علامةً لهم على بيوتهم، ولا يأكلونه مطبوخًا ولكن مشويا برأسه وأكارعه وبطنه، ولا يبقوا منه

شيئًا ولا يكسروا له عظمًا، ولا يخرجوا منه شيئًا إلى خارج بيوتهم، وليكن خبزهم فطيرا سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، وكان ذلك فى فصل الربيع، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودةً وخفافهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم، وليأكلوا بسرعةٍ قيامًا ومهما فضل عن عشائهم، فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار، وشُرع لهم هذا عيدًا لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها، فإذا نسخت بطل شرعها، وقد وقع قالوا: وقتل اللَّه عز وجل فى تلك الليلة أبكار القبط، وأبكار دوابهم، ليشتغلوا عنهم، وخرج بنو إسرائيل حين انتصف الليل، وأهل مصر فى مناحةٍ عظيمةٍ على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم، ليس من بيتٍ إلا وفيه عويلٌ. وحين جاء الوحى إلى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد فى الأردية، وألقوها على عواتقهم وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليًا كثيرًا، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجلٍ سوى الذرارى بما معهم من الأنعام، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنةٍ وثلاثين سنةً. هذا نص كتابهم. وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ، وهذا العيد عيد الفسخ، ولهم عيد الفطير وعيد الحمل، وهو أول السنة. وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم، منصوصٌ عليها فى كتابهم. ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف، وكانوا فى النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نورٍ وبالليل أمامهم عامود نارٍ، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين، وهم هناك حلولٌ على شاطئ اليم، فقلق كثيرٌ من بنى إسرائيل، حتى قال قائلهم: كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية. وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا. قالوا: وأمر اللَّه موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه؛ ليدخل بنو إسرائيل فى البحر واليبس. وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين، وصار وسطه يبسًا؛ لأن اللَّه سلط عليه ريح الجنوب والسموم، فجاز بنو إسرائيل البحر، وأتبعهم فرعون وجنوده، فلما توسطوه أمر اللَّه موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم. لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان فى الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح، وهذا من غلطهم وعدم فهمهم فى تعريبهم واللَّه أعلم. قالوا: ولما أغرق اللَّه فرعون وجنوده، حينئذٍ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب، وقالوا: نسبح الرب البهى الذى قهر الجنود، ونبذ فرسانها فى البحر المنيع المحمود. وهو تسبيحٌ طويلٌ. قالوا: وأخذت مريم النبية أخت هارون دفًا بيدها، وخرج النساء فى أثرها كلهن بدفوفٍ وطبولٍ، وجعلت مريم ترتل لهن، وتقول: سبحان الرب القهار الذى قهر الخيول وركبانها إلقاءً فى البحر.

هكذا رأيته فى كتابهم. ولعل هذا هو من الذى حمل محمد ابن كعب القرظى على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هى أخت هارون وموسى مع قوله: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾. وقد بينا غلطه فى ذلك، وأن هذا لا يمكن أن يقال، ولم يتابعه أحدٌ عليه بل كل واحدٍ خالفه فيه، ولو قدر أن هذا محفوظٌ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام، وأم عيسى عليها السلام وافقتها فى الاسم، واسم الأب واسم الأخ؛ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم»[1]. رواه مسلمٌ. وقولهم: النبية. كما يقال للمرأة من بيت الملك: ملكةٌ. ومن بيت الإمرة: أميرةٌ. وإن لم تكن مباشرةً شيئًا من ذلك، فكذا هذه استعارةٌ لها، لا أنها نبيةٌ حقيقةً يوحى إليها. وضربها بالدف فى مثل هذا اليوم - الذى هو أعظم الأعياد عندهم - دليلٌ على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد.

وهذا مشروعٌ لنا أيضًا فى حق النساء؛ لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف فى أيام منىً ورسول الله ﷺ مضطجعٌ، مول ظهره إليهم، ووجهه إلى الحائط، فلما دخل أبو بكرٍ زجرهن وقال: أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «دعهن يا أبا بكرٍ فإن لكل قومٍ عيدًا، وهذا عيدنا»[2].

وهكذا يشرع عندنا فى الأعراس، ولقدوم الغياب كما هو مقررٌ فى موضعه والله أعلم.

وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماءً، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك، فوجدوا ماءً زعاقًا أجاجًا لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسى عليه السلام فأخذ خشبةً فوضعها فيه، فحلا وساغ شربه وعلمه الرب هنالك فرائض وسننًا، ووصاه وصايا كثيرةً. وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) روى مسلم [٢١٣٥/٩] عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه قال: لما قدمت نجران سألونى. فقالوا: إنكم تقرءون: ﴿يا أختَ هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك. فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم».

(٢) رواه البخارى [٩٤٩]، ومسلم [٨٩٢/١٦].

قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته مادلهم على صدق ماجاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصنامًا، قيل: كانت على صور البقر. فكأنهم سألوهم: لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم، ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوا فى ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهةٌ، فقال لهم مبينًا لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم، وما امتن به عليهم، من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا للّه وحده لا شريك له؛ لأنه الخالق الرازق القهار، وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائدٌ على الجنس فى قوله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. أى: قال بعضهم كما فى قوله: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف]. فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقدٍ الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنينٍ فمررنا بسدرةٍ فقلت: يا نبى الله اجعل لنا هذه ذات أنواطٍ كما للكفار ذات أنواطٍ وكان الكفار ينوطون بسلاحهم بسدرةٍ، ويعكفون حولها، فقال النبى ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم»[١].

ورواه النسائى عن محمد بن رافعٍ عن عبد الرزاق به.

ورواه الترمذى عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى به. ثم قال: حسن صحيحٌ[٢].

وقد روى ابن جريرٍ من حديث محمد بن إسحاق ومعمرٍ وعقيلٍ عن الزهرى

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٥/٢١٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) رواه الترمذى [٢١٨٠] وصححه الألبانى، والنسائى فى الكبرى [١١١٨٥].

عن سنان بن أبى سنانٍ عن أبى واقدٍ الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول اللَّه ﷺ إلى حنينٍ قال: وكان للكفار سدرةٌ يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواطٍ. قال: فمررنا بسدرةٍ خضراء عظيمةٍ قال: فقلنا: يا رسول اللَّه اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ. قال: قلتم: والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف].

والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قومًا من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن اللَّه كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط اللَّه عليهم الخوف، وألقاهم فى التيه؛ يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون فى مدةٍ من السنين طويلةٍ، هى من العدد أربعون؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة].

يذكرهم نبى اللَّه نعمة اللَّه عليهم، وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد فى سبيل اللَّه ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ [المائدة: ٢١]. أى: تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم: ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أى: فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال. ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢]. أى: عتاةً كفرةً متمردين ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾. خافوا من هؤلاء الجبارين، وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أكثر تجبرا من هؤلاء، وأشد بأسًا، وأكثر جمعًا وأعظم جندًا. وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين ههنا آثارًا فيها مجازفاتٌ كثيرةٌ باطلةٌ، يدل العقل

والنقل على خلافها؛ من أنهم كانوا أشكالاً هائلةً ضخامًا جدًا، حتى إنهم ذكروا أن رسل بنى إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجلٌ من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحدًا واحدًا ويلفهم فى أكمامه وحجزة سراويله وهم اثنا عشر رجلاً فجاء بهم فنثرهم بين يدى ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بنى آدم حتى عرفوه. وكل هذه هذياناتٌ وخرافاتٌ لا حقيقة لها وأن الملك بعث معهم عنبًا كل عنبةٍ تكفى الرجل، وشيئًا من ثمارهم؛ ليعلموا ضخامة أشكالهم، وهذا ليس بصحيح. وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بنى إسرائيل؛ ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثةً وثلاثين ذراعًا، وثلث ذراع، هكذا ذكره البغوى وغيره وليس بصحيح، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: «إن اللَّه خلق آدم طوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[(١)]. قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبلٍ فاقتلعها ثم أخذها بيديه؛ ليلقيها على جيش موسى فجاء طائرٌ فنقر تلك الصخرة فخرقها صارت طوقًا فى عنق عوج بن عنق، ثم عمد موسى إليه فوثب فى الهواء عشرة أذرعٍ وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه وطولها عشرة أذرعٍ فوصل إلى كعب قدمه فقتله.

يُروى هذا عن نوف البكالى ونقله ابن جريرٍ عن ابن عباسٍ وفى إسناده إليه نظرٌ. ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بنى إسرائيل، فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم، ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحًا لكان بنو إسرائيل معذورين فى النكول عن قتالهم، وقد ذمهم اللَّه على نكولهم، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم، ومخالفتهم رسولهم، وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ونهياهم عن الإحجام. ويقال: إنهما يوشع بن نونٍ، وكالب ابن يوقنا. قاله ابن عباسٍ ومجاهدٌ وعكرمة وعطية والسدى والربيع بن أنسٍ وغير واحدٍ.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٢٣] أى: يخافون اللَّه وقرأ بعضهم ﴿يُخَافُونَ﴾ أى: يهابون ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣]. أى: بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. أى: إذا توكلتم على اللَّه واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا

(١) تقدم تخريجه.

قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد، ووقع أمرٌ عظيمٌ ووهنٌ كبيرٌ. فيقال: إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما وإن موسى وهارون عليهما السلام سجد؛ إعظامًا لهذا الكلام، وغضبًا للَّه عز وجل، وشفقةً عليهم من وبيل هذه المقالة. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

قال ابن عباس: اقض بينى وبينهم. ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]. عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض يسيرون إلى غير مقصدٍ ليلاً ونهارًا وصباحًا ومساءً.

ويقال: إنه لم يخرج أحدٌ من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنةً، ولم يبق من ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام.

لكن أصحاب محمدٍ ﷺ يوم بدرٍ لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم فى الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين، ثم جعل يقول: أشيروا على حتى قال سعد بن معاذٍ: كأنك تعرض بنا يا رسول اللَّه، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن يلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبرٌ فى الحرب صدقٌ فى اللقاء، لعل اللَّه يريك منا ما تقربه عينك. فسر بنا على بركة اللَّه. فسر رسول اللَّه ﷺ بقول سعدٍ وبسطه ذلك[(١)]. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ حدثنا سفيان عن مخارق بن عبد اللَّه الأحمسى عن طارقٍ هو ابن شهابٍ أن المقداد قال لرسول اللَّه ﷺ يوم بدرٍ: يا رسول اللَّه إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. وهذا إسنادٌ جيدٌ من هذا الوجه، وله طرقٌ أخرى[(٢)].

قال أحمد: حدثنا أسود بن عامرٍ حدثنا إسرائيل عن مخارقٍ عن طارق بن شهابٍ قال: قال عبد اللَّه بن مسعودٍ رضى اللَّه عنه: لقد شهدت من المقداد مشهدًا، لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل به؛ أتى رسول اللَّه ﷺ وهو يدعو على

---

(١) رواه مسلم [١٧٧٩/ ٨٣] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه بلفظ: إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبى سفيان. قال فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول اللَّه، والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها. ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٤/ ٣١٤] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير مخارق بن عبد اللَّه الأحمسى.

المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق، وسر بذلك[١]. رواه البخارى فى التفسير والمغازى من طرقٍ عن مخارقٍ به.

وقال الحافظ أبو بكرٍ بن مردويه: حدثنا على بن الحسن بن علىٍّ حدثنا أبو حاتم الرازى حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى حدثنا حميدٌ عن أنسٍ أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدرٍ استشار المسلمين، فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ: قالوا: «إذًا لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]. والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك».

رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميدٍ عن حميدٍ الطويل عن أنسٍ به. ورواه النسائى عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميدٍ عن أنسٍ به نحوه.

وأخرجه ابن حبان فى «صحيحه» عن أبى يعلى عن عبد الأعلى بن حمادٍ عن معتمرٍ عن حميدٍ عن أنسٍ به نحوه[٢].

☆☆☆

(١) رواه البخارى [٣٩٥٢، ٤٦٠٩]، أحمد فى المسند [١/ ٣٩٠] واللفظ له.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣/ ١٨٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخارى، والنسائى فى الكبرى [١١١٤١].

فصلٌ فى دخول بنى إسرائيل التيه وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بنى إسرائيل عن قتال الجبارين، وأن اللَّه تعالى عاقبهم بالتيه، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنةً، ولم أر فى كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين، ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفةٍ من الكفار، وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمةٍ ورفع موسى عصاه، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم وكلما مالت يده بها من تعبٍ أو نحوه غلبهم أولئك، وجعل هارون وخور يُدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس، فانتصر حزب يوشع عليه السلام. وعندهم؛ أن يثرون كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى، وكيف أظفره اللَّه بعدوه فرعون فقدم على موسى مُسلمًا ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه؛ جرشون وعازر فتلقاه موسى وأكرمه، واجتمع به شيوخ بنى إسرائيل، وعظموه وأجلوه. وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بنى إسرائيل على موسى فى الخصومات التى تقع بينهم، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء يبغضون الرشا والخيانة، فيجعلهم على الناس رؤوس ألوفٍ ورؤوس مئين، ورؤوس خمسين، ورؤوس عشرةٍ، فيقضوا بين الناس فإذا أشكل عليهم أمرٌ جاءوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم، ففعل ذلك موسى عليه السلام قالوا: ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء فى الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجهم فى أول السنة التى شرعت لهم وهى أول فصل الربيع.

فكأنهم دخلوا التيه فى أول فصل الصيف. واللَّه أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه، وأمره أن يُذكر بنى إسرائيل ما أنعم اللَّه به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه، وكيف حملهم على مثل جناحى نسرٍ من يده وقبضته، وأمره أن يأمر بنى إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم، وليستعدوا إلى اليوم الثالث فإذا كان فى اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل، ولا يقتربن أحدٌ منهم إليه، فمن دنا منه قتل حتى ولا شىءٌ من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه، فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا، فلما كان اليوم

الثالث ركب الجبل غمامةٌ عظيمةٌ وفيها أصواتٌ وبروقٌ وصوت الصور شديدٌ جدًا، ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعًا شديدًا، وخرجوا فقاموا فى سفح الجبل، وغشى الجبل دخانٌ عظيمٌ فى وسطه عمود نورٍ، وتزلزل الجبل كله زلزلةً شديدةً، واستمر صوت الصور وهو البوق واشتد، وموسى عليه السلام فوق الجبل، والله يكلمه ويناجيه وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل، فأمر بنى إسرائيل أن يقتربوا من الجبل؛ ليسمعوا وصية الله ويأمر الأحبار وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل؛ ليقدموا بالقرب - وهذا نصٌ فى كتابهم على وقوع النسخ لا محالة - فقال موسى: يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه، وقد نهيتهم عن ذلك، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتى معه بأخيه هارون، وليكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بنى إسرائيل غير بعيدٍ. ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل فأمره حينئذٍ بالعشر كلماتٍ.

وعندهم؛ أن بنى إسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا، حتى فهمهم موسى، وجعلوا يقولون لموسى: بلغنا أنت عن الرب عز وجل فإنا نخاف أن نموت. فبلغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات؛ وهى الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنهى عن الحلف بالله كاذبًا، والأمر بالمحافظة على السبت، ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة. وهذا حاصلٌ بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت أكرم أباكَ وأمك ليطول عمرك فى الأرض الذى يعطيك الله ربك لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد على صاحبك شهادة زورٍ لا تمد عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشته امرأة صاحبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا من الذى لصاحبك، ومعناه النهى عن الحسد.

وقد قال كثيرٌ من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات فى آيتين من القرآن، وهما قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرةً، وأحكامًا متفرقةً عزيزةً كانت فزالت وعمل بها حينًا من الدهر، ثم طرأ عليها عصيانٌ من المكلفين بها، ثم عمدوا إليها فبدلوها، وحرفوها وأولوها. ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخةً مبدلةً بعد ما

كانت مشروعةً مكملةً، فلله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الذى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر تبارك اللَّه رب العالمين.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ (٨٢) ﴾ [طه].

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج، وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن، أى: منهم، لينزل عليه أحكامًا عظيمة فيها مصلحةٌ لهم فى دنياهم وأخراهم، وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الأرض التى ليس فيها زرعٌ ولا ضرعٌ منًّا من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد، ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيرًا لم يفضل عنه، فيصنعون منه مثل الخبز، وهو فى غاية البياض والحلاوة، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى، فيقتنصون منه بلا كلفةٍ ما يحتاجون إليه، حسب كفايتهم لعشائهم، وإذا كان فصل الصيف ظلل اللَّه عليهم الغمام، وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس، وضوءها الباهر، كما قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٤٠) وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ (٤١) ﴾ [البقرة]. إلى أن قال: ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (٤٩) وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٥٢) وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (٥٣) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة]: إلى أن قال: ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٦٠) وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ

مِصْــرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة].

يذكر تعالى إنعامه عليهم، وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفةٍ، ولا سعيٍ لهم فيه، بل ينزل اللَّه المن باكرًا ويرسل عليهم طير السلوى عشيًّا، وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجرًا كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عينًا لكل سبطٍ عين منه تنبجس، ثم تنفجر ماءً زلالاً، فيستقون ويشربون ويسقون دوابهم، ويدخرون كفايتهم. وظلل عليهم الغمام من الحر. وهذه نعمٌ من اللَّه عظيمةٌ وعطياتٌ جسيمةٌ، فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها، ثم ضجر كثيرٌ منها وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. فقرعهم الكليم ووبخهم، وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْـرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١]. أي: هذا الذي تطلبونه، وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصلٌ لأهل الأمصار الصغار والكبار موجودٌ بها وإذا هبطتم إليها أي: ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون، وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى، وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نُهوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طـه: ٨١]. أي: فـقـد هلك، وحق له واللَّه الهلاك والدمار، وقد حل عليه غضب الملك الجبار، ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب، ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

☆☆☆

سؤال الرؤية

قال الله تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف].

قال جماعةٌ من السلف؛ منهم ابن عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ: الثلاثون ليلةً هي؛ شهر ذي القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلةً بعشر ذي الحجة. فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمدٍ ﷺ دينه، وأقام حجته، وبراهينه.

والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائمًا يقال: إنه لم يستطعم الطعام. فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرةٍ فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمر الله أن يمسك عشرًا أخرى فصارت أربعين ليلةً. ولهذا ثبت في الحديث أن: «خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»(1).

فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل، وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه، فوصاه وأمره، وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاةٌ قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ﴾ أي: في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه، ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أي: كلمه الله من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه، وهذا مقامٌ رفيعٌ، ومعقلٌ منيعٌ ومنصبٌ شريفٌ، ومنزلٌ منيفٌ، فصلوات الله عليه تترى، وسلامه عليه في

---

(1) رواه البخاري [١٨٩٤، ١٩٠٤، ٥٩٢٧]، ومسلم [١١٥١/١٦١].

الدنيا والأخرى. ولما أُعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية، وسمع الخطاب، سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى؛ لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتًا، وأشد ثباتًا من الإنسان لا يثبت عند التجلى من الرحمن، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفى الكتب المتقدمة أن اللَّه تعالى قال له: يا موسى إنه لا يرانى حى إلا مات ولا يابسٌ إلا تدهده. وفى «الصحيحين» عن أبى موسى عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «حجابه النور»(١). وفى روايةٍ: النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وقال ابن عباسٍ فى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: ذاك نوره الذى هو نوره إذا تجلى لشيءٍ لا يقوم له شيءٌ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. قال مجاهدٌ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإنه أكبر منك، وأشد خلقًا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقًا.

وقد ذكرنا فى «التفسير» ما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه، ابن جريرٍ والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابتٍ زاد ابن جريرٍ وليثٍ عن أنسٍ أن رسول اللَّه ﷺ قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: «هكذا بإصبعه ووضع النبى ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل».

لفظ ابن جريرٍ(٢).

وقال السدى عن عكرمة وعن ابن عباسٍ: ما تجلى - يعنى من العظمة - إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكا، قال: ترابا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. أى: مغشيًا عليه وقال قتادة: ميتًا.

والصحيح الأول؛ لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى. قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهٌ وتعظيمٌ وإجلالٌ إن يراه بعظمته أحدٌ. ﴿تُبۡتُ

---

(١) رواه مسلم [١٧٩/٢٩٣]، وابن ماجه [١٩٦].

(٢) رواه الترمذى [٣٠٧٤]، وأحمد فى المسند [٣/٢٠٩] عن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم.

إِلَيْكَ ﴾ أي: فلست أسأل بعد هذا الرؤية: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أنه لا يراك حيٌّ إلا مات، ولا يابسٌ إلا تدهده.

وقد ثبت في «الصحيحين» من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن ابى حسنٍ المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُزِيَ بصعقة الطور»[1]. لفظ البخاري، وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري، حين قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر. فقال رسول الله: «لا تخيروني من بين الأنبياء».

وفي «الصحيحين» من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. وفيه: لا تخيروني على موسى[2]: وذكر تمامه. وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهيٌ عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية، أو ليس هذا إليكم بل اللّه هو الذي رفع بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ، وليس ينال هذا بمجرد الرأي، بل بالتوقيف. ومن قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم. ففي قوله نظرٌ؛ لأن هذا من رواية أبي سعيدٍ، وأبي هريرة وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرًا، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا. واللّه أعلم. ولا شك أنه صلوات اللّه وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة.

قال اللّه تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وما كملوا إلا بشرف نبيهم، وثبت بالتواتر عنه صلوات اللّه وسلامه عليه أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[3].

ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم الأكملون نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وقوله ﷺ: «فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش - أي آخذًا بها - فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»[4]. دليلٌ على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقةً محمدٌ خاتم الأنبياء، ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشًا

---

(١) رواه البخاري [٤٦٣٨، ٦٩١٧] ومسلم [٢٣٧٤/ ١٦٣].
(٢) رواه البخاري [٢٤١١]، ومسلم [٢٣٧٣/ ١٦٠].
(٣) رواه مسلم [٢٢٧٨/ ٣]، وأبو داود [٤٦٧٣]، والترمذي [٣١٤٨، ٣٦١٥].
(٤) تقدم تخريجه.

بقائمة العرش. قال الصادق المصدوق: فلا أدرى أصعق، فأفاق قبلى. أى: كانت صعقته خفيفةً؛ لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعقٌ أو جوزى بصعقة الطور يعنى فلم يصعق بالكلية، وهذا فيه شرفٌ كبيرٌ وعلو مرتبة لموسى عليه السلام من هذه الحيثية، ولا يلزم تفضيله بها مطلقًا من كل وجهٍ، ولهذا نبه رسول اللَّه ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودى حين قال: لا والذى اصطفى موسى على البشر. قد يحصل فى نفوس المشاهدين لذلك هضمٌ بجناب موسى عليه السلام فبين النبى ﷺ فضيلته وشرفه. وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]. أى فى ذلك الزمان لا ما قبله؛ لأن إبراهيم الخليل أفضل منه، كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم ولا ما بعده؛ لأن محمدًا ﷺ أفضل منهما؛ كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه قال: سأقوم مقامًا يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم(١).

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. أى: فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادةً عليه، وكن من الشاكرين على ذلك.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وكانت الألواح من جوهرٍ نفيسٍ ففى «الصحيح» «إن الله كتب له التوراة بيده، وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيلٌ لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام والحدود والأحكام» ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ﴾ أى: بعزم ونيةٍ صادقةٍ قويةٍ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. أى: يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. أى: ستروا عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى، المكذبين لرسلى. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. أى عن فهمها وتدبرها، وتعقل معناها الذى أريد منها ودل عليه مقتضاها، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦]. أى: ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾. أى: لا يسلكوه، ولا يتبعوه، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٦]. أى: صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديق بها، والتفكر فى معناها، وترك العمل بمقتضاها؛ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

(١) تقدم تخريجه.

قصة عبادتهم العجل فى غيبة كليم الله موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه].

يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى

ميقات ربه، فمكث على الطور يناجيه ربه، ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرةٍ، وهو تعالى يجيبه عنها، فعمد رجلٌ منهم يقال له: السامرى. فأخذ ما كان استعاروه من الحلى، فصاغ منه عجلاً، وألقى فيه قبضةً من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق اللّه فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى، ويقال: إنه استحال عجلاً جسدًا. أى: لحمًا ودمًا حيًا يخور. قاله قتادة وغيره.

وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون. ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. أى: فنسى موسى ربه عندنا، وذهب يتطلبه وهو هاهنا. تعالى اللّه عما يقولون: علوًا كبيرًا، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعداته.

قال اللّه تعالى مبينًا لهم بطلان ما ذهبوا إليه، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيوانًا بهيمًا وشيطانًا رجيمًا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]. وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم، ولا يرد جوابًا، ولا يملك ضرًا ولا نفعًا، ولا يهدى إلى رشدٍ اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون فى أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. أى: ندموا على ما صنعوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها، فيقال إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب، وإن اللّه أبدله غيرها.

وليس فى اللفظ القرآنى ما يدل على ذلك، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين. وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين. وظاهر القرآن أنها ألواحٌ متعددةٌ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من اللّه تعالى عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك. ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، وابن حبان عن ابن عباسٍ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»(١). ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم فى صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح؛ قالوا: ﴿... وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]. تحرجوا من تملك حلى آل فرعون

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢١٥، ٢٧١] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

وهم أهل حربٍ، وقد أمرهم الله بأخذه، وأباحه لهم، ولم يتحرجوا بجهلهم، وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد، الذى له خوارٌ مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار. ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له: ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [طه]. أى: هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتنى فأعلمتنى بما فعلوا، فقال: ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [طه: ٩٤]. أى: تركتهم وجئتنى، وأنت قد استخلفتنى فيهم، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١]. وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى، وزجرهم عنه أتم الزجر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [طه: ٩٠] أى إنما قدر الله أمر هذا العجل، وجعله يخور فتنةً واختبارًا لكم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [طه: ٩٠]. أى: لا هذا العجل، ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ أى: فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [طه]. يشهد الله لهارون عليه السلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩]. أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك، فلم يطيعوه ولم يتبعوه، ثم أقبل موسى عليه السلام على السامرى ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ [طه: ٩٥]. أى: ما حملك على ما صنعت. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٦]. أى: رأيت جبرائيل وهو راكبٌ فرسًا ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [طه: ٩٦]. أى: من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع، اخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال: ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه]. وهذا دعاءٌ عليه بأن لا يمس أحدًا؛ معاقبةً له على مسه مالم يكن له مسه. هذا معاقبةٌ له فى الدنيا، ثم توعده فى الآخرة فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ [طه: ٩٧]. وقرئ: لن نخلفه. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٧]. قال: فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه، قيل: بالنار. كما قاله قتادة وغيره. وقيل: بالمبارد. كما قاله علىٌ وابن عباسٍ وغيرهما. وهو نص أهل الكتاب. ثم ذراه فى البحر وأمر بنى إسرائيل فشربوا، فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه، وقيل: بل اصفرت ألوانهم.

ثم قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لهم: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وهكذا وقع وقد قال بعض السلف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢]. مسجلةً لكل صاحب بدعةٍ إلى يوم القيامة. ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٥٣]. لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤]. فيقال: إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف، وألقى الله عليه ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم. فيقال: إنهم قتلوا فى صبيحةٍ واحدةٍ سبعين ألفًا. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. استدل بعضهم بقوله: ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ على أنها تكسرت، وفى هذا الاستدلال نظرٌ، وليس فى اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباسٍ فى حديث الفتون كما سيأتى أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر وما هو ببعيدٍ؛ لأنهم حين خرجوا ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. وهكذا عند أهل الكتاب، فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس، وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا فى أول يوم ثلاثة آلافٍ. ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

ذكر السدى وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بنى إسرائيل، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بنى إسرائيل فى عبادة من عبد منهم العجل، وكانوا قد أُمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه، واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطعٌ، وصعد موسى الجبل، فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام اللّه، وهذا قد وافقهم عليه طائفةٌ من المفسرين، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. وليس هذا بلازم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. أى: مبلغًا، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغًا من موسى عليه السلام. وزعموا أيضًا أن السبعين رأوا اللّه، وهذا غلطٌ منهم؛ لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة]. وقال هـهـنـا: ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً، الخير فالخير وقال: انطلقوا إلى اللّه، فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقاتٍ وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذنٍ منه وعلمٍ، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام اللّه، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فى الغمام، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه اللّه وقع على جبهته نورٌ ساطعٌ لا يستطيع أحدٌ من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه؛ افعل. ولا تفعل فلما فرغ اللّه من أمره، وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لموسى: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]. فأخذتهم الرجفة – وهى الصاعقة – فافتلتت أرواحهم، فماتوا جميعًا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. أى: لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا.

وقال ابن عباسٍ ومجاهدٌ وقتادة وابن جريجٍ: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل.

وقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك. قاله ابن عباسٍ

وسعيد بن جبيرٍ وأبو العالية والربيع بن أنسٍ وغير واحدٍ من علماء السلف والخلف. يعنى: أنت الذى قدرت هذا، وخلقت ما كان من أمر العجل اختبارًا تختبرهم به، كما قال لهم هارون من قبل: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٠]. أى: اختبرتم ولهذا قال: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. أى: من شئت أضللته باختبارك إياه ومن شئت هديته، لك الحكم والمشيئة، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت. ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أى: تبنا إليك ورجعنا وأنبنا. قاله ابن عباسٍ ومجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ وأبو العالية وإبراهيم التيمى والضحاك والسدى وقتادة وغير واحدٍ، وهو كذلك فى اللغة. ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. أى: أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

كما ثبت فى «الصحيحين» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إن اللَّه لما فرغ من خلق السماوات والأرض، كتب كتابًا فهو موضوعٌ عنده فوق العرش: إن رحمتى تغلب غضبى»[1] ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: فسأوحيها حتمًا لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وهذا فيه تنويهٌ بذكر محمدٍ ﷺ وأمته من اللَّه لموسى عليه السلام فى جملة ما ناجاه به، وأعلمه وأطلعه عليه. وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها فى «التفسير» بما فيه كفايةٌ ومقنع، ولله الحمد والمنة.

وقال قتادة: قال موسى: يا رب أجد فى الألواح أمةً خير أمةٍ أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر رب اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إنى أجد فى الألواح أمةً هم الآخرون فى الخلق السابقون فى دخول الجنة رب اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إنى أجد فى الألواح أمةً أناجيلهم فى صدورهم يقرؤونها وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظرًا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئًا، ولم يعرفوه وإن اللَّه أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم. قال: رب اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إنى أجد فى الألواح أمةً يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد قال: رب إنى أجد فى الألواح أمةً صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم، ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم إذا

(١) رواه البخارى [٣١٩٤]، ومسلم [١٤/٢٧٥١] واللفظ له، عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه.

تصدق بصدقةٍ فقبلت منه، بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وأن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم، قال: رب فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب فإنى أجد فى الألواح أمةً إذا هم أحدهم بحسنةٍ؛ ثم لم يعملها كتبت له حسنةً فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ قال: رب اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون، المشفوع لهم فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن موسى، عليه السلام نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلنى من أمة أحمد. وقد ذكر كثيرٌ من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها، ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار، بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان فى «صحيحه»: ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنىً أهل الجنة وأرفعهم منزلةً؛ أخبرنا عمر بن سعيدٍ الطائى بمنبجٍ حدثنا حامد بن يحيى البلخى حدثنا سفيان حدثنا مطرف بن طريفٍ وعبد الملكً بن أبجر - شيخان صالحان - سمعنا الشعبى يقول: سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبى ﷺ: «إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل: أى أهل الجنة أدنى منزلةً؟ فقال: رجلٌ يجيء بعدما يدخل - يعنى: أهل الجنة - الجنة فيقال: ادخل الجنة. فيقول: كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم فيقول له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: نعم أى رب، فيقال: لك هذا ومثله، ومثله، ومثله، فيقول: أى رب رضيت. فيقال له: إن لك مع هذا وعشرة أمثاله. فيقول: أى رب رضيت. فيقال له: لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك وسأل ربه: أى أهل الجنة أرفع منزلةً؟ قال: سأحدثك عنهم، غرست كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ ومصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل[1]: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة: ١٧] ».

وهكذا رواه مسلمٌ والترمذى كلاهما عن ابن أبى عمر عن سفيان وهو ابن عيينة به، ولفظ مسلم: فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك ملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتَ رب. فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فيقول فى الخامسة: رضيت رب فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك،

(١) رواه مسلم [١٨٩/ ٣١٢]، والترمذى [٣١٩٨]، وابن حبان فى الإحسان [٦٢١٦] واللفظ له.

ولذت عينك. فيقول: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلةً قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشرٍ. قال: ومصداقه من كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال الترمذى: حسنٌ صحيحٌ. قال: ورواه بعضهم عن الشعبى عن المغيرة فلم يرفعه والمرفوع أصح.

وقال ابن حبان ذكر سؤال الكليم ربه عن خصالٍ سبع؛ حدثنا عبد الله بن محمد ابن سلم ببيت المقدس حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهبٍ أخبرنى عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصالٍ كان يظن أنها له خالصةً، والسابعة لم يكن موسى يحبها؛ قال: يا رب أى عبادك أتقى؟ قال: الذى يذكر ولا ينسى، قال: فأى عبادك أهدى؟ قال: الذى يتبع الهدى، قال: فأى عبادك أحكم؟ قال: الذى يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قال: فأى عبادك أعلم؟ قال: عالمٌ لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأى عبادك أعز؟ قال: الذى إذا قدر غفر. قال: فأى عبادك أغنى؟ قال: الذى يرضى بما يؤتى. قال: فأى عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوصٌ. قال رسول الله ﷺ: ليس الغنى عن ظهرٍ، إنما الغنى غنى النفس، وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا جعل غناه فى نفسه، وتقاه فى قلبه، وإذا أراد الله بعبدٍ شرًا جعل فقره بين عينيه»[1].

قال ابن حبان: قوله صاحبٌ منقوصٌ يريد به منقوص حالته يستقل ما أوتى ويطلب الفضل.

وقد رواه ابن جريرٍ فى «تاريخه» عن ابن حميدٍ عن يعقوب القمى عن هارون ابن عنترة عن أبيه عن ابن عباسٍ قال: «سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه وفيه قال: أى رب فأى عبادك أعلم؟ قال: الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمةً تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. قال: أى رب فهل فى الأرض أحدٌ أعلم منى؟ قال: نعم الخضر. فسأل السبيل إليه». فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

☆☆☆

(١) رواه ابن حبان فى الإحسان [٦٢١٧] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم غير أبى السمح، وهو صدوق.

ذكر حديثٍ آخر
بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال: إن موسى قال: أى رب عبدك المؤمن مقترٌ عليه فى الدنيا. قال: ففتح له بابٌ من الجنة فنظر إليها قال: يا موسى هذا ما أعددت له. فقال موسى: يا رب وعزتك وجلالك لو كان أقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤسا قط. قال: ثم قال: أى رب عبدك الكافر موسع عليه فى الدنيا. قال: ففتح له باب إلى النار فيقول: يا موسى هذا ما أعددت له. فقال: أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيرًا قط[١].

تفرد به أحمد من هذا الوجه وفى صحته نظرٌ والله أعلم.

وقال ابن حبان: ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئًا يذكره به حدثنا ابن سلم حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث إن دراجًا حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيدٍ عن النبى ﷺ أنه قال: «قال موسى: يا رب علمنى شيئًا أذكرك به وأدعوك به قال: قل يا موسى لا إله إلا الله قال: يا رب كل عبادك يقول هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئًا تخصنى به. قال: يا موسى لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع فى كفةٍ ولا إله إلا الله فى كفةٍ مالت بهم لا إله إلا الله»[٢]. ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة. وأقرب شيءٍ إلى معناه الحديث المروى فى «السنن» عن النبى ﷺ أنه قال: «أفضل الدعاء دعاء عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»[٣].

وقال ابن أبى حاتم عند تفسير آية الكرسى: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ أن بنى إسرائيل قالوا لموسى: هل

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٨١] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.
(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٢١٨] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.
(٣) رواه الترمذى [٣٥٨٥]، وصححه الألبانى.

ينام ربك؟ قال: اتقوا الله فناداه ربه: يا موسى سألوك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين فى يديك فقم الليل ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلثٌ نعس، فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال: يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان فى يديك. قال: وأنزل الله على رسوله آية الكرسى. وقال ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبلٍ عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبى هريرة قال: سمعت النبى ﷺ يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال: وقع فى نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل؟ فأرسل الله إليه ملكًا فارقه ثلاثًا ثم أعطاه قارورتين فى كل يدٍ قارورةٌ وأمره أن يحتفظ بهما قال: فجعل ينام، وكادت يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومةً، فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان. قال ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض. وهذا حديثٌ غريبٌ رفعه والأشبه أن يكون موقوفًا وأن يكون أصله إسرائيليًا.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣ - ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]. قال ابن عباس وغير واحدٍ من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوارة أمرهم بقبولها، والأخذ بها بقوةٍ وعزم، فقالوا: أنشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلةً قبلناها. فقال: بل أقبلوها بما فيها. فراجعوه مرارًا فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلةٌ أى غمامةٌ على رؤوسهم وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم. فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم فصارت سنةً لليهود إلى اليوم يقولون: لا سجدة أعظم من سجدةٍ رفعت عنا العذاب. وقال: سنيد بن داود عن حجاج بن محمدٍ عن أبى بكر بن عبد الله قال: فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبلٌ ولا شجرٌ ولا حجرٌ إلا اهتز فليس على وجه الأرض يهوديٌ صغيرٌ ولا كبيرٌ تقرأ عليه التوارة إلا اهتز، ونفض لها رأسه.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٤]. أى: ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [البقرة: ٦٤]. بأن تدارككم بالارسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة].

قال ابن عباسٍ وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهدٌ والسدى وغير واحدٍ من السلف: كان رجلٌ فى بنى إسرائيل كثير المال، وكان شيخًا كبيرًا وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق ويقال: على باب رجل منهم.

فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبى الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى عليه السلام فقال موسى عليه السلام: أنشد الله رجلاً عنده علمٌ من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به. فلم يكن عند أحدٍ منهم علمٌ منه وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل فسأل ربه عز وجل فى ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرةٍ فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة: ٦٧] يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. أى: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى. وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه.

قال ابن عباسٍ وعبيدة ومجاهدٌ وعكرمة والسدى وأبو العالية وغير واحدٍ: فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرةٍ فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكنهم شددوا فشدد عليهم. وقد ورد فيه حديثٌ مرفوعٌ وفى إسناده ضعفٌ فسألوا عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سنها، فأجيبوا بما عز وجوده عليهم وقد ذكرنا تفسير ذلك كله فى «التفسير».

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرةٍ عوانٍ وهى الوسط بين النصف الفارض وهى

الكبيرة، والبكر وهى الصغيرة. قاله ابن عباسٍ ومجاهدٌ وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعةٌ ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أى مشربٍ بحمرةٍ تسر الناظرين، وهذا اللون عزيزٌ ثم شددوا أيضًا فقالوا: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٧٠].

ففى الحديث المرفوع الذى رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه: لولا أن بنى إسرائيل استثنوا لما أعطوا. وفى صحته نظرٌ. والله أعلمَ.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١]. وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرةٍ ليست بالذلول؛ وهى المذللة بالحراثة، وسقى الأرض بالسانية مسلمةٍ؛ وهى الصحيحة التى لا عيب فيها. قاله أبو العالية وقتادة.

وقوله: ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾ أى ليس فيها لونٌ يخالف لونها، بل هى مسلمةٌ من العيوب، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [البقرة: ٧١].

ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجلٍ منهم كان بارًا بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم فارغبوه فى ثمنها حتى أعطوه - فيما ذكر السدى - بوزنها ذهبًا فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مراتٍ فباعها منهم، فأمرهم نبى الله موسى بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١]. أى: وهم يترددون فى أمرها، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها، قيل: بلحم فخذها، وقيل: بالعظم الذى يلى الغضروف، وقيل: بالبضعة التى بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو تشخب أوداجه فسأله نبى الله: من قتلك؟ قال: قتلنى ابن أخى. ثم عاد ميتًا كما كان قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣]. أى: كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره فى سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعةٍ واحدةٍ كما قال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ ﴾ [لقمان: ٢٨].



قصة موسى والخضر
عليهما الصلاة والسلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف].

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذى رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم، وينقل عن كتبهم؛ منهم نوف بن فضالة الحميرى الشامى البكالى، ويقال: إنه دمشقى وكانت أمه زوجة كعب الأحبار.

والصحيح الذى دل عليه ظاهر سياق القرآن، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه: أنه موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل.

قال البخاری: حدثنا الحميدی حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دينارٍ أخبرنی سعيد بن جبيرٍ قال: قلت لابن عباسٍ: إن نوفًا البكالی يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنی إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عدو اللَّه؛ حدثنا أبی ابن كعبٍ. أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبًا فی بنی إسرائيل، فسئل: أی الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب اللَّه عليه؛ إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى اللَّه إليه: إن لی عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب، وكيف لی به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله فی مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتًا فجعله بمكتلٍ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نونٍ حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فی المكتل فخرج منه فسقط فی البحر، واتخذ سبيله فی البحر سربًا وأمسك اللَّه عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسی صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى ﴿ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢] ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذی أمره اللَّه به ﴿ قَالَ ﴾ له فتاه: ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٦٣].

قال: فكان للحوت سربًا ولموسى ولفتاه عجبًا قال ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤]. قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجلٌ مسجىٌ بثوبٍ فسلم عليه موسى فقال الخضر: وإنی بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بنی إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمنی مما علمت رشدا. ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧]. يا موسى إنی على علم من علم اللَّه علمنيه اللَّه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم اللَّه علمكه اللَّه لا أعلمه، فقال موسى: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٩]. قال له الخضر: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠] فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينةٌ فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نولٍ، فلما ركبا فی السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نولٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الكهف].

قال: وقال رسول اللَّه ﷺ وكانت الأولى من موسى نسيانًا. قال: وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر فی البحر نقرةً فقال له الخضر: ما علمی

وعلمك فى علم اللّه إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف].

قال: وهذه أشد من الأولى، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ... ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف]. قال: مائلٌ. فقال الخضر بيده ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال رسول اللّه ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص اللّه علينا من خبرهما. قال سعيد بن جبيرٍ فكان ابن عباسٍ يقرأ: وكان أمامهم ملكٌ يأخذ كل سفينة صالحةٍ غصبًا. وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين»(١).

ثم رواه البخارى أيضًا عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه وفيه: فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نونٍ ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها. قال: فوضع موسى رأسه فنام. قال سفيان: وفى حديث غير عمروٍ قال: وفى أصل الصخرة عينٌ يقال: لها الحياة لا يصيب من مائها شىءٌ إلا حى، فأصاب الحوت من ماء تلك العين قال: فتحرك وانسل من المكتل ودخل البحر فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا﴾ [الكهف: ٦٢]. كذا قال وساق الحديث. وقال: ووقع عصفورٌ على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى: ما علمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم اللّه إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره»(٢) وذكر تمام الحديث.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينارٍ عن سعيد بن جبيرٍ - يزيدُ أحدهما على صاحبه وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبيرٍ - قال: إنا لعند ابن عباسٍ فى بيته إذ قال: سلونى فقلت: أى أبا عباسٍ جعلنى اللّه فداءك بالكوفة رجلٌ قاصٌ يقال له: نوفٌ. يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل. أما عمروٌ فقال لى: قد كذب عدو اللّه(٣).

(١) رواه البخارى [٤٧٢٥] عن سعيد بن جبير رضى اللّه تعالى عنه.
(٢) رواه البخارى [٤٧٢٧].
(٣) رواه البخارى [٤٧٢٦].

وأما يعلى فقال لى: قال ابن عباسٍ: حدثنى أبى بن كعبٍ قال: قال رسول الله ﷺ: موسى رسول الله قال: ذكر الناس يومًا حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجلٌ فقال: أى رسول الله هل فى الأرض أحدٌ أعلم منك؟ قال: لا فعتب الله عليه؛ إذ لم يرد العلم إلى الله قيل: بلى قال: أى رب فأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أى رب اجعل لى علما أعلم ذلك به. قال لى عمروٌ: قال: حيث يفارقك الحوت وقال لى يعلى قال: خذ حوتًا ميتًا حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتًا فجعله فى مكتلٍ فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت. قال: ما كلفت كبيرًا. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠]. يوشع بن نونٍ – ليست عن سعيد بن جبيرٍ – قال: فبينما هو فى ظل صخرةٍ فى مكانٍ ثريان؛ إذ تضرب الحوت وموسى نائمٌ فقال فتاه: لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره وتضرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره فى حجر. قال لى عمروٌ: هكذا كان أثره فى حجرٍ وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. قال: وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيدٍ أخبره فرجعا فوجدا خضرًا قال لى عثمان بن أبى سليمان: على طنفسةٍ خضراء على كبد البحر. قال سعيدٌ: مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضٍ من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قال: أما يكفيك أن التوارة بيديك وأن الوحى يأتيك؟ يا موسى إن لى علمًا لا ينبغى لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغى لى أن أعلمه فأخذ طائرٌ بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ وجدا معابر صغارًا تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح؟ قال: فقلنا لسعيدٍ: خضرٌ؟ قال: نعم. لا نحمله بأجرٍ فخرقها ووتد فيها وتدًا ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. – قال مجاهد منكرًا: – ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]. كانت الأولى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا. ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف].

قال يعلى: قال سعيدٌ: وجد غلمانًا يلعبون فأخذ غلامًا كافرًا ظريفًا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. لم تعمل بالخبث: ابن عباسٍ قرأها. زكية زاكيةً مسلمة. كقولك: غلامًا زكيا فانطلقا ﴿فَوَجَدَا

فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧]. قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام.

قال يعلى: حسبت أن سعيدًا قال: فمسحه بيده فاستقام ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]. قال سعيدٌ: أجرًا نأكله ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ وكان أمامهم قرأها ابن عباسٍ. أمامهم ﴿مَّلِكٌ﴾ يزعمون عن غير سعيدٍ أنه هدد بن بدد والغلام المقتول يزعمون: جيسور ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]. فإذا هي مرت به يدعها بعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها منهم من يقول: سدوها بقارورةٍ ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠]. وكان كافرًا ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]. أي: يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]. لقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] هما به أرحم منها بالأول الذي قتل خضرٌ. وزعم سعيد بن جبيرٍ أنهما أبدلا جاريةً وأما داود ابن أبي عصامٍ فقال عن غير واحدٍ: إنها جاريةٌ.

وقد رواه عبد الرزاق عن معمرٍ عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: خطب موسى بني إسرائيل فقال: ما أحدٌ أعلم بالله وبأمره مني فأُمر أن يلقى هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم.

وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن سعيد ابن جبيرٍ عن ابن عباسٍ عن أبي بن كعبٍ عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضًا ورواه العوفي عنه موقوفًا.

وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباسٍ أنه تمارى هو والحرِ ابن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباسٍ: هو خضرٌ فمر بهما أُبي بن كعبٍ، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئًا؟ قال: نعم وذكر الحديث وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. قال السهيلي: وهما أصرم وصريم ابنا كاشح. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]. قيل كان ذهبًا: قاله عكرمة وقيل: علمًا. قاله ابن عباسٍ، والأشبه أنه كان لوحًا من ذهبٍ مكتوبًا فيه علمٌ.

قال البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيدٍ الجوهري حدثنا بشر بن المنذر حدثنا

الحارث ابن عبد اللَّه اليحصبى عن عياش بن عباسٍ الغسانى عن بن حجيرة عن أبى ذرٌ رفعه قال: إن الكنز الذى ذكر اللَّه فى كتابه لوحٌ من الذهب مصمتٍ: عجبت لمن أيقن بالقدر، كيف نصب، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل لا إله إلا اللَّه. وهكذا روى عن الحسن البصرى وعمر مولى عفرة، وجعفر الصادق، نحو هذا. وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] وقد قيل: إنه كان الأب السابع، وقيل العاشر. وعلى كل تقديرٍ فيه دلالةٌ على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته فالله المستعان.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]. دليلٌ على أنه كان نبيًا، وأنه ما فعل شيئًا من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه، فهو نبيٌ وقيل: رسولٌ وقيل: وليٌ وأغرب من هذا من قال: كان ملكًا. قلت: وقد أغرب جدا من قال: هو ابن فرعون.

وقيل: إنه ابن ضحاكٍ الذى ملك الدنيا ألف سنةٍ. قال ابن جرير: والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن أفريدون ويقال: إنه كان على مقدمة ذى القرنين الذى قيل: إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل. وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد، وهو باقٍ إلى الآن. وقيل: إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل. وقيل: اسمه ملكان. وقيل: أرميا بن خلقيا. وقيل: كان نبيًا فى زمن سباسب بن لهراسب.

قال ابن جريرٍ: وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهورٌ طويلة، لا يجهلها أحدٌ من أهل العلم بالأنساب. قال ابن جرير: والصحيح أنه كان فى زمن أفريدون، واستمر حيًا إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى فى زمن منو شهر الذى هو من ولد إيرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلاً، وهو أول من خندق الخنادق، وأول من جعل فى كل قريةٍ دهقانًا، وكانت مدة ملكه قريبًا من مائةٍ وخمسين سنةً. ويقال: إنه كان من سلالة إسحاق ابن إبراهيم وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل، ويحير السامع وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل. واللَّه أعلم.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

فأخذ اللَّه ميثاق كل نبيٍ على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره فلو كان الخضر حيًا فى زمانه لما وسعه إلا اتباعه، والاجتماع به، والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدرٍ، كما كان تحتها جبريل وساداتٌ من الملائكة،

وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيًا وهو الحق أو رسولاً. كما قيل، أو ملكًا فيما ذكر، وأيا ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حيًا لوجب عليه الإيمان بمحمدٍ ونصرته، فكيف إن كان الخضر وليًا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى.

ولم ينقل فى حديثٍ حسنٍ، بل ولا ضعيفٍ يعتمد أنه جاء يومًا واحدًا إلى رسول الله ﷺ ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التغرية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيفٌ. والله أعلم.

وسنفرد لخضرٍ ترجمةً على حدةٍ بعد هذا[1].

☆☆☆

(١) روى الحاكم فى المستدرك [٣/٥٨] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدق به أصحابه فبكوا حوله، واجتمعوا، فدخل رجل أصهب اللحية جسيم صبيح فتخطأ رقابهم فبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ونظرة إليكم فى البلاء فانظروا فإنما المصاب من لم يجبر وانصرف. فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعلى: نعم، هذا أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم الخضر عليه السلام.

ذكر الحديث
الملقب بحديث الفتون
المتضمن قصة موسى مبسوطة
من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب «التفسير» من سننه عند قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. حديث الفتون: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا أصبغ بن زيدٍ حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبيرٍ قال: سألت عبد الله بن عباسٍ عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. فسأله عن الفتون: ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبيرٍ، فإن لها حديثًا طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباسٍ؛ لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياءَ وملوكًا فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم. فقال فرعون: فكيف ترون فأتمروا؟ وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يُذبحون قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولودٍ ذكر فتقل بناتهم ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولن تفتنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانيةً آمنةً.

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن، - وذلك من الفتون يا ابن جبيرٍ - ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به؛ فأوحى الله إليها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوتٍ وتلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني؟ لو ذبح عندي فواريته وكفنته

كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه. فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضةٍ تستقى منها جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن: إن فى هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملته كهيئته لم يخرجن منه شيئًا حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلامًا فألقى عليه منها محبةٌ لم تلق منها على أحدٍ قط ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠]. من ذكر كل شىءٍ إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون؛ ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبيرٍ - فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم. فأتت فرعون فقالت: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]. فقال فرعون: يكون لك، فأما لى، فلا حاجة لى فيه. فقال رسول اللَّه ﷺ: والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن اللَّه حرمه ذلك. فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأةٍ لها لبن تختار ظئرًا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به، فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرًا تأخذه منها فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهًا فقالت لأخته: قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا؟ أحىٌ ابنى أم أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان اللَّه وعدها فيه فبصرت به أخته عن جنب والجنب؛ أن يسمو بصر الإنسان إلى شىءٍ بعيدٍ وهو إلى جنبه لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤورات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم؟ هل تعرفونه؟ حتى شكوا فى ذلك - وذلك من الفتون يا ابن جبيرٍ - فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريًا وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرًا، فأرسلت إليها، فأتت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثى ترضعى ابنى هذا؛ فإنى لم أحب شيئًا حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتى وولدى فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لا آلوه خيرًا فعلت فإنى غير تاركةٍ بيتى وولدى. وذكرت أم موسى ما كان اللَّه وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن اللَّه منجزٌ موعوده فرجعت إلى بيتها من يومها وأنبته اللَّه نباتًا حسنًا، وحفظ لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم فى ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أرينى ابنى. فوعدتها يومًا تريها إياه فيه.

وقالت امرأة فرعون لخازنها وظؤورها وقهارمتها: لا يبقين أحدٌ منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهديةٍ وكرامةٍ؛ لأرى ذلك فيه وأنا باعثةٌ أمينًا يحصى كل ما يصنع كل إنسانٍ منكم. فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها نحلته وأكرمته فرحت به ونحلت أمه بحسن أثرها عليه ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه.

فلما دخلت به عليه جعله فى حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك؟ فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبيرٍ بعد كل بلاءٍ ابتلى به وأريد به فتونًا - فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت: ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى؟ فقالت: اجعل بينى وبينك أمرًا تعرف فيه الحق؛ أئت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل. وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به وكان الله بالغًا فيه أمره، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحدٌ من آل فرعون يخلص إلى أحدٍ من بنى إسرائيل معه بظلمٍ ولا سُخرةٍ حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المَدينة إذ هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعونىٌ، والآخر إسرائيلىٌ فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فغضب موسى غضبًا شديدًا لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره فوكز موسى الفرعونى فقتله وليس يراهما أحدٌ إلا الله عز وجل والإسرائيلى، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٥]. ثم قال: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦]

فأصبح فى المدينة خائفًا يترقب الأخبار فأتى فرعون فقيل له: إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغونى قاتله من يشهد عليه؟ فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينةٍ ولا ثبتٍ، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون لا يجدون بينةً إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذى رأى

فغضب الإسرائيلى، وهو يريد أن يبطش بالفرعونى، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨]. فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨].

أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعونى فخاف الإسرائيلى وقال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص: ١٩].

وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص: ١٩]. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم فجاء رجلٌ من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فخرج موسى متوجهًا نحو مدين لم يلق بلاءً قبل ذلك وليس له بالطريق علمٌ إلا حسن ظنه بربه عز وجل فإنه قال: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۝٢٣ ﴾ [القصص]. يعنى بذلك حابستين غنمهما فقال لهما: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ [القصص: ٢٣]. معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوةٌ نزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما فجعل يغرف من الدلو ماءً كثيرًا حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى فاستظل بشجرةٍ فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطانًا فقال: إن لكما اليوم لشأنًا. فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته فلما كلمه قال: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان ولسنا فى مملكته: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦]. فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأةٌ صوب رأسه، فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لى: امشى خلفى وانعتى لى الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمينٌ. فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت، فقال له: هل لك ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧]: ففعل فكانت

على نبى اللَّه موسى ثمان سنين واجبةً، وكانت السنتان عدةً منه فقضى اللَّه عنه عدته فأتمها عشرًا.

قال سعيد بن جبيرٍ: فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدرى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذٍ لا أدرى فلقيت ابن عباسٍ فذكرت ذلك له فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبى اللَّه واجبةً؟ لم يكن نبى اللَّه لينقص منها شيئًا وتعلم أن اللَّه كان قاضيًا عن موسى عدته التى وعده، فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك فقال: الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل وأولى فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص اللَّه عليك فى القرآن، فشكا إلى اللَّه تعالى ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل، وعقدة لسانه فإنه كان فى لسانه عقدةٌ تمنعه من كثيرٍ من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، ويكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثيرٍ مما لا يفصح به لسانه فأتاه اللَّه عز وجل سؤله وحل عقدةً من لسانه، وأوحى اللَّه إلى هارون، فأمره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون فانطلقا جميعًا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجابٍ شديدٍ فقالا: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧].

فقال: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ [طه: ٤٩]. فأخبره بالذى قص اللَّه عليك فى القرآن قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال: أريد أن تؤمن باللَّه، وترسل معى بنى إسرائيل. فأبى عليه، وقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هى حية عظيمة فاغرةً فاها مسرعةً إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدةً إليه خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من جيبه، فرآها بيضاء من غير سوءٍ - يعنى من غير برص - ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: ﴿ إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٣]. يعنى ملكهم الذى هم فيه، والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة، فإنهم بأرضك كثيرٌ حتى تغلب بسحرك سحرهما: فأرسل إلى المدائن، فحشر له كل ساحرٍ متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا واللَّه ما أحدٌ فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل، وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتى وأنا صانعٌ إليكم كل شيءٍ أحببتم فتواعدوا ﴿ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩].

قال سعيدٌ: فحدثنى ابن عباسٍ أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر اللَّه فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء، فلما اجتمعوا فى صعيدٍ قال الناس بعضهم

لبعضٍ: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]. يعنون موسى وهارون استهزاءً بهما، فقالوا: يا موسى - بعد تريثهم بسحرهم - ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]. قال: بل ألقوا. ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى اللّه إليه: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧]. فلما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمةً فاغرةً فاها، فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزًا على الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصًا ولا حبلاً إلا ابتلعته، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرا لم تبلغ من سحرنا كل هذا ولكنه أمرٌ من اللّه تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب إلى اللّه مما كنا عليه. فكسر اللّه ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف] وامرأة فرعون بارزةٌ مبتذلةٌ تدعو للّه بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة. كلما جاء بآيةٍ وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل اللّه على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آياتٍ مفصلاتٍ كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده حتى أُمر موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، وأوحى اللّه إلى البحر: إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقةً حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه. فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيفٌ مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافلٌ فيصير عاصيًا للّه عز وجل، فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقةً حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه، وكما وعد موسى، فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر، كما أُمر فلما جاوز موسى قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق، ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم ﴿قَالُوا۟

يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف]. قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى، فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون فإنى قد استخلفه عليكم، فإنى ذاهبٌ إلى ربى. وأجلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه عز وجل، وأراد أن يكلمه فى ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئًا من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذى كان قال: يا رب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك ارجع فصم عشرًا ثم ائتنى. ففعل موسى ما أمره به ربه فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعةً استودعتموها، ولا عاريةً، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك، ولا ممسكيه لأنفسنا. فحفر حفيرًا وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير. ثم أوقد عليه النار فأحرقه فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر جيرانٍ لبنى إسرائيل، ولم يكن من بنى إسرائيل فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا، فقضى له أن رأى أثرًا فقبض منه قبضةً فمر بهارون فقال له هارون: يا سامرى إلا تلقى ما فى يديك؟ وهو قابضٌ عليه لا يراه أحدٌ طوال ذلك فقال: هذه قبضةٌ من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر، ولا أُلقيها لشيءٍ إلا أن تدعو اللَّه إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها ودعا له هارون فقال: أريد أن تكون عجلاً. فاجتمع ما كان فى الحفرة من متاعٍ أو حليةٍ أو نحاسٍ أو حديدٍ فصار عجلاً أجوف ليس فيه روحٌ له خوار قال ابن عباسٍ: لا واللَّه ما كان فيه صوتٌ قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرق بنو إسرائيل فرقًا فقالت فرقةٌ: يا سامرى ما هذا، وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقةٌ: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقةٌ: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا نؤمن به، ولا نصدق. وأشرب فرقةٌ فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون عليه السلام: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [طه: ٩٠] ليس هذا. قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا؟ هذه أربعون يومًا قد مضت. قال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه. فلما كلم اللَّه موسى وقال له ما قال أخبره بما لقى قومه من بعده ﴿ رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ

غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]. فقال لهم: ما سمعتم ما فى القرآن ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، فانصرف إلى السامرى، فقال: له ما حملك على ما صنعت؟ قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه]. ولو كان إلهًا لم نخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا أن يفتح لنا باب توبةٍ نصنعها فيكفر عنا ما عملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألوا الخير خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى العجل فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبى الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانٍ به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف٧]. فقال: يا رب سألتك التوبة لقومى فقلت: إن رحمتك كتبتها لقوم غير قومى فليتك أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة. فقال له: إنَّ توبتهم أن يقتل كل رجلٍ من لقى من والدٍ وولدٍ فيقتله بالسيف لا يبالى من قتل فى ذلك الموطن وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون وأطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أُمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول، ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهًا نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها ونتق الله عليهم الجبل كأنه ظلةٌ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم يصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينةً فيها قومٌ جبارون خلقهم خلقٌ منكرٌ - وذكر من ثمارهم أمرا عجيبا من عظمها - فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]. لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]. - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم - من الجبارين آمنا بموسى وخرجا إليه فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا

منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناسٌ: إنهما من قوم موسى. فقال الذين يخافون من بنى إسرائيل: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]. فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذٍ فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنةً يتيهون فى الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرارٌ ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثيابًا لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحيةٍ ثلاثة أعينٍ وأعلم كل سبطٍ عينهم التى يشربون منها، فلا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذى كان فيه بالأمس رفع ابن عباسٍ هذا الحديث إلى النبى ﷺ وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباسٍ حدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل فقال: كيف يُفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع الإسرائيلى الذى شهد ذلك وحضره. هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائى، وأخرجه ابن جريرٍ وابن أبى حاتم فى «تفسيرهما» من حديث يزيد بن هارون والأشبه، والله أعلم أنه موقوفٌ وكونه مرفوعًا فيه نظرٌ وغالبه متلقى من الإسرائيليات، وفيه شىءٌ يسيرٌ مصرحٌ برفعه فى أثناء الكلام وفى بعض ما فيه نظرٌ ونكارةٌ والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

☆☆☆

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور [٤/ ٢٩٦] وعزاه إلى ابن أبى حاتم وغيره، كما رواه أبو يعلى فى مسنده [٢٦١٨] وقال محققه: رجاله ثقات.

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر اللَّه موسى عليه السلام بعمل قبةٍ من خشب الشمشار وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقاتٍ طول كل واحد ثمانيةٌ وعشرون ذراعًا، وعرضه أربعة أذرع، ولها أربعة أبوابٍ وأطنابٌ من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوفٌ وصفائح من ذهبٍ وفضةٍ ولكل زاويةٍ بابان، وأبوابٌ أخر كبيرةٌ وستورٌ من حريرٍ مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره، وبعمل تابوتٍ من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفًا وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعًا ونصفًا ويكون مضببًا بذهبٍ خالصٍ من داخله وخارجه وله أربع حلق فى أربع زواياه، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهبٍ، يعنون صفة ملكين بأجنحةٍ وهما متقابلان صنعه رجلٌ اسمه بصليال. وأمراه أنْ يعمل مائدةً من خشب الشمشار طولها ذراعا وعرضها ذراعٌ ونصفٌ لها ضباب ذهبٍ وإكليل ذهبٍ بشفةٍ مرتفعةٍ بإكليلٍ من ذهبٍ وأربع حلقٍ من نواحيها من ذهبٍ؛ خرزة فى مثل الرمان من خشبٍ ملبسٍ ذهبًا واعمل صحافًا ومصافى وقصاعًا على المائدة، واصنع منارةً من ذهبٍ دلى فيها ست قصباتٍ من ذهبٍ من كل جانبٍ ثلاثٌ على كل قصبةٍ ثلاث سرجٍ، وليكن فى المنارة أربع قناديل، ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطارٍ من ذهبٍ صنع ذلك بصليال أيضًا، وهو الذى عمل المذبح أيضًا ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من الربيع، ونصب تابوت الشهادة، وهو - واللَّه أعلم - المذكور فى قوله تعالى: ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولاً جدًا وفيه شرائع لهم وأحكامٌ وصفة قربانهم وكيفيته، وفيه أن قبة الزمان كانت موجودةً قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدمٌ على مجىء بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها، ويتقربون عندها، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجدًا للَّه عز وجل، ويكلم اللَّه موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نورٌ ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه، وهو واقفٌ عند التابوت صامدٌ إلى ما بين الكروبين فإذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه اللَّه عز وجل إليه من الأوامر والنواهى، وإذا تحاكموا إليه فى شىءٍ ليس

عنده من اللّه فيه شيءٌ يجيء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة وقد كان هذا مشروعًا لهم فى زمانهم أعنى استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ فى معبدهم وعند مصلاهم، فأما فى شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لما وسع فى مسجد رسول اللّه ﷺ فقال للذى وكله على عمارته: ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وقال ابن عباسٍ لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم[1].

وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الأمة غير مشابهةٍ من كان قبلهم من الأمم؛ إذ جمع اللّه همهم فى صلاتهم على التوجه إليه، والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر فى غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة، فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى إسرائيل فى التيه يُصلون إليها وهى قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم اللّه موسى عليه السلام، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام.

فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون فى الذى كان يليه أبوهم من أمر القربان، وهو فيهم إلى الآن، وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نونٍ عليه السلام، وهو الذى دخل بهم بيت المقدس كما سيأتى بيانه.

والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهى الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول اللّه ﷺ وقد صلى إليها رسول اللّه ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر، وقيل: سبعة عشر شهرًا. ثم حولت القبلة إلى الكعبة، وهى قبلة إبراهيم فى شعبان سنة ثنتين فى وقت صلاة العصر، وقيل الظهر[2]، كما بسطنا ذلك فى «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] إلى قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

---

(١) ذكره البخارى فى كتاب الصلاة [باب: ٦٢] [١/ ٥٣٩] معلقًا، وروى أبو داود [٤٤٨] عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما؛ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ما أمرت بتشييد المساجد» قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى. وصححه الألبانى.
(٢) رواه البخارى [٤٠، ٣٩٩، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢]، ومسلم [٥٢٥/ ١٢].

قصة قارون مع موسى
عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص].

قال الأعمش: عن المنهال بن عمرو بن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى. وكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك ابن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جرير وزاد فقال: هو قارون بن يصهر بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث.

قال ابن جرير وهذا قول أكثر أهل العلم؛ أنه كان ابن عم موسى. ورد قول ابن إسحاق أنه كان عم موسى. قال قتادة: وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى، فأهلكه البغى؛ لكثرة ماله.

وقال شهر بن حوشب: زاد فى ثيابه شبرًا طولاً ترفعًا على قومه. وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى إن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً، فالله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أى: لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾. يقولون: لتكن همتك مصروفةً لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة، فإنه خيرٌ وأبقى

ومع هذا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. أى: وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]. أى: وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]. أى: ولا تسئ إليهم ولا تُفسد فيهم فتقابلهم ضد ما أُمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]. فما كان جوابه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. يعنى: أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم؛ فإن الله إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه، وأنى أهلٌ له، ولولا أنى حبيبٌ إليه وحظئ عنده لما أعطانى ما أعطانى. قال الله تعالى رادًا عليه ما ذهب إليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]. أى: قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوةً وأكثر أموالاً وأولادًا فلو كان ما قال صحيحًا لم نعاقب أحدًا ممن كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون]. وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الأموال فليس بصحيح؛ لأن الكيمياء تخييلٌ وصبغةٌ لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء مِن كافرٍ به، وقارون كان كافرًا فى الباطن منافقًا فى الظاهر، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازمٌ وقد وضحنا هذا فى كتابنا «التفسير» ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]. ذكر كثيرٌ من المفسرين أنه خرج فى تجملٍ عظيم؛ من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أنْ لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠]. أى: ثواب الله فى الدار الآخرة خيرٌ وأبقى وأجل وأعلى قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]. أى: وما

يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية الى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى اللّه قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده، وما أحسن ما قال بعض السلف: إن اللّه يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال اللّه تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١].

كما روى البخارى من حديث الزهرى عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ قال: «بينما رجلٌ يجر إزاره من الخيلاء خسف به، فهو يجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة». ثم رواه البخارى من حديث جرير بن زيدٍ عن سالمٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه[1].

وقد ذكر ابن عباسٍ والسدى أن قارون أعطى امرأةً بغيًا مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو فى ملأٍ من الناس: إنك فعلت بى كذا وكذا. فيقال: إنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين ثم أقبل عليها فاستحلفها: من دلك على؟ وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خر موسى للّه ساجدًا، ودعا اللّه على قارون فأوحى اللّه إليه: إنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك. فاللّه أعلم. وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه فى زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكر قومه بأيام اللّه، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثيرٍ من الناس ينظرون إليه، فدعا موسى عليه السلام فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على ولأدعون عليك. فخرج، وخرج قارون فى قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو؟ قال: أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب فى موسى فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطعنى اليوم. فأوحى اللّه إليه: إنى قد فعلت فقال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال: اقبلى بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده فقال:

---

(١) رواه البخارى [٣٤٨٥، ٥٧٩٠].

اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض. وقد روى عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامةً إلى يوم القيامة. وعن ابن عباسٍ أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة. وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين ههنا إسرائيلياتٍ كثيرةً أضربنا عنها صفحًا وتركناها قصدًا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]. لم يكن له ناصرٌ من نفسه ولا من غيره كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]. ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتى، وشكروا اللَّه تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

وقد تكلمنا على لفظ: (ويك) فى «التفسير» وقد قال قتادة: ويكأن بمعنى ألم تر أن وهذا قولٌ حسنٌ من حيث المعنى. واللَّه أعلم.

ثم أخبر تعالى: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤]. وهى دار القرار، وهى الدار التى يُغبط من أعطيها، ويُعزى من حُرمها، إنما هى مُعدةٌ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]. فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر. والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية؛ من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر؛ لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. فإن الدار ظاهرةٌ فى البنيان، وقد تكون بعد ذلك فى التيه، وتكون الدار عبارةً عن المحلة التى تضرب فيها الخيام كما قال عنترة:

يا دارا عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

والله أعلم.

وقد ذكر اللَّه تعالى مذمة قارون فى غير ما آيةٍ من القرآن قال اللَّه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر].

وقال تعالى فى سورة العنكبوت بعد ذكر عادٍ وثمود: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

فالذى خُسف به الأرض قارون كما تقدم والذى أُغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيدٌ حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى بن هلالٍ الصدفى عن عبد اللَّه بن عمروٍ عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا، فقال: من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلفٍ » انفرد به أحمد، رحمه اللَّه[1].

☆☆☆

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ١٦٩] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

ذكر فضائل موسى
عليه السلام
وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وتقدم فى «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش، فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى أم جزى بصعقة الطور»[1]. وقدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة قطعا جزما لا يحتمل النقيض وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣]. إلى أن قال: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قال الإمام أبو عبد الله البخارى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن روح بن عبادة عن عوفٍ عن الحسن ومحمد وخلاسٍ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا لا يرى جلده شيءٌ؛ استحياءً منه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيبٍ بجلده؛ إما برصٌ وإما أدرةٌ وإما آفةٌ. وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأٍ من بنى إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله أبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا فذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) تقدم تخريجه.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد اللَّه بن شقيقٍ وهمام بن منبهٍ عن أبى هريرة به وهو فى «الصحيحين» من حديث عبد الرزاق عن معمرٍ عن همامٍ به، ورواه مسلمٌ من حديث عبد اللَّه بن شقيق العقيلى عنه(١).

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند اللَّه وطلب منه أن يكون معه وزيرًا فأجابه اللَّه إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبيًّا كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. ثم قال البخارى: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة حدثنا الأعمش سألت أبا وائلٍ قال: سمعت عبد اللَّه قال: «قسم النبى ﷺ: قسمًا فقال رجلٌ: إن هذه، لقسمةٌ ما أُريد بها وجه اللَّه. فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه ثم قال: يرحم اللَّه موسى قد أُوذى بأكثر من هذا فصبر». وكذا رواه مسلمٌ من غير وجهٍ عن سليمان بن مهران الأعمش به(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاجٌ قال: سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبى هاشم مولى لهمدان عن زيد بن أبى زائدٍ عن عبد اللَّه بن مسعودٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: لا يبلغنى أحدٌ عن أحدٍ من أصحابى شيئًا، فإنى أُحب أن أخرج إليكم؛ وأنا سليم الصدر قال: وأتى رسول اللَّه ﷺ مالٌ فقسمه، قال: فمررت برجلين، وأحدهما يقول لصاحبه: واللَّه ما أراد محمدٌ بقسمته وجه اللَّه، ولا الدار الآخرة فتثبت حتى سمعت ما قالا. ثم أتيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقلت: يا رسول اللَّه إنك قلت لنا: لا يبلغنى أحدٌ عن أحدٍ من أصحابى شيئًا. وإنى مررت بفلانٍ وفلانٍ وهما يقولان كذا وكذا قال: فاحمر وجه رسول اللَّه ﷺ وشق عليه، ثم قال: دعنا منك فقد أوذى موسى أكثر من ذلك ثم صبر(٣). وهكذا رواه أبو داود والترمذى من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبى هاشم به وفى روايةٍ للترمذى ولأبى داود من طريق الحسين بن محمد عن إسرائيل عن السدى عن الوليد به. وقال: الترمذى غريبٌ من هذا الوجه.

وقد ثبت فى «الصحيح» فى أحاديث الإسراء: «أن رسول اللَّه ﷺ مر بموسى وهو قائمٌ يصلى فى قبره». ورواه مسلم عن أنسٍ(٤).

(١) رواه البخارى [٣٤٠٤]، ومسلم [٣٣٩/ ٧٥]، وأحمد فى المسند [٢/ ٥١٤].
(٢) رواه البخارى [٣٤٠٥]، ومسلم [١٠٦٢/ ١٤١].
(٣) رواه أحمد فى المسند [١/ ٣٩٦] وقال الأرناؤوط: إسناد ضعيف، وأبو داود [٤٨٦٠]، والترمذى [٣٨٩٦، ٣٨٩٧] وضعفه الألبانى.
(٤) رواه مسلم [٢٣٧٥/ ١٦٤].

وفى «الصحيحين» من رواية قتادة عن أنسٍ عن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة فقال له جبريل: هذا موسى فسلم عليه قال: فسلمت عليه فقال: مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح. فلما تجاوزت بكى؛ قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلامًا بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى. وذكر إبراهيم فى السماء السابعة وهذا هو المحفوظ وما وقع فى حديث شريك بن أبى نمرٍ عن أنسٍ من أن إبراهيم فى السادسة، وموسى فى السابعة بتفضيل كلام اللّه، فقد ذكر غير واحدٍ من الحفاظ أن الذى عليه الجادة أن موسى فى السادسة، وإبراهيم فى السابعة، وأنه مسندٌ ظهره إلى البيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. واتفقت الروايات كلها على أن اللّه تعالى لما فرض على محمدٍ ﷺ وأمته خمسين صلاةً فى اليوم والليلة فمر بموسى قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وإن أمتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً فلم يزل يتردد بين موسى وبين اللّه عز وجل ويخفف عنه فى كل مرةٍ حتى صارت إلى خمس صلواتٍ فى اليوم والليلة. وقال اللّه تعالى: «هى خمسٌ، وهى خمسون»[1]. أى: بالمضاعفة فجزى اللّه عنا محمدًا ﷺ خيرًا وجزى اللّه عنا موسى عليه السلام خيرًا.

وقال البخارى: حدثنا مسدد حدثنا حصين بن نميرٍ عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: «عرضت على الأمم ورأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق فقيل هذا موسى وقومه»[2]. هكذا روى البخارى هذا الحديث ههنا مختصرًا.

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال: حدثنا سريج حدثنا هشيم حدثنا حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عن سعيد بن جبيرٍ قال: أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة؟ قلت: أما أنا ثم قلت: إنى لم أكن فى صلاةٍ ولكنى لُدغت: قال: وكيف فعلت؟ قلت: استرقيت قال: وما حملك على ذلك؟ قال: قلت: حديثٌ حدثناه الشعبى عن بريدة الأسلمى أنه قال: لا رقية إلا من عينٍ أو حمةٍ. فقال سعيدٌ - يعنى ابن جبيرٍ: - قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ثم قال: حدثنا ابن عباسٍ عن النبى ﷺ قال: «عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط والنبى معه الرجل والرجلين والنبى وليس معه أحدٌ إذ رفع لى سوادٌ عظيمٌ فقلت: هذه أمتى فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق. فإذا سوادٌ عظيمٌ، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا

(١) رواه البخارى [٣٨٨٧].

(٢) رواه البخارى [٥٧٥٢].

عذابٍ. ثم نهض رسول اللَّه ﷺ فدخل فخاض القوم فى ذلك فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ؟ فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبى ﷺ وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا فى الإسلام، ولم يشركوا بالله شيئا قط وذكروا أشياء، فخرج إليهم رسول اللَّه ﷺ فقال: ما هذا الذى كنتم تخوضون فيه؟ فأخبروه بمقالتهم فقال: هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشة بن محصن الأسدى فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: أنت منهم. ثم قام آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: سبقك بها عكاشة»[1]. وهذا الحديث له طرقٌ كثيرةٌ جدًا وهو فى الصحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء اللَّه تعالى فى باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها. وقد ذكر اللَّه تعالى موسى عليه السلام فى القرآن كثيرًا وأثنى عليه وأورد قصته فى كتابه العزيز مرارًا، وكررها كثيرًا، مطولةً ومبسوطةً ومختصرةً، وأثنى عليه بليغًا. وكثيرا ما يقرنه اللَّه ويذكره ويذكر كتابه مع محمدٍ ﷺ وكتابه كما قال فى سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران].

وقال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ [الأنعام]. فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحًا عظيمًا

وقال تعالى فى آخرها: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝١٥٤ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام].

وقال تعالى فى سورة المائدة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٧١] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخارى. رجاله ثقات رجال الشيخين، غير سريج فمن رجال البخارى.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ (٤٨)﴾ [المائدة]. فجعل القرآن حاكمًا على سائر الكتب غيره وجعله مصدقًا لها ومبينًا ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدروا على حفظها، ولا على ضبطها وصونها، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم؛ لسوء فهومهم وقصورهم فى علومهم، ورداءه قصودهم، وخيانتهم لمعبودهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد فى كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما لا يحد ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف.

وقال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾ [الأنبياء].

وقال الله تعالى فى سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾ [القصص].

فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام وقالت الجن لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحى، وتلا عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق].

قال: «سبوحٌ سبوحٌ هذا الناموس الذى أُنزل على موسى بن عمران»(١).

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمةً، وأمته كانت أمةً كثيرةً ووجد فيها أنبياء وعلماء وعبادٌ وزهادٌ وألباءُ وملوكٌ وأمراء وساداتٌ وكبراء لكنهم كانوا، فبادوا وتبدلوا، كما بدلت شريعهم ومسخوا قردةً وخنازير، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم، وجرت عليهم خطوبٌ وأمورٌ يطول ذكرها، ولكن سنورد ما فيه مقنعٌ لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

---

(١) رواه البخارى [٣، ٤٩٥٣]، ومسلم [١٦٠/٢٥٢].

ذكر حج موسى
عليه السلام
إلى البيت العتيق وصفته

قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم حدثنا داود بن أبى هندٍ عن أبى العالية عن ابن عباسٍ أن رسول اللَّه ﷺ مر بوادى الأزرق فقال: «أى وادٍ هذا؟ قالوا: وادى الأزرق. قال: كأنى أنظر إلى موسى، وهو هابطٌ من الثنية وله جؤارٌ إلى اللَّه عز وجل بالتلبية. حتى أتى على ثنية هرشاء فقال: أى ثنيةٍ هذه؟ قالوا: هذه ثنية هرشاء قال: كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقةٍ حمراء عليه جبةٌ من صوفٍ خطام ناقته خلبةٌ - قال هشيمٌ: يعنى ليفًا - وهو يلبى». أخرجه مسلمٌ من حديث داود بن أبى هندٍ به[1]. وروى الطبرانى عن ابن عباسٍ مرفوعًا: إن موسى حج على ثورٍ أحمر. وهذا غريبٌ جدًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عونٍ عن مجاهدٍ قال: كنا عند ابن عباسٍ فذكروا الدجال فقال: إنه مكتوبٌ بين عينيه «ك ف ر» قال: ما تقولون؟ قال: يقولون: مكتوبٌ بين عينيه «ك ف ر» فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك ولكن قال: أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جملٍ أحمر مخطومٍ بخلبةٍ كأنى أنظر إليه وقد انحدر من الوادى يلبى.
قال هشيمٌ: الخلبة الليفُ[2].

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل عن عثمان - يعنى ابن المغيرة - عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم؛ فأما عيسى فأبيض جعدٌ عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيمٌ قالوا: فإبراهيم؟ قال: انظروا إلى صاحبكم»[3]. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس حدثنا شيبان حدث قتادة عن أبى العالية حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباسٍ قال: قال نبى اللَّه ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعدًا كأنه من رجال شنوءة

---

(١) رواه مسلم [١٦٦/٢٦٨]، أحمد فى المسند [١/٢١٥، ٢١٦].
(٢) رواه أحمد فى المسند [١/٢٧٦، ٢٧٧] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) رواه أحمد فى المسند [١/٢٩٦] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخارى، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عثمان بن المغيرة فمن رجال البخارى.

ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس»[١]. وأخرجاه من حديث قتادة به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ قال الزهرى: وأخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ حين أسرى به: «لقيت موسى فنعته، فقال رجلٌ؛ قال: حسبته قال: مضطرب، رَجِلُ الرأس،كأنه من رجال شنوءة ولقيت عيسى فنعته رسول اللّه ﷺ فقال: ربعةٌ أحمر كأنما خرج من ديماسٍ. يعنى حمامًا قال: ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد به». الحديث. وقد تقدم غالب هذه الأحاديث فى ترجمة الخليل صلوات اللّه عليه وسلامه[٢].

☆☆☆

(١) رواه البخارى [٣٢٣٩، ٣٣٩٦]، ومسلم [١٦٥/٢٦٧]، وأحمد فى المسند [١/ ٢٤٥].
(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٢٨٢] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ذكر وفاته
عليه السلام

قال البخارى فى «صحيحه»: وفاة موسى عليه السلام: حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن ابن طاووسٍ عن أبيه عن أبى هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال: أرسلتنى إلى عبدٍ لا يريد الموت قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثورٍ فله بما غطت يده بكل شعرةٍ سنةٌ قال: أى رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن.

قال فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجرٍ قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»[1].

قال: وأنبأنا معمرٌ عن همامٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه. وقد روى مسلمٌ الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به. ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمارٍ عن أبى هريرة مرفوعًا وسيأتى[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس - يعنى سليم بن جبيرٍ - عن أبى هريرة - قال الإمام أحمد: لم يرفعه - قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال: أجب ربك. فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها، فرجع الملك إلى الله فقال: إنك بعثتنى إلى عبدٍ لك لا يريد الموت وقد فقأ عينى. قال: فرد الله عينه، وقال: ارجع إلى عبدى فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثورٍ فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنةً، قال: ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن يا رب من قريبٍ » تفرد به أحمد. وهو موقوفٌ بهذا اللفظ[3].

وقد رواه ابن حبان فى «صحيحه» من طريق معمرٍ عن ابن طاوسٍ عن أبيه عن أبى هريرة قال معمرٌ: وأخبرنى من سمع الحسن عن رسول الله فذكره ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله: أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه؛ لمجيئه

---

(١) رواه البخارى [١٣٣٩ ، ٣٤٠٧].

(٢) رواه مسلم [٢٣٧٢/١٥٧]، وأحمد فى المسند [٢/ ٣١٥].

(٣) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٥١] وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح غير ابن لهيعة.

له على غير صورةٍ يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل فى صورة أعرابىٍّ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوطٍ فى صورة شبابٍ فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوطٌ أولاً، وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه؛ لأنه دخل داره بغير إذنه، وهذا موافقٌ لشريعتنا فى جواز فقء عين من نظر إليك فى دارك بغير إذنٍ(١).

ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمرٍ عن همامٍ عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه قال له: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه. وذكر تمام الحديث - كما أشار إليه البخارى - ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه قال له: أجب ربك(٢).

وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله: أجب ربك. بلطمه، ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له. وكأنه لم يعرفه فى تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابقٌ إذ لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملكٌ كريمٌ؛ لأنه كان يرجو أمورًا كثيرةً كان يحب وقوعها فى حياته؛ من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة، وكان قد سبق فى قدر اللَّه أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هارون أخيه كما سنبينه إن شاء اللَّه تعالى وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذى خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة. وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين. ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: رب ادننى إلى الأرض المقدسة رميةً بحجر ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه بالتيه، وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رميةً بحجرٍ، ولهذا قال سيد البشر ورسول اللَّه إلى أهل الوبر والمدر: فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حمادٌ حدثنا ثابتٌ وسليمان التيمى عن أنس ابن مالكٍ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائمٌ يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر». ورواه مسلمٌ من حديث حماد بن سلمة به(٤).

وقال السدى عن أبى مالكٍ وأبى صالح عن ابن عباسٍ وعن مرة عن ابن مسعودٍ وعن ناسٍ من الصحابة قالوا: ثم إن اللَّه تعالى أوحى إلى موسى: إنى متوفٍ هارون، فائت به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا

---

(١) رواه ابن حبان فى الإحسان [٦٢٢٣] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) رواه ابن حبان فى الإحسان [٦٢٢٤] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.
(٣) رواه البخارى [١٣٣٩، ٣٤٠٧]، ومسلم [٢٣٧٢/١٥٧].
(٤) رواه أحمد فى المسند [٣/٢٤٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

هم بشجرة لم تر شجرةً مثلها، وإذا هم ببيتٍ مبنيٍّ وإذا هم بسريرٍ عليه فرشٌ، وإذا فيه ريحٌ طيبةٌ فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه قال: يا موسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير. قال له موسى: فنم عليه قال: إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على. قال له: لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت، فنم. قال: يا موسى بل نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب على وعليك جميعا. فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد حسه قال: يا موسى خدعتنى فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا: فإن موسى قتل هارون، وحسده حب بنى إسرائيل له. وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى، وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم كان أخى أفترونى أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا اللّه فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فتاه إذ أقبلت ريحٌ سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزمٌ موسى نبى اللّه، فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل، وقالوا: قتلت نبى الله؟ فقال: لا واللّه ما قتلته ولكنه استل منى. فلم يصدقوه وأرادوا قتله. قال: فإذا لم تصدقونى فأخرونى ثلاثة أيام. فدعا اللّه فأتى كل رجلٍ ممن كان يحرسه فى المنام فأُخبر أن يوشع لم يقتل موسى وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه، ولم يبق أحدٌ ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح. وفى بعض هذا السياق نكارةٌ وغرابةٌ. واللّه أعلم.

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحدٌ من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نونٍ وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشارا على ملأ بنى إسرائيل بالدخول عليهم، وذكر وهب بن منبهٍ أن موسى عليه السلام مر بملأٍ من الملائكة يحفرون قبرًا فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال: يا ملائكة اللّه لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبدٍ من عباد اللّه كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفسٍ. ففعل ذلك فمات صلوات اللّه وسلامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه. وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائةٌ وعشرون سنةً.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالدٍ ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمارٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ - قال يونس: رفع هذا الحديث إلى النبى ﷺ -: «كان ملك الموت يأتى الناس عيانًا، قال: فأتى موسى عليه السلام

فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عينى، ولولا كرامته عليك لعنفت به - وقال يونس: لشققت عليه - قال له: اذهب إلى عبدى، فقل له: فليضع يده على جلد - أو مسك - ثورٍ، فله بكل شعرةٍ وارت يده سنةٌ. فأتاه فقال له، فقال: ما بعد هذا؟ قال: الموت. قال: فالآن. قال: فشمه شمةً فقبض روحه. قال يونس: فرد اللّه عليه عينه، وكان يأتى الناس خفيةً »[1].

وكذا رواه ابن جريرٍ عن أبى كريبٍ عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به فرفعه أيضا واللّه تعالى أعلم.

☆☆☆

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٥٣٣] وقال الأرناؤوط: رجاله رجال الصحيح.

ذكر نبوة يوشع
وقيامه بأعباء بنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو الخليل يوشع بن نون بن أفراييم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام وأهل الكتاب يقولون: يوشع بن عم هودٍ. وقد ذكره الله تعالى فى القرآن غير مصرحٍ باسمه فى قصة الخضر، كما تقدم من قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ ﴾ [الكهف: ٦٠]. ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ﴾ [الكهف: ٦٢]. وقدمنا ما ثبت فى «الصحيح» من رواية أبى بن كعبٍ رضى الله عنه عن النبى ﷺ من أنه يوشع بن نونٍ وهو متفقٌ على نبوته عند أهل الكتاب، فإن طائفةً منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحدٍ بعد موسى إلا يوشع بن نونٍ؛ لأنه مصرحٌ به فى التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وأما ما حكاه ابن جريرٍ وغيره ومن المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع فى آخر عمر موسى، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهى حتى قال له: يا كليم الله إنى كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرنى أنت ابتداءً من تلقاء نفسك فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت. ففى هذا نظرٌ؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحى والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ولم يزل معززًا مكرمًا مدللاً وجيهًا عند الله كما قدمنا فى «الصحيح» من قصة فقئه عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثورٍ فله بكل شعرةٍ وارت يده سنةٌ يعيشها، قال: ثم ماذا؟ قال: الموت. قال: فالآن يا رب. وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رميةً بحجرٍ وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه، فهذا الذى ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففى كتابهم الذى يسمونه التوراة أن الوحى لم يزل ينزل على موسى فى كل أمر يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة فى قبة الزمان.

وقد ذكروا فى السفر الثالث أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بنى إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلا على كل سبطٍ من الاثنى عشر أميرًا وهو النقيب، وماذاك

إلا ليتأهبوا للقتال؛ قتال الجبارين عند الخروج من التيه وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنةً. ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت؛ لأنه لم يعرفه في صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمرٍ كان يرتجي وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر اللّه أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نونٍ عليه السلام كما أن رسول اللّه ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام، فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ثم حج في سنة عشرٍ، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

ولما جهز رسول اللّه جيش أسامة توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيمٌ بالجرف فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه ثم لما لم شعث جزيرة العرب وما كان وهي من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه جهز الجيوش يمنةً ويسرةً إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح اللّه لهم ومكن لهم وبهم وملكهم نواصي أعدائهم كما سنورده عليك في موضعه إذا انتهينا إليه مفصلاً إن شاء اللّه تعالى بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده. وهكذا موسى عليه السلام؛ كان اللّه قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة: ١٢]. وقال اللّه تعالى: ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢]. يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرةٍ لأجعلن ثواب هذه مكفرًا لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول اللّه ﷺ في عمرة الحديبية: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٦] وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢]. ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم. وقد ذكرنا ذلك في «التفسير» مستقصى وللّه الحمد.

والمقصود أن اللّه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنةً فصاعدًا، وأن يجعل

على كل سبطٍ نقيبًا منهم؛ السبط الأول سبط روبيل؛ لأنه بكر يعقوب كان عدة المقاتلة منهم ستةً وأربعين ألفًا وخمسمائةٍ، ونقيبهم منهم وهو أليصور بن شديئورا، السبط الثانى سبط شمعون وكانوا تسعةً وخمسين ألفًا وثلاثمائةٍ، ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداى، السبط الثالث سبط يهوذا وكانوا أربعةً وسبعين ألفًا وستمائةٍ، ونقيبهم نحشون بن عميناداب، السبط الرابع سبط إيساخر وكانوا أربعةً وخمسين ألفًا وأربعمائةٍ، ونقيبهم نشائيل بن صوغر، السبط الخامس سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفًا وخمسمائةٍ، ونقيبهم يوشع بن نونٍ، السبط السادس سبط ميشا وكانوا أحدًا وثلاثين ألفًا ومائتين، ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور. السبط السابع سبط بنيامين وكانوا خمسةً وثلاثين ألفًا وأربعمائةٍ، ونقيبهم أبيدن بن جدعون، السبط الثامن سبط جاد وكانوا خمسةً وأربعين ألفًا وستمائةٍ وخمسين رجلًا، ونقيبهم الياساف بن رعوئيل، السبط التاسع سبط أشير وكانوا أحدًا وأربعين ألفًا وخمسمائةٍ، ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن، السبط العاشر سبط دان وكانوا اثنين وستين ألفًا وسبعمائةٍ ونقيبهم أخيعزر بن عمشداى السبط الحادى عشر سبط نفتالى وكانوا ثلاثة وخمسين ألفًا وأربعمائةٍ، ونقيبهم أخيرع بن عين، السبط الثانى عشر سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين ألفًا وأربعمائةٍ، ونقيبهم ألباب بن حيلون. هذا نص كتابهم الذى بأيديهم. واللّه أعلم. وليس منهم بنو لاوى فأمر اللّه موسى أن لا يعدهم معهم؛ لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وخزنها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام وكانوا اثنين وعشرين ألفًا من ابن شهرٍ فما فوق ذلك، وهم فى أنفسهم قبائل، إلى كل قبيلةٍ طائفةٌ من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمينها وشمالها ووراءها.

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بنى لاوى خمسمائة ألفٍ وأحدٌ وسبعون ألفًا وستمائةٍ وستةٌ وخمسون، لكن قالوا: فكان عدد بنى إسرائيل ممن عمره عشرون سنةً فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألفٍ وثلاثة آلافٍ وخمسمائةٍ وخمسة وخمسين رجلًا سوى بنى لاوى. وفى هذا نظرٌ؛ فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا فى كتابهم؛ لا تطابق الجملة التى ذكروها. واللّه أعلم. فكان بنو لاوى الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون فى وسط بنى إسرائيل وهم القلب ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنوران، وبنو نفتالى يكونون ساقةً، وقرر موسى عليه السلام بأمر اللّه تعالى له الكهانة فى بنى هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم وهم: ناداب وهو بكره وأبيهو والعازر ويثمر والمقصود أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحدٌ

ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾. قاله الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباسٍ: وقاله قتادة وعكرمة ورواه السدى عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وناسٍ من الصحابة حتى قال ابن عباسٍ وغيره من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما فى التيه جميعًا. وقد زعم ابن إسحاق أن الذى فتح بيت المقدس هو موسى، وإنما كان يوشع على مقدمته وذكر فى مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذى قال تعالى فيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف]. وقد ذكرنا قصته فى «التفسير» وأنه كان فيما قاله ابن عباسٍ وغيره يعلم الاسم الأعظم، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم فلما ألحوا عليه ركب حمارةً له، ثم سار نحو معسكر بنى إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت فسارت غير بعيدٍ وربضت فضربها ضربًا أشد من الأول فقامت، ثم ربضت فضربها فقالت له: يا بلعام أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا أتذهب إلى نبى اللّه والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان، ونظر إلى معسكر موسى وبنى إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يُطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجرى على لسانه إلا هذا واندلع لسانه حتى وقع على صدره، وقال لقومه: ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة. ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم حتى لعلهم يقعون فى الزنى فإنه متى زنى رجلٌ منهم كفيتموه.

ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر فمرت امرأةٌ منهم اسمها كستى برجلٍ من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى بن شلوم يقال: إنه كان رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته فلما خلا بها أرسل اللّه الطاعون على بنى إسرائيل فجعل يجوس فيهم الموت فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العيزار بن هارون أخذ حربته وكانت من حديدٍ، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعًا فيها، ثم خرج بهما على الناس والحربة فى يده، وقد اعتمد على خاصرته، وأسندها إلى لحيته ورفعهما نحو السماء، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك. ورفع الطاعون فكان جملة من مات فى تلك الساعة سبعين ألفا والمقلل يقول: عشرين ألفًا. وكان

فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة القبة والذراع واللحى ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم. وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيحٌ قد ذكره غير واحدٍ من علماء السلف، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ولعله مراد ابن إسحاق ولكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه. وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا. والله أعلم. ولعل هذه قصةٌ أخرى كانت فى خلال سيرهم فى التيه، فإن فى هذا السياق ذكر حسبان وهى بعيدةٌ عن أرض بيت المقدس أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نونٍ حين خرج بهم من التيه قاصدًا بيت المقدس كما صرح به السدى والله أعلم.

وعلى كل تقديرٍ فالذى عليه الجمهور أن هارون توفى بالتيه قبل موسى أخيه بنحوٍ من سنتين. وبعده موسى فى التيه أيضًا، كما قدمنا وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس، فأُجيب إلى ذلك، فكان الذى خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نونٍ عليه السلام، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع بنى إسرائيل نهر الأردن، وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سورًا، وأعلاها قصورًا، وأكثرها أهلا فحاصرها ستة أشهرٍ ثم إنهم أحاطوا بها يومًا، وضربوا بالقرون يعنى الأبواق وكبروا تكبيرة رجلٍ واحدٍ فتفسخ سورها وسقط وجبةً واحدةً، فدخلوها، وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثنى عشر ألفًا من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكًا كثيرةً، ويقال: إن يوشع ظهر على أحدٍ وثلاثين ملكًا من ملوك الشام. وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعةٍ بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم وشُرع لهم ذلك الزمان قال لها: إنك مأمورةٌ وأنا مأمورٌ اللهم احبسها على. فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عن الطلوع وهذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر. والأول وهو قصة الشمس مذكورة فى الحديث الذى سأذكره. وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافى الحديث بل فيه زيادةٌ تُستفاد فلا تُصدق ولا تُكذب، ولكن ذكرهم أن هذا كان فى فتح أريحا فيه نظرٌ والأشبه والله أعلم أن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلةً إليه والله أعلم. قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامرٍ حدثنا أبو بكرٍ عن هشامٍ عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس على بشرٍ إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس» [1]. انفرد به

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٢٥] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخارى.

أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى. وفيه دلالةٌ على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نونٍ عليه السلام لا موسى، وأن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا. وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه؛ أن الشمس رجعت حتى صلى على بن أبى طالبٍ صلاة العصر، بعد ما فاتته بسبب نوم النبى ﷺ على ركبته، فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلى العصر فرجعت. وقد صححه أحمد بن صالح المصرى، ولكنه منكرٌ ليس فى شىءٍ من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوفر الدواعى على نقله وتفردت بنقله امرأةٌ من أهل البيت مجهولةٌ لا يعرف حالها والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن همامٍ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبىٌ من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعنى رجلٌ قد ملك بضع امرأةٍ وهو يريد أن يبنى بها، ولما يبن، ولا آخر قد بنى بنيانًا ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفاتٍ وهو ينتظر أولادها. فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورةٌ وأنا مأمورٌ اللهم احبسها على شيئًا فحبست عليه، حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه فقال: فيكم غلولٌ فليبايعنى من كل قبيلةٍ رجلٌ. فبايعوه فلصقت يد رجلٍ بيده فقال: فيكم الغلول فلتبايعنى قبيلتك، قال: فبايعته قبيلته، فلصق يد رجلين أو ثلاثةٍ بيده فقال: فيكم الغلول أنتم غللتم. فأخرجوا له مثل رأس بقرةٍ من ذهبٍ قال: فوضعوه فى المال وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحدٍ من قبلنا، ذلك بأن الله عز وجل رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»[1]. انفرد به مسلم من هذا الوجه.

وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن سعيدٍ المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه. قال: ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى قال: ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ.

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أُمروا أن يدخلوها سجدًا أى: ركعًا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم الذى كان الله وعدهم إياه وأن يقولوا حال دخولهم: حطةٌ أى: حط عنا خطايانا التى سلفت من نكولنا الذى تقدم منا. ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكبٌ ناقته، وهو متواضعٌ حامدٌ شاكرٌ حتى أن عثنونه وهو طرف لحيته ليمس مورك رحله مما يطأطىء رأسه خضعانًا لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى

(١) رواه مسلم [١٧٤٧/ ٣٢]، وأحمد فى المسند [٢/ ٣١٨].

منه إلا الحدق ولا سيما الكتيبة الخضراء التى فيها رسول الله ﷺ ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثمانى ركعاتٍ.

وهى صلاة الشكر على النصر على المشهور من قولى العلماء وقيل: إنها صلاة الضحى. وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى.

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً دخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبةٌ فى شعرة[(١)]، وفى روايةٍ: حنطةٌ فى شعرةٍ[(٢)]. وحاصله أنهم بدلوا ما أُمروا به واستهزأوا به كما قال تعالى حاكيًا عنهم فى سورة الأعراف وهى مكية: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾ [الأعراف].

وقال تعالى فى سورة البقرة وهى مدنيةٌ مخاطبًا لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة].

قال الثورى عن الأعمش عن المنهال بن عمروٍ عن سعيد بن جبير عن ابن عباسٍ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨] قال: ركعًا من بابٍ صغيرٍ رواه الحاكم وابن جرير وابن أبى حاتمٍ وكذا روى العوفى عن ابن عباسٍ[(٣)].

وكذا روى الثورى عن ابن إسحاق عن البراء. قال مجاهدٌ والسدى والضحاك: والباب هو باب حطةٍ من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابن مسعودٍ: فدخلوا مقنعى رؤوسهم ضد ما أُمروا به. وهذا لا ينافى قول ابن عباسٍ إنهم دخلوا يزحفون على أستاههم. وهكذا فى الحديث الذى سنورده بعد فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم. وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]. الواو هنا حاليةٌ لا عاطفةٌ أى ادخلوا سجدًا فى حال قولكم: حطةٌ. قال ابن عباسٍ وعطاءٌ والحسن وقتادة والربيع: أُمروا أن يستغفروا.

---

(١) رواه البخارى [٣٤٠٣]، ومسلم [٣٠١٥/١].

(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣١٢] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٦٢].

قال البخارى: حدثنا محمدٌ حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبهٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «قيل لبنى إسرائيل: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ [البقرة: ٥٨]. فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا: حطةٌ حبةٌ فى شعرةٍ »[(١)].

وكذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدى به موقوفًا. وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن همام بن منبهٍ أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ٥٨] فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا حبةٌ فى شعرةٍ». ورواه البخارى ومسلمٌ والترمذى من حديث عبد الرزاق وقال الترمذى: حسنٌ صحيحٌ[(٢)]. وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباسٍ أن رسول الله ﷺ قال: «دخلوا الباب الذى أُمروا أن يدخلوا فيه سجدًا، يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطةٌ فى شعيرة»[(٣)]. وقال أسباطٌ عن السدى عن مرة عن ابن مسعودٍ قال فى قوله: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ [البقرة: ٥٩]. قال: قالوا (هطى سقاثا أزبة مزبا) فهى بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبةٌ فيها شعرةٌ سوداء. وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذى أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت فى «الصحيحين» من حديث الزهرى عن عامر بن سعدٍ ومن حديث مالكٍ عن محمد بن المنكدر وسالم أبى النضر عن عامر بن سعدٍ عن أسامة بن زيدٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن هذا الوجع - أو السقم - رجزٌ عُذب به بعض الأمم قبلكم»[(٤)].

وروى النسائى وابن أبى حاتم وهذا لفظه من حديث الثورى عن حبيب بن أبى ثابتٍ عن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاصٍ عن أبيه وأسامة بن زيدٍ وخزيمة بن ثابتٍ قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذابٍ عُذب به من كان قبلكم»[(٥)]. وقال

(١) رواه البخارى [٤٤٧٩].
(٢) رواه البخارى [٣٤٠٣، ٤٦٤١]، ومسلم [٣١٠٥/١]، والترمذى [٢٩٥٦]، والنسائى فى الكبرى [١٠٩٨٩، ١٠٩٩٠].
(٣) رواه الطبرى [١/ ٢٤٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعا.
(٤) رواه البخارى [٦٩٧٤]، ومسلم [٢٢١٨/ ٩٦]، والنسائى فى الكبرى [٧٥٢٣].
(٥) رواه مسلم [٢٢١٨/ ٩٢].

الضحاك عن ابن عباسٍ: الرجز: العذاب. وكذا قال مجاهدٌ وأبو مالكٍ والسدى والحسن وقتادة وقال أبو العالية: هو الغضب. وقال الشعبى: الرجز؛ إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبيرٍ: هو الطاعون.

ولما استقرت يد بنى إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبى الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه وهو ابن مائةٍ وسبع وعشرين سنةً فكان مدة حياته بعد موسى سبعا وعشرين سنةً. والله تعالى أعلم.

☆☆☆

ذكر قصتى الخضر وإلياس
عليهما السلام

أما الخضر فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه فى طلب ما عنده من العلم اللدنى وقص الله من خبرهما فى كتابه العزيز فى سورة الكهف وذكرنا فى تفسير ذلك هنالك وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام، وأن الذى رحل إليه هو موسى بن عمران نبى بنى إسرائيل عليه السلام الذى أُنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف فى الخضر؛ فى اسمه ونسبه ونبوته وحياته الى الآن على أقوالٍ سأذكرها لك ههنا إن شاء الله تعالى وبحوله وقوته.

قال الحافظ ابن عساكر: يقال: إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه. ثم روى من طريق الدارقطنى: حدثنا محمد بن الفتح القلانسى حدثنا العباس بن عبد الله الترقفى حدثنا رواد بن الجراح حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباسٍ قال: الخضر بن آدم لصلبه ونسئ له فى أجله حتى يُكذب الدجال. وهذا منقطعٌ وغريبٌ. وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى: سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا: إن أطول بنى آدم عمرًا الخضر، واسمه: خضرون بن قابيل بن آدم. قال: وذكر ابن إسحاق أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم فى السفينة وأن يدفنوه فى مكانٍ عينه لهم. فلما كان الطوفان حملوه معهم فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوحٌ بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى فقالوا: إن الأرض ليس بها أنيسٌ وعليها وحشةٌ فحرضهم وحثهم على ذلك. وقال: إن آدم دعا لمن يلى دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع فى ذلك الوقت فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذى تولى دفنه، وأنجز الله ما وعده، فهو يحيى إلى ما شاء الله له أن يحيى. وذكر ابن قتيبة فى المعارف عن وهب بن منبهٍ أن اسم الخضر بليا. ويقال: إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. وقال إسماعيل بن أبى أويسٍ: اسم الخضر فيما بلغنا - والله أعلم - المعمر بن مالك ابن عبد الله بن نصر بن الأزد.

وقال غيره: هو خضرون بن عمياييل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو أرميا بن خلقيا. فالله أعلم. وقيل: إنه كان ابن

فرعون صاحب موسى ملك مصر وهذا غريبٌ جدًا قال ابن الجوزى: رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة وهما ضعيفان. وقيل: إنه ابن مالكٍ، وهو أخو الياس. قاله السدى كما سيأتى. وقيل: إنه كان على مقدمة ذى القرنين. وقيل: كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه وقيل: كان نبيًا فى زمن بشتاسب بن لهراسب.

قال ابن جريرٍ: والصحيح أنه كان متقدمًا فى زمن أفريدون بن أثفيان حتى أدركه موسى عليهما السلام. وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال: الخضر أمه روميةٌ وأبوه فارسيٌ.

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بنى إسرائيل فى زمان فرعون أيضًا. قال أبو زرعة فى دلائل النبوة: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى حدثنا الوليد حدثنا سعيد بن بشيرٍ عن قتادة عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ عن أُبى بن كعبٍ عن رسول الله ﷺ أنه ليله أُسرى به وجد رائحةً طيبةً فقال: «يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنتها وزوجها»[1].

وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بنى إسرائيل وكان ممره براهبٍ فى صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأةً فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تُعلم أحدًا، وكان لا يقرب النساء ثم طلقها ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تُعلم أحدًا ثم طلقها فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى فانطلق هاربًا حتى أتى جزيرة فى البحر فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر قال: قد رأيت الخضر. فقيل: ومن رآه معك؟ قال: فلانٌ، فسئل فكتم، وكان من دينهم أنه من كذب قُتل، فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة قال: فبينما. هى تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت: تعس فرعون. فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوجٌ، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا فقال: إنى قاتلكما. فقالا: إحسانٌ منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا فى قبرٍ واحدٍ. فجعلهما فى قبرٍ واحدٍ. فقال: وما وجدت ريحًا أطيب منهما وقد دخلت الجنة. وقد تقدمت قصة مائلة بنت فرعون وهذا المشط فى أمر الخضر قد يكون مدرجًا من كلام أبى بن كعبٍ أو عبد اللّه بن

---

(١) رواه ابن ماجه [٤٠٣٠] وضعفه الألبانى، وأحمد فى المسند [١/ ٣٠٩، ٣١٠] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والطبرانى فى المعجم الكبير [١١/ ٣٥٦/ ١٢٢٧٩] وقال الهيثمى فى المجمع [١/ ٦٥]: وفيه عطاء بن السائب وهو ثقة، ولكنه اختلط. قلت: حماد بن سلمة روى عنه قبل الاختلاط وبعده أيضا، فهو ضعيف.

عباسٍ والله أعلم. وقال بعضهم: كنيته أبو العباس والأشبه - والله أعلم - أن الخضر لقبٌ غلب عليه.

قال البخارى رحمه الله: حدثنا محمد بن سعيدٍ الأصبهانى حدثنا ابن المبارك عن معمرٍ عن همامٍ عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه؛ عن النبى ﷺ قال: «إنما سمى الخضر؛ لأنهَ جلس على فروةٍ بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء»[١]. تفرد به البخارى، وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمرٍ به[٢].

ثم قال عبد الرزاق: الفروة: الحشيش الأبيض وما أشبهه يعنى الهشيم اليابس. وقال الخطابى؛ وقال أبو عمر: الفروة: الأرض البيضاء التى لا نبات فيها وقال غيره: هو الهشيم اليابس. شبهه بالفروة ومنه قيل: فروة الرأس. وهى جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعى:

ولقد ترى الحبشى حول بيوتنا جـذلاً إذا مـا نـال يـومـا مـأكـلا
صـعـلاً أسـك كـأن فـروة رأسـه بـذرت فـأنـبـت جـانـبـاه فـلفـلا

قال الخطابى: إنما سمى الخضر خضرًا؛ لحسنه وإشراق وجهه.

قلت: هذا لا ينافى ما ثبت فى «الصحيح» فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما فما ثبت فى «الصحيح» أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضًا من طريق أبى إسماعيل بن حفص ابن عمر الأيلى حدثنا عثمان وأبو جزى وهمام بن يحيى عن قتادة عن عبد الله بن الحارث بن نوفلٍ عن ابن عباسٍ عن النبى ﷺ قال: إنما سمى الخضر؛ خضرًا؛ لأنه صلى على فروةٍ بيضاء فاهتزت خضراء. وهذا غريبٌ من هذا الوجه.

وقال قبيصة عن الثورى عن منصور عن مجاهدٍ قال: إنما سمى الخضر؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله.

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر وجداه على طنفسةٍ خضراء على كبد البحر وهو مسجى بثوبٍ قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه فسلم عليه موسى عليه السلام فكشف عن وجهه فرد وقال: إنى بأرضك السلام من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم فكان من أمرهما ما قصه الله فى كتابه عنهما.

---

(١) رواه البخارى [٣٤٠٢].

(٢) رواه الترمذى من طريق عبد الرزاق [٣١٥١] وصححه الألبانى.

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوهٍ أحدها قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

الثاني قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ [الكهف]. فلو كان وليًّا وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ولم يرد على موسى هذا الرد بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذى اختصه اللَّه به دونه فلو كان غير نبيّ لم يكن معصومًا ولم يكن لموسى - وهو نبيٌ عظيمٌ ورسولٌ كريمٌ واجب العصمة - كبير رغبةٍ ولا عظيم طلبةٍ فى علم وليٍّ غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه ولو أنه يمضى حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنةً. ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه فى صورة مستفيدٍ منه دل على أنه نبيٌ مثله يُوحى إليه، كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية، والأسرار النبوية بما لم يُطلع اللَّه عليه موسى الكليم نبى بنى إسرائيل الكريم وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرمانى على نبوة الخضر عليه السلام. الثالث أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحى إليه فيه من الملك العلام. وهذا دليلٌ مستقلٌ على نبوته وبرهانٌ ظاهرٌ على عصمته؛ لأن الولى لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يُلقى فى خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة؛ إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق. ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم علمًا منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر؛ لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه، ففى قتله مصلحةٌ عظيمةٌ تربو على بقاء مهجته؛ صيانةً لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيدٌ من اللَّه بعصمته، وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه. وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضًا. الرابع أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلى قال بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ [الكهف: ٨٢]. يعنى: ما فعلته من تلقاء نفسى بل أُمرت به وأُوحى إلى فيه فدلت هذه الوجوه على نبوته. ولا يُنافى ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته كما قال آخرون: وأما كونه ملكًا من الملائكة فغريبٌ جدًّا. وإذا ثبت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته - وأن الولى قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر - مستندٌ يستندون إليه، ولا معتمدٌ يعتمدون عليه.

وأما الخلاف فى وجوده إلى زماننا هذا فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم،

قيل: لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة. وقيل: لأنه شرب من عين الحياة فحيى.

وذكروا أخبارًا استشهدوا بها على بقائه إلى الآن، وسنوردها إن شاء اللَّه تعالى، وبه الثقة وهذه وصيته لموسى حين ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]. روى فى ذلك آثارٌ منقطعةٌ كثيرةٌ.

قال البيهقى: أنبأنا أبو سعيد بن أبى عمرو حدثنا أبو عبد اللَّه الصفار حدثنا أبو بكر ابن أبى الدنيا حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا جريرٌ حدثنى أبو عبد اللَّه الملطى قال: لما أراد موسى أن يُفارق الخضر قال له موسى: أوصنى. قال: كن نفَّاعًا ولا تكن ضرَّارًا كن بشَّاشًا ولا تكن غضبان، ارجع عن اللجاجة، ولا تمش فى غير حاجةٍ. وفى روايةٍ من طرق أخرى زيادة: ولا تضحك إلا من عجبٍ.

وقال وهب بن منبهٍ: قال الخضر: يا موسى إن الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها. وقال بشر بن الحارث الحافى: قال موسى للخضر: أوصنى. فقال: يسر اللَّه عليك طاعته. وقد ورد فى ذلك حديثٌ مرفوعٌ رواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى الوقار إلا أنه من الكذابين الكبار. قال: قرئ على عبد اللَّه بن وهبٍ وأنا أسمع قال الثورى: قال مجالدٌ: قال أبو الوداك: قال أبو سعيدٍ الخدرى: قال عمر ابن الخطاب: قال: قال رسول اللَّه ﷺ: قال أخى موسى: يا رب ذكر كلمة فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها فقال: السلام عليك ورحمة اللَّه يا موسى بن عمران إن ربك يقرأ عليك السلام قال موسى: هو السلام وإليه السلام والحمد للَّه رب العالمين الذى لا أحصى نعمه ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته. ثم قال موسى: أريد أن توصينى بوصيةٍ ينفعنى اللَّه بها بعدك. فقال الخضر: يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع فلا تُمل جلساءك إذا حدثتهم، واعلم أن قلبك وعاءٌ فانظر ماذا تحشو به وعاءك؟ واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك، فإنها ليست لك بدارٍ، ولا لك فيها محل قرارٍ.

وإنما جعلت بلغةً للعباد والتزود منها ليوم المعاد. ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده فإنما العلم لمن تفرغ له، ولا تكن مكثارًا بالمنطق مهدارًا؛ فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدى مساوى السخفاء ولكن عليك بالاقتصاد فإن ذلك من التوفيق والسداد. وأعرض عن الجهال وباطلهم وأحلم عن السفهاء فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء، إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلمًا، وجانبه حزمًا؛ فإن ما بقى من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم. يا ابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً؛ فإن الاندلاث والتعسف من الاقتحام

والتكلف. يا ابن عمران لا تفتحن بابًا لا تدرى ما غلقه ولا تغلقن بابًا لا تدرى ما فتحه. يا ابن عمران من لا ينتهى من الدنيا نهمته، ولا تنقضى منها رغبته كيف يكون عابدًا من يحقر حاله، ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهدًا؟ هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه؛ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه؟! يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به، ولا تعلمه لتحدث به، فيكون عليك بواره ولغيرك نوره. يا موسى بن عمران اجعل الزهد والتقوى لباسك والعلم والذكر كلامك واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يُرضى ربك واعمل خيرًا فإنك لا بد عاملٌ سوءًا قد وعظت إن حفظت. قال: فتولى الخضر وبقى موسى محزونًا مكروبًا يبكى.

لا يصح هذا الحديث وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقار المصرى كذبه غير واحدٍ من الأئمة، والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه. وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى ثنا عمرو بن إسحاق بنَ إبراهيم بن العلاء الحمصى حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندى حدثنا بقية بن الوليد عن محمد بن زيادٍ عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا أحدثكم عن الخضر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: بينا هو ذات يوم يمشى فى سوق بنى إسرائيل أبصره رجل مكاتب، فقال: تصدق على بارك الله فيك فقال الخضر: آمنت بالله ما شاء الله من أمرٍ يكون ما عندى شىءٍ أعطيكه. فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقتَ على فإنى نظرت السيماء فى وجهك، ورجوت البركة عندك. فقال الخضر: آمنت بالله ما عندى من شىء أُعطيكه، إلا أن تأخذنى فتبيعنى. فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: نعم، الحق أقول لقد سألتنى بأمر عظيم، أما إنى لا أُخيبك بوجه ربى، بعنى، قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهمٍ فمكث عند المشترى زمانًا لا يستعمله فى شىءٍ فقال له: إنك إنما ابتعتنى التماسَ خيرٍ عندى فأوصنى بعمل قال: أكره أن أشق عليك إنك شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ. قال: ليس تشق على قال: فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفرٍ فى يومٍ، فخرج الرجل لبعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة فى ساعةٍ فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه ثم عرض للرجل سفرٌ فقال: إنى أحسبك أمينا، فاخلفنى فى أهلى خلافةً حسنةً. قال: فأوصنى بعملٍ قال: إنى أكره أن أشق عليك قال: ليس تشق على. قال: فاضرب من اللبن لبيتى حتى أقدم عليك. فمضى الرجل لسفره، فرجع وقد شيد بناءه فقال: أسألك بوجه الله ما سببك وما أمرك؟ فقال: سألتنى بوجه الله والسؤال بوجه الله أوقعنى فى العبودية سأخبرك من أنا؟ أنا الخضر الذى سمعت به سألنى مسكينٌ صدقةً فلم يكن عندى شىءٌ أعطيه،

فسألنى بوجه اللّه فأمكنته من رقبتى، فباعنى وأخبرك أنه من سُئل بوجه اللّه فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلده لا لحم له، ولا عظم يتقعقع، فقال الرجل: آمنت بالله شققت عليك يا نبى اللّه ولم أعلم، فقال: لا بأس أحسنت وأبقيت. فقال الرجل: بأبى وأمى يا نبى اللّه احكم فى أهلى ومالى بما أراك اللّه، أو أخيرك فأخلى سبيلك. فقال: أحب أن تُخلى سبيلى فأعبد ربى فخلى سبيله، فقال الخضر: الحمد للّه الذى أوقعنى فى العبودية ثم نجانى منها». وهذا حديثٌ رفعه خطأً، والأشبه أن يكون موقوفًا وفى رجاله من لا يعرف فاللّه أعلم[1].

وقد رواه ابن الجوزى فى كتابه: «عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر» من طريق عبدالوهاب بن الضحاك وهو متروكٌ عن بقية. وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناده إلى السدى أن الخضر وإلياس كانا أخوين، وكان أبوهما ملكًا فقال إلياس: لأبيه إن أخى الخضر لا رغبة له فى الملك فلو أنك زوجته؛ لعله يجىء منه ولدٌ يكون الملك له. فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكرٍ فقال لها الخضر: إنه لا حاجة لى فى النساء، فإن شئت اطلقت سراحك، وإن شئت أقمت معى تعبدين اللّه عز وجل وتكتمين على سرى فقالت: نعم وأقامت معه سنة فلما مضت السنة دعاها الملك فقال: إنك شابةٌ وابنى شابٌ فأين الولد؟ فقالت: إنما الولد من عند اللّه إن شاء كان ولن لم يشأ لم يكن فأمره أبوه فطلقها، وزوجه بأخرى ثيبًا قد ولد لها، فلما زُفت إليه قال لها كما قال للتى قبلها فأجابت إلى الإقامة عنده، فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد فقالت: إن ابنك لا حاجة له فى النساء. فتطلبه أبوه فهرب، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه فيقال: إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره فهرب من أجل ذلك وأُطلق سراح الأخرى فأقامت تعبد اللّه فى بعض نواحى تلك المدينة فمر بها رجلٌ يومًا فسمعته يقول: بسم اللّه. فقالت له: أنى لك هذا الاسم؟ فقال: إنى من أصحاب الخضر. فتزوجته فولدت له أولادًا، ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون فبينما هى يوما تمشطها؛ إذ وقع المشط من يدها فقالت: بسم الله فقالت ابنة فرعون: أبى؟ فقالت: لا ربى وربك ورب أبيك اللّه. فأعلمت أباها فأمر ببقرة من نحاسٍ، فأُحميت ثم أُمر بها فأُلقيت فيها، فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها فقال لها ابنٌ معها صغيرٌ: يا أمه اصبرى فإنك على الحق. فألقت نفسها فى النار، فماتت رحمها اللّه تعالى.

وقد روى ابن عساكر عن أبى داود الأعمى نُفيعٍ وهو كذابٌ وضاعٌ عن أنس بن

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٨/ ١١٢/ ٧٥٣٠] وقال الهيثمى فى المجمع [٨/ ٢١٣]: ورجاله موثقون إلا أن بقية مدلس.

مالكٍ ومن طريق كثير بن عبد اللَّه بن عمرو بن عوفٍ وهو كذابٌ أيضًا عن أبيه عن جده أن الخضر جاء ليلةً فسمع النبى ﷺ كلامه وهو يدعو ويقول: اللهم أعنى على ما ينجينى مما خوفتنى وارزقنى شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه. فبعث إليه رسول اللَّه أنس بن مالكٍ فسلم عليه فرد عليه السلام وقال له: قل له: إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره. الحديث، وهو مكذوبٌ لا يصح سندًا ولا متنًا؛ كيف لا يتمثل بين يدى رسول اللَّه ﷺ ويجىء بنفسه مسلمًا ومتعلمًا وهم يذكرون فى حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتى إليهم ويسلم عليهم ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم اللَّه الذى اصطفاه اللَّه فى ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى بنى إسرائيل.

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادى بعد إيراده حديث أنسٍ هذا: وأهل الحديث متفقون على أنه حديثٌ منكر الإسناد، سقيم المتن، يتبين فيه أثر الصنعة. فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى قائلاً: أخبرنا أبو عبد اللَّه الحافظ أخبرنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن بشر بن مطرٍ حدثنا كامل بن طلحة حدثنا عباد ابن عبد الصمد عن أنس بن مالكٍ قال: «لما قُبض رسول اللَّه ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله، واجتمعوا، فدخل رجلٌ أشهب اللحية جسيمٌ صبيحٌ، فتخطى رقابهم فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقال: «إن فى اللَّه عزاءً من كل مصيبةٍ، وعِوضًا من كل فائتٍ، وخلفًا من كل هالكٍ، فإلى اللَّه فأنيبوا، وإليه فارغبوا، ونظرة إليكم فى البلاء فانظروا، فإن المصاب من لم يجبر. وانصرف فقال بعضهم لبعضٍ: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكرٍ وعلى: نعم هو أخو رسول اللَّه ﷺ الخضر عليه السلام»[1].

وقد رواه أبو بكرٍ بن أبى الدنيا عن كامل بن طلحة به وفى متنه مخالفةٌ لسياق البيهقى، ثم قال البيهقى: عباد بن عبد الصمد ضعيفٌ وهذا منكرٌ بمرةٍ. قلت: عباد بن عبد الصمد هذا هو أبو معمرٍ البصرى؛ روى عن أنسٍ نسخةً.

قال ابن حبان والعقيلى: أكثرها موضوعٌ. وقال البخارى: منكر الحديث وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث جدًا منكره. وقال ابن عدىً: عام ما يرويه فى فضائل علىٍّ وهوَ ضعيفٌ غالٍ فى التشيع.

وقال الشافعى فى «مسنده»: أخبرنا القاسم بن عبد اللَّه بن عمر عن جعفر ابن محمدٍ عن أبيه عن جده على بن الحسين قال: لما توفى رسول اللَّه ﷺ وجاءت

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [٣/ ٥٨].

التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن فى اللَّه عزاءً من كل مصيبةٍ وخلفًا من كل هالكٍ، ودركًا من كل فائتٍ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب. قال على بن الحسين: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر. شيخ الشافعى القاسم العمرى متروكٌ. قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين: يكذب. زاد أحمد: ويضع الحديث. ثم هو مرسلٌ ومثله لا يعتمد عليه ههنا واللَّه أعلم.

وقد روى من وجهٍ آخر ضعيفٍ عن جعفر بن محمدٍ عن أبيه عن جده عن أبيه عن علىٍّ ولا يصح. وقد روى عبد اللَّه بن وهبٍ عمن حدثه عن محمد بن عجلان عن محمد بن المنكدر أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلى على جنازةٍ إذ سمع هاتفًا وهو يقول: لا تسبقنا يرحمك اللَّه. فانتظره حتى لحق بالصف فذكر دعاءه للميت؛ إن تعذبه فكثيرًا عصاك، وإن تغفر له ففقيرٌ إلى رحمتك. ولما دفن قال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيًا أو خازنًا أو كاتبًا أو شرطيًّا فقال عمر: خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو. قال: فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراعٌ. فقال عمر: هذا واللَّه الخضر الذى حدثنا عنه رسول اللَّه ﷺ وهذا الأثر فيه مبهمٌ وفيه انقطاعٌ ولا يصح مثله.

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثورى عن عبد اللَّه بن المحرر عن يزيد بن الأصم عن على بن أبى طالبٍ قال: دخلت الطواف فى بعض الليل، فإذا أنا برجلٍ متعلقٍ بأستار الكعبة، وهو يقول: يا من لا يمنعه سمعٌ من سمعٍ، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين، ولا مسألة السائلين، ارزقنى برد عفوك، وحلاوة رحمتك. قال: فقلت: أعد على ما قلت فقال لى: أو سمعته؟ قلت: نعم فقال لى: والذى نفس الخضر بيده - قال وكان هو الخضر - لا يقولها عبدٌ خلف صلاةٍ مكتوبةٍ. إلا غفر اللَّه له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم؛ لغفرها اللَّه له. وهذا ضعيفٌ من جهة عبد اللَّه بن المحرر؛ فإنه متروكُ الحديث ويزيد بن الأصم لم يدرك عليًا ومثل هذا لا يصح واللَّه أعلم.

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذى: حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا صالح بن أبى الأسود عن محفوظ بن عبد اللَّه الحضرمى عن محمد بن يحيى قال: بينما على بن أبى طالبٍ يطوف بالكعبة إذا هو برجلٍ متعلقٍ بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ويا من لا يغلطه السائلون، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين، أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال: فقال له علىٌّ: يا عبد اللَّه أعد دعاءك هذا. قال: أوَ قد سمعته؟ قال: نعم قال: فادع به فى دبر كل صلاةٍ، فوالذى نفس الخضر بيده لو كانت عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الأرض وترابها لغفر لك

أسرع من طرفة عينٍ. وهذا أيضًا منقطعٌ وفي إسناده من لا يُعرف، واللَّه أعلم.

وقد أورد ابن الجوزي من طريق أبي بكرٍ بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن يوسف حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه ثم قال: وهذا إسنادٌ مجهولٌ منقطعٌ وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أنبأنا أبو القاسم بن الحصين أنبأنا أبو طالبٍ محمد بن محمدٍ أنبأنا أبو إسحاق المزكي حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن أحمد بن زيد أمله علينا بعبادان أنبأنا عمرو بن عاصم حدثنا الحسن بن رزين عن ابن جريجٍ عن عطاءٍ عن ابن عباسٍ - قال: ولا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبي ﷺ - قال: يلتقي الخضر وإلياس كل عامٍ في الموسم فيحلق كل واحدٍ منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات: بسم اللَّه ما شاء اللَّه لا يسوق الخير إلا اللَّه ما شاء اللَّه لا يصرف الشر إلا اللَّه ما شاء اللَّه ما كان من نعمةٍ فمن اللَّه ما شاء اللَّه لا حول ولا قوة إلا باللَّه. قال: وقال ابن عباسٍ: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مراتٍ آمنه اللَّه من الغرق والحرق والسرق. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان، والسلطان، والحية، والعقرب.

قال الدارقطني في «الأفراد»: هذا حديثٌ غريبٌ من حديث ابن جريجٍ لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه. يعني الحسن بن رزين هذا وقد روى عنه محمد بن كثيرٍ العبدي أيضًا، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي ليس بالمعروف. وقال الحافظ أبو جعفرٍ العقيلي: مجهولٌ وحديثه غير محفوظٍ وقال أبو الحسين بن المنادي: هو حديثٌ واهٍ بالحسن بن رزين.

وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحسن الجهضمي وهو كذابٌ عن ضمرة بن حبيبٍ المقدسي عن أبيه عن العلاء بن زيادٍ القشيري عن عبد اللَّه بن الحسن عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالبٍ مرفوعًا قال: يجتمع كل يوم عرفة بعرفاتٍ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، والخضر. وذكر حديثًا طويلاً موضوعًا تركنا إيراده قصدًا ولله الحمد.

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالدٍ عن الحسن بن يحيى الخشني عن ابن أبي رواد قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان في كل سنةٍ ويشربان من ماء زمزم شربةً واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابلٍ.

وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان باني جامع دمشق أحب أن يتعبد ليلةً في المسجد فأمر القومة أن يخلوه له ففعلوا فلما كان من الليل جاء من

باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجلٌ قائمٌ يصلى فيما بينه وبين باب الخضراء فقال للقومة: ألم آمركم أن تخلوه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجىء كل ليلةٍ يصلى ههنا. وقال ابن عساكر أيضًا: أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطبرى أنبأنا أبو الحسين بن الفضل أنبأنا عبد اللّه بن جعفرٍ حدثنا يعقوب - هو ابن سفيان - الفسوى حدثنى محمد بن عبد العزيز حدثنا ضمرة عن السرى بن يحيى عن رياح بن عبيدة قال: رأيت رجلاً يُماشى عمر بن عبد العزيز معتمدًا على يديه، فقلت فى نفسى: إن هذا الرجل جاف. قال: فلما انصرف من الصلاة: قلت: من الرجل الذى كان معتمدا على يدك آنفًا؟ قال: وهل رأيته يا رياح؟ قلت: نعم. قال: ما أحسبك إلا رجلاً صالحًا. ذاك أخى الخضر بشرنى أنى سألى وأعدل قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى: الرملى مجروحٌ عند العلماء. وقد قدح أبو الحسين بن المنادى فى ضمرة والسرى ورياح ثم أورد من طرقٍ أخرى، عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر. وضعفها كلهاَ. وروى ابن عساكر أيضًا أنه اجتمع بإبراهيم التيمى وبسفيان ابن عيينة وجماعةٍ يطول ذكرهم.

وهذه الروايات والحكايات هى عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم. وكلٌّ من الأحاديث المرفوعة ضعيفةٌ جدًا لا يقوم بمثلها حجة فى الدين. والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف فى الإسناد وقصاراها أنها صحيحةٌ إلى من ليس بمعصومٍ؛ من صحابى أو غيره؛ لأنه يجوز عليه الخطأ واللّه أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمرٌ عن الزهرى أخبرنى عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة أن أبا سعيدٍ الخدرى قال: حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثًا طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا به أن قال: يأتى الدجال - وهو محرمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة - فيخرج إليه يومئذٍ رجلٌ هو خير الناس - أو من خير الناس فيقول: أشهد أنك الدجال الذى حدثنا عنك رسول اللّه ﷺ حديثه. فيقول الدجال: أرأيت إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون فى الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: واللّه ما كنت قط أشد بصيرةً منى اليوم. فيقول الدجال: أقتله فلا أسلط عليه. قال معمرٌ: بلغنى أنه يجعل على حلقه صحيفةً من نحاسٍ وبلغنى أنه الخضر الذى يقتله الدجال ثم يحييه. وهذا الحديث مخرجٌ فى «الصحيحين» من حديث الزهرى به[(١)].

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوى عن مسلم: الصحيح أن يقال: إن هذا الرجل الخضر. وقول معمرٍ وغيره: بلغنى ليس فيه حجّةٌ

(١) رواه البخارى [١٨٨٢، ٧١٣٢]، ومسلم [٢٩٣٨/ ١١٢].

وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث: فيأتي بشابٍّ ممتلئ شبابًا فيقتله[1]. وقوله: الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضي المشافهة بل يكفي التواتر.

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه: «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعاتٌ ومن الآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد.

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات، ومنهم البخاري، وإبراهيم الحربي وأبو الحسين ابن المنادي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي وقد انتصر لذلك وصنف فيه كتابًا سماه: «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» فيحتج لهم بأشياء كثيرةٍ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. فالخضر إن كان بشرًا فقد دخل في هذا العموم لا محالة ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليلٍ صحيحٍ. والأصل عدمه حتى يثبت ولم يذكر ما فيه دليلٌ على التخصيص عن معصوم يجبُ قبوله. ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمدٌ وهو حيٌ ليؤمنن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق: لئن بُعث محمدٌ وهم أحياءٌ ليؤمنن به ولينصرنه ذكره البخاري عنه. فالخضر إن كان نبيًا أو وليًا فقد دخل في هذا الميثاق فلو كان حيًا في زمن رسول الله ﷺ؛ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره إن وصل أحدٌ من الأعداء إليه؛ لأنه إن كان وليًا فالصديق أفضل منه، وإن كان نبيًا فموسى أفضل منه.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده»: حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشيمٌ أنبأنا مجالدٌ عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني. وهذا الذي يُقطع به ويُعلم من الدين علم الضرورة، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة؛ أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياءٌ في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلهم أتباعًا له، وتحت أوامره، وفي عموم شرعه، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء، رفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس، وحانت الصلاة؛ أمره جبريل عن أمر الله أن

---

(١) رواه مسلم [٢٩٣٧/ ١١٠]، وابن ماجه [٤٠٧٥]، والترمذي [٢٢٤٠].

يؤمهم فصلى بهم فى محل ولايتهم، ودار إقامتهم فدل على أنه الإمام الأعظم والرسول الخاتم المبجل المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. فإذا علم هذا - وهو معلومٌ عند كل مؤمنٍ - علم أنه لو كان الخضر حيًا لكان من جملة أمة محمدٍ ﷺ وممن يقتدى بشرعه لا يسعه إلا ذلك. هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أُولى العزم الخمسة المرسلين، وخاتم أنبياء بنى إسرائيل. ومعلوم أن الخضر لم يُنقل بسندٍ صحيحٍ ولا حسنٍ تسكن النفس إليه، أنه اجتمع برسول الله ﷺ فى يومٍ واحدٍ، ولم يشهد معه قتالاً فى مشهدٍ من المشاهد، وهذا يوم بدرٍ يقول الصادقُ المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل واستنصره واستفتحه على من كفره: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد بعدها فى الأرض[1].

وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذٍ وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام كما قال حسان بن ثابتٍ فى قصيدةٍ له فى بيتٍ يقال إنه أفخر بيتٍ قالته العرب:

وببئر بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حيًا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته.

قال القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلى: سئل بعض أصحابنا عن الخضر: هل مات؟ فقال: نعم. قال: وبلغنى مثل هذا عن أبى طاهرٍ بن الغبارى قال: وكان يحتج بأنه لو كان حيًا لجاء إلى رسول الله ﷺ نقله ابن الجوزى فى «العجالة» فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضرًا فى هذه المواطن كلها، ولكن لم يكن أحدٌ يراه. فالجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذى يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات، ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء؟ وظهوره أعظم لأجره، وأعلى فى مرتبته وأظهر لمعجزته. ثم لو كان باقيًا بعده، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية وقتاله مع المسلمين فى غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم وتسديده العلماء والحكام وتقريره الأدلة والأحكام أفضل ما يقال عنه من كنونه فى الأمصار وجوبه الفيافى والأقطار واجتماعه بعبادٍ لا يُعرف أحوال كثيرٍ منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذى ذكرناه لا يتوقف أحدٌ فيه بعد التفهم والله

---

(١) رواه مسلم [١٧٦٣/٥٨]، والترمذى [٣٠٨١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ومن ذلك ما ثبت فى «الصحيحين» وغيرهما عن عبد اللّه ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ صلى ليلةً العشاء، ثم قال: «أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإنه إلى مائة سنةٍ لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحدٌ».

وفى روايةٍ: «عين تطرف»(١). قال ابن عمر: فوهل الناس فى مقالة رسول اللّه ﷺ هذه وإنما أراد انخرام قرنه»(٢).

قال الامام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن الزهرى قال: أخبرنى سالم بن عبد اللّه وأبو بكر بن سليمان بن أبى حثمة أن عبد اللّه بن عمر قال: صلى رسول اللّه ﷺ ذات ليلةٍ صلاة العشاء فى آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنةٍ لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحدٌ»(٣). وأخرجه البخارى ومسلمٌ من حديث الزهرى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى عن سليمان يعنى: التيمى عن أبى نضرة عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ قبل موته بقليل أو بشهرٍ: «ما من نفسٍ منفوسةٍ - أو: ما منكم من نفسٍ اليوم منفوسةٍ - يأتى عليها مائة سنةٍ وهى يومئذٍ حيةٍ»(٤). وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبى الزبير عن جابرٍ عن النبى ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهرٍ: «يسألوننى عن الساعة وإنما علمها عند اللّه أقسم باللّه ما على الأرض نفسٌ منفوسةٌ اليوم يأتى عليها مائة سنةٍ».

وهكذا رواه مسلمٌ من طريق أبى نضرة وابن الزبير كل منهما عن جابر بن عبد اللّه به نحوه(٥).

وقال الترمذى: حدثنا هناد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابرٍ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما على الأرض نفسٌ منفوسةٌ يأتى عليها مائة سنةٍ»(٦). وهذا أيضا على شرط مسلم قال ابن الجوزى: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر. قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول اللّه

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير [١٧/٢٤٨/٦٩٣] ورجاله ثقات.

(٢) رواه البخارى [٦٠١]، ومسلم [٢٥٣٧/٢١٧]، والترمذى [٢٢٥١]، وأبو داود [٤٣٤٨]، والنسائى فى الكبرى [٥٨٧١].

(٣) رواه البخارى [١١٦]، ومسلم [٢٥٣٧/٢١٧]، وأحمد فى المسند [٢/٨٨].

(٤) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٣٠٥، ٣٠٦] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبى نضرة فمن رجال مسلم.

(٥) رواه مسلم [٢٥٣٨/٢١٨]، وأحمد فى المسند [٣/ ٣٤٥] واللفظ له.

(٦) رواه الترمذى [٢٢٥٠] وصححه الألبانى.

ﷺ كما هو المظنون الذى يترقى فى القوى إلى القطع فلا إشكال. وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضى أنه لم يعش بعده مائة سنةٍ فيكون الآن مفقودًا لا موجودًا؛ لأنه داخلٌ فى هذا العموم، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليلٍ صحيحٍ يجب قبوله. والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتابه: «التعريف والإعلام» عن البخارى وشيخه أبى بكرٍ بن العربى أنه أدرك حياة النبى ﷺ ولكن مات بعده؛ لهذا الحديث. وفى كون البخارى رحمه الله يقول بهذا وأنه بقى إلى زمان النبى ﷺ نظرٌ. ورجح السهيلى بقاءه، وحكاه عن الأكثرين؛ قال: وأما اجتماعه مع النبى ﷺ وتعزيته لأهل البيت فمروى من طرقٍ صحاحٍ.

ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ولم يورد أسانيدها والله أعلم.

☆☆☆

وأما إلياس
عليه السلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات].

قال علماء النسب: هو إلياس بن تسبى ويقال بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران قالوا: وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلاً. وقيل: كانت امرأة اسمها بعلٌ. والأول أصح. ولهذا قال لهم:

﴿إِذْ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات]. فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم.

قال أبو يعقوب الأذرعى عن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمارٍ قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال: إن إلياس اختبأ من ملك قومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولى غيره فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم، وأسلم من قومه خلقٌ عظيمٌ غير عشرة آلافٍ منهم فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو محمدٍ القاسم بن هاشم حدثنا عمر بن سعيدٍ الدمشقى حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشقَ قال: أقام إلياس عليه السلام هاربًا من قومه فى كهف جبلٍ عشرين ليلةً أو قال: أربعين ليلةً تأتيه الغربان برزقه.

وقال محمد بن سعدٍ كاتب الواقدى: أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال: أول نبىٍّ بعث إدريس، ثم نوحٌ ثم إبراهيم ثم إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوطٌ، ثم هود، ثم صالحٌ، ثم شعيبٌ، ثم موسى، وهارون ابنا عمران، ثم إلياس بن تسبى بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. هكذا قال وفى هذا الترتيب نظرٌ وقال

مكحولٌ عن كعبٍ: أربعة أنبياء أحياءٌ اثنان فى الأرض: إلياس والخضر، واثنان فى السماء: إدريس وعيسى.

وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان فى كل عام فى شهر رمضان ببيت المقدس وأنهما يحجان كل سنةٍ ويشربان من زمزم شربةً تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل. وأوردنا الحديث الذى فيه أنهما يجتمعان بعرفاتٍ كل سنةٍ، وبينا أنه لم يصح شىءٌ من ذلك، وأن الذى يقوم عليه الدليل: أن الخضر مات وكذلك إلياس عليهما السلام. وما ذكره وهب بن منبهٍ وغيره؛ أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه فجاءته دابةٌ لونها لون النار فركبها وجعل الله له ريشًا وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار ملكيًا بشريًا سماويًا أرضيا وأوصى إلى اليسع ابن أخطوب، ففى هذا نظرٌ، وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدةٌ والله أعلم.

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكرٍ البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنى أبو العباس أحمد بن سعيدٍ المعدانى ببخارى حدثنا عبد الله بن محمودٍ حدثنا عبدان بن سنانٍ حدثنى أحمد بن عبد الله البرقى حدثنا يزيد بن يزيد البلوى حدثنا أبو إسحاق الفزارى عن الأوزاعى عن مكحول عن أنس بن مالكٍ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفرٍ فنزلنا منزلاً فإذا رجل فى الوادى يقول: اللهم اجعلنى من أمة محمدٍ ﷺ المرحومة المغفورة المثاب لها. قال: فأشرفت على الوادى فإذا رجلٌ طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع فقال لى: من أنت؟ فقلت: أنس بن مالكٍ خادم رسول الله ﷺ قال: فأين هو؟ قلت: هو ذا يسمع كلامك. قال: فأته فأقرئه السلام وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام. قال: فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم، ثم قعدا يتحدثان فقال له: يا رسول الله إنى ما آكل فى سنةٍ إلا يومًا، وهذا يوم فطرى فآكل أنا وأنت. قال: فنزلت عليهما مائدةٌ من السماء عليها خبزٌ وحوتٌ وكرفسٌ فأكلا وأطعمانى وصلينا العصر، ثم ودعه ورأيته مر فى السحاب نحو السماء. فقد كفانا البيهقى أمره، وقال هذا حديثٌ ضعيفٌ بمرةٍ. والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابورى أخرجه فى «مستدركه على الصحيحين» وهذا مما يستدرك به على «المستدرك» فإنه حديثٌ موضوعٌ مخالفٌ للأحاديث الصحاح من وجوهٍ. ومعناه لا يصح أيضًا فقد تقدم فى «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا فى السماء، إلى أن قال: ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[1].

(١) تقدم تخريجه.

وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذى ذهب إليه. وهذا لا يصح؛ لأنه كان أحق بالسعى بين يدى خاتم الأنبياء.

وفيه أنه يأكل فى السنة مرةً، وقد تقدم عن وهبٍ أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب، وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنةٍ شربةً تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر. وهذه أشياء متعارضةٌ وكلها باطلةٌ لا يصح شىءٌ منها.

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريقٍ أخرى واعترف بضعفها، وهذا عجبٌ منه كيف تكلم عليه فإنه أورده من طريق خير بن عرفة عن هانئ بن الحسن عن بقية عن الأوزاعى عن مكحولٍ عن واثلة الأسقع فذكر نحو هذا مطولاً وفيه أن ذلك كان فى غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالكٍ وحذيفة بن اليمان قالا: فإذا هو أعلى جسمًا منا بذراعين أو ثلاثةٍ واعتذر بعدم قدومه لئلا تنفر الإبل. وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة، وقال: إن لى فى كل أربعين يومًا أكلةً وفى المائدة خبزٌ ورمانٌ وعنبٌ وموزٌ ورطبٌ وبقلٌ ما عدا الكراث. وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال: عهدى به عام أول وقال لى: إنك ستلقاه قبلى فأقرئه منى السلام. وهذا يدل على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة، وهذا لا يسوغ شرعا وهذا موضوعٌ أيضًا. وقد أورد ابن عساكر طرقًا في من اجتمع بإلياس من العباد وكلها لا يفرح بها؛ إما لضعف إسنادها، أو لجهالة المسند إليه فيها. ومن أحسنها ما قال أبو بكرٍ بن أبى الدنيا: حدثنى بشر بن معاذٍ حدثنا حماد بن واقدٍ عن ثابتٍ قال: كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطًا أصلى فيه ركعتين فافتتحت ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۝٣﴾ [غافر]. فإذا رجلٌ من خلفى على بغلةٍ شهباء عليه مقطعاتٌ يمنيةٌ فقال لى: إذا قلت: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لى ذنبى. وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] فقل: يا قابل التوب تقبل توبتى وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]. فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبنى وإذا قلت: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فقل: يا ذا الطول تطوّل علىّ برحمةٍ. فالتفت فإذا لا أحد وخرجت فسألت: مر بكم رجلٌ على بغلةٍ شهباء عليه مقطعاتٌ يمنيةٌ؟ فقالوا: ما مر بنا أحدٌ فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧]. أى: للعذاب؛ إما فى الدنيا والآخرة، أو فى الآخرة، والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٢٨]. أى: إلا من آمن منهم وقوله:

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٩]. أي: ابقينا بعده ذكرًا حسنًا له في العالمين فلا يذكر إلا بخيرٍ ولهذا قال: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٠]. أي: سلامٌ على إلياس. العرب تلحق النون في أسماءٍ كثيرةٍ وتبدلها من غيرها كما قالوا: إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين وإلياس وإلياسين. ومن قرأ: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ أي: على آل محمدٍ وقرأ ابن مسعودٍ وغيره: سلام على إدراسين. ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعودٍ أنه قال: إلياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله تعالى أعلم بالصواب.

☆☆☆

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام. قال ابن جرير فى «تاريخه»: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم؛ أن القيم بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا. يعنى أحد أصحاب موسى عليه السلام، وهو زوج أخته مريم وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب، وهما القائلان لبنى إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن جرير: ثم من بعده كان القائم بأمور بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى. وهو الذى دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت.

☆☆☆

قصة حزقيل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبهٍ: إن كالب ابن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى وهو ابن العجوز وهو الذى دعا للقوم الذين ذكرهم الله فى كتابه فيما بلغنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال ابن إسحاق: فروا من الوباء فنزلوا بصعيدٍ من الأرض فقال لهم الله: موتوا فماتوا جميعًا، فحظروا عليهم حظيرةً دون السباع فمضت عليهم دهورٌ طويلةٌ فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكرًا فقيل له: أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال: نعم. فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحمًا وأن يتصل العصب بعضه ببعضٍ. فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجلٍ واحدٍ. وقال أسباط عن السدى عن أبى مالكٍ وعن أبى صالح عن ابن عباسٍ وعن مرة عن ابن مسعودٍ وعن أناسٍ من الصحابة فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. قالوا: كانت قريةٌ يقال لها: «داوردان» قبل «واسط» وقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحيةً منها فهلك من بقى فى القرية وسلم الآخرون، فلم يمت منهم كثيرٌ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا، ولئن وقع الطاعون ثانيةً لنخرجن معهم، فوقع فى قابلٍ فهربوا وهم بضعةٌ وثلاثون ألفًا حتى نزلوا ذلك المكان وهو وادٍ أفيح، فناداهم ملكٌ من أسفل الوادى وآخر من أعلاه: أن موتوا فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبىٌ يقال له: حزقيل فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه فأوحى الله إليه: تريد أن أُريك كيف أحييهم؟ قال: نعم. وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم، فقيل له: ناد. فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى. فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعضٍ حتى كانت أجسادًا من عظام ثم أوحى الله إليه أن ناد: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحمًا فاكتست لحمًا ودمًا وثيابها التى ماتت فيها ثم قيل له: ناد. فنادى: أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى فقاموا قال أسباط: فزعم منصورٌ عن مجاهدٍ أنهم قالوا حين

أحيوا: سبحانك ربنا وبحمدك لا اله إلا أنت. فرجعوا إلى قومهم أحياءً يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبًا إلا عاد كفنًا دسمًا حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم. وعن ابن عباسٍ أنهم كانوا أربعة آلافٍ. وعنه: ثمانيه آلافٍ وعن أبى صالحٍ تسعة آلافٍ. وعن ابن عباسٍ أيضًا: كانوا أربعين ألفًا. وعن سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعاتٍ. وقال ابن جريجٍ عن عطاءٍ: هذا مثلٌ يعنى أنه سيق مثلًا مبينًا أنه لن يُغنى حذرٌ من قدرٍ. وقول الجمهور أقوى أن هذا وقع.

وقد روى الإمام أحمد وصاحبا «الصحيح» من طريق الزهرى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباسٍ أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام فذكر الحديث. - يعنى فى مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه - فجاءه عبد الرحمن بن عوفٍ وكان متغيبًا ببعض حاجته فقال: إن عندى من هذا علمًا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه وإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه قال: فحمد الله عمر ثم انصرف»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاجٌ ويزيد المعنى قالا: أنا ابن أبى ذئب عن الزهرى عن سالمٍ عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو فى الشام عن النبى ﷺ: «إن هذا السقم عُذب به الأمم قبلكم فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه. قال: فرجع عمر من الشام». وأخرجاه من حديث مالكٍ عن الزهرى بنحوه(٢).

قال محمد بن إسحاق: ولم يُذكر لنا مدة لبث حزقيل فى بنى إسرائيل، ثم إن الله قبضه إليه، فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم، وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان فى جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له: بعل فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران قلت: وقد قدمنا قصة إلياس تبعا لقصة الخضر؛ لأنهما يقرنان فى الذكر غالبًا، ولأجل أنها بعد قصة موسى فى سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك. والله أعلم. قال محمد بن إسحاق فيما ذُكر له عن وهب بن منبهٍ قال: ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيهُ اليسع بن أخطوب عليه السلام.

☆☆☆

(١) البخارى [٥٧٢٩]، ومسلم [٢٢١٩/٩٨]، وأحمد فى المسند [١/ ١٩٤].
(٢) البخارى [٥٧٣٠، ٦٩٧٣]، ومسلم [٢٢١٩/٩٨]، وأحمد المسند [١/١٩٣].

قصة اليسع
عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨].

قال إسحاق بن بشرٍ أبو حذيفة: أنبأنا سعيدٌ عن قتادة عن الحسن قال: كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله، مستمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء وكان فيهم ملكٌ جبار عنيدٌ طاغٍ، ويقال: إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب وراجع دخل الجنة؛ فسمى ذو الكِفل. قال محمد بن إسحاق: هو اليسع بن أخطوب.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف الياء من «تاريخه» اليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام ويقال: كان مستخفيًا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها، فلما رفع إلياس خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبهٍ قال: وقال غيره: كان الأسباط ببانياس ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ: ﴿ وَالْيَسَعَ ﴾ بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ: الليسع وهو اسمٌ واحدٌ لنبىٍّ من الأنبياء: قلت: قد قدمنا قصة ذى الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام لأنه قد قيل: إنه ابن أيوب فالله أعلم بالصواب.

☆☆☆

فصل

قال ابن جريرٍ: وغيره ثم مرج أمر بنى إسرائيل وعظمت فيهم الأحداث الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكًا جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضًا. وكانوا إذا قاتلوا أحدًا من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذى كان فى قبة الزمان كما تقدم ذكره، فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك

آل موسى وآل هارون، فلما كان فى بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم عليه وقهروهم على أخذ، فانتزعوه من أيديهم فلما علم بذلك ملك بنى إسرائيل فى ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمدًا وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث اللَّه فيهم نبيًّا من الأنبياء يقال له: شمويل. فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا ليقاتلوا معه الأعداء فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص اللَّه فى كتابه.

قال ابن جريرٍ: فكان بين وفاة يوشع بن نونٍ إلى أن بعث اللَّه عز وجل شمويل بن بالى أربعمائة وستون سنةً. ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين مُلكوا عليهم وسماهم واحدًا واحدًا تركنا ذكرهم قصدًا.

☆☆☆

قصة شمويل
وفيها بدأ أمر داود عليهما السلام

هو شمويل - ويقال: أشمويل - بن بالى بن علقمة بن يرخام بن أليهو بن تهو ابن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا قال مقاتلٌ: وهو من ذرية هارون. وقال مجاهدٌ: هو أشمويل بن هلفاقا ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا فالله أعلم.

حكى السدى بإسناده عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وأناسٍ من الصحابة - والثعلبى - وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وسبوا من أبنائهم جمعًا كثيرًا وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأةٌ حبلى فجعلت تدعو اللّه عز وجل أن يرزقها ولدًا ذكرًا فولدت غلاما فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أى: سمع اللّه دعائى فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجلٍ صالحٍ فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان عنده فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلةٍ نائمٌ إذا صوتٌ يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورًا فظنه الشيخ يدعوه فسأله: أدعوتنى؟ فكره أن يفزعه فقال: نعم نم. فنام. ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال: إن ربك قد بعثك إلى قومك. فكان من أمره معهم ما قص اللّه فى كتابه قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا

بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة].

قال أكثر المفسرين: كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل. وقيل: شمعون وقيل: هما واحدٌ وقيل: يوشع وهذا بعيدٌ لما ذكره الإمام أبو جعفرٍ بن جريرٍ فى «تاريخه» أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة وستين سنةً فالله أعلم.

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الاعداء سألوا نبى الله فى ذلك الزمان وطلبوا منه أن يُنصب لهم ملكًا يكونون تحت طاعته؛ ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء فقال لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. أى: وأى شىء يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. يقولون: نحن محروبون موتورون فحقيقٌ لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهوبين المستضعفين فيهم المأسورين فى قبضتهم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. كما ذكر فى آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. قال الثعلبى: وهو طالوت ابن قيس بن أفيل بن صارو بن نحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل قال عكرمة والسدى: كان سقاءً وقال وهب بن منبهٍ: كان دباغًا. وقيل غير ذلك فالله أعلم؛ ولهذا ﴿ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ ﴾ [البقرة:٢٤٧]. وقد ذكروا أن النبوة كانت فى سبط لاوى وأن الملك كان فى سبط يهوذا، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا فى إمارته عليهم وقالوا: نحن أحق بالملك منه. وذكروا أنه فقيرٌ لا سعة من المال معه فكيف يكون مثل هذا ملكًا؟! ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. قيل: كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أى بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا، وإذا حضر عندك يفوز هذا القرن الذى فيه من دهن القدس، فهو ملكهم. فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحدٌ منهم على طولها سوى طالوت ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه الملك عليهم وقال لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. قيل: فى أمر

الحروب. وقيل: بل مطلقًا. ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ قيل: الطول. وقيل: الجمال والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام. ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾. فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وهذا أيضا من بركة ولاية هذا الرجل الصالح ويمنه عليهم؛ أن يرد الله عليهم التابوت الذى كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. قيل: طستٌ من ذهبٍ كان يُغسل فيه صدور الأنبياء. وقيل: السكينة مثل الريح الحجوج. وقيل: صورتها مثل الهرة إذا صرخت فى حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. قيل: كان فيه رضاض الألواح وشيءٌ من المن الذى كان نزل عليهم بالتيه. ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. أى: تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عيانًا ليكون آية للَّه عليكم وحجةً باهرةً على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وقيل: إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت، وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة - وقيل: كان فيه التوراة أيضًا - فلما استقر فى أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم فوضعوه تحته، فلما كان اليوم الثانى إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمرٌ من اللَّه تعالى فأخرجوه من بلدهم وجعلوه فى قريةٍ من قراهم، فأخذهم داءٌ فى رقابهم فلما طال عليهم هذا جعلوه فى عجلةٍ وربطوها فى بقرتين وأرسلوهما فيقال: إن الملائكة ساقتهما حتى جاؤا بهما ملأ بنى إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك. فاللَّه أعلم على أى صفةٍ جاءوا به الملائكة، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية واللَّه أعلم. وإن كان الأول قد ذكره كثيرٌ من المفسرين أو أكثرهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قال ابن عباسٍ وكثيرٌ من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن. وهو المسمى بالشريعة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبى اللَّه له عن أمر اللَّه له اختبارًا وامتحانًا؛ أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى فى هذه الغزوة ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه إلا غرفةً فى يده. قال اللَّه تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قال

السدى: كان الجيش ثمانين ألفًا فشرب منه ستةٌ وسبعون ألفًا فبقى معه أربعة آلافٍ كذا قال.

وقد روى البخارى فى «صحيحه» من حديث إسرائيل وزهيرٍ والثورى عن أبى إسحاق عن البراء بن عازبٍ قال: كنا أصحاب محمدٍ ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدرٍ على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائةٍ(١).

وقول السدى أن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفًا فيه نظرٌ؛ لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلةٍ يبلغون ثمانين ألفًا والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. أى: استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. يعنى: ثبتهم الشجعان منهم والفرسان أهل الإيمان والإيقان، الصابرون على الجلاد والجدال والطعان. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر أى يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق وأن يثبت أقدامهم فى مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال فسألوا التثبت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا ولهذا قال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]. أى: بحول الله لا بحولهم وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. فيه دلالةٌ على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه ولا أعظم من غزوةٍ يقتل فيها ملكُ عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويُدال لأولياء الله على أعدائه ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه. وقد ذكر السدى فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر

(١) رواه البخارى [٣٩٥٨].

ذكرًا كان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يحرض بنى إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول: من قتل جالوت زوجته بابنتى وأشركته فى ملكى. وكان داود عليه السلام يرمى بالقذافة - وهو المقلاع - رميًا عظيمًا فبينا هو سائرٌ مع بنى إسرائيل إذ ناداه حجرٌ أن خذنى فإن بى تقتل جالوت. فأخذه ثم حجرٌ آخر كذلك ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة فى مخلاته فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود فقال له: ارجع فإنى أكره قتلك. فقال: لكنى أحب قتلك. وأخذ تلك الأحجار الثلاثة من مخلاته فوضعها فى القذافة ثم أدارها، فصارت الثلاثة حجرًا واحدًا ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزمًا فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه فى ملكه وعَظُمَ داود عليه السلام عند بنى إسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك فلم يصل إليه وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل ثم حصل له توبةٌ وندمٌ وإقلاعٌ عما سلف منه وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكى حتى يبلَ الثرى بدموعه فنودى ذات يومٍ من الجبانة: أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياءٌ وآذيتنا ونحن أمواتٌ. فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله ثم جعل يسأل عن عالمٍ يسأله عن أمره وهل له من توبةٍ فقيل له: وهل أبقيت عالمًا؟ حتى دل على امرأةٍ منَ العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام قالوا: فدعت اللَّه فقام يوشع من قبره فقال: أقامت القيامة؟ فقالت: لا ولكن هذا طالوت يسألك: هل له من توبةٍ؟ فقال: نعم ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل فى سبيل اللَّه حتى يقتل: ثم عاد ميتًا فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا فى سبيل اللَّه حتى قتلوا قالوا: فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. هكذا ذكره ابن جريرٍ فى «تاريخه» من طريق السدى بإسناده. وفى بعض هذا نظرٌ ونكارةٌ واللَّه أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: النبى الذى بُعِثَ فأخبر طالوت بتوبته هو اليسع ابن أخطوب. حكاه ابن جريرٍ أيضًا وذكر الثعلبى انها أتت به إلى قبر أشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور.

وهذا أنسب ولعله إنما رآه فى النوم لا أنه قام من القبر حيًا فإن هذا إنما يكون معجزةً لنبىٍ وتلك المرأة لم تكن نبيةً واللَّه أعلم. قال ابن جرير: وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده كانت أربعين سنةً فالله أعلم.

☆☆☆

قصة داود
عليه السلام
وما كان في أيامه وذكر فضائله وشمائله
ودلائل نبوته وأعلامه

هو داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد اللَّه ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس.

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبهٍ: كان داود عليه السلام قصيرًا أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب نقيه. تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له - فيما ذكر ابن عساكر - عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر. فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طألوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع اللَّه له بين الملك والنبوة بين خيرى الدنيا والآخرة وكان الملك يكون في سبطٍ والنبوة في سبط آخر فاجتمع في داود هذا وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].
أي: لولا إقامة الملوك حكامًا على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم ولهذا جاء في بعض الآثار: السلطان ظل اللَّه في أرضه. وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: إن اللَّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وقد ذكر ابن جريرٍ في «تاريخه»: أن جالوت لما بارز طالوت فقال له: اخرج إلى وأخرج إليك فندب طالوت الناس، فانتدب داود فقتل جالوت.

قال وهب بن منبهٍ: فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكرٌ وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود. وقيل: إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم: أنه ولاه قبل الوقعة قال ابن جريرٍ: والذى عليه الجمهور أنه إنما ولى الملك بعد قتل جالوت واللَّه أعلم وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم، وأن النهر الذى هناك هو المذكور في الآية فالله أعلم. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء]. أعانه الله على عمل الدروع من الحديد؛ ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾ [سبأ: ١١]. أى: لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم. قاله مجاهدٌ وقتادة والحكم وعكرمة وغيرهم.

قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نارٍ ولا مطرقةٍ. قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زردٍ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعًا يبيعها بستة آلاف درهم. وقد ثبت فى الحديث الصحيح: «أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبى اللهَ داود كان يأكل من كسب يده»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص]. قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ الأيد: القوة فى الطاعة يعنى: ذا قوةٍ فى العبادة والعمل الصالح. قال قتادة: أعطى قوةً فى العبادة وفقهًا فى الإسلام. قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وقد ثبت فى «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا»[(٢)]. وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص].

كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠]. أى: سبحى معه. قاله ابن عباسٍ ومجاهدٌ وغير واحد فى تفسير هذه الآية: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. أى: عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان قد وهبه الله تعالى من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يُرجع بترجيعه ويُسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تُجيبه وتُسبح معه كلما سبَّح بكرةً وعشيًّا صلوات الله وسلامه عليه. وقال الأوزاعى: حدثنى عبد الله بن عامرٍ قال: أعطى داود من حسن الصوت ما لم يُعط أحدٌ قط حتى إن كان الطير والوحش

---

(١) رواه البخارى [٢٠٧٢] عن المقدام رضى الله تعالى عنه.

(٢) رواه البخارى [١١٣١، ٣٤١٩، ٣٤٢٠] ومسلم [١١٥٩/١٨٩] عن عبد الله ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما.

ليعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا وحتى إن الأنهار لتقف وقال وهب بن منبهٍ: كان لا يسمعه أحدٌ إلا حجل كهيئة الرقص وكان يقرأ الزبور بصوتٍ لم تسمع الأذان بمثله، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعًا.

وقال أبو عوانة الإسفراييني: حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا محمد بن منصور الطوسى سمعت صبيحًا أبا تراب قال أبو عوانة: وحدثنى أبو العباس المرى حدثنا محمد بن صالح العدوى حدثنا سيارٌ هو ابن حاتم عن جعفرٍ عن مالكٍ قال: كان داود عليه السلام إذا أخذ فى قراءة الزبور تفتقت العذارى. وهذا غريبٌ.

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج: سألت عطاءً عن القراءة على الغناء فقال: وما بأسٌ بذلك؟ سمعت عبيد بن عميرٍ يقول: كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكى ويبكى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها أن النبى ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال: «لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود»، وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه[1].

وقال أحمد: حدثنا حسنٌ حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمروٍ عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لقد أُعطى أبو موسى مزامير داود». على شرط مسلم[2].

وقد رُوينا عن أبى عثمان النهدى أنه قال: لقد سمعت البربط والمزمار فما سمعت صوتًا أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى. وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن همام عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «خُففت على داود عليه السلام القراءة، فكان يأمر بدابته فتسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»[3].

وكذلك رواه البخارى منفردًا به عن عبد اللَّه بن محمدٍ عن عبد الرزاق به ولفظه خفف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يديه. ثم قال البخارى: ورواه موسى بن عقبة عن صفوان

(١) رواه أحمد فى المسند [٦/ ١٦٧] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد اختلف فيه على الزهرى.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٥٤] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

(٣) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣١٤] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

- هو ابن سليم - عن عطاء بن يسارٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. وقد أسنده ابن عساكر فى ترجمة داودَ عليه السلام فى «تاريخه» من طرقٍ عن إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ومن طريق أبى عاصمٍ عن أبى بكرٍ السبرى عن صفوان بن سليم به[١].

والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذى أنزله عليه وأوحاه إليه. وذكر دوابه أشبه أن يكون محفوظا فإنه كان ملكًا له أتباعٌ فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب، وهذا أمرٌ سريعٌ مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع صلوات الله وسلامه عليه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] والزبور كتابٌ مشهورٌ وذكرنا فى «التفسير» الحديث الذى رواه أحمد وغيره أنه أُنزل فى شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو مشهور معروف لمن نظر فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]. أى: أعطيناه ملكًا عظيمًا وحكمًا نافذًا. روى ابن جريرٍ وابن أبى حاتمٍ عن ابن عباسٍ أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام فى بقرٍ ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه، فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى فلما أصبح قال له داود: إن الله قد أوحى إلى أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا؟ قال: والله يا نبى الله إنى لمحقٌّ فيما ادعيت عليه ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا فقتله فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود فى بنى إسرائيل جدًّا وخضعوا له خضوعًا عظيمًا قال ابن عباسٍ: فهو قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وقول تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أى: النبوة. ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال شريحٌ والشعبى وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمى وغيرهم ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ الشهود والأيمان يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر.

وقال مجاهدٌ والسدى: هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهدٌ: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم. واختاره ابن جريرٍ. وهذا لا ينافى ما رُوى عن أبى موسى، أنه قول: أما بعد. وقال وهب بن منبهٍ: لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل أُعطى داود سلسلةً لفصل القضاء فكانت ممدودةً من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهبٍ، فإذا تشاجر الرجلان فى حقٍّ فأيهما كان محقًّا نالها والآخر لا يصل إليها فلم تزل كذلك حتى أودع رجلٌ رجلًا لؤلؤةً فجحدها منه واتخذ عكازًا وأودعها فيه، فلما حضرا عند السلسلة تناولها المدعى، فلما قيل للآخر: خذها بيدك. عمد إلى العكاز، فأعطاه المدعى، وفيه تلك اللؤلؤة، وقال: اللهم إنك تعلم

(١) رواه البخارى [٣٤١٧].

أنى دفعتها إليه. ثم تناول السلسلة فنالها، فأشكل أمرها على بنى إسرائيل، ثم رفعت سريعًا من بينهم. ذكره بمعناه غير واحدٍ من المفسرين. وقد رواه إسحاق بن بشرٍ عن إدريس ابن سنانٍ.

قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَنكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص]. وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيلياتٌ، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالة تركنا إيرادها فى كتابنا قصدًا اكتفاءً واقتصارًا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم. وقد اختلف الأئمة فى سجدة ص هل هى من عزائم السجود أو إنما هى سجدة شكرٍ ليست من عزائم السجود؟ على قولين:

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عبيدٍ الطنافسى عن العوام قال: سألت مجاهدًا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام ٩٠]، فكان داود ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ [(١)].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل هو ابن علية عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباسٍ أنه قال فى السجود فى «ص»: «ليست من عزائم السجود وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»[(٢)]. وكذا رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث أيوب وقال الترمذى: حسنٌ صحيحٌ.

وقال النسائى: أخبرنى إبراهيم بن الحسن المقسمى حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذرٍّ عن أبيه عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباس أن النبى ﷺ سجد فى «ص» وقال: «سجدها داود توبةً ونسجدها شكرًا». تفرد به أحمد ورجاله ثقاتٌ[(٣)].

---

(١) رواه البخارى [٣٤٢١] عن مجاهد رضى الله تعالى عنه.

(٢) رواه البخارى [٣٤٢٢]، وأحمد فى المسند [١/ ٣٦٠]، وأبو داود [١٤٠٩]، والترمذى [٥٧٧]، والنسائى فى الكبرى [١١١٧٠].

(٣) رواه النسائى فى المجتبى [٩٥٧]، وفى الكبرى [١١٤٣٨] وصححه الألبانى.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو ابن الحارث عن سعيد بن أبى هلالٍ عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن أبى سعيدٍ الخدرى قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يومٌ آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود فقال: «إنما هى توبة نبيٍّ ولكن رأيتكم تَشَزَّنْتُمْ للسجود» فنزل فسجد وسجدوا. تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح[١].

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حميدٌ حدثنا بكرٌ هو ابن عمر وأبو الصديق الناجى أنه أخبره أن أبا سعيدٍ الخدرى رأى رؤيا أنه يكتب ص فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىءٍ بحضرته انقلب ساجدًا قال: فقصها على النبى ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد تفرد به أحمد[٢].

وروى الترمذى وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن ابن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال: قال لى ابن جريج: حدثنى جدك عبيد الله ابن أبى يزيد عن ابن عباسٍ قال: جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرةٍ فقرأت السجدة فسجدتُ، فسجدت الشجرة لسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدةٌ: اللهم اكتب لى بها عندك أجرًا، واجعلها لى عندك ذخرًا وضع عنى بها وزرًا واقبلها منى كما قبلت من عبدك داود. وقال ابن عباسٍ: فرأيت النبى ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد. فسمعته يقول وهو ساجدٌ كما حكى الرجل عن كلام الشجرة. ثم قال الترمذى: غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه[٣].

وقد ذكر بعض المفسرين: أنه عليه السلام مكث ساجدًا أربعين يومًا. وقاله مجاهدٌ والحسن وغيرهما وورد فى ذلك حديثٌ مرفوعٌ لكنه من رواية يزيد الرقاشى وهو ضعيفٌ متروك الرواية.

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٢٥]. أى: إن له يوم القيامة لزلفى وهى القربة التى يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت فى الحديث: «المقسطون على منابر من نورٍ عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمينٌ الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما ولوا»[٤].

---

(١) رواه أبو داود [١٤١٠] وصححه الألبانى.

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣/٧٨] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه.

(٣) رواه الترمذى [٥٧٩]، وابن ماجه [١٠٥٣] وحسنه الألبانى.

(٤) رواه مسلم [١٨٢٧/١٨]، وأحمد فى المسند [٢/١٦٠] واللفظ له. وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وقال الإمام أحمد فى «مسنده»: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيلٌ عن عطية عن أبى سعيدٍ الخدرى قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أحب الناس إلى اللّه يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا إمامٌ عادلٌ، وإن أبغض الناس إلى اللّه يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمامٌ جائرٌ».

وهكذا رواه الترمذى من حديث فضيل بن مرزوقٍ الأغر به وقال: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه[1]. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبى زيادٍ حدثنا سيارٌ حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينارٍ فى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]. قال: يقام داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول اللّه: يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى فى الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إنى أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

هذا خطابٌ من اللّه تعالى مع داود، والمراد: ولاة الأمور وحكام الناس وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من اللّه لا ما سواه من الآراء والأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به فى ذلك الزمان فى العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا تمضى ساعةٌ من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادةٍ ليلاً ونهارًا كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إسماعيل بن إبرهيم بن بسام حدثنا صالحٌ المرى عن أبى عمران الجونى عن أبى الجلد قال: قرأت فى مسألة داود عليه السلام أنه قال: يا رب كيف لى أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحى: أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى؟ قال: بلى يا رب قال: فإنى أرضى بذلك منك.

وقال البيهقى: أنبأنا أبو عبد اللّه الحافظ أنبأنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد ابن يونس القرشى حدثنا روح بن عبادة حدثنى عبد اللّه بن لاحقٍ عن ابن شهابٍ قال: قال داود: الحمد للّه كما ينبغى لكم وجهه وعز جلاله. فأوحى اللّه إليه: إنك أتعبت الحفظة يا داود ورواه أبو بكرٍ بن أبى الدنيا عن على بن الجعد عن الثورى مثله.

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٢٢] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، والترمذى [١٣٢٩].

وقال عبد اللّه بن المبارك فى كتاب «الزهد»: أنبأنا سفيان الثورى عن رجلٍ عن وهب بن منبهٍ قال: إن فى حكمة آل داود: حقٌ على العاقل أن لا غفل عن أربع ساعاتٍ؛ ساعةٌ يناجى فيها ربه وساعةٌ يحاسب فيها نفسه وساعةٌ يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعةٌ يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عونٌ على هذه الساعات وإجمامٌ للقلوب وحقٌ على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويُقبل على شأنه وحقٌ على العاقل أن لا يظعن إلا فى إحدى ثلاثٍ: زاد لمعاده ومرمةٌ لمعاشه ولذةٌ فى غير محرم. وقد رواه أبو بكر ابن أبى الدنيا عن أبى بكرٍ بن أبى خيثمة عن ابن مهدىٌ عن سفيان عن أبى الأغر عن وهب بن منبهٍ فذكره ورواه أيضًا عن على بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشى عن أبى الأغر عن وهب بن منبهٍ فذكره وأبو الأغر هذا هو الذى أبهمه ابن المبارك فى روايته قاله ابن عساكر.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا بشر بن رافع حدثنا شيخٌ من أهل صنعاء يقال له: أبو عبد اللّه. قال: سمعت وهب بن منبهٍ فذكر مثله.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرةً مليحةً منها قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد وروى بسندٍ غريبٍ مرفوعًا قال داود: يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها.

وعن داود عليه السلام أنه قال: مثل الخطيب الأحمق فى نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت. وقال أيضًا: ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى. وقال: انظر ما تكره أن يُذكر عنك فى نادى القوم، فلا تفعله إذا خلوت. وقال: لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له فان ذلك عداوة ما بينك وبينه وقال محمد بن سعدٍ: أنبأنا محمد بن عمر الواقدى حدثنى هشام بن سعدٍ عن عمر مولى عفرة قال: قالت يهود لما رأت رسول اللّه ﷺ يتزوج النساء: انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا واللّه ما له همةٌ إلا إلى النساء. حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك، فقالوا: لو كان نبيًا ما رغب فى النساء. وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب فأكذبهم اللّه وأخبرهم بفضل اللّه وسعته على نبيه صلوات اللّه عليه وسلامه فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]. يعنى بالناس: رسول اللّه ﷺ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]. يعنى ما أتى اللّه سليمان بن داود، كانت له ألف امرأةٍ؛ سبعمائةٍ مهريةٌ وثلثمائةٍ سريةٌ. وكانت لداود عليه السلام مائة امرأةٍ منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التى تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمدٍ ﷺ وقد ذكر الكلبى نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأةٍ ولسليمان ألف امرأةٍ منهن ثلثمائةٍ سريةٌ.

وروى الحافظ فى «تاريخه» فى ترجمة صدقة الدمشقى الذى يروى عن ابن عباسٍ من طريق الفرج بن فضالة الحمصى عن أبى هريرة الحمصى عن صدقة الدمشقى أن رجلاً سأل ابن عباسٍ عن الصيام فقال: لأحدثنك بحديثٍ كان عندى فى التخت مخزونًا إن شئت أنبأتك بصوم داود؛ فإنه كان صوامًا قوامًا وكان شجاعًا لا يفر إذا لاقى، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا وقال رسول اللّه ﷺ: أفضل الصيام صيام داود. وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتًا يلون فيها وكانت له ركعةٌ من الليل يبكى فيها نفسه ويبكى ببكائه كل شىءٍ، ويطرب بصوته الهموم والمحموم. وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيامٍ يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام. وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم؛ فإنه كانَ يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ليس له ولدٌ يموت ولا بيتٌ يخرب وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه وقام يصلى حتى يصبح وكان راميًا لا يفوته صيدٌ يريده، وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم. وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران؛ فإنها كانت تصوم يومًا وتفطر يومين. وإن شئت أنبأتك بصوم النبى العربى الأمى محمدٍ ﷺ؛ فإنه كان يصوم من كل شهرٍ ثلاثة أيامٍ ويقول: إن ذلك صوم الدهر.

وقد روى نحوه الإمام أحمد عن أبى النصر عن فرج بن فضالة عن أبى هرمٍ عن صدقة عن ابن عباسٍ مرفوعًا فى صوم داود(١).

☆☆☆

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٣١٤] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف جدًا.

ذكر كَميّة حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم فى ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم أن اللَّه لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال: أى رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قال: أى رب كم عمره؟ قال: ستون عامًا. قال: أى رب زد فى عمره. قال: لا إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عامًا، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: بقى من عمرى أربعون سنةً. ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها اللَّه لآدم الف سنةٍ. ولداود مائة سنةٍ[1].

رواه أحمد عن ابن عباسٍ والترمذى وصححه عن أبى هريرة وابن خزيمة وابن حبان وقال الحاكم: على شرط مسلمٍ. وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه فى قصة آدم.

قال ابن جرير: وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعًا وسبعين سنةً. قلت: هذا غلطٌ مردودٌ عليهم. قالوا: وكان مدة ملكه أربعين سنةً. وهذا قد يقبل نقله؛ لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأما وفاته عليه السلام، فقال الإمام أحمد فى «مسنده»: حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب ابن عبد الرحمن بن محمدٍ بن عمرو بن أبى عمروٍ عن المطلب عن أبى هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كان داود النبى عليه السلام فيه غيرةٌ شديدةٌ وكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحدٌ حتى يرجع قال: فخرج ذات يومٍ وغُلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجلٌ قائمٌ وسط الدار فقالت لمن فى البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقةٌ؟ واللَّه لنفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائمٌ وسط الدار فقاله له داود: من أنت؟ قال: أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمتنع منى شىء فقال داود: أنت واللَّه ملك الموت مرحبًا بأمر اللَّه. فرمل داود مكانه حيث قبضت روحه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير: أظلى على داود فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض فقال لها سليمان: اقبضى جناحًا جناحًا». قال أبو هريرة: يرينا رسول اللَّه ﷺ كيف فعلت

(١) تقدم تخريجه.

الطير وقبض رسول اللّه ﷺ وغلبت عليه يومئذ المضرحية[١] انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيدٌ قوىٌ رجاله ثقاتٌ. ومعنى قوله: وغلبت عليه يومئذ المضرحية أى: وغلبت على التظليل عليه المضرحية وهى الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحىٌ قال الجوهرى: وهو الصقر الطويل الجناح وقال السدى عن أبى مالكٍ عن ابن عباسٍ قال: مات داود عليه السلام فجأةً وكان يسبت وكانت الطير تظله. وقال السدى أيضًا: عن أبى مالكٍ وعن سعيد ابن جبيرٍ قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأةً. وقال إسحاق بن بشرٍ عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن قال: مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنةٍ ومات يوم الأربعاء فجأةً.

وقال أبو السكن الهجرى: مات إبراهيم الخليل فجأةً وداود فجأةً وابنه سليمان فجأةً صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

رواه ابن عساكر وروى عن بعضهم: أن ملك الموت جاءه وهو نازلٌ من محرابه، فقال له: دعنى أنزل أو أصعد فقال: يا نبى اللّه قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق قال: فخر ساجدًا على مرقاةٍ من تلك المراقى فقبضه وهو ساجدٌ وقال إسحاق بن بشرٍ: أنبأنا وافر بن سليمان عن أبى سليمان الفلسطينى عن وهب بن منبهٍ قال: إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا فى الشمس فى يوم صائفٍ قال وكان قد شيع جنازته يومئذٍ أربعون ألف راهبٍ عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت فى بنى إسرائيل - بعد موسى وهارون أحد - كانت بنو إسرائيل أشد جزعًا عليه منهم على داود. قال: فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعجل عليهم لما أصابهم من الحر فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها فأظلت الناس. قال: فتراص بعضهم إلى بعضٍ من كل وجهٍ حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم فخرج سليمان فنادى الطير؛ أن أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى عن ناحية الريح ففعلت فكان الناس فى ظلٍّ وتهب عليهم الريح فكان ذلك من أول ما رأوا من ملك سليمان.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو همامٍ الوليد بن شجاعٍ حدثنى الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميدٍ عن الوضين بن عطاءٍ عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفيرٍ عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لقد قبض اللّه داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتى سنةٍ». هذا حديثٌ غريبٌ وفى رفعه نظرٌ والوضين بن عطاءٍ كان ضعيفًا فى الحديث واللّه أعلم[٢].

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٤١٩/٢] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه.

(٢) رواه ابن حبان فى الإحسان [٦٢٣٦] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

قصة سليمان بن داود
عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر: هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون ابن نحشون بن عميناذاب بن إرم بن حصرون بن فارصٌ بن يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الربيع نبى اللّه ابن نبى اللّه.

جاء فى بعض الآثار أنه دخل دمشق. قال ابن ماكولا: فارص؛ بالصاد المهملة. وذكر نسبه قريبًا مما ذكره ابن عساكر.

قال اللّه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. أى: ورثه فى النبوة والملك. وليس المراد: ورثة المال؛ لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليخص بالمال دونهم؛ لأنه قد ثبت فى «الصحاح» من غير وجهٍ عن جماعةٍ من الصحابة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقةٌ»(١).

وفى لفظٍ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث»(٢). فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل تكون أموالهم صدقةً من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباؤهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ﴾ [النمل: ١٦]. يعنى أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

وقد قال الحافظ أبو بكرٍ البيهقى: أنبأنا أبو عبد اللّه الحافظ أنبأنا على بن حشماذ حدثنا إسماعيل بن قتيبة حدثنا على بن قدامة حدثنا أبو جعفرٍ الأسوانى - يعنى محمد ابن عبد الرحمن - عن أبى يعقوب القمى حدثنى أبو مالكٍ قال: مر سليمان بن داود بعصفورٍ يدور حول عصفورةٍ فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبى اللّه؟ قال: يخطبها إلى نفسه ويقول: زوجينى أسكنك أى غرف دمشق شئت قال سليمان عليه السلام: لأن غرف دمشق مبنيةٌ بالصخر لا يقدر

(١) رواه البخارى [٣٠٩٣، ٣٠٩٤]، ومسلم [٤٩/١٧٥٧].

(٢) رواه أحمد فى المسند [٤٦٣/٢] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

أن يسكنها أحدٌ ولكن كل خاطبٍ كذابٍ. رواه ابن عساكر عن أبى القاسم زاهر بن طاهرٍ عن البيهقى به. وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]. أى: من كل ما يحتاج الملك إليه؛ من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. أى: من بارئ البريات وخالق الأرض والسماوات كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل]. يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يومًا فى جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرةٌ معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعةٌ أى: نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحدٌ عن موضعه الذى يسير فيه ولا يتأخر عنه، قال اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]. فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور. وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بوادٍ بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جرسا وكانت من قبيلةٍ يقال لهم: بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب. وفى هذا كله نظرٌ، بل فى هذا السياق دليلٌ على أنه كان فى موكبه راكبًا فى خيوله وفرسانه لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط؛ لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيءٌ ولا وطءٌ؛ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله كما سنبينه بعد ذلك إن شاء اللّه تعالى.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأى السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه اللّه عليه دون غيره وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان فى فهم لغاتها مزيةٌ على غيره؛ إذ كان الناس كلهم يفهمون

ذلك، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره؛ إذ كان الناس كلهم يفهمون ذلك، ولوكان قد أخذ عليها العهد أن تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن فى هذا أيضا فائدة يعول عليها ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ [النمل: ١٩]. أى: ألهمنى وأرشدنى، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. فطلب من اللّه أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب اللّه تعالى له.

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابرٍ عن النبى ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود: يا بنى لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرًا يوم القيامة»(١). رواه ابن ماجه عن أربعةٍ من مشايخه عنه به نحوه.

وقال عبد الرزاق عن معمرٍ عن الزهرى: أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملةً قائمةً رافعةً إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها.

قال ابن عساكر: وقد روى مرفوعًا ولم يذكر فيه سليمان. ثم ساقه من طريق محمد ابن عزيزٍ عن سلامة بن روح بن خالدٍ عن عقيلٍ عن ابن شهاب حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «خرج نبىٌ من الأنبياء بالناس يستسقون اللّه فإذا هم بنملةٍ رافعةٍ بعض قوائمها إلى السماء فقال النبى: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة»(٢).

وقال السدى: أصاب الناس قحطٌ على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملةٍ قائمةٍ على رجليها باسطةٍ يديها وهى تقول: اللهم إنا خلقٌ من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك قال: فصب اللّه عليهم المطر.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)

(١) رواه ابن ماجه [١٣٣٢] وضعفه الألبانى.
(٢) رواه الحاكم [١/ ٣٢٥، ٣٢٦].

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ (٢٨) قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ (٣١) قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ (٣٢) قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ (٣٣) قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ (٣٦) ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل].

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد؛ وذلك أن الطيور كان على كل صنفٍ منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباسٍ وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء فى القفار فى حال الأسفار يجىء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماءٍ وفيه من القوة التى أودعها اللَّه تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم فلما تطلَّبه سليمان عليه السلام ذات يومٍ فقده ولم يجده فى موضعه من محل خدمته ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أى: ماله أمفقود من ههنا أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى؟ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه، والمقصود حاصلٌ على كل تقدير. ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أى بحجة تنجيه من هذه الورطة قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ أى: فغاب الهدهد غيبةً ليست بطويلةٍ ثم قدم منها ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أى: اطلعت على ما لم تطلع عليه. ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أى: بخبرٍ صادقٍ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين وكان الملك قد آل فى ذلك الزمان إلى امرأةٍ منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم. وذكر الثعلبى وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعم به الفساد فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمرًا ثم حزت رأسه ونصبته على بابها، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم. وهى بلقيس بنت البشرخ وهو الهذهاذ. وقيل: شراحيل بن ذى جدن بن البشرخ بن الحارث بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وكان أبوها من أكابر الملوك وكان قد تأبى أن يتزوج من أهل اليمن فيقال: إنه تزوج بامرأةٍ من الجن اسمها ريحانة بنت الشكر فولدت له هذه المرأة واسمها بلعمة ويقال لها بلقيس.

وقد روى الثعلبى من طريق سعيد بن بشيرٍ عن قتادة عن النضر بن أنسٍ عن بشير بن نهيكٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: كان أحد أبوى بلقيس جنيًا. وهذا حديثٌ غريبٌ وفى سنده ضعفٌ.

وقال الثعلبى: أخبرنى أبو عبد الله بن قبحونة حدثنا أبو بكر بن جرجة حدثنا ابن أبى الليث حدثنا أبو كريبٌ حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلمٌ عن الحسن عن أبى بكرة قال: ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال: «لا يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأةً». إسماعيل بن مسلمٍ هذا هو المكى ضعيفٌ.

وقد ثبت فى «صحيح البخارى» من حديث عوفٍ عن الحسن عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأةً» (١).

ورواه الترمذى والنسائى من حديث حميدٍ عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى ﷺ وقال الترمذى: حسنٌ صحيحٌ وقوله: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣]. أى: مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣]. يعنى سرير مملكتها كان مزخرفًا بأنواع الجواهر والآلئ والذهب والحلى الباهر. ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى: يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦] أى: له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات.

فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله، والإنابة والإذعان إلى الدخول فى الخضوع لملكه وسلطانه؛ ولهذا قال لهم: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ [النمل: ٣١]. أي: لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى. ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [٣١]. أى: وأقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودةٍ ولا مراودةٍ فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى؟! تلك البطاقة كانت مع طائرٍ سامعٍ مطيعٍ فاهم عالم بما يقول ويُقال له فذكر غير واحدٍ من المفسرين وغيرهم، أن الهدهد حمل الكتابَ وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوةٍ لها ثم وقف ناحيةً ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أُمراءها ووزراءها وأكابر دولتها وأولى مشورتها ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ . ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ [النمل: ٣٠]. ثم قرأته: ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١ ﴾ [النمل].

---

(١) رواه البخارى [٤٤٢٥، ٧٠٩٩]، والترمذى [٢٢٦٢]، والنسائى فى الكبرى [٥٩٣٧].

ثم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٣٢].

تعنى: ما كنت لأبت أمرًا إلا وأنتم حاضرون: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنون: لنا قوةٌ وقدرةٌ على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ومع هذا ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣]. فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها فى ذلك الأمر؛ لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع. ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤]. تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلى ولم تكن الحدة الشديدة والسطوة البليغة إلا على. ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥]. أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهديةٍ ترسلها وتحفٍ تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم - والحالة هذه - صرفًا ولا عدلاً لأنهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون ولهذا ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]. هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملةً على أمورٍ عظيمةٍ كما ذكره المفسرون.

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون. ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧]. يقول: ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قد من بها، فإن عندى مما قد أنعم الله على وأسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخيرٌ من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه. ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾. أى: فلأبعثن إليهم بجنودٍ لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلةً ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾. عليهم الصغار والعار والدمار فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بدٌّ من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته فى تلك الساعة، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخرٌ له من الجان ما قصه الله عنه فى القرآن: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا

نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل].

لما طلب سليمان من الجان أن يُحضروا له عرش بلقيس، وهو سرير مملكتها الذى تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾. يعنى: قبل أن ينقضى مجلس حكمك وكان - فيما يقال - من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل وما لهم من الأشغال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾. أى: وإنى لذو قوة على إحضاره إليك وأمانةٍ على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك. ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾. المشهور أنه آصف بن برخيا، وهو ابن خالة سليمان. وقيل: هو رجلٌ من مؤمنى الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم. وقيل: رجلٌ من بنى إسرائيل من علمائهم. وقيل: إنه سليمان وهذا غريبٌ جدًا. وضعفه السهيلى بأنه لا يصح فى سياق الكلام. قال: وقد قيل فيه قول رابعٌ إنه جبريل. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾. قيل: معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك. وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس. وقيل: قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك. وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غايةٍ منك ثم أغمضته. وهذا أقرب ما قيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٤٠]. أى: فلما رأى عرش بلقيس مستقرًا عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عينٍ ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠]. أى: هذا من فضل الله على وفضله على عبيده؛ ليختبرهم على الشكر أو خلافه. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ﴾ [النمل: ٤٠]. أى: إنما يعود نفع ذلك عليه. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. أى: غنىٌ عن شكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين. ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها؛ ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل]. وهذا من فطنتها وغزارة فهمها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحدًا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب. قال الله تعالى إخبارًا عن سليمان وقومه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل]. أى: ومنعها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله اتباعًا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليلٍ

قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج، وعمل في ممره ماءً وجعل عليه سقفًا من زجاجٍ، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء، وأُمرت بدخول الصرح، وسليمان جالسٌ على سريره فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]. وقد قيل: إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان، وأن تبدى عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوجها؛ لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه. وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة. وهذا ضعيفٌ وفي الأول أيضًا نظرٌ والله أعلم.

إلا أن سليمان قيل: إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك؛ فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام فكان أول من دخل الحمام، فلما وجد مسه قال: أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه. رواه الطبراني مرفوعًا وفيه نظرٌ(١).

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه وكان يزورها في كل شهرٍ مرةً فيقيم عندها ثلاثة أيامٍ ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصورٍ باليمن: غمدان، وسالحين وبَينون فالله أعلم. وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبهٍ أنه سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان، وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن والأول أشهر وأظهر والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾ [ص]. يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام، ثم أثنى الله عليه تعالى فقال: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]. أي: رجاعٌ مطيعٌ لله. ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات - وهي التي تقف على ثلاثٍ وطرف

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٤٦١] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه، وابن أبي شيبة في مصنفه [٣٦٠٣٢] وقال الهيثمي في المجمع [١/ ٢٨٤]: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه إسماعيل بن عبد الرحمن الأودي وهو ضعيف.

حافر الرابعة - الجياد؛ وهى المضمرة السراع: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢]. يعنى الشمس وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين. ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ [ص: ٣٣]. قيل: مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف. وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر.

والذى عليه أكثر السلف الأول؛ فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس روى هذا عن على بن أبى طالبٍ وغيره والذى يُقطع به أنه لم يترك الصلاة عمدًا من غير عذرٍ اللهم إلا أن يقال: إنه كان سائغًا فى شريعتهم تأخير الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك. وقد ادعى طائفةٌ من العلماء فى تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعًا إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف. قاله الشافعى وغيره وقال مكحولٌ والأوزاعى: بل هو حكمٌ محكمٌ إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها لعذر القتال الشديد. كما ذكرنا تقرير ذلك فى سورة النساء عند صلاة الخوف. وقال آخرون: بل كان تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسيانًا. وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا. والله أعلم. وأما من قال: الضمير فى قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢]. عائدٌ على الخيل وأنه لم تفته وقت صلاةٍ وإن المراد بقوله: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ [ص: ٣٣]. يعنى: مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها. فهذا القول اختاره ابن جريرٍ، ورواه الوالبى عن ابن عباسٍ فى مسح العرق. ووجه هذا القول ابن جريرٍ؛ بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة، ويهلك مالاً بلا سببٍ ولا ذنبٍ لها وهذا الذى قاله فيه نظرٌ؛ لأنه قد يكون هذا سائغًا فى ملتهم. وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شىءٍ من الحيوانات، من أغنامٍ ونحوها؛ جاز ذبحها وإهلاكها؛ لئلا يتقووا بها وعليه حمل صنيع جعفر بن أبى طالبٍ يوم عقر فرسه بمؤته. وقد قيل: إنها كانت خيلاً عظيمةً؛ قيل: كانت عشرة آلاف فرسٍ. وقيل: عشرين ألف فرسٍ. وقيل: كان فيها عشرون فرسًا من ذوات الأجنحة.

وقد روى أبو داود فى «سننه»: حدثنا محمد بن عوفٍ حدثنا سعيد بن أبى مريم أنبأنا يحيى بن أيوب حدثنى عمارة بن غزية أن محمد بن إبراهيم حدثه عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفى سهوتها سترٌ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بناتٍ لعائشة - لعبٍ - فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقالت: بناتى. ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاعٍ فقال: ما هذا الذى أرى وسطهن؟ قالت: فرسٌ. قال: وما هذا

الذي عليه؟ قالت: جناحان قال: فرسٌ له جناحان؟ قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحةٌ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ(١).

وقال بعض العلماء: لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خيرٌ له منها وهو الريح التي كان غدوها شهرًا ورواحها شهرًا كما سيأتي الكلام عليها كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلالٍ عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجلٍ من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال: إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرًا منه(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]. ذكر ابن جريرٍ وابن أبي حاتمٍ وغيرهما من المفسرين ههنا آثارًا كثيرةً عن جماعةٍ من السلف وأكثرها أو كلها متلقَّاةٌ من الإسرائيليات، وفي كثيرٍ منها نكارةٌ شديدةٌ وقد نبهنا على ذلك في كتابنا «التفسير» واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة. ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يومًا ثم عاد إليه، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناءً محكمًا وقد قدمنا أنه جدده، وأن أول من جعله مسجدًا إسرائيل عليه السلام كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذرٍّ: قلت: يا رسول الله أي مسجدٍ وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: ثم المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون(٣). ومعلومٌ أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنةٍ دع أربعين سنةً وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده بعد إكماله بناء البيت المقدَّس كما قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثًا فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة؛ سأله حكمًا يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأله ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده فأعطاه إياه وسأله أيما رجلٍ خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياه»(٤). فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه

---

(١) رواه أبو داود [٤٩٣٢] وصححه الألباني.
(٢) رواه أحمد في المسند [٥/٧٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٣) رواه البخاري [٣٤٢٥]، ومسلم [١/٥٢٠].
(٤) رواه أحمد في المسند [٢/١٧٦] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، النسائي في المجتبى [٦٩٢]،=

فـي قـولـه: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء].

وقد ذكر شريحٌ القاضى وغير واحدٍ من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرمٌ فنفشت فيه غنم قوم آخرين أى رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لكم نبى اللَّه؟ فقالوا: بكذا وكذا فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجًا ودرًّا حتى يُصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريبٌ من هذا ما ثبت فى «الصحيحين» من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا فى الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال: ائتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدةٍ منكما نصفه. فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك اللَّه هو ابنها فقضى به لها»(١).

ولعل كلا من الحكمين كان سائغًا فى شريعتهم، ولكن ما قاله سليمان ارجح ولهذا أثنى اللَّه عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء]. ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]. أى: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص]. لما ترك الخيل ابتغاء وجه اللَّه عوضه اللَّه منها الريح التى هى أسرع سيرًا وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها. ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]. أى: حيث أراد من أى البلاد. كان له بساطٌ مركبٌ من أخشابٍ بحيث إنه يسع جميع ما

= وفى الكبرى [٧٧٢]، وابن ماجه [١٤٠٨]، وابن خزيمة [١٣٣٤]، وابن حبان [١٦٣٣]، والحاكم [١/ ٣٠].

(١) رواه البخارى [٣٤٢٧، ٦٧٦٩]، ومسلم [١٧٢٠/ ٢٠].

يحتاج إليه؛ من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفرًا أو مستنزهًا أو قتال ملكٍ أو أعداءٍ من أى بلاد الله شاء فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته فى أى مكانٍ شاء بحيث إنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهرٍ فيقيم هناك إلى آخر النهار ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس.

كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]. قال الحسن البصرى: كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها، ويذهب رائحًا منها فيبيت بكابل، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهرٍ وبين إصطخر وكابل مسيرة شهرٍ. قلت: قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن إصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديمًا وكذلك غيرها من بلدانٍ شتى؛ كتدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال.
وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهدٌ وعكرمة وقتادة وغير واحدٍ: هو النحاس قال قتادة: وكانت باليمن؛ أنبعها الله له. قال السدى: ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢]. أى: وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به.

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ [سبأ: ١٣]. وهى الأماكن الحسنة وصدور المجالس. ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ وهى الصور فى الجدران، وكان هذا سائغًا فى شريعتهم وملتهم. ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ [سبأ: ١٣]. قال ابن عباسٍ: الجفنة كالجوبة من الأرض. وعنه: كالحياض. وكذا قال مجاهدٌ والحسن وقتادةُ والضحاك وغيرهم. وعلى هذه الرواية يكون الجواب: جمع جابيةٍ وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء كما قال الأعشى:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية السيح العراقى تفهق

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة: أثافيها منها. يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن. وهكذا قال مجاهدٌ وغير واحدٍ. ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنس وجانٍ قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾

[ص]. يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء؛ لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد الا هنالك وقوله: ﴿ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٨]. أى: قد عصوا؛ فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد وهى القيود هذا كله من جملة ما هيأ الله وسخر له من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحدٍ من بعده ولم يكن أيضًا لمن كان قبله.

وقد قال البخارى: ثنا محمد بن بشارٍ حدثنا محمد بن جعفرٍ حدثنا شعبة عن محمد بن زيادٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتًا من الجن تفلت البارحة؛ ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى ساريةٍ من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخى سليمان: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص: ٣٥] فرددته خاسئا». وكذا رواه مسلمٌ والنسائى من حديث شعبة[(١)].

وقال مسلمٌ: حدثنا محمد بن سلمة المرادى حدثنا عبد الله بن وهبٍ عن معاوية بن صالح حدثنى ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلى فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثًا وبسط يده كأنه يتناول شيئًا فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك. ورأيناك بسطت يدك. قال: إن عدو الله إبليس جاء بشهابٍ من نارٍ ليجعله فى وجهى فقلت: أعوذ بالله منك - ثلاث مراتٍ - ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر - ثلاث مراتٍ - ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدنية». وكذا رواه النسائى عن محمد بن سلمة به[(٢)].

وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد حدثنا مسرة بن معبدٍ ثنا أبو عبيدٍ حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائمًا يصلى فذهبت أمر بين يديه فردنى ثم قال: حدثنى أبو سعيدٍ الخدرى أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتمونى وإبليس، فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين - الإبهام والتى تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطًا بساريةٍ من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحدٌ فليفعل»[(٣)]. روى أبو داود منه:

(١) رواه البخارى [٣٤٢٣]، ومسلم [٥٤١/ ٣٩]، والنسائى فى الكبرى [١١٤٤٠].
(٢) رواه مسلم [٥٤٢/ ٤٠]، والنسائى [١٢١٤].
(٣) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٨٢، ٨٣] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وروى أبو داود جزء منه [٦٩٩].

فمن استطاع إلى آخره، عن أحمد بن سريجٍ عن أبى أحمد الزبيرى به.

وقد ذكر غير واحدٍ من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمائة بمهورٍ وثلثمائةٍ سرارى وقيل بالعكس: ثلثمائةٍ حرائر وسبعمائةٍ من الإماء.

وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرًا عظيمًا جدًا.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مخلدٍ حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأةً تحمل كل امرأةٍ فارسًا يجاهد فى سبيل الله؛ فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، فلم تحمل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا أحد شقيه. فقال النبى ﷺ: لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله. وقال شعيب وابن أبى الزناد: تسعين»[1] وهو أصح. تفرد به البخارى من هذا الوجه.

وقال أبو يعلى: حدثنا زهيرٌ حدثنا يزيد أنبأنا هشام بن حسان عن محمدٍ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأةٍ كل امرأةٍ منهن تلد غلامًا يضرب بالسيف فى سبيل الله ولم يقل: إن شاء الله فطاف تلك الليلة على مائة امرأةٍ فلم تلد منهن امرأةٌ إلا امرأةٌ ولدت نصف إنسانٍ. فقال رسول الله ﷺ: لو قال: إن شاء الله لولدت كل امرأةٍ منهن غلامًا يضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل». إسناده على شرط «الصحيح» ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيمٌ ثنا هشامٌ عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال: «قال سليمان بن داود: أطوف الليلة على مائة امرأةٍ تلد كل واحدةٍ منهن غلامًا يقاتل فى سبيل الله. ولم يستثن فما ولدت إلا واحدةٌ منهن بشق إنسانٍ قال: قال رسول الله ﷺ: لو استثنى لولد له مائة غلامٍ كلهم يقاتل فى سبيل الله عز وجل». تفرد به أحمد أيضًا[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن ابن طاوسٍ عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمائة امرأةٍ تلد كل امرأةٍ منهن غلامًا يقاتل فى سبيل الله. قال: ونسى أن يقول: إن شاء الله فأطاف بهن. قال: فلم تلد منهن امرأةٌ إلا واحدةٌ نصف إنسانٍ فقال رسول الله ﷺ: لو قال: إن شاء الله لم يحنث وكان دركًا لحاجته» وهكذا أخرجاه فى «الصحيحين» من حديث عبد الرزاق به مثله[3].

---

(١) رواه البخارى [٣٤٢٤].

(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٢٢٩] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٣) رواه البخارى [٥٢٤٢]، ومسلم [١٦٥٤/ ٢٢]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٧٥].

وقال إسحاق بن بشرٍ: أنبأنا مقاتلٌ عن أبى الزناد وابن أبى الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبى هريرة «أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأةٍ وستمائة سريةٍ فقال يومًا: لأطوفن الليلة على ألف امرأةٍ فتحمل كل واحدة منهن بفارسٍ يجاهد فى سبيل اللَّه. ولم يستثن فطاف عليهن فلم تحمل واحدةٌ منهن إلا امرأةٌ واحدةٌ منهن جاءت بشق إنسانٍ فقال النبى ﷺ: والذى نفسى بيده لو استثنى فقال: إن شاء اللَّه لولد له ما قال، فرسانٌ ولجاهدوا فى سبيل اللَّه عز وجل». وهذا إسنادٌ ضعيفٌ؛ لحال إسحاق بن بشرٍ فإنه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح. وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحدٍ قبله ولا يعطيه اللَّه أحدًا بعده كما قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] وقد أعطاه اللَّه ذلك بنص الصادق المصدوق ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] أى: أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك أى تصرف فى المال كيف شئت؛ فإن اللَّه قد سوغ لك كل ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول؛ فإن من شأنه أن لا يعطى أحدًا، ولا يمنع أحدًا إلا بإذن اللَّه له فى ذلك.

وقد خير نبينا محمدٌ صلوات اللَّه وسلامه عليه بين هذين المقامين؛ فاختار أن يكون عبدًا رسولاً[1]. وفى بعض الروايات: أنه استشار جبريل فى ذلك فأشار إليه أن تواضع فاختار أن يكون عبدًا رسولاً صلوات اللَّه وسلامه عليه. وقد جعل اللَّه الخلافة والملك من بعده فى أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفةٌ من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة[2]. فللَّه الحمد والمنة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له فى الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التى تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥].

☆☆☆

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٢٣١] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) رواه البخارى [٣١١٦، ٧٣١١، ٣٦٤٠]، ومسلم [١٩٢٠/ ١٧٠].

ذكر وفاته
ومدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

روى ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «كان سليمان نبى الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرةً نابتةً بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأى شىءٍ أنت؟ فإن كانت لغرسٍ غرست وإن كانت لدواءٍ كتبت فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرةً بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأى شىءٍ أنتِ؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم عم على الجن موتى؛ حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. فنحتها عصا فتوكأ عليها حولاً والجن تعمل فأكلتها الأرضة؛ فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً فى العذاب المهين.

قال: وكان ابن عباسٍ يقرؤها كذلك. قال: فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء. لفظ ابن جريرٍ وعطاءُ الخراسانى فى حديثه نكارةٌ وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيلٍ عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباس موقوفًا وهو أشبه بالصواب. والله أعلم.

وقال السدى فى خبرٍ ذكره عن أبى مالكٍ وعن أبى صالح عن ابن عباسٍ وعن مرة عن ابن مسعودٍ وعن أناسٍ من الصحابة: كان سليمان عليه السلام يتجرد فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه فأدخله فى المرة التى توفى فيها؛ فكان بدء ذلك أنه لم يكن يومٌ يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرةٌ فيأتيها فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمى كذا وكذا فان كانت لغرسٍ غرسها؛ وإن كانت نبتت دواءً قالت: نبت دواءً لكذا وكذا، فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرةٌ يقال لها: الخروبة فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروبة فقال: ولأى شىءٍ نبت؟ فقالت: نبت لخراب هذا المسجد، قال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حىٌ أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائطٍ له ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئًا على عصاه فمات

ولم تعلم به الشياطين وهم فى ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوىً بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول: ألست جليدًا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر فدخل شيطانٌ من أولئك فمر - ولم يكن شيطانٌ ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو فى المحراب إلا احترق - ولم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتًا فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته - وهى العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يومًا وليلةً ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وهى قراءة ابن مسعودٍ (فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملًا). فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب سنةً يعملون له وذلك قول اللَّه عز وجل: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم. ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكنا سننقل إليك الماء والطين. قال فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت، قال: ألم تر الى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فهو ما تأتيها به الشياطين شكرًا لها. وهذا فيه من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب.

وقال أبو داود فى كتاب «القدر»: حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت: إذا أردت أن تقبض روحى فأعلمنى. قال: ما أنا أعلم بذلك منك؛ إنما هى كتبٌ تلقى إلى، فيها تسمية من يموت.

وقال أصبغ بن الفرج وعبد اللَّه بن وهبٍ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال سليمان لملك الموت: إذا أُمرت بى فأعلمنى. فأتاه فقال: يا سليمان قد أُمرت بك قد بقيت لك سويعةٌ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له بابٌ فقام يصلى فاتكأ على عصاه قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فرارًا من ملك الموت. قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حئ. قال: فبعث اللَّه دابة الأرض يعنى إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر، فلما رأت الجن ذلك

انفضوا وذهبوا. قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. قال أصبغ: وبلغنى عن غيره أنها مكثت سنةً تأكل فى منسأته حتى خر. وقد رُوى نحو هذا عن جماعةٍ من السلف وغيرهم. والله أعلم.

قال إسحاق بن بشرٍ عن محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره: إن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنةً وكان ملكه أربعين سنةً. وقال إسحاق: أنبأنا أبو روقٍ عن عكرمة عن ابن عباسٍ أن ملكه كان عشرين سنةً والله أعلم. وقال ابن جريرٍ: فكان جميع عمر سليمانَ بن داود عليهما السلام نيفًا وخمسين سنةً. وفى سنة أربعٍ من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذُكر ثم ملك بعده ابنه رحبعم مدة سبع عشرة سنةً فيما ذكره ابن جريرٍ. قال: ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل.

☆☆☆

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد داود وسليمان

وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام

فمنهم شعيا بن أمصيا قال محمد بن إسحاق: وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمدٍ عليهما السلام وكان فى زمانه ملكٌ اسمه صديقة على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس وكان سامعًا مطيعًا لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحةٌ وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب قال ابن إسحاق فى ستمائة ألف رايةٍ. وفزع الناس فزعًا عظيمًا شديدًا، وقال الملك للنبى شعيا: ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده؟ فقال: لم يوح إلى فيهم شئ بعد. ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك صديقة بأن يُوصى ويستخلف على ملكه من يشاء؛ فإنه قد اقترب أجله فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلبٍ مخلصٍ وتوكلٍ وصبرٍ: اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم يا من لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ اذكرنى بعلمى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى سرى وإعلانى لك. قال: فاستجاب الله له ورحمه وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنةً وأنجاه من عدوه سنحاريب. فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدا وقال فى سجوده: اللهم أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين. فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ ففعل ذلك فشفى وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت، فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسةٍ من أصحابه منهم بخت نصر فأرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم فى البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يومًا ويطعم كل واحدٍ منهم كل يومٍ رغيفين من شعيرٍ ثم أودعهم السجن، وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم فلما رجعوا

جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا وهى أمةٌ لا يستطيعها أحدٌ من ربهم. فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين قال ابن إسحاق: ثم لما مات صديقة ملك بنى إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرةٍ فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها، فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

وقد قيل: إنه الخضر رواه الضحاك عن ابن عباسٍ. وهو غريبٌ وليس بصحيحٍ. قال ابن عساكر: جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال: أيها الدم فتنت الناس فاسكن. فسكن ورسب حتى غاب. وقال أبو بكرٍ بن أبى الدنيا: حدثنى على بن أبى مريم عن أحمد بن حبابٍ عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: قال أرميا: أى رب أى عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لى ذكرًا الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق الذين لا تعرض لهم وساوس الغناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه وإذا زوى عنهم سروا بذلك أولئك أنحلهم محبتى وأعطيهم فوق غاياتهم.

☆☆☆

ذكـر
خراب بيت المقدس

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾ [الإسراء]. وقال وهب بن منبهٍ: أوحى الله إلى نبيٍّ من أنبياء بنى إسرائيل يقال له: أرميا حين ظهرت فيهم المعاصى أن قم بين ظهرانى قومك فأخبرهم أن لهم قلوبًا ولا يفقهون وأعينًا ولا يبصرون وآذانًا ولا يسمعون وإنى تذكرت صلاح آبائهم فعطفنى ذلك على أبنائهم فسلهم: كيف وجدوا غب طاعتى؟ وهل سعد أحدٌ ممن عصانى بمعصيتى؟ وهل شقى أحدٌ ممن أطاعنى بطاعتى؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذى أكرمت عليه آباءهم، والتمسوا الكرامة من غير وجهها، أما أحبارهم فأنكروا حقى، وأما قراؤهم فعبدوا غيرى، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا على وعلى رسلى، خزنوا المكر فى قلوبهم، وعودوا الكذب ألسنتهم. وإنى أُقسم بجلالى وعزتى لأهيجن عليهم جيولاً لا يفقهون ألسنتهم، ولا يعرفون وجوههم، ولا يرحمون بكاءهم، ولأبعثن فيهم ملكًا جبارًا قاسيًا له عساكر كقطع السحاب ومواكب كأمثال العجاج كأن خفقان راياته طيران النسور، وكأن حمل فرسانه كر العقبان يعيدون العمران خرابًا، ويتركون القرى وحشةً، فيا ويل إيلياء وسكانها، كيف أُذللهم للقتل وأسلط عليهم السباء، وأعيد بعد لجب الأعراس صراخًا، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد شرافات القصور مساكن السباع، وبعد ضوء السرج وهج العجاج، وبالعز الذل، وبالنعمة العبودية، وأُبدلن نساءهم بعد الطيب التراب، وبالمشى على الزرابى الخبب. ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض، وعظامهن ضاحيةً للشمس، ولأدوسنهم بألوان العذاب، ثم لآمرن السماء فتكون طبقًا من حديدٍ، والأرض سبيكةً من نحاسٍ، فإن أمطرت لم تنبت الأرض

وإن أنبتت شيئًا فى خلال ذلك فبرحمتى للبهائم، ثم أحبسه فى زمان الزرع وأُرسله فى زمان الحصاد فإن زرعوا فى خلال ذلك شيئًا سلطت عليه الآفة، فإن خلص منه شىءٌ نزعت منه البركة فإن دعونى لم أجبهم وإن سألوا لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم وإن تضرعوا صرفت وجهى عنهم[1]. رواه ابن عساكر بهذا اللفظ.

وقال إسحاق بن بشرٍ أنبأنا إدريس عن وهب بن منبهٍ قال: إن اللَّه تعالى لما بعث أرميا الى بنى إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصى وقتلوا الأنبياء طمع بُخْتُ نَصَّرَ فيهم وقذف اللَّه فى قلبه وحدث نفسه بالمسير إليهم، لما أراد اللَّه أن ينتقم به منهم فأوحى اللَّه إلى أرميا إنى مهلكٌ بنى إسرائيل ومنتقمٌ منهم فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمرى ووحيى. فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجدًا وقال: يا رب وددت أمى لم تلدنى حين جعلتنى آخر أنبياء بنى إسرائيل فيكون خراب بين المقدس وبوار بنى إسرائيل من أجلى. فقيل له: ارفع رأسك. فرفع رأسه فبكى، ثم قال: يا رب من تسلط عليهم؟ فقال: عبدة النيران لا يخافون عقابى ولا يرجون ثوابى قم يا أرميا فاستمع وحيى أخبرك خبرك وخبر بنى إسرائيل من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك فى رحم أمك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ نبأتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك، ولأمرٍ عظيمٍ أجتبيتك، فقم مع الملك تسدده وترشده. فكان مع الملك يرشده ويأتيه الوحىُ من اللَّه حتى عظمت الأحداث، ونسوا ما نجاهم اللَّه من عدوهم سنحاريب وجنوده فأوحى اللَّه إلى أرميا قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم فقال أرميا: يا رب إنى ضعيفٌ إن لم تقونى، عاجزٌ إن لم تبلغنى، مخطئٌ إن لم تسددنى، مخذول إن لم تنصرنى، ذليلٌ إن لم تعزنى. فقال اللَّه تعالى: أو لم تعلم إن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى، وأن الخلق والأمر كله لى، وأن القلوب والألسنة كلها بيدى فأقلبها كيف شئت فتطيعنى، فأنا اللَّه الذى ليس شىءٌ مثلى قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتى وأنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لى ولا يعلم ما عندى غيرى وأنا الذى كلمت البحار ففهمت قولى وأمرتها ففعلت أمرى وحددت عليها حدودًا فلا تعدو حدى وتأتى بأمواج كالجبال، فإذا بلغت حدى ألبستها مذلة لطاعتى وخوفًا واعترافًا لأمرى، وإنى معك ولن يصل إليك شىءٌ معى وإنى بعثتك إلى خلقٍ عظيم من خلقى؛ لتبلغهم رسالاتى فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا وإن تقصر عنها تستحق بذلك وزر من تركته فى عماية ولا ينقص ذلك

(١) رواه ابن عساكر فى التهذيب [٢/٣٨٨-٣٨٩].

من أوزارهم شيئًا، انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم: إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم؛ فلذلك استبقاكم يا معشر أبناء الأنبياء، كيف وجد آباؤكم مغبة طاعتى، وكيف وجدتم مغبة معصيتى؟ وهل وجدوا أحدًا عصانى فسعد بمعصيتى؟ وهل علموا أحدًا أطاعنى فشقى بطاعتى؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها وإن هؤلاء القوم رتعوا فى مروج الهلكة وتركوا الأمر الذى به أكرمت آباءهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادى خولا يتعبدونهم ويحكمون فيهم بغير كتابى حتى أجهلوهم أمرى وأنسوهم ذكرى وسنتى وغروهم عنى، فدان لهم عبادى بالطاعة التى لا تنبغى إلا لى فهم يطيعونهم فى معصيتى وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا نعمتى وأمنوا مكرى وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابى ونسوا عهدى فهم يحرفون كتابى ويفترون على رسلى جرأةً منهم على وغرةً بى. فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى هل ينبغى أن يكون لى شريكٌ فى ملكى وهل ينبغى لبشرٍ أن يطاع فى معصيتى وهل ينبغى لى أن أخلق عبادا أجعلهم أربابًا من دونى أو آذن لأحدٍ بالطاعة لأحدٍ وهى لا تنبغى إلا لى وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التى يبتدعون فى دينى ويطيعونهم فى معصيتى ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدى فهم جهلةٌ بما يعلمون لا ينتفعون بشىءٍ مما علموا من كتابى. وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل نصرى آباءهم والكرامة التى أكرمتهم بها، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدقٍ منهم ولا تفكرٍ ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم فى أمرى حين اغتر المغترون وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر دينى فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون منى ويرجعون فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم فى العمر، وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون وكل ذلك أمطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو، ولا يزدادون إلا طغيانًا وبعدًا منى فحتى متى هذا أَبِى يسخرون أم بى يتمرسون أم إياى يخادعون أم على يجترئون؛ فإنى أقسم بعزتى لأتيحن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ويضل فيها رأى ذوى الرأى وحكمة الحكيم، ثم لأسلطن عليهم جبارًا قاسيًا عاتيًا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة وآليت أن يتبعه عددٌ وسوادٌ مثل الليل المظلم له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج وكأن حفيف راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان يعيدون العمران خرابًا والقرى وحشًا ويعثون فى الأرض فسادًا ويتبرون ما علوا تتبيرًا قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون يجولون فى الأسواق بأصواتٍ مرتفعةٍ مثل زئير الأُسد تقشعر من هيبتها الجلود وتطيش من سمعها

الأحلام بألسنةٍ لا يفقهونها ووجوهٍ ظاهرٍ عليها المنكر لا يعرفونها. فوعزتي لأعطلن بيوتهم من كتبى وقدسى ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها ولأوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيرى ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ويتفقهون فيها لغير الدين ويتعلمون فيها لغير العمل. لأبدلن ملوكها بالعز الذل وبالأمن الخوف، وبالغنى الفقر، وبالنعمة الجوع، وبطول العافية والرخاء ألوان البلاء وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتل، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال. ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد ضوء السراج دخان الحريق، وبعد الأُنس الوحشة والقفار. ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد، وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار، وبالمشى على الزرابى عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل فى بطون الأسواق، وبالخدور والستور الحسور عن الوجوه والسوق والإسفار والأرواح السموم ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم فى حالقٍ لوصل ذلك إليه إنى إنما أكرم من أكرمنى، وإنما أهين من هان عليه أمرى. ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقًا من حديدٍ ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكةً من نحاسٍ فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت فإن أمطرت خلال ذلك شيئًا سلطت عليهم الآفةَ فإن خلص منه شيءٌ نزعت منه البركة، وإن دعونى لم أجبهم وإن سألونى لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم وإن تضرعوا صرفت وجهى عنهم وإن قالوا: اللهم أنت الذى ابتدأتنا وآبائنا من قبلنا برحمتك وكرامتك، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ثم مكنت لنا فى البلاد واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغارًا وحفظتنا وإياهم برحمتك كبارًا فأنت أوفى المنعمين فلا تغير وإن غيرنا ولا تبدل وإن بدلنا وأن تتم فضلك ومنك وطولك وإحسانك. فإن قالوا ذلك قلت لهم: إنى ابتدئ عبادى برحمتى ونعمتى، فإن قبلوا أتممت، وإن استزادوا زدت، وإن شكروا ضاعفت، وإن بدلوا غيرت وإذا غيروا غضبت وإذا غضبت عذبت وليس يقوم شيءٌ لغضبى قال كعبٌ: فقال أرميا: برحمتك أصبحت أتكلم بين يديك وهل ينبغى ذلك لى، وأنا أذل وأضعف من أن ينبغى لى أن أتكلم بين يديك ولكن برحمتك أبقيتنى لهذا اليوم وليس أحدٌ أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد منى بما رضيت به منى طولاً والإقامة فى دار الخاطئين وهم يعصونك حولى بغير نكير ولا تغييرٍ منى فإن تعذبنى فبذنبى وإن ترحمنى فذلك ظنى بك. ثم قال: يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت أتهلك هذه القرية وما حولها وهى مساكن أنبيائك ومنزل

وحيك؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التى رفعت لذكرك؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتك هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داود صفيك يا رب أى القرى تأمن عقوبتك بعد أوشليم؟ وأى العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم، وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود؟ تُسلط عليهم عبدة النيران! قال اللّه تعالى: يا أرميا من عصانى فلا يستنكر نقمتى؛ فإنى أكرمت هؤلاء القوم على طاعتى ولو أنهم عصونى لأنزلتهم دار العاصين إلا أن أتداركهم برحمتى. قال أرميا: يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به وموسى قربته نجيًا فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا. فأوحى اللّه إليه: يا أرميا إنى قدستك فى بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم، وكانوا عندى بمنزلة جنةٍ ناعم شجرها طاهرٍ ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ولكن سأشكو إلَيك بنى إسرائيل؛ إنى كنت لهم بمنزلة الداعى الشفيق أجنبهم كل قحطٍ وكل عسرةٍ وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشًا ينطح بعضها بعضًا فيا ويلهم ثم ياويلهم إنما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتى وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتى تبرعًا فيظهرونها فى المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار حتى عجت السماء إلى منهم وعجت الأرض والجبال ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها وفى كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما عملوا من الكتاب قال: فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم، وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا: كذبت وعظمت على اللّه الفرية، فتزعم أن اللّه معطلٌ أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده فمن يعبده حين لا يبقى له فى الأرض عابدٌ ولا مسجدٌ ولا كتابٌ؟ لقد أعظمت الفرية على اللّه واعتراك الجنون. فأخذوه وقيدوه وسجنوه فعند ذلك بعث اللّه عليهم بخت نصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]. قال: فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]. وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الزمنى والشيوخ والعجائز، ثم وطئهم بالخيل، وهدم بيت المقدس، وساق الصبيان وأوقف النساء فى الأسواق محسرات وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة وسأل عن دانيال الذى كتب له الكتاب فوجدوه قد مات وأخرج لهم أهل بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر،

وميشائيل، وعزرائيل، وميخائيل، فأمضى لهم ذلك الكتاب، وكان دانيال ابن حزقيل خلفا من دانيال الأكبر، ودخل بخت نصر بجنوده بيت المقدس، ووطئ الشام كلها، وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم، فلما فرغ منها انصرف راجعًا، وحمل الأموال التى كانت بها، وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام وقذف الكناسات فى بيت المقدس وذبح فيه الخنازير وكان الغلمان سبعة آلاف غلامٍ من بيت داود وأحد عشر ألفًا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلافٍ من سبط إيشا بن يعقوب وأربعة عشر ألفًا من سبط زبالون ونفتالى ابنى يعقوب وأربعة عشر ألفًا من سبط دان بن يعقوب وثمانية آلافٍ من سبط يستاخر ابن يعقوب وألفين من سبط رايلون بن يعقوب وأربعة آلافٍ من سبط روبيل ولاوى واثنى عشر ألفًا من سائر بنى إسرائيل وانطلق حتى قدم أرض بابل.

قال إسحاق بن بشرٍ: قال وهب بن منبهٍ: فلما فعل ما فعل قيل له: كان لهم صاحبٌ يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه فأمر بخت نصر فأخرج أرميا من السجن فقال له: أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم؟ قال: نعم: قال: فإنى علمت ذلك. قال: أرسلنى اللَّه إليهم فكذبونى. قال: كذبوك وضربوك وسجنوك؟ قال: نعم. قال: بئس القوم قومٌ كذبوا نبيهم، وكذبوا رسالة ربهم فهل لك أن تلحق بى فأكرمك وأواسيك وإن أحببت أن تقيم فى بلادك فقد أمنتك. قال له أرميا: إنى لم أزل فى أمان اللَّه منذ كنت لم أخرج منه ساعةً قط ولو أن بنى إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطانٌ. فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه، فأقام أرميا مكانه بأرض إيلياء وهذا سياقٌ غريبٌ وفيه حكمٌ ومواعظ وأشياء مليحةٌ وفيه من جهة التعريب غرابةٌ.

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبى: كان بخت نصر أصفهبذًا لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب وكان قد بنى مدينة بلخ التى تلقب بالخنساء وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن وبعث بخت نصر لقتال بنى إسرائيل بالشام، فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق، وقد قيل: إن الذى بعث بخت نصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب؛ وذلك لتعدى بنى إسرائيل على رسله إليهم. وقد روى ابن جريرٍ عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهبٍ عن سليمان بن بلالٍ عن يحيى بن سعيدٍ الأنصارى عن سعيد بن المسيب أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دمًا يغلى على كبًا - يعنى القمامة - فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك

سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم فسكن. وهذا إسنادٌ صحيح إلى سعيد بن المسيب وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا وهذا لا يصح؛ لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدةٍ والظاهر أن هذا دم نبى متقدم أو دمٌ لبعض الصالحين أو لمن شاء اللّه ممن اللّه أعلم به. قال هشام بن الكلبى: ثُم قدم بخت نصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وصانعه عن بنى إسرائيل وأخذ منه بخت نصر رهائن ورجع، فلما بلغ طبرية بلغه أن بنى إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوةً وقتل المقاتلة وسبى الذرية. قال: وبلغنا أنه وجد فى السجن أرميا النبى فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه، فقال بخت نصر: بئس القوم قومٌ عصوا رسول اللّه وخلى سبيله وأحسن إليه: واجتمع إليه من بقى من ضعفاء بنى إسرائيل، فقالوا: إنا قد أسأنا وظلمنا، ونحن نتوب إلى اللّه عز وجل مما صنعنا فادع اللّه أن يقبل توبتنا. فدعا ربه فأوحى اللّه إليه أنه غير فاعلٍ، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة فأخبرهم ما أمره اللّه تعالى به فقالوا: كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب اللّه على أهلها فأبوا أن يقيموا قال ابن الكلبى: ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل فى البلاد فنزلت طائفةٌ منهم الحجاز وطائفةٌ يثرب وطائفةٌ وادى القرى وذهبت شرذمةٌ منهم إلى مصر فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه فركب فى جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية. قال: ثم انصرف بسبيٍ كثيرٍ من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن وفى السبى دانيال. قلت: والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن منبهٍ. واللّه أعلم.

☆☆☆

ذكر شيء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبى الدنيا: حدثنى أحمد بن عبد الأعلى الشيبانى قال: إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثنى بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكندى عن عبد اللّه بن أبى الهذيل قال: ضرى بخت نصر أسدين فألقاهما فى جبٍّ وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه فمكث ما شاء اللّه ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب فأوحى اللّه إلى أرميا وهو بالشام: أن أعدد طعاما وشرابا لدانيال. فقال: يا رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق. فأوحى اللّه إليه: أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت. ففعل وأرسل اللّه إليه من حمله وحمل ما أعد حتى وقف على رأس الجب فقال: دانيال، دانيال فقال: من هذا؟ قال: أنا أرميا. فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلنى إليك ربك قال: وقد ذكرنى ربى؟ قال: نعم فقال دانيال: الحمد للّه الذى لا ينسى من ذكره، والحمد للّه الذى لا يخيب من رجاه، والحمد للّه الذى من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد للّه الذى يجزى بالإحسان إحسانًا، والحمد للّه الذى يجزى بالصبر نجاةً، والحمد للّه الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد للّه الذى هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا، والحمد للّه الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا.

وقال يونس بن بكيرٍ عن محمد بن إسحاق عن أبى خلد بن دينارٍ حدثنا أبو العالية قال: لما افتتحنا تستر وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريرًا عليه رجلٌ ميتٌ عند رأسه مصحفٌ فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية فأنا أول رجلٍ من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبى العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائنٌ بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها؛ لنعميه على الناس فلا ينبشونه قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: من كنتم تظنون الرجل؛ قال: رجلٌ يقال له: دانيال قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلثمائة سنةٍ. قلت: ما تغير منه شيءٌ؟ قال: لا إلا شعرات من قفاه. إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى أبى العالية، ولكن إن كان

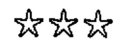
تاريخ وفاته محفوظًا من ثلثمائة سنةٍ فليس بنبيٍّ بل هو رجلٌ صالحٌ؛ لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبيٌّ بنص الحديث الذى فى البخارى[١]، والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنةٍ، وقيل: ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنةً. وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنةٍ وهو قريبٌ من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما فى نفس الأمر؛ فإنه قد يكون رجلاً آخر؟ إما من الأنبياء أو الصالحين، ولكن قربت الظنون أنه دانيال؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونًا كما تقدم. وقد روى بإسنادٍ صحيح إلى أبى العالية أن طول أنفه شبرٌ وعن أنس بن مالكٍ بإسنادٍ جيدٍ أن طول أنفه ذراعٌ فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد والله أعلم.

وقد قال أبو بكرٍ بن أبى الدنيا فى كتاب «أحكام القبور»: حدثنا أبو بلالٍ محمد ابن الحارث بن عبد الله بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى حدثنا أبو محمدٍ القاسم ابن عبد الله عن أبى الأشعث الأحمرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن دانيال دعا ربه عز وجل أن يدفنه أمة محمدٍ». فلما افتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده وقد كان رسول الله ﷺ قال: «من دل على دانيال فبشروه بالجنة». فكان الذى دل عليه رجلٌ يقال له: حرقوصٌ فكتب أبو موسى إلى عمر بخبره، فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إلى حرقوصٍ؛ فإن النبى ﷺ بشره بالجنة، وهذا مرسلٌ من هذا الوجه، وفى كونه محفوظًا نظرٌ والله أعلم.

ثم قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أبو بلالٍ حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيدٍ - وكان عالمًا - قال: وجد أبو موسى مع دانيال مصحفًا وجرةً فيها ودكٌ ودراهم وخاتمة فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر: أما المصحف فابعث به إلينا، وأما الودك فابعث إلينا منه، ومُر من قبلك من المسلمين يستشفون به، واقسم الدراهم بينهم، وأما الخاتم فقد روى عن ابن أبى الدنيا من غير وجهٍ أن أبا موسى لما وجده، وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعًا قريبًا من عشرة آلاف درهم وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وأن عنده ربعةً فأمر عمر بأن يغسّل بماءٍ وسدرٍ ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحدٌ وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه. وروى عن أبى موسى أنه أمر أربعةً من الأسراء فسكروا نهرًا وحفروا فى وسطه قبرًا فدفنه فيه ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(١) رواه البخارى [٣٤٤٢].

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى إبراهيم بن عبد اللّه حدثنا أحمد بن عمروٍ بن السرح حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال: رأيت فى يد أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى خاتمًا نقش فصه أسدان بينهما رجلٌ يلحسان ذلك الرجل قال أبو بردة: هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه. قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا: إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنه يولد ليلة كذا وكذا غلامٌ يعور ملكك ويفسده. فقال الملك: واللّه لا يبقى تلك الليلة غلامٌ إلا قتلته. إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه اللّه بذلك حتى بلغ ما بلغ. قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتمه؛ لئلا ينسى نعمة اللّه عليه فى ذلك إسنادٌ حسنٌ.



ذكر عمارة بيت المقدس
بعد خرابها واجتماع بنى إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض

قال اللّه تعالى فى كتابه المبين وهو أصدق القائلين: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال هشامٌ بن الكلبى: ثم أوحى اللّه تعالى إلى أرميا عليه السلام - فيما بلغنى - إنى عامرٌ بيت المقدس فاخرج إليها فأنزلها فخرج حتى قدمها وهى خرابٌ فقال فى نفسه: سبحان اللّه، أمرنى اللّه أن أنزل هذه البلدة وأخبرنى أنه عامرها فمتى يعمرها ومتى يحييها اللّه بعد موتها؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلةٌ من طعام فمكث فى نومه سبعين سنةً حتى هلك بخت نصر، والملك الذى فوقه وهو لهراسبٌ، وكان ملكه مائةً وعشرين سنةً وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بخت نصر فى دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خرابٌ وأن السباع قد كثرت فى أرض فلسطين، فلم يبق بها من الإنس أحدٌ فنادى فى أرض بابل فى بنى إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع وملك عليهم رجلا من آل داود، وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبنى مسجدها فرجعوا فعمروها وفتح اللّه لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر ومكث فى نومه ذلك حتى تمت له مائة سنةٍ ثم بعثه اللّه وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعةٍ وقد عهد المدينة خرابًا فلما نظر إليها عامرة آهلةً قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال: فأقام بنو اسرائيل بها ورد اللّه عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم فى زمن ملوك الطوائف ثم لم يكن لهم جماعةٌ ولا سلطانٌ يعنى بعد ظهور النصارى عليهم هكذا حكاه ابن جرير فى «تاريخه» عنه. وذكر ابن جريرٍ أن لهراسب كان ملكًا عادلاً سائسًا لمملكته، قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأيٍ جيدٍ فى عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل ثم لما ضعف عن تدبير

المملكة بعد مائة سنةٍ ونيفٍ نزل عن الملك لولده بشتاسب فكان فى زمانه ظهور دين المجوسية؛ وذلك أن رجلاً كان اسمه زرادشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا فبرص زرادشت فذهب فلحق بأرض أذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذى اخترعه من تلقاء نفس لعنه الله فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا ممن أباه منهم. ثم كان بعد بشتاسب يهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بخت نصر لكل واحدٍ من هؤلاء الثلاثة وعمر دهرًا طويلاً قبحه اللّه.

والمقصود أن هذا الذى ذكره ابن جريرٍ من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام قاله وهب بن منبهٍ وعبد اللّه بن عبيد بن عميرٍ وغيرهما وهو قوى من حيث السياق المتقدم. وقد روى عن على وعبد اللّه بن سلامٍ وابن عباسٍ والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بريدة وغيرهم أنه عزيرٌ وهذا أشهرَ عند كثيرٍ من السلف والخلف واللّه أعلم.



قصة العزير

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: هو عزير بن حيوة ويقال: ابن سوريق بن عرنا ابن أيوب بن درثنا بن عرى بن تقى بن السبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران. ويقال: عزير بن شروخا جاء فى بعض الآثار أن قبره بدمشق. ثم ساق من طريق أبى القاسم البغوى عن داود بن عمرو عن حبان بن علىّ عن محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباسٍ مرفوعًا: لا أدرى ألعن تبع أم لا، ولا أدرى أكان عزيرٌ نبيًا أم لا؟ ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السجزى عن عبد الرزاق عن معمرٍ عن ابن أبى ذئب عن سعيدٍ المقبرى عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه.

ثم روى من طريق إسحاق بن بشرٍ وهو متروكٌ عن جويبرٍ ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن عزيرًا كان ممن سباه بخت نصر وهو غلامٌ حدثٌ فلما بلغ أربعين سنةً أعطاه اللَّه الحكمة، قال: ولم يكن أحدٌ أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه. قال: وكان يذكر مع الأنبياء حتى محا اللَّه اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر وهذا ضعيفٌ ومنقطعٌ ومنكرٌ. واللَّه أعلم.

وقال إسحاق بن بشرٍ عن سعيد عن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد اللَّه بن سلامٍ: أن عزيرًا هو العبد الذى أماته اللَّه مائة عامٍ ثم بعثه.

وقال إسحاق بن بشرٍ: أنبأنا سعيد بن بشيرٍ عن قتادة عن كعبٍ وسعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتلٌ وجويبرٌ عن الضحاك عن ابن عباسٍ وعبد اللَّه بن إسماعيل السدى عن أبيه عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ وإدريس عن جده وهب بن منبهٍ قال إسحاق ابن بشر: كل هؤلاء حدثونى عن حديث عزيرٍ وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم: إن عزيرًا كان عبدًا صالحًا حكيمًا خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها فلما انصرف انتهى إلى خربةٍ حين قامت الظهرية وأصابه الحَر ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلةٌ فيها تينٌ وسلةٌ فيها عنبٌ فنزل فى ظل تلك الخربة وأخرج قصعةً معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة، ثم أخرج خبزًا يابسًا معه فألقاه فى تلك القصعة فى العصير؛ ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط فنظر سقف تلك البيوت، ورأى ما فيها وهى قائمةٌ على عروشها وقد باد أهلها ورأى عظامًا بالية فقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. فلم يشك أن اللَّه يحييها ولكن قالها تعجبًا فبعث اللَّه ملك الموت فقبض روحه فأماته اللَّه مائة عام فلما أتت عليه مائة عام وكانت فيما بين ذلك فى بنى إسرائيل أمورٌ وأحداثٌ قال: فبعثَ

اللَّه إلى عزيرٍ ملكًا فخلق قلبه ليعقل وعينيه لينظر بهما؛ فيعقل كيف يحيى اللَّه الموتى ثم ركب خلقه وهو ينظر ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالسًا فقال له الملك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب فقال: أو بعض يوم ولم يتم لى يومٌ فقال له الملك: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ يعنى الطعام: الخبز اليابس، وشرابه. العصير الذى كان اعتصره فى القصعة، فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس فذلك قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. يعنى لم يتغير، وكذلك التين والعنب غضٌ لم يتغير عن شىءٍ من حالهما، فكأنه أنكر فى قلبه فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك؟ انظر إلى حمارك. فنظر فإذا حماره قد بليت عظامه وصارت نخرةً فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحيةٍ حتى ركبه الملك وعزيرٌ ينظر إليه ثم ألبسها العروق والعصب ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعًا رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقًا يظن القيامة قد قامت فذلك قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩]. يعنى وانظر إلى عظام حمارك كيف نركب بعضها بعضًا فى أوصالها حتى إذا صارت عظامًا مصورًا حمارًا بلا لحم ثم انظر كيف نكسوها لحمًا، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. من إحياء الموتى وغيره قال: فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر منازلهم فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوزٍ عمياء مقعدةٍ قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنةً كانت أمةً لهم، فخرج عنهم عزيرٌ وهى بنت عشرين سنةً كانت عرفته وعقلته، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة فقال لها عزيرٌ: يا هذه، أهذا منزل عزيرٍ؟ قالت: نعم هذا منزل عزير فبكت وقالت: ما رأيت أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرًا. وقد نسيه الناس. قال: فإنى أنا عزيرٌ كان اللَّه قد أماتنى مائة سنةٍ ثم بعثنى. قالت: سبحان اللَّه فإن عزيرًا قد فقدناه منذ مائة سنةٍ فلم نسمع له بذكرٍ قال: فإنى أنا عزيرٌ قالت: فإن عزيرًا رجلٌ مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء فادع اللَّه أن يرد على بصرى حتى أراك فإن كنت عزيرًا عرفتك قال: فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال: قومى بإذن اللَّه فأطلق اللَّه رجليها فقامت صحيحةً كأنما نشطت من عقالٍ فنظرت فقالت: أشهد أنك عزيرٌ وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابن لعزيرٍ شيخٌ ابن مائة سنةٍ وثمانى عشر سنةً وبنى بنيه شيوخٌ فى المجلس فنادتهم فقالت: هذا عزير قد جاءكم. فكذبوها فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى وزعم أن اللَّه أماته

مائة سنةٍ ثم بعثه قال: فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه: كانت- لأبى شامةٌ سوداء بين كتفيه فكشف عن كتفيه فإذا هو عزيرٌ فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحدٌ حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزيرٍ وقد حرق بخت نصر التوراة ولم يبق منها شيءٌ إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا. وكان أبوه سروخا وقد دفن التوراة أيام بخت نصر فى موضع لم يعرفه أحدٌ غير عزيرٍ فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب قال: وجلس فى ظل شجرةٍ وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل فمن ثم قالت اليهود: عزيرٌ ابن اللَّه -جل اللَّه وعز- للذى كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بنى إسرائيل وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل والقرية التى مات فيها يقال لها: سايراباذ قال ابن عباسٍ: فكان كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. يعنى لبنى إسرائيل وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخٌ وهو شابٌ؛ لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه اللَّه شابًا كهيئة يوم مات قال ابن عباسٍ: بعث بعد بخت نصر وكذلك قال الحسن.

وقد أنشد أبو حاتم السجستانى فى معنى ما قاله ابن عباسٍ:

وأسود رأس شاب من قبله ابنه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى ابن ابنه شيخًا يدب على عصا ... ولحيته سوداء والرأس أشقر
وما لابنه حيل ولا فضل قوةٍ ... يقوم كما يمشى الصبى فيعثر
يعد ابنه فى الناس تسعين حجة ... وعشرين لا يجرى ولا يتبختر
وعمر أبيه أربعون أمرها ... ولابن ابنه تسعون فى الناس عبر
فما هو فى المعقول إن كنت داريا ... وإن كنت لا تدرى فبالجهل تعذر

فصل

المشهور أن عزيرًا نبيٌ من أنبياء بنى إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه اللَّه حفظها فسردها على بنى إسرائيل كما قال وهب بن منبهٍ: أمر اللَّه ملكًا فنزل بمغرفةٍ من نورٍ فقذفها فى عزيرٍ فنسخ التوراة حرفًا بحرفٍ حتى فرغ منها.

وروى ابن عساكر عن ابن عباسٍ أنه سأل عبد اللَّه بن سلام عن قول اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه وقول بنى إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتابٍ وإن عزيرًا قد جاءنا بها من غير كتابٍ. فرماه طوائف منهم، وقالوا: عزيرٌ ابن اللَّه. ولهذا يقول كثيرٌ من العلماء: إن تواتر التوراة انقطع

فى زمن العزير. وهذا متجهٌ جدًا إذا كان العزيز غير نبيٍّ كما قاله عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى وفيما رواه إسحاق بن بشرٍ عن مقاتل بن سليمان عن عطاءٍ وعن عثمان بن عطاءٍ الخراسانى عن أبيه ومقاتلٌ عن عطاء بن أبى رباح قال: كان فى الفترة تسعة أشياء: بخت نصر وجنة صنعاء وجنة سبأٍ وأصحابَ الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع.

وقال إسحاق بن بشرٍ: أنبأنا سعيدٌ عن قتادة عن الحسن قال: كان أمر عزيرٍ وبخت نصر فى الفترة. وقد ثبت فى «الصحيح» أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بينى وبينه نبىٌّ»[1]. وقال وهب بن منبهٍ: كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام.

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالكٍ وعطاء بن السائب أن عزيرًا كان فى زمن موسى بن عمران وأنه استأذن عليه فلم يأذن له - يعنى لما كان من سؤاله عن القدر - وأنه انصرف وهو يقول: مائة موتةٍ أهون من ذل ساعةٍ. وفى معنى قول عزيرٍ: مائة موتةٍ أهون من ذل ساعةٍ. قول بعض الشعراء:

قد يصبر الحر على السيف ... ويأنف الصبر على الحيف
ويؤثر الموت على حالة ... يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباسٍ ونوفٍ البكالى وسفيان الثورى وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكرِ الأنبياء. فهو منكرٌ وفى صحته نظرٌ وكأنه مأخوذٌ عن الإسرائيليات. وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيدٍ عن جعفر بن سليمان عن أبى عمران الجونى عن نوفٍ البكالى قال: قال عزيرٌ فيما يناجى ربه: يا رب تخلق خلقًا فتضل من تشاء وتهدى من تشاء. فقيل له: أعرض عن هذا فعاد فقيل له لتعرضن عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء إنى لا أسأل عما أفعل، وهم يسألون. وهذا يقتضى وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محى اسمه واللَّه أعلم.

وقد روى الجماعة سوى الترمذى من حديث يونس بن يزيد عن الزهرى عن سعيدٍ وأبى سلمة عن أبى هريرة وكذلك رواه شعيبٌ عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «نزل نبىٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ فلدغته نملةٌ فأمر بجهازه فأُخرج من تحتها ثم أمر بها فأُحرقت فأوحى اللَّه إليه: فهلا نملة واحدة»[2].
فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريجٍ عن عبد الوهاب بن مجاهدٍ عن أبيه أنه عزيرٌ.

وكذا روى عن ابن عباسٍ والحسن البصرى أنه عزيرٌ فالله علم.

---

(١) رواه البخارى [٣٤٤٢].

(٢) رواه البخارى [٣٣٠٩]، ومسلم [١٤٩/٢٢٤١]، وأبو داود [٥٢٦٦]، والنسائى [٤٣٦٩]، وابن ماجه [٣٢٢٥].

قصة زكريا ويحيى
عليهما السلام

قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم]

وقال تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١ ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٥]. قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه «التاريخ» المشهور الحافل: زكريا بن حنا ويقال: زكريا بن دانٍ، يقال: زكريا بن أدن بن مسلم بن صدوق بن محمان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برحية بن ملقاطية بن ناحور بن سلوم بن بهفانيا بن حاش بن أنى بن خثعم بن سليمان بن داود أبو يحيى النبى عليه السلام من

بنى إسرائيل دخل البثنية من أعمال دمشق فى طلب ابنه يحيى. وقيل: إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى. واللَّه أعلم. وقد قيل غير ذلك فى نسبه. ويقال فيه: زكريا؛ بالمد وبالقصر. ويقال: زكريٌّ أيضا.

والمقصود أن اللَّه تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام، وما كان من أمره حين وهبه اللَّه ولدًا على الكبر، وكانت امرأته عاقرًا فى حال شبيبتها وقد أسنت أيضًا؛ حتى لا ييأس أحدٌ من فضل اللَّه ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس فقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾ [مريم]. قال قتادة عند تفسيرها: إن اللَّه يعلم القلب النقى ويسمع الصوت الخفى. وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداةً أسرها عمن كان حاضرًا عنده؛ مخافةً فقال: يا رب يا رب يا رب. فقال اللَّه: لبيك لبيك لبيك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ [مريم: ٤]. أى: ضعف وخار من الكبر. ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]. استعارةٌ من اشتعال النار فى الحطب أى غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريدٍ فى مقصورته:

أمـا تـرى رأسـى حـاكـى لـونـه	طـرة صبـح تـحـت أذيـال الـدجـى
واشـتـعـل الـمـبـيـض فـى مـسـوده	مثل اشتعال النار فى جزل الغضا
وآض روض الـلـهـو يـبـسـا ذاويـا	من بعد ما قد كان مجاج الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطنًا وظاهرًا وهكذا قال زكريا عليه السلام: ﴿ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]. وقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤]. أى: ما عودتنى فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهةً فى غير أوانها ولا فى أوانها وهذه من كرامات الأولياء فعلم أن الرازق للشئ فى غير أوانه قادرٌ على أن يرزقه ولدًا وإن كان قد طعن فى سنه ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨]. وقوله: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ [مريم: ٥]. قيل: المراد بالموالى العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده فى بنى إسرائيل بما لا يوافق شرع اللَّه وطاعته، فسأل وجود ولدٍ من صلبه يكون برًا تقيًا مرضيًا ولهذا قال: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥]. أى: من عندك بحولك وقوتك ﴿ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى ۝٦ ﴾ [مريم]. أى: فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٦]. يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى. وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من

زعمه من الشيعة، ووافقهم ابن جرير ههنا وحكاه عن أبى صالح من السلف لوجوهٍ: أحدها ما قدمنا عند قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]. أى: فى النبوة والملك كما ذكرنا فى الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى فى «الصحاح» «والمسانيد» و «السنن» وغيرها من طرقٍ عن جماعةٍ من الصحابة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا نورث ما تركناه فهو صدقةٌ»[١]. فهذا نصٌ على أن رسول اللَّه ﷺ لا يورث ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به فى حياته إلى أحدٍ من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم وهم: ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضى اللَّه عنهم، واحتج عليهم الصديق فى منعه إياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول اللَّه ﷺ؛ عمر ابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالبٍ، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوفٍ، وطلحة، والزبير، وأبو هريرة، وآخرون رضى اللَّه عنهم. الثانى: أن الترمذى رواه بلفظٍ يعم سائر الأنبياء: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث». وصححه. الثالث: أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها، أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولادَ ليحوزوها بعدهم، فإن من لا يصل إلى قريبٍ من منازلهم فى الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها. الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نجارًا يعمل بيده، ويأكل من كسبها كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده، والغالب - ولا سيما من مثل حال الأنبياء - أنه لا يُجهد نفسه فى العمل إجهادًا يستفضل منه مالا يكون ذخيرةً له يخلفه من بعده وهذا أمرٌ بينٌ واضحٌ لكل من تأمله بتدبر وتفهم إن شاء اللَّه.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد - يعنى ابن هارون - أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابتٍ عن أبى رافعٍ عن أبى هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كان زكريا نجارًا»[٢].

وكذا رواه مسلمٌ، وابن ماجه من غير وجهٍ عن حماد بن سلمة به. وقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]. وهذا مفسر بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]

فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم - على وجه التعجب - وجود الولد والحالة هذه له: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨]. أى: كيف يوجد ولدٌ من شيخ كبيرٍ. قيل: كان عمره إذ ذاك سبعًا وسبعين سنةً والأشبه واللَّه أعلم أنه كان أسن من ذلك. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥].

(١) رواه البخارى [٣٠٩٤]، ومسلم [٤٩/١٧٥٧]، وأحمد فى المسند [١/ ٤، ٦، ٩]، والترمذى [١٦١٠]، وأبو داود [٢٩٧٦]، والنسائى [٤١٥٩].

(٢) رواه مسلم [١٦٩/٢٣٧٩]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٩٦]، وابن ماجه [٢١٥٠].

يعنى وقد كانت امرأتى فى حال شبيبتها عاقرًا لا تلد. واللّه أعلم. كما قال الخليل: ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤].

وقالت سارة: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود]. وهكذا أجيب زكريا عليه السلام؛ قال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٩]. أى: هذا سهلٌ يسير عليه. ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩]. أى: قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا أفلا يوجِد منك ولدًا وإن كنت شيخًا كبيرًا؟! وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت. وقيل: كان فى لسانها شىءٌ أى: بذاءةٌ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ [مريم: ١٠]. أى: علامةً على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به. ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٠].

يقول: علامة ذلك أن يعتريك سكتٌ لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزًا، وأنت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية. وأُمر بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسرورًا بها على قومه من محرابه. ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١]. والوحى ههنا هو الأمر الخفى؛ إما بكتابة كما قاله مجاهدٌ والسدى، أو إشارةٍ كما قاله مجاهدٌ - أيضًا - ووهبٌ وقتادة. قال مجاهدٌ وعكرمة ووهبٌ والسدى وقتادة: اعتقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيدٍ: كان يقرأ ويُسبح ولكن لا يستطيع كلام أحدٍ.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢]. يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن اللّه علمه الكتاب والحكمة وهو صغيرٌ فى حال صباه. قال عبد اللّه بن المبارك: قال معمرٌ: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. فقال: ما للعب خُلقنا. قال: وذلك قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾. وأما قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مريم: ١٣]. فروى ابن جريرٍ عن عمرو بن دينارٍ عن عكرمة عن ابن عباسٍ أنه قال: لا أدرى ما الحنان وعن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وعكرمة وقتادة والضحاك: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾. أى رحمةً من عندنا رحمنا بها زكريا، فوهبنا له هذا الولد.

وعن عكرمة: ﴿ وَحَنَانًا ﴾ أى: محبةً عليه. ويحتمل أن يكون ذلك صفةً لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما.

وأما الزكاة فهو طهارة القلب وسلامته من النقائص والرذائل. والتقوى طاعة الله؛ بامتثال أوامره وترك زواجره. ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمرًا ونهيًا، وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

ثم قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]. هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان؛ فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه؛ ولهذا يستهل صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمومها وكذلك إذا فارق هذه الدار، وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرورٍ ومحبورٍ ومن محزونٍ ومثبورٍ وما بين مجبور ومكسور وفريقٍ فى الجنة وفريقٍ فى السعير. ولقد أحسن بعض الشعراء حيث قال:

ولدتك أمك باكيًا مستصرخًا ... والناس حولك يضحكون سرورًا
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... فى يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطنٍ منها فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى: استغفر لى أنت خيرٌ منى فقال له الآخر: استغفر لى أنت خيرٌ منى فقال له عيسى: أنت خيرٌ منى؛ سلمت على نفسى وسلم الله عليك. فعرف والله فضلهما.

وأما قوله فى الآية الأخرى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]. فقيل: المراد بالحصور الذى لا يأتى النساء. وقيل غير ذلك وهو أشبه لقوله: ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حمادٌ أنبأنا على بن زيدٍ عن يوسف بن مهران عن ابن عباسٍ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئةٍ ليس يحيى بن زكريا وما ينبغى لأحدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى عليه السلام»(١).

على بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحدٍ من الأئمة وهو منكر الحديث، وقد رواه ابن خزيمة والدارقطنى من طريق أبى عاصم العبادانى عن على بن زيد بن جدعان به مطولاً ثم قال ابن خزيمة: وليس على شرطنا.

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٢٥٤] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

وقال ابن وهب: حدثنى ابن لهيعة عن عقيلٍ عن ابن شهابٍ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يومًا وهم يتذاكرون فضل الأنبياء، فقال قائل: موسى كليم الله.

وقال قائلٌ: عيسى روح الله وكلمته. وقائل يقول: إبراهيم خليل الله. فخرج النبى ﷺ وهم يذكرون ذلك فقال: «أين الشهيد أين الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب». قال ابن وهبٍ: يريد يحيى بن زكريا وقد رواه محمد بن إسحاق: وهو مدلسٌ عن يحيى بن سعيدٍ الأنصارى عن سعيد بن المسيب حدثنى ابن العاص: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنبٌ إلا ما كان من يحيى بن زكريا». فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ههنا. ثم قد رواه عبد الرزاق عن معمرٍ عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلاً. ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبى أسامة عن يحيى بن سعيدٍ الأنصارى به.

ثم قد رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى خطيب دمشق حدثنا محمد بن الأصبهانى حدثنا أبو خالدٍ الأحمر عن يحيى بن سعيدٍ عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمروٍ قال: ما أحدٌ إلا يلقى الله بذنبٍ إلا يحيى بن زكريا ثم تلا. ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]. ثم رفع شيئًا من الأرض فقال: ما كان معه إلا مثل هذا ثم ذبح ذبحًا وهذا موقوفٌ من هذه الطريق، وكونه موقوفًا أصح من رفعه. والله أعلم. وأورده ابن عساكر من طرقٍ عن معمرٍ من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشرٍ وهو ضعيفٌ عن عثمان بن ساج عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذٍ عن النبى ﷺ بنحوه.

وروى من طريق أبى داود الطيالسى وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبى نعم عن أبيه عن أبى سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابنى الخالة يحيى وعيسى عليها السلام».

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهانى: حدثنا إسحاق بن أحمد حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا أحمد بن أبى الحوارى سمعت أبا سليمان يقول: خرج عيسى ابن مريم ويحيى ابن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأةً فقال له عيسى: يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبدًا. قال: وما هى يا ابن خالة؟ قال: امرأةٌ صدمتها. قال: والله ما شعرت بها. قال: سبحان الله بدنك معى فأين روحك؟ قال: معلقٌ بالعرش ولو أن قلبى اطمأن إلى جبريل لظننت أنى ما عرفت الله طرفة عينٍ. فيه غرابةٌ. وهو من الإسرائيليات وقال إسرائيل عن أبى حصينٍ عن خيثمة قال: كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنى خالةٍ وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحدٍ منهما دينارٌ ولا درهمٌ ولا عبدٌ ولا أمةٌ ولا ما

يأويان إليه، أينما جنهما الليل أويا، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصنى قال: لا تغضب قال: لا أستطيع إلا أن أغضب قال: لا تقتن مالاً قال: أما هذه فعسى.

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبهٍ هل مات زكريا عليه السلام موتًا أو قتل قتلًا؟ على روايتين: فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنانٍ عن أبيه عن وهب بن منبهٍ أنه قال: هرب من قومه فدخل شجرةً فجاءوا فوضعوا المنشار عليها فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أن فأوحى الله إليه: لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها فسكن أنينه حتى قطع باثنتين. وقد روى هذا فى حديثٍ مرفوعٍ سنورده بعد إن شاء الله. وروى إسحاق بن بشرٍ عن إدريس بن سنانٍ عن وهبٍ أنه قال: الذى انصدعت له الشجرة هو أشعيا فأما زكريا فمات موتا فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان أنبأنا أبو خلفٍ موسى بن خلفٍ كان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطورٍ عن الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال: إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلماتٍ أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلماتٍ أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فأما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن فقال: يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعذب أو يُخسف بى. قال: فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلماتٍ أن أعمل بهن؛ وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدًا من خالص ماله بورقٍ أو ذهبٍ فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده فأيكم سره أن يكون عبده كذلك وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرةٌ من مسكٍ فى عصابةٍ كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرًا فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ طلبه العدو سراعًا فى إثره فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل. قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمسٍ، الله أمرنى بهن؛ بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد فى سبيل الله، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم. قالوا: يا رسول الله وإن

صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلمٌ ادعوا المسلمين بأسمائهم، بما سماهم اللَّه عز وجل المسلمين المؤمنين عباد اللَّه عز وجل»[(١)].

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالدٍ عن أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثيرٍ.

وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به. ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمارٍ عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلامٍ عن أخيه زيد بن سلامٍ عن أبي سلامٍ عن الحارث الأشعري به.

ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمدٍ الطاطري عن معاوية بن سلام عن أخيه به ثم قال: تفرد به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام قلت: وليس كما قال[(٢)].

ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة عن أبي توبة الربيع بن يافع عن معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام هذه الرواية ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفرٍ الرازي عن أبيه عن الربيع ابن أنسٍ قال: ذكر لنا عن أصحاب رسول اللَّه ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أُرسل بخمس كلماتٍ. وذكر نحو ما تقدم. وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس، إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان، ويقول: من أنعم منك يا يحيى. وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديدًا؛ لما هو فيه من العبادة والخوف من اللَّه عز وجل وقال ابن وهبٍ عن مالكٍ عن حميد بن قيسٍ عن مجاهدٍ قال: كان طعام يحيى بن زكريا العشب، وإن كان ليبكي من خشية اللَّه حتى لو كان القار على عينيه لحرقه وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني عقيلٌ عن ابن شهابٍ قال: جلست يومًا إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعامًا؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاما إنما كان يأكل مع الوحش؛ كراهة أن يخالط الناس في معايشهم. وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيامٍ فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبرًا وأقام فيه يبكي

---

(١) رواه أحمد في المسند [٤/ ١٣٠] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٢) رواه الترمذي [٢٨٦٣، ٢٨٦٤] وصححه الألباني، والطبراني في المعجم الكبير [٣/ ٢٨٧/ ٣٤٣٠]، وأبو يعلى في المسند [١٥٧١] وقال محققه: إسناده صحيح.

على نفسه فقال: يا بنى أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبرٍ قد احتفرته قائمٌ تبكى فيه؟! فقال: يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بينَ الجنة والنار مفازةً لا يقطع إلا بدموع البكائين؟ فقال له: ابك يا بنى فبكيا جميعًا وهكذا حكاه وهب بن منبهٍ ومجاهدٌ بنحوه. وروى ابن عساكر عنه أنه قال: إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغى للصديقين أن لا يناموا؛ لما فى قلوبهم من نعيم المحبة للَّه عز وجل ثم قال: كم بين النعيمين وكم بينهما. وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء فى خديه من كثرة دموعه.

☆☆☆

بيان سبب قتل يحيى
عليه السلام

وذكروا فى قتله أسبابًا كثيرة؛ من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزوجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طستٍ إلى عندها فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها وقيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعثت من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طست.

وقد ورد معناه فى حديثٍ رواه إسحاق بن بشرٍ فى كتابه «المبتدأ» حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفى عن عمرو بن ميمونٍ عن أبيه عن ابن عباسٍ أن رسول اللّه ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا فى السماء فسلم عليه وقال له: يا أبا يحيى خبرنى عن قتلك كيف كان؟ ولم قتلك بنو اسرائيل؟ قال: يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه وكان أجملهم وأصبحهم وجهًا وكان كما قال اللّه تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾. وكان لا يحتاج إلى النساء؛ فهوته امرأة ملك بنى إسرائيل وكانت بغيةً فأرسلت إليه وعصمه اللّه وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى ولهم عيدٌ يجتمعون فى كل عام؛ وكانت سنة الملك أن بعد ولا يخلف ولا يكذب قال: فخرج الملك إلى العيد فَقامت امرأته فشيعته وكان بها معجبًا ولم تكن تفعله فيما مضى فلما أن شيعته قال الملك: سلينى فما سألتنى شيئًا إلا أعطيتك قالت: أريد دم يحيى بن زكريا قال لها: سلينى غيره قالت: هو ذاك قال: هو لك قال: فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو فى محرابه يصلى، وأنا إلى جانبه أصلى. قال: فذبح فى طست وحمل رأسه ودمه إليها. قال: فقال رسول اللّه ﷺ: فما بلغ من صبرك؟ قال: ما انفتلت من صلاتى قال: فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف اللّه بالملك وأهل بيته وحشمه فلما أصبحوا قالت بنو اسرائيل: قد غضب إله زكريا لزكريا، فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا قال: فخرجوا فى طلبى ليقتلونى وجاءنى النذير فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم على فلما أن تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لى شجرةٌ فنادتنى وقالت: إلى إلى. وانصدعت لى ودخلت فيها قال: وجاء

إبليس حتى أخذ بطرف ردائى والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائى خارجًا من الشجرة وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة؟ هذا طرف ردائه دخلها بسحره. فقالوا: نحرق هذه الشجرة فقال: إبليس: شقوه بالمنشار شقا. قال: فشققت مع الشجرة بالمنشار. قال له النبى ﷺ: هل وجدت له مسًا أو وجعًا؟ قال: لا إنما وجدت ذلك الشجرة التى جعل اللّه روحى فيها هذا سياقٌ غريبٌ جدًا وحديثٌ عجيبٌ ورفعه منكرٌ وفيه ما ينكر على كل حالٍ ولم نر فى شىءٍ من أحاديث الإسراء ذكرًا لزكريا عليه السلام إلا فى هذا الحديث وإنما المحفوظ فى بعض ألفاظ الصحيح فى حديث الإسراء: فمررت بابنى الخالة يحيى وعيسى. وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث؛ فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران وقيل: بل أشياع وهى امرأة زكريا أم يحيى هى أخت حنة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم.

ثم اختلف فى مقتل يحيى بن زكريا هل كان فى المسجد الأقصى أم بغيره؟ على قولين: فقال الثورى عن الأعمش عن شمر بن عطية قال: قُتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبيًا منهم يحيى بن زكريا عليه السلام. وقال أبو عبيدٍ القاسم بن سلامٍ: حدثنا عبد اللّه بن صالحٍ عن الليث عن يحيى بن سعيدٍ عن سعيد بن المسيبِ قال: قدم بخت نصر دمشقَ فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفًا فسكن. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضى أنه قتل بدمشق وأن قصة بخت نصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاءٌ والحسن البصرى فاللّه أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقدٍ قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أُخرج من تحت ركنٍ من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير. وفى روايةٍ: كأنما قتل الساعة وذكر فى بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة فاللّه أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى «المستقصى فى فضائل الأقصى» من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قسيم مولى معاوية قال: كان ملك هذه المدينة - يعنى دمشق - هداد بن هدادٍ وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا. قلت: وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة. قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا، ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك. فحقدت عليه وسألت من

الملك رأس يحيى بن زكريا، وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه وهو قائمٌ يصلى بمسجد جيرون من أتاه برأسه فى صينيةٍ فجعل الرأس يقول: لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره. فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها وجعلت أمها تولول والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا فى الذل والفناء ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسةً وسبعين ألفًا قال سعيد بن عبد العزيز: وهى دم كل نبىٍّ ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال: أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله. فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقًا كثيرًا لا يحصون كثرةً وسبا منهم ثم رجع عنهم.

☆☆☆

قصة عيسى ابن مريم
عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى فى سورة «آل عمران» التى أنزل صدرها وهو ثلاثٌ وثمانون آيةً منها فى الرد على النصارى عليهم لعائن الله الذين زعموا أن لله ولدًا، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث فى الأقانيم ويدعون - بزعمهم - أن الله ثالث ثلاثةٍ؛ وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبدٌ من عباد الله خلقه وصوره فى الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غير أبٍ كما خلق آدم من غير أبٍ ولا أمٍّ وقال له: كن. فكان سبحانه وتعالى وبين أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى وكذلك بسط ذلك فى سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]. يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ثم خصص فقال: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾. فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق؛ ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يارم بن يهفاشاط بن أيش بن أبان بن رحبعام بن سليمان بن داود.

وقال أبو القاسم ابن عساكر: مريم بنت عمران بن ماتان بن اليعازر بن اليود بن أجبن ابن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن أيبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برسيتا بن آمون بن ميشا بن حزقا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن بورام بن

بوسافاط بن أسا بن أبيا ابن رخيعم بن سليمان بن داود عليه السلام. وفيه مخالفةٌ كما ذكره محمد بن إسحاق، ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيلٍ من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور وقيل: زوج خالتها أشياع. فالله أعلم. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له فاشتهت الولد فنذرت للّه إن حملت لتجعلن ولدها محررًا أي حبيسًا في خدمة بيت المقدس. قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها، فحملت بمريم عليها السلام ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران: ٣٦]. وقرئ بضم التاء ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾. أي في خدمة بيت المقدس وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خدامًا من أولادهم وقولها: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٣٦]. استدل به على تسمية المولود يوم يولد، وكما ثبت في «الصحيحين» عن أنسٍ في ذهابه بأخيه إلى رسول اللّه ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله. وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعًا: «كل غلام رهينةٌ بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه»(١). رواه أحمد وأهل السننَ وصححه الترمذي وجاء في بعض ألفاظه: ويدمي بدل: ويسمى. وصححه بعضهم. واللّه أعلم.

وقولها: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]. قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها؛ فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مولودٍ إلا الشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مسة الشيطان إياه إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة واقرأوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جريرٍ عن أحمد بن الفرج عن بقية عن الزبيدي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه(٢).

وقال أحمد: أيضا حدثنا إسماعيل بن عمر حدثنا ابن أبي ذئب عن عجلان مولى المشمعل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: كل مولودٍ من بني آدم يمسه الشيطان بأصبعه إلا مريم ابنة عمران وابنها عيسى عليهما السلام(٣). تفرد به من هذا الوجه.

---

(١) رواه البخاري [٥٤٧٠]، ومسلم [٢١٤٤/١٠٧]، وأحمد في المسند [٥/ ٧، ٢٢]، وأبو داود [٢٨٣٧،٢٨٣٨]، والترمذي [١٥٢٢]، وابن ماجه [٣١٦٥]، والنسائي [٤٢٢٠].
(٢) رواه البخاري [٤٥٤٨]، ومسلم [٢٣٦٦/١٤٦]، وأحمد في المسند [٢/ ٢٧٤].
(٣) رواه مسلم [٢٣٦٦/١٤٧]، وأحمد في المسند [٢/ ٢٨٨].

ورواه مسلمٌ عن أبى الطاهر عن ابن وهبٍ عن عمر بن الحارث عن أبى يونس عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا هيثمٌ حدثنا حفص بن ميسرة عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «كل إنسانٍ تلده أمه يلكزه الشيطان بحضنيه إلا ما كان من مريم وابنها، ألم تروا إلى الصبى حين يسقط كيف يصرخ؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه. قال: فذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه». وهذا على شرط مسلمٍ ولم يخرجه من هذا الوجه(١).

ورواه قيسٌ عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا وقد عصره الشيطان عصرةً أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم». ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. وكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيطٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بأصل الحديث(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك حدثنا المغيرة هو ابن عبد الرحمن الحزامى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «كل بنى آدم يطعن الشيطان بإصبعه فى جنبه حين يولد إلا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب». وهذا على شرط «الصحيحين» ولم يخرجاه من هذا الوجه(٣).

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]. ذكر كثيرٌ من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها فى خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العُبّاد الذين هم مقيمون به وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها. والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها فى صغرها ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم فى ذلك الزمان قد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين فشاحوه فى ذلك وطلبوا أن يقترع معهم فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبةً لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم. قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]. أى: بسبب غلبه لهم فى القرعة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] قالوا: وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفًا به ثم حملوها ووضعوها فى موضعٍ وأمروا غلامًا لم يبلغ

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/٣٦٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.
(٢) تفسير الطبرى [٣/ ١٦١].
(٣) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٥٢٣] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوى.

الحنث فأخرج واحدًا منها فظهر قلم زكريا عليه السلام فطلبوا أن يقترعوا مرةً ثانيةً، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء وتكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صُعُدًا فهو الغالب ففعلوا، فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعًا وقدرًا لوجوهٍ عديدةٍ. قال اللّه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧].

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها فكانت تعبد اللّه فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بنى إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى إنه كان نبى اللّه زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا فى غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف فيسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾. فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. أى: رزق رزقنيه اللّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا فى وجود ولدٍ من صلبه وإن كان قد أسن وكبر. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]. قال بعضهم: قال: يا من يرزق مريم الثمر فى غير أوانه. هب لى ولدًا وإن كان فى غير أوانه فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره فى قصته.

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ يَٰمَرْيَمُ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران]

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء اللّه لها من بين سائر نساء عالمى زمانها

بأن اختارها لإيجاد ولدٍ منها من غير أبٍ، وبشرت بأن يكون نبيًا شريفًا ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ [آل عمران: ٤٦]. أي: فى صغره يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له وكذلك فى حال كهولته، فدل على أنه يبلغ الكهولة، ويدعو إلى اللَّه فيها وأُمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع، لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة فيقال: إنها كانت تقوم فى الصلاة حتى تفطرت قدماها رضى اللَّه عنها ورحمها ورحم أمها وأباها. فقول الملائكة: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾. أى: اختارك واجتباك. ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أى: من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة.

﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢]. يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها كقوله لموسى. ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وكقوله عن بنى إسرائيل: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢]. ومعلومٌ أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى وأن محمدًا ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عددًا وأفضل علمًا وأزكى عملاً من بنى إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢]. محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها، ووجد بعدها؛ لأنها إن كانت نبيةً على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجا بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . إذ لم يعارضه غيره. واللَّه أعلم. وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصةٌ بالرجال وليس فى النساء نبيةٌ فيكون أعلى مقامات مريم، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥]. فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها، وممن يكون بعدها. واللَّه أعلم.

وقد جاء ذكرها مقرونًا مع آسية بنت مزاحمٍ وخديجة بنت خويلدٍ وفاطمة بنت محمدٍ رضى اللَّه عنهن وأرضاهن.

وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلمٌ والترمذى والنسائى من طرقٍ عديدةٍ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد اللَّه بن جعفرٍ عن على بن أبى طالبٍ رضى اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[1].

---

(١) رواه البخارى [٣٤٣٢، ٣٨١٥]، ومسلم [٢٤٣٠/٦٩]، وأحمد فى المسند [١/ ٨٤]، والترمذى [٣٨٧٧]، والنسائى فى الكبرى [٨٣٥٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن قتادة عن أنسٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حسبك من نساء العالمين؛ مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلدٍ، وفاطمة بنت محمدٍ»[١]. ورواه الترمذى عن أبى بكر بن زنجويه عن عبد الرزاق به وصححه.

ورواه ابن مردويه من طريق عبد اللَّه بن أبى جعفرٍ الرازى وابن عساكر من طريق تميم ابن زيادٍ كلاهما عن أبى جعفر الرازى عن ثابتٍ عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربعٌ: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلدٍ وفاطمة بنت محمدٍ رسول الله»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن الزهرى عن ابن المسيب قال: كان أبو هريرة يحدث أن النبى ﷺ قال: «خير نساءٍ ركبن الإبل صالح نساء قريشٍ أحناه على ولدٍ فى صغره، وأرعاه لزوجٍ فى ذات يده». قال أبو هريرة: ولم تركب مريم بعيرًا قط. وقد رواه مسلمٌ فى «صحيحه» عن محمد بن رافعٍ وعبد بن حميدٍ كلاهما عن عبد الرزاق به[٣].

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الجباب حدثنى موسى بن على سمعت أبى يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «خير نساءٍ ركبن الإبل نساء قريشٍ أحناه على ولدٍ فى صغره وأرأفه بزوجٍ على قلة ذات يده». قال أبو هريرة: وقد علم رسول اللَّه ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل. تفرد به وهو على شرط «الصحيح» ولهذا الحديث طرقٌ أُخر عن أبى هريرة[٤].

وقال أبو يعلى الموصلى: حدثنا زهيرٌ حدثنا يونس بن محمدٍ حدثنا داود بن أبى الفرات عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: خط رسول اللَّه ﷺ فى الأرض أربعة خطوطٍ فقال: «أتدرون ما هذا؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم فقال رسول اللَّه ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلدٍ، وفاطمة بنت محمدٍ، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحمٍ امرأة فرعون». ورواه النسائى من طرق عن داود بن أبى الفرات[٥].

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/ ١٣٥]، والترمذى [٣٨٧٨] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور [٢/ ٢٣] وعزاه لابن مردويه.

(٣) رواه البخارى [٥٣٦٥]، ومسلم [٢٥٢٧/ ٢٠٢]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٧٥] واللفظ له.

(٤) رواه البخارى [٥٣٦٥]، ومسلم [٢٥٢٧/ ٢٠٠]، وأحمد فى المسند [٢/ ٥٠٢].

(٥) رواه أبو يعلى فى المسند [٢٧٢٢] وقال محققه: إسناده صحيح، والنسائى فى الكبرى [٨٣٦٤].

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكرٍ عبد اللَّه بن أبي داود سليمان بن الأشعث حدثنا يحيى بن حاتم العسكرى نبأنا بشر بن مهران بن حمدان حدثنا محمد بن دينارٍ عن داود بن أبى هندٍ عن الشعبى عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حسبك منهن أربع سيداتٍ نساء العالمين؛ فاطمة بنت محمدٍ، وخديجة بنت خويلدٍ، وآسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران. وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن عبد اللَّه الواسطى عن محمد بن عمروٍ عن أبى سلمة عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين أكببت على رسول اللَّه ﷺ فبكيت ثم ضحكت؟ قالت: أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أكببت عليه فأخبرنى أنى أسرع أهله لحوقًا به وأنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت. وأصل هذا الحديث فى «الصحيح». وهذا إسنادٌ على شرط مسلم وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات[1].

وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عثمان بن محمدٍ حدثنا جريرٌ عن يزيد هو ابن أبى زيادٍ عن عبد الرحمن بن أبى نعم عن أبى سعيدٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران». إسنادٌ حسنٌ وصححه الترمذى ولم يخرجوه وقد روى نحوه من حديث على بن أبى طالبٍ ولكن فى إسناده ضعفٌ[2].

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء فى الفضيلة لكن ورد حديثٌ إن صح عين الاحتمال الأول، فقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: أنبأنا أبو الحسين بن الفراء وأبو غالبٍ وأبو عبد اللَّه ابنا البنا قالوا: أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة أنبأنا أبو طاهرٍ المخلص حدثنا أحمد بن سليمان حدثنا الزبير هو ابن بكارٍ حدثنا محمد ابن الحسن عن عبد العزيز بن محمدٍ عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباسٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية امرأة فرعون». فإن كان هذا اللفظ محفوظًا بـ «ثم» التى للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء، ويقدم على ما تقدم من الألفاظ التى وردت بواو العطف التى لا تقتضى الترتيب ولا تنفيه واللَّه أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتمٍ الرازى عن داود الجعفرى عن عبد العزيز بن

---

(١) رواه مسلم [٢٤٥٠/ ٩٧].

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٨٠] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبى زياد الهاشمى.

محمدٍ وهو الدراوردى عن إبراهيم بن عقبة عن كريبٍ عن ابن عباسٍ مرفوعًا فذكره بواو العطف لا بـ «ثم» الترتيبية فخالفه إسنادًا ومتنا فالله أعلم.

فأما الحديث الذى رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كمل من الرجال كثيرٌ ولم يكمل من النساء إلا ثلاثٌ؛ مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهكذا الحديث الذى رواه الجماعة إلا أبا داود من طرقٍ عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كمل من الرجال كثيرٌ ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1]. فإنه حديثٌ صحيحٌ كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ولفظه يقتضى حصر الكمال فى النساء فى مريم وآسية، ولعل المراد بذلك فى زمانهما فإن كلا منهما كفلت نبيًا فى حال صغره فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله فلا ينفى كمال غيرهما فى هذه الأمة كخديجة وفاطمة؛ فخديجة خدمت رسول اللَّه ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنةً وبعدها أزيد من عشر سنين وكانت له وزير صدقٍ بنفسها ومالها رضى اللَّه عنها وأرضاها، وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلةٍ على أخواتها؛ لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن فى حياة النبى ﷺ، وأما عائشة رضى اللَّه تعالى عنها فإنها كانت أحب أزواج رسول اللَّه ﷺ إليه، ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولا يعرف فى سائر النساء فى هذه الأمة بل ولا فى غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار اللَّه لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل براءتها من فوق سبع سماوات وقد عُمرت بعد رسول اللَّه ﷺ قريبا من خمسين سنةً تبلغ عنه القرآن والسنة وتُفتى المسلمين وتصلح بين المختلفين، وهى أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلدٍ أم البنات والبنين فى قول طائفةٍ من العلماء السابقين واللاحقين والأحسن الوقف فيهما رضى اللَّه عنهما وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ: «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

يحتمل أن يكون عامًا بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عامًا بالنسبة إلى ما عدا المذكورات. واللَّه أعلم.

والمقصود ههنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام فإن اللَّه طهرها

---

(١) رواه البخارى [٣٤١١، ٣٤٣٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨]، ومسلم [٢٤٣١/ ٧٠]، والترمذى [١٨٣٤]، وابن ماجه [٣٢٨٠]، وأحمد فى المسند [٤/ ٣٩٤، ٤٠٩].

واصطفاها على نساء عالمى زمانها ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقًا كما قدمنا وقد ورد فى حديثٍ: أنها تكون من أزواج النبى ﷺ فى الجنة هى وآسية بنت مزاحم: وقد ذكرنا فى «التفسير» عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: ٥]. قال: فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه فى آخر سورة التحريم فالله أعلم.

قال الطبرانى: حدثنا عبد اللَّه بن ناجية حدثنا محمد بن سعدٍ العوفى حدثنا أبى أنبأنا عمى الحسين يونس بن نفيع عن سعد بن جنادة هو العوفى قال: قال رسول للَّه ﷺ: «إن اللَّه زوجنى فى الجنّة مريم بنت عمران، وامرأة فرعون، وأخت موسى»[١].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن عرعرة حدثنا عبد النور بن عبد اللَّه حدثنا يونس بن شعيبٍ عن أبى أمامة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أشعرت أن اللَّه زوجنى مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحمٍ وكلثم أخت موسى»[٢].

رواه ابن جعفر العقيلى من حديث عبد النور به وزاد: فقلت: هنيئًا لك يا رسول اللَّه. ثم قال العقيلى: وليس بمحفوظٍ.

وقال الزبير بن بكارٍ: حدثنى محمد بن الحسن عن يعلى بن المغيرة عن ابن أبى رواد قال: دخل رسول اللَّه ﷺ على خديجة وهى فى مرضها الذى توفيت فيه فقال لها: بالكره منى ما أرى منك يا خديجة وقد يجعل اللَّه فى الكره خيرًا كثيرًا، أما علمت أن اللَّه قد زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون؟ قالت: وقد فعل اللَّه بك ذلك يا رسول اللَّه؟ قال: نعم، قالت: بالرفاء والبنين.

وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابى حدثنا العباس بن بكارٍ حدثنا أبو بكرٍ الهزلى عن عكرمة عن ابن عباسٍ أن رسول اللَّه ﷺ دخل على خديجة وهى فى مرض الموت فقال: «يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن منى السلام. قالت: يا رسول اللَّه وهل تزوجت قبلى؟ قال: لا ولكن اللَّه زوجنى مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحمٍ وكلثم أخت موسى».

وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيدٍ حدثنا محمد بن صالح بن عمر عن

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٦/ ٥٢/ ٥٤٨٥] وقال الهيثمى فى المجمع [٩/ ٢١٨]: وفيه من لم أعرفهم.

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٨/ ٢٥٨/ ٨٠٠٦] وقال الهيثمى فى المجمع [٩/ ٢١٨]: وفيه خالد بن يوسف السمتى وهو ضعيف. قلت: وعبد النور قال عنه: كذاب.

الضحاك ومجاهدٍ عن ابن عمر قال: «نزل جبريل إلى رسول اللَّه ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول اللَّه ﷺ إذ مرت خديجة فقال جبريل: من هذه يا محمد؟ قال: هذه صديقة أمتى. قال جبريل: معى إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيتٍ فى الجنة من قصبٍ بعيدٍ من اللهب لا نصب فيه ولا صخب. قالت: اللَّه السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة اللَّه وبركاته على رسول اللَّه ما ذلك البيت الذى من قصبٍ؟ قال: لؤلؤةٌ جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم وهما من أزواجى يوم القيامة»(١). وأصل السلام على خديجة من اللَّه وبشارتها ببيتٍ فى الجنة من قصبٍ لا صخب فيه ولا نصب، فى «الصحيح». ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريبٌ جدًا. وكل من هذه الأحاديث فى أسانيدها نظرٌ.

وروى ابن عساكر من حديث أبى زرعة الدمشقى حدثنا عبد اللَّه بن صالح حدثنى معاوية عن صفوان بن عمروٍ عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار أن معاويةَ سأله عن الصخرة؛ يعنى صخرة بيت المقدس فقال: الصخرة على نخلةٍ والنخلة على نهرٍ من أنهار الجنة وتحت النخلة مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة. ثم رواه من طريق إسماعيل عن عيَاشٍ عن ثعلبة بن مسلم عن مسعود عن عبد الرحمن عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ بمثله وهذا منكرٌ من هذا الوجه بل هو موضوعٌ.

ثم قد رواه أبو زرعة عن عبد اللَّه بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن عن ابن عائذ أن معاوية سأل كعبًا عن صخرة بيت المقدس فذكره. قال الحافظ ابن عساكر: وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه. قلت: وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التى منها ما هو مكذوبٌ مفتعلٌ وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم وهذا منه. واللَّه أعلم.

☆☆☆

---

(١) رواه البخارى [٣٨٢٠، ٧٤٩٧]، ومسلم [٧١/٢٤٣٢].

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم العذراء البتول

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ ﴾ [مريم].

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التى هى كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر فى سورة آل عمران، قرن بينهما فى سياقٍ واحدٍ وكما قال فى سورة «الأنبياء»: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝٩٠ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩١ ﴾ [الأنبياء].

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررةً تخدم بيت المقدس وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام وأنه اتخذ لها محرابًا وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحدٌ عليها سواه، وأنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة

فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء اللَّه لها، وبأنه سيهب لها ولدًا زكيًا يكون نبيًا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيدًا بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولدٍ من غير والدٍ؛ لأنها لا زوج لها، ولا هى ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن اللَّه قادرٌ على ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون؛ فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر اللَّه وعلمت أن هذا فيه محنةٌ عظيمةٌ لها؛ فإن الناس يتكلمون فيها بسببه لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبرٍ ولا تعقلٍ وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها أو لحاجةٍ ضروريةٍ لا بد منها؛ من استقاء ماءٍ أو تحصيل غذاءٍ فبينما هى يومًا قد خرجت لبعض شئونها و ﴿فَٱنتَبَذَتۡ﴾ أى: انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى إذ بعث اللَّه إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧]. فلما رأته ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨]. قال أبو العالية: علمت أن التقى ذو نهيةٍ. وهذا يرد قول من زعم أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقىٌ فإن هذا قولٌ باطلٌ بلا دليلٍ وهو من أسخف الأقوال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أى: خاطبها الملك قائلاً: إنما أنا رسول ربك لست ببشر ولكنى ملك بعثنى اللَّه إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٩]. أى: ولدًا زكيًا. ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أى: كيف يكون لى غلامٌ أو يوجد لى ولدٌ ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾. أى: ولست ذات زوجٍ، وما أنا ممن يفعل الفاحشة. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٢١]. أى: فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولدٍ منها والحالة هذه قائلاً: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم: ٢١]. أى: وعد أنه سيخلق منك غلامًا ولست بذات بعلٍ، ولا تكونين ممن تبغين. ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٢١]. أى: وهذا سهلٌ عليه ويسيرٌ لديه فإنه على ما يشاء قديرٌ. وقوله: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾. أى: ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق؛ فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكرٍ ولا أُنثى وخلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكرٍ وخلق بقية الخلق من ذكرٍ وأنثى. وقوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ [مريم: ٢١]. أى: نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى اللَّه فى صغره وكبره، فى طفوليته وكهوليته، بأن يفردوا اللَّه بالعبادة وحده لا شريك له، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، والشركاء والنظراء، والأضداد والأنداد، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٢١]. يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها يعنى أن هذا أمرٌ قد قضاه اللَّه وحتمه وقدره وقرره. وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جريرٍ ولم يحك سواه. واللَّه أعلم. ويحتمل أن

يكون قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]. كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. فذكر غير واحدٍ من السلف أن جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها. ومن قال إنه نفخ فى فمها أو أن الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها، فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن؛ فإن هذا السياق يدل على أن الذى أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج، بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه، كما قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. يدل على أن النفخة ولجت فيه لا فى فمها كما روى عن أبى بن كعبٍ ولا فى صدرها كما رواه السدى بإسناده عن بعض الصحابة ولهذا قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أى: فحملت ولدها ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢]. وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعًا وعلمت أن كثيرًا من الناس سيكون منهم كلامٌ فى حقها، فذكر غير واحدٍ من السلف منهم وهب بن منبهٍ أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجلٌ من عباد بنى إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب النجار وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوجٌ فعرض لها ذات يوم فى الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرعٌ من غير بذر ؟! قالت: نعم فمن خلق الزرع الأول؟! ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماءٍ ولا مطر ؟! قالت: نعم فمن خلق الشجر الأول؟! ثم قال: فهل يكون ولدٌ من غير ذكرٍ؟! قالت: نعم إن اللّه خلق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثى قال لها: فأخبرينى خبرك. فقالت إن اللّه بشرنى ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ يَٰمَرْيَمُ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران]. ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا. واللّه أعلم.

وذكر السدى بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يومًا على أختها فقالت لها أختها: أشعرت أنى حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضًا أنى حبلى؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك. وذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام، كما كان فى شرع من قبلنا وكما أمر اللّه الملائكة بالسجود لآدم. وقال أبو القاسم: قال مالكٌ: بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالةٍ

وكان حملهما جميعًا معًا فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك. قال مالكٌ: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام؛ لأن اللّه تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. رواه ابن أبى حاتم. وروى عن مجاهدٍ قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثنى وكلمنى وإذا كنت بين الناس سبح فى بطنى ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهرٍ كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر. وعن ابن عباسٍ وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهرٍ. وعن ابن عباسٍ: ما هو إلا أن حملت به فوضعته. قال بعضهم: حملت به تسع ساعات. استأنسوا لذلك بقوله: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ (٢٣) ﴾ [مريم]. والصحيح أن تعقيب كل شىءٍ بحسبه لقوله: ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣]. وكقوله ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] ومعلومٌ أن بين كل حالين أربعين يومًا كما ثبت فى الحديث المتفق عليه[١].

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر فى بنى إسرائيل أنها حاملٌ فما دخل على أهل بيتٍ ما دخل على آل بيت زكريا. قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانا قصيًا. وقوله: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٣]. أى: فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة وهو - بنص الحديث الذى رواه النسائى بإسنادٍ لا بأس به عن أنس مرفوعًا، والبيهقى بإسنادٍ وصححه، عن شداد بن أوسٍ مرفوعًا أيضًا - ببيت لحم الذى بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد - على ما سنذكره - هذا البناء المشاهدَ الهائل. ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣]. فيه دليلٌ على جواز تمنى الموت عند الفتن وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات، المجاورات فى المسجد، المنقطعات إليه، المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ . أى: لم تخلق بالكلية. وقوله: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ [مريم: ٢٤]: وقرئ ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ على الخفض، وفى المضمر قولان: أحدهما، أنه جبريل. قاله العوفى عن ابن عباسٍ. قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم. وهكذا قال سعيد بن جبيرٍ وعمرو بن ميمونٍ والضحاك والسدى وقتادة. وقال مجاهدٌ

---

(١) رواه البخارى [٣٢٠٨، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، ومسلم [٢٦٤٣/ ١].

والحسن وابن زيدٍ وسعيد بن جبيرٍ في روايةٍ: هو ابنها عيسى واختاره ابن جريرٍ وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. قيل: النهر وإليه ذهب الجمهور. وجاء فيه حديثٌ رواه الطبراني لكنه ضعيفٌ واختاره ابن جريرٍ وهو الصحيح[١].

وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها. والصحيح الأول؛ لقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]. فذكر الطعام والشراب ولهذا قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦]. ثم قيل: كان جذع النخلة يابسًا. وقيل: كانت نخلةً مثمرةً فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلةً لكنها لم تكن مثمرةً إذ ذاك؛ لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمرٍ وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]. قال عمرو بن ميمونٍ: ليس شيءٌ خيرًا للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا شيبان حدثنا مسرور بن سعيدٍ التميمي حدثنا عبد الرحمن بن عمرٍو الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي ابن أبي طالبٍ قال: قال رسول الله ﷺ: أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس شيء من الشجر يلقح غيرها. وقال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الوُلد الرُّطب، فإن لم يكن رُطبٌ فتمرٌ وليس من الشجر شجرةٌ أكرم على الله من شجرةٍ نزلت تحتها مريم بنت عمران»[٢].

وكذا رواه أبو يعلى في «مسنده» عن شيبان بن فروخ عن مسروق بن سعيدٍ وفي روايةٍ: مسرور بن سعد. والصحيح: مسرور بن سعيدٍ التميمي، أورد له ابن عديٍّ هذا الحديث عن الأوزاعي به ثم قال: وهو منكر الحديث، ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث. وقال ابن حبان: يروي عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها. وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها. قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]. أي: فإن رأيت أحدًا من الناس ﴿فَقُولِي﴾ له: أي بلسان الحال والإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١٢/ ٢٦٥/ ١٣٣٠٣] عن ابن عمر بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنا لسرى الذي قال الله عزوجل: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهر أخرجه الله لتشرب منه». وقال الهيثمي في المجمع [٧/ ٥٥]: وفيه يحيى بن عبد الله البابلتي وهو ضعيف.

(٢) رواه أبو يعلى في المسند [٤٥٥] وقال محققه: إسناده ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد [٥/ ٨٩]: فيه مسرور ابن سعيد التميمي وهو ضعيف.

[مريم: ٢٦]. أى: صمتًا وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الكلام والطعام. قاله قتادة والسدى وابن أسلم. ويدل على ذلك قوله: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل. وقوله تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم]. ذكر كثيرٌ من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا فى طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]. أى: أمرًا عظيمًا منكرًا. وفى هذا الذى قالوه نظرٌ مع أنه كلامٌ ينقض أوله آخره؛ وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت بنفسها وأتت به قومها وهى تحمله قال ابن عباسٍ: وذلك بعد ما تعالت من نفاسها بعد أربعين يومًا.

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ . والفرية هى الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال. ثم قالوا لها: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ . قيل: شبهوها بعابدٍ من عباد زمانهم كانت تساميه فى العبادة وكان اسمه هارون.

وقيل: شبهوها برجلٍ فاجرٍ فى زمانهم اسمه هارون. قاله سعيد بن جبيرٍ. وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به فى العبادة. وأخطأ محمد بن كعب القرظى فى زعمه أنها أخت موسى وهارون نسبًا؛ فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع، وكأنه غره أن فى التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجى الله موسى وقومه، وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هى هذه، وهذا فى غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه فى «التفسير» مطولاً ولله الحمد والمنة.

وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخٌ اسمه هارون، وليس فى ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخٌ سواها والله أعلم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس قال: سمعت أبى يذكره عن سماكٍ عن علقمة ابن وائلٍ عن المغيرة بن شعبة قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرأون: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]. وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[١].

---

(١) رواه مسلم [٢١٣٥/٩]، وأحمد فى المسند [٢٥٢/٤]، والنسائى [١١٣١٥]، والترمذى [٣١٥٥].

وكذا رواه مسلمٌ والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديثه. وفي روايةٍ: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم. وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل: إنه حضر بعض جنائزهم بشرٌ كثيرٌ منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفًا فالله أعلم.

والمقصود أنهم قالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]. ودل الحديث على أنها قد كان لها أخٌ نسبيٌ اسمه هارون وكان مشهورًا بالدين والصلاح والخير؛ ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]. أي: لست من بيتٍ هذا شيمتهم ولا سجيتهم؛ لا أخوك ولا أمك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء، فذكر ابن جرير في «تاريخه» أنهم اتهموا بها زكريا، وأرادوا قتله ففر منهم، فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا. ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار فلما ضاق الحال، وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل على ذي الجلال ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ [مريم: ٢٩]. أي: خاطبوه وكلموه؛ فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه فعندها قال من كان منهم جبارًا شقيًا: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩]. أي: كيف تحيلينا في الجواب على صبيٍ صغيرٍ لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين محض وزبده وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء؛ إذ لا تردين علينا قولاً نطقيًا بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيًا فعندها ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣﴾ [مريم]. هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم فكان أول ما تكلم به أن ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾. اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٣٠]. فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٦]. وذلك أن طائفةً من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنى في زمن الحيض لعنهم الله.
فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صِديقةٌ واتخذ ولدها نبيًا مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]. وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزه جنابه عن النقص والعيب؛ من اتخاذ

الولد والصاحبة تعالى وتقدس. ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد؛ بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف، وقرى الأضياف، والنفقات على الزوجات، والأرقاء، والقرابات، وسائر وجوه الطاعات، وأنواع القربات، ثم قال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]. أي: وجعلني برًّا بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]. أي: لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قولٌ ولا فعلٌ ينافي أمر الله وطاعته. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

وهذه الأماكن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام، ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية، وبين أمره ووضحه وشرحه قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم]. كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران]. ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكبا يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم؛ العاقب، والسيد، وأبو حارثة بن علقمة فجعلوا يناظرون في أمر المسيح، فأنزل الله صدر سورة «آل عمران» في ذلك وبين أمر المسيح، وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكلوا ونكصوا، وامتنعوا عن المباهلة، وعدلوا إلى المسالمة والموادعة، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح: يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمدًا لنبيٌ مرسلٌ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قومٌ نبيًا قطُ فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف بينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزيةً وأن يبعث معهم رجلاً أمينًا فبعث معهم أبا عبيدة بن

الجراح، وقد بينا ذلك فى تفسير آل عمران، وسيأتى بسط هذه القضية فى السيرة النبوية إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة.

والمقصود أن اللّه تعالى لما بين أمر المسيح قال لرسوله: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤]. يعني من أنه عبدٌ مخلوقٌ من امرأةٍ من عباد اللّه ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٥]. أى: لا يعجزه شىءٌ ولا يكرثه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٦]. هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد أخبرهم أن اللّه ربه وربهم وإلهه وإلههم وأن هذا هو الصراط المستقيم. قال اللّه تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧]. أى: فاختلف أهل الزمان، ومن بعدهم فيه فمن قائلٍ من اليهود. إنه ولد زنيةٍ. واستمروا على كفرهم وعنادهم، وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا: هو اللّه. وقال آخرون: هو ابن اللّه. وقال المؤمنون: هو عبد اللّه ورسوله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه. وهؤلاء هم الناجون المثابون، المؤيدون المنصورون، ومن خالفهم فى شىءٍ من هذه القيود فهم الكافرون الظالمون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧]. قال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل أنبأنا الوليد حدثنا الأوزاعى حدثنى عمير بن هانئ حدثنى جنادة بن أبى أمية عن عبادة ابن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد اللّه ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ؛ أدخله اللّه الجنة على ما كان من العمل»[١]. قال الوليد: فحدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابرٍ عن عميرٍ عن جنادة وزاد: «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء»[٢]. وقد رواه مسلمٌ عن داود بن رشيدٍ عن الوليد عن ابن جابرٍ به، ومن طريقٍ أخرى عن الأوزاعى به.

☆☆☆

---

(١) رواه البخارى [٣٤٣٥].

(٢) رواه مسلم [٢٨/٤٦].

باب بيان
أن الله تعالى منزه عن الولد

قال تعالى فى آخر هذه السورة: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ [مريم]. أى شيئًا عظيمًا ومنكرًا من القول وزورًا. ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم]. فبين أنه تعالى لا ينبغى له الولد؛ لأنه خالق كل شىء ومالكه وكل شىء فقيرٌ إليه خاضعٌ ذليلٌ لديه وجميع سكان السماوات والأرض عبيده وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] فبين أنه خالق كل شىء فكيف يكون له ولدٌ والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين والله تعالى لا نظير له، ولا شبيه له، ولا عديل له، فلا صاحبة له، فلا يكون له ولدٌ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]. فتقرر أنه «الأحد» الذى لا نظير له فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذى كمل فى علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته. ﴿لَمْ يَلِدْ ﴾ أى: لم يوجد منه ولدٌ. ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أى: ولم يتولد عن شىء قبله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] أى وليس له عدلٌ ولا مكافئ ولا مساوٍ فقطع النظير المدانى الأعلى والمساوى؛ فانتفى أن يكون له ولدٌ إذ لا يكون الولد إلا متولدًا بين شيئين متعادلين أو متقاربين وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وقال تبارك وتعالى وتقدس: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء]. ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء فى الدين، وهو مجاوزة الحد؛ فالنصارى لعنهم اللّه غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد اللّه ورسوله، وابن أمته العذراء البتول التى أحصنت فرجها، فبعث اللّه الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر اللّه نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام، والذى اتصل بها من الملك هى الروح المضافة إلى اللّه إضافة تشريفٍ وتكريمٍ، وهى مخلوقةٌ من مخلوقات اللّه تعالى كما يقال: بيت اللّه وناقة اللّه وعبد اللّه.

وكذا: روح اللّه أضيفت إليه تشريفًا لها وتكريمًا وسمى عيسى بها؛ لأنه كان بها من غير أبٍ وهى الكلمة أيضًا التى عنها خلق وبسببها وجد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠]. فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن اللّه كلٌ من الفريقين ادعوا على اللّه شططًا وزعموا أن له ولدًا تعالى اللّه عما يقولون علوًا كبيرًا، وأخبر أنهم ليس لهم مستندٌ فيما زعموه، ولا فيما ائتفكوه، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة، تشابهت قلوبهم، وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود، الذى يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول، وأنه صدر عن العقل الأول عقلٌ ثانٍ ونفسٌ وفلكٌ، ثم صدر عن الثانى كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرةٍ والنفوس إلى تسعةٍ والأفلاك إلى تسعةٍ باعتباراتٍ فاسدةٍ ذكروها، واختياراتٍ باردةٍ أوردوها، ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضعٌ آخر. وهكذا طوائف من مشركى العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات اللّه وأنه صاهر سروات الجن فتولد منهما الملائكة تعالى اللّه عما يقولون وتنزه عما يشركون كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى

ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الصافات]

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى فى أول سورة «الكهف» وهى مكية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]. وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس]. فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة؛ من الفلاسفة ومشركى العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن للّه ولدًا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا.

ولما كانت النصارى عليهم لعائن اللّه المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا فى القرآن كثيرًا؛ للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم وقد تنوعت أقوالهم فى كفرهم، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض، وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. فدل على أن الحق يتحد ويتفق، والباطل يختلف ويضطرب فطائفةٌ من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو اللّه. تعالى اللّه، وطائفةٌ قالوا: هو ابن اللّه، عز اللّه. وطائفةٌ قالوا: هو ثالث ثلاثةٍ. جل اللّه، قال اللّه تعالى فى أول سورة «المائدة»: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧]. فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أنه الخالق القادر على كل شىء المتصرف فى كل شىء وأنه رب كل شىء ومليكه وإلهه وقال فى

أواخرها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة]. حكم تعالى بكفرهم شرعًا وقدرًا، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى ابن مريم قد بين لهم أنه عبدٌ مربوبٌ مخلوقٌ، مصورٌ فى الرحم، داعٍ إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار، وعدم الفوز بدار القرار، والخزى فى الدار الآخرة، والهوان والعار، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

قال ابن جريرٍ وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة؛ أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن على اختلافهم فى ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن اللّه، كما سنبين كيفية اختلافهم فى ذلك ومجامعهم الثلاثة فى زمن قسطنطين بن قسطس وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنةٍ وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنةٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. أى: وما من إلهٍ إلا اللّه وحده لا شريك له، ولا نظير له، ولا كفء له، ولا صاحبة له ولا ولد، ثم توعدهم وتهددهم فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار، من هذه الأمور الكبار والعظائم التى توجب النار فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]. ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبدٌ رسولٌ وأمه صديقةٌ أى: ليست بفاجرةٍ كما يقوله اليهود لعنهم اللّه. وفيه دليلٌ على أنها ليست بنبيةٍ كما زعمه طائفةٌ من علمائنا.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. كنايةٌ عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما أى: ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهًا؟! تعالى اللّه عن قولهم وجهلهم علوًا كبيرًا. وقال السدى وغيره: المراد بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. زعمهم فى عيسى وأمه أنهما إلهان مع الله؛ يعنى كما بين تعالى كفرهم فى ذلك بقوله فى آخر هذه السورة الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ

لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]. يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى، وزعم أنه ابن اللّه، أو أنه اللّه أو أنه شريكه تعالى اللّه عما يقولون فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]. أي: تعاليت أن يكون معك شريكٌ. ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ ﴾ [المائدة: ١١٦]. أي: ليس هذا يستحقه أحدٌ سواك. ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦]. وهذا تأدبٌ عظيمٌ في الخطاب والجواب. ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ [المائدة: ١١٧]. حين أرسلتني إليهم وأنزلت على الكتاب الذى كان يتلى عليهم، ثم فسر ما قال لهم بقوله: ﴿ أنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ . أي: خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ . أي: رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك. ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]. ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبري من أهل النصرانية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ ﴾ [المائدة: ١١٨]. أي: وهم يستحقون ذلك. ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]. وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ولهذا قال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]. ولم يقل: الغفور الرحيم.

وقد ذكرنا في «التفسير» ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول اللّه ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلةً حتى أصبح: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]. وقال: إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلةٌ إن شاء اللّه تعالى لمن لا يشرك بالله شيئًا[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ

---

(١) رواه أحمد في المسند [٥/ ١٤٩] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص].

وثبت فى «الصحيح» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: يقول اللَّه تعالى: «شتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ يزعم أن لى ولدًا وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد، ولم يكن لى كفوًا أحدٌ»[1]. وفى «الصحيح» أيضًا عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذىً سمعه من اللَّه؛ إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم»[2].

ولكن ثبت فى «الصحيح» أيضًا عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: إن اللَّه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][3]. وهكذا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس]. وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

☆☆☆

(١) رواه البخارى [٤٩٧٤، ٤٩٧٥].

(٢) رواه البخارى [٦٠٩٩، ٧٣٧٨]، ومسلم [٢٨٠٤/٤٩].

(٣) رواه البخارى [٤٦٨٦]، ومسلم [٢٥٨٣/٦١].

ذكر منشأ عيسى ابن مريم
عليهما السلام وبيان بدء الوحى إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريبًا من بيت المقدس وزعم وهب بن منبهٍ أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هى ويوسف بن يعقوب النجار وهى راكبةٌ، على حمارٍ. ليس بينها وبين الإكاف شيءٌ. وهذا لا يصح والحديث الذى تقدم ذكره دليلٌ على أن مولده كان ببيت لحمٍ كما ذكرنا ومهما عارضه فباطلٌ.

وذكر وهب بن منبهٍ أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذٍ فى مشارق الأرض ومغاربها وأن الشياطين حارت فى سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فوجدوه فى حجر أمه، والملائكة محدقةٌ به وأنه ظهر نجمٌ عظيمٌ فى السماء، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم فى الأرض. فبعث رسله ومعهم ذهبٌ ومرٌّ لبانٌ هديةً إلى عيسى، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم، فذكروا له ذلك فسأل عن ذلك الوقت، فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس، واشتهر أمره بسبب كلامه فى المهد، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له؛ ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها: إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك، فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت به حتى بلغ عمره ثنتى عشرة سنةً، وظهرت عليه كراماتٌ ومعجزاتٌ فى حال صغره فذكر منها أن الدهقان الذى نزلوا عنده افتقد مالاً من داره، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج، فلم يدر من أخذه وعز ذلك على مريم عليها السلام، وشق على الناس وعلى رب المنزل، وأعياهم أمرها، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجلٍ أعمى وآخر مقعدٍ من جملة من هو منقطعٌ إليه فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانهض به. فقال إنى لا أستطيع ذلك فقال: بلى. كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار. فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى فى أعين الناس وهو صغيرٌ جدًا.

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافةً للناس؛ بسبب طهور أولاده فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابًا يعنى خمرا، كما كانوا يصنعون فى ذلك الزمان لم يجد فى جراره شيئا فشق ذلك عليه، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل

يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرةٍ منها ذلك إلا امتلأت شرابًا من خيار الشراب فتعجب الناس من ذلك جدًا وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه، وارتحلا قاصدين بلاد بيت المقدس والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشرٍ: أنبأنا عثمان بن الساج وغيره عن موسى بن وردان عن أبى نضرة عن أبى سعيدٍ وعن مكحولٍ عن أبى هريرة قال: إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفلٌ فمجد الله تمجيدًا لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمسًا ولا قمرًا ولا جبلاً ولا نهرًا ولا عينًا إلا ذكره فى تمجيده فقال: اللهم أنت القريب فى علوك، المتعال فى دنوك الرفيع على كل شيءٍ من خلقك أنت الذى خلقت سبعًا فى الهواء بكلماتك مستوياتٍ طباقًا، أجبن وهن دخانٌ من فرقك، فأتين طائعاتٍ لأمرك، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك، وجعلت فيهن نورا على سواد الظلام، وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك، وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن فى الظلمات الحيران، فتباركت اللهم فى مفطور سمواتك، وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج المتغامر فأذللتها إذلال الماء المتطاهر فذل لطاعتك صعبها، واستحيى لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار، ثم أخرجت منها والأنهار الأشجار والثمار، ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتادًا على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها وجلمودها فتباركت اللهم فمن يبلغ بنعته نعتك؟ أمن يبلغ بصفته صفتك؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضى الحق وأنت خير الفاصلين لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنبٍ لا إله إلا أنت سبحانك، سترت السماوات عن الناس لا إله إلا أنت سبحانك، إنما يخشاك من عبادك الأكياس نشهد أنك لست بإلهٍ استحدثناك ولا رب يبيد ذكره ولا كان معك شركاء يقضون معك فندعوهم ونذرك ولا أعانك على خلقنا أحدٌ فنشك فيك، نشهد أنك أحدٌ صمدٌ لم تلد ولم تولد: ولم يكن لك كفوًا أحدٌ.

وقال إسحاق بن بشرٍ عن جويبرٍ ومقاتلٍ عن الضحاك عن ابن عباسٍ: إن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد إذ كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان، فأكثر اليهود فيه وفى أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]. قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه فى الكتاب، فجعل لا يعلمه المعلم شيئًا إلا بدره إليه فعلمه أبا جادٍ فقال عيسى: ما أبو جادٍ؟ فقال المعلم: لا أدرى؟ فقال عيسى: كيف

تعلمنى مالا تدرى؟ فقال المعلم: إذًا فعلمنى. فقال له عيسى: فقم من مجلسك. فقام فجلس عيسى مجلسه فقال: سلنى. فقال المعلم: فما أبو جادٍ؟ فقال عيسى: الألف آلاء اللَّه، والباء بهاء اللَّه، والجيم بهجة اللَّه وجماله؛ فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جادٍ.

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول اللَّه ﷺ عن ذلك فأجابه على كل كلمةٍ كلمة بحديثٍ طويلٍ موضوعٍ لا يشك فيه ولا يتمارى.

وهكذا روى ابن عدئٍ من حديث إسماعيل بن عياشٍ عن إسماعيل بن يحيى عن ابن مليكة عمن حدثه عن ابن مسعودٍ وعن مسعر بن كدام عن عطية عن أبى سعيدٍ رفع الحديث فى دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلّم معنى حروف أبى جادٍ، وهو مطولٌ لا يفرح به. ثم قال ابن عدئٍ: وهذا الحديث باطلٌ بهذا الإسناد، لا يرويه غير إسماعيل.

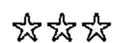
وروى ابن لهيعة عن عبد اللَّه بن هبيرة قال: كان عبد اللَّه بن عمرو يقول: كان عيسى ابن مريم وهو غلامٌ يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم. فيقول: خبأت لك كذا وكذا. فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها: أطعمينى ما خبأت لى. فتقول: وأى شيءٍ خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا فتقول له: من أخبرك؟ فيقول: عيسى ابن مريم فقالوا: واللَّه لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم. فجمعوهم فى بيتٍ وأغلقوا عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم فى بيتٍ فسأل عنهم، فقالوا: إنما هؤلاء قردةٌ وخنازير فقال: اللهم كذلك فكانوا كذلك. رواه ابن عساكر.

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباسٍ: قال: وكان عيسى يرى العجائب فى صباه إلهامًا من اللَّه، ففشا ذلك فى اليهود وترعرع عيسى فهمت به بنو إسرائيل، فخافت أمه عليه، فأوحى اللَّه إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد اختلف السلف والمفسرون فى المراد بهذه الربوة التى ذكر اللَّه من صفتها أنها ذات قرارٍ ومعين، وهذه صفةٌ غريبةُ الشكل؛ وهى أنها ربوةٌ وهو المكان المرتفع من الأرض، الذى أعلاه مستوٍ يقر عليه فمع ارتفاعه متسعٌ ومع علوه فيه عين من الماء معينٌ؛ وهو الجارى السارح على وجه الأرض، فقيل: المراد المكان الذى ولدت فيه المسيح. وهو محلة بيت المقدس ولهذا ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. وهو النهر الصغير فى قول جمهور السلف.

وعن ابن عباس بإسنادٍ جيدٍ، أنها أنهار دمشق. فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق وقيل: ذلك بمصر. كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم. والله أعلم. وقيل: هى الرملة.

وقال إسحاق بن بشرٍ: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبهٍ قال: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنةً أمر الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا قال: فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمارٍ حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل، وعلمه التوراة، وأعطاه إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، والعلم بالغيوب مما يدخرون فى بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه، وفزعوا لما كان يأتى من العجائب فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره.



بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زرعة الدمشقى: حدثنا عبد اللّه بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عمن حدثه قال: أنزلت التوراة على موسى فى ست ليالٍ خلون من شهر رمضان ونزل الزبور على داود فى اثنتى عشرة خلت من شهر رمضان وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنةٍ واثنتين وثمانين سنةً وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم فى ثمانية عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عامٍ وخمسين عامًا وأنزل الفرقان على محمدٍ ﷺ فى أربع عشرين من شهر رمضان. وقد ذكرنا فى «التفسير» عند قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. الأحاديث الواردة فى ذلك وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام فى ثمانى عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان.

وذكر ابن جريرٍ فى «تاريخه» أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنةً، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً. كما سيأتى بيانه إن شاء اللّه تعالى.

وقال إسحاق بن بشرٍ وأنبأنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ومقاتلٌ عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة قال: أوحى اللّه عز وجل إلى عيسى ابن مريم: يا عيسى جد فى أمرى ولا تهن واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول إنك من غير فحلٍ وأنا خلقتك آيةً للعالمين إياى فاعبد، وعلى فتوكل، خذ الكتاب بقوةٍ فسر لأهل السريانية، بلغ من بين يديك إنى أنا الحق الحى القائم الذى لا أزول، صدقوا النبى الأمى العربى صاحب الجمل والتاج - وهى العمامة - والمدرعة والنعلين والهراوة - وهى القضيب - الأنجل العينين، الصلت الجبين، الواضح الخدين، الجعد الرأس الكث اللحية، المقرون الحاجبين، الأقنى الأنف، المفلج الثنايا، البادى العنفقة، الذى كأن عنقه إبريق فضةٍ، وكأن الذهب يجرى فى تراقيه له شعراتٌ من لبته إلى سرته تجرى كالقضيب، ليس على بطنه ولا على صدره شعرٌ غيره، شثن الكف والقدم إذا التفت، التفت جميعًا وإذا مشى كأنما يتقلع من صخرٍ وينحدر من صبب، عرقه فى وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك ينفح منه ولم ير قبله ولا بعده مثله، الحسن القامة الطيب الريح نكاح النساء، ذا النسل القليل، إنما نسله من مباركةٍ لها بيتٌ - يعنى فى الجنة - من قصبٍ لا نصب فيه ولا صخب تكفله - يا عيسى - فى آخر الزمان كما كفل زكريا أمك له منها فرخان مستشهدان وله عندى منزلةٌ ليست لأحدٍ من البشر، كلامه القرآن، ودينه الإسلام، وأنا السلام، طوبى لمن ادرك زمانه، وشهد أيامه، وسمع كلامه.

☆☆☆

بيان شجرة طوبى ما هى

قال عيسى: يا رب وما طوبى؟ قال: غرس شجرة أنا غرستها بيدى فهى للجنان كلها أصلها من رضوانٍ، وماؤها من تسنيم، وبردها برد الكافور، وطعمها طعم الزنجبيل، وريحها ريح المسك من شرب مَنه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا قال عيسى: يا رب اسقنى منها. قال: حرامٌ على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبى، وحرامٌ على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبى. قال: يا عيسى أرفعك إلى. قال: يا رب ولم ترفعنى؟ قال: أرفعك ثم أهبطك في آخر الزمان؛ لترى من أمة ذلك النبى العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال أُهبطك فى وقت صلاةٍ ثم لا تصلى بهم؛ لأنها أمة مرحومةٌ ولا نبى بعد نبيهم.

وقال هشام بن عمارٍ عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيدٍ عن أبيه أن عيسى قال: يا رب أنبئنى عن هذه الأمة المَرحومة. قال: أمة أحمد هم علماء حكماء كأنهم أنبياء يرضون منى بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا اللّه، يا عيسى هم أكثر سكان الجنة؛ لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا اللّه كما ذلت ألسنتهم، ولم تذل رقاب قومٍ قط بالسجود كما ذلت به رِقابهم. رواه ابن عساكر.

وروى من طريق عبد بن بديلٍ العقيلى عن عبد اللّه بن عوسجة قال: أوحى اللّه إلى عيسى ابن مريم: أنزلنى من نفسك كهمك واجعلنى ذخرًا لك فى معادك، وتقرب إلى بالنوافل أحبك، ولا تول غيرى فأخذلك اصبر على البلاء، وارض بالقضاء، وكن لمسرتى فيك، فإن مسرتى أن أطاع فلا أُعصى وكن منى قريبًا، وأحى ذكرى بلسانك، ولتكن مودتى فى صدرك، تيقظ من ساعات الغفلة، واحكم فى لطيف الفطنة، وكن لى راغبًا راهبًا، وأمت قلبك من الخشية لى، وراع الليل لحق مسرتى، وأظم نهارك ليوم الرى عندى، نافس فى الخيرات جهدك، وأعرف بالخير حيث توجهت، وقم فى الخلائق بنصيحتى، واحكم فى عبادى بعدلى، فقد أُنزلت عليك شفاء وساوس الصدور من مرض النسيان، وجلاء الأبصار من غشاء الكلال، ولا تكن حلسا كأنك مقبوضٌ وأنت حىٌ تنفس يا عيسى ابن مريم ما آمنت بى خليقةٌ إلا خشعت، ولا خشعت لى إلا رجت ثوابى، فأشهدك أنها آمنةٌ من عقابى، ما لم تغير أو تبدل سنتى، يا عيسى ابن مريم البكر البتول ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل، وقلا الدنيا، وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه،

وكن فى ذلك تلين الكلام وتفشى السلام وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار حذار ما هو آتٍ من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال، قبل أن لا ينفع أهلٌ ولا مالٌ وأكحل عينك بملمول الحزن إذا ضحك البطالون، وكن فى ذلك صابرًا محتسبًا، وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين، رج من الدنيا بالله يومٌ بيوم وذق مذاقة ما قد هرب منك أين طعمه، وما لم بأتك كيف لذته فرج من الدنيا بالبلْغة وليكفك منها الخشن الجشيب قد رأيت إلى ما تصير، اعمل على حسابٍ فإنك مسئول، لو رأت عينك ما أعددت لأوليائى الصالحين ذاب قلبك، وزهقت نفسك.

وقال أبو داود فى كتاب «القدر»: حدثنا محمد بن يحيى بن فارسٍ حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرٌ عن الزهرى عن ابن طاوسٍ: عن أبيه قال: لقى عيسى ابن مريم إبليس فقال: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك؟ قال إبليس: فارق بذروة هذا الجبل فترد منه فانظر هل تعيش أم لا؟ فقال ابن طاوسٍ عن أبيه: فقال عيسى: أما علمت أن اللّه قال: لا يجربنى عبدى فإنى أفعل ما شئت. وقال الزهرى: إن العبد لا يبتلى ربه ولكن اللّه يبتلى عبده.

قال أبو داود حدثنا أحمد بن عبدة أنبأنا سفيان عن عمروٍ عن طاوسٍ قال: أتى الشيطان عيسى ابن مريم فقال: أليس تزعم أنك صادقٌ؟ فأت هذة فألْق نفسك. قال: ويلك أليس قال: يا ابن آدم لا تسألنى هلاك نفسك فإنى أفعل ما أشاء.

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافعٍ حدثنا حسين بن طلحة سمعت خالد بن يزيد قال: تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين أقام يومًا على شفير جبلٍ فقال الشيطان: أرأيت إن القيت نفسى هل يصيبنى إلا ما كتب لى؟ قال: إنى لست بالذى ابتلى ربى ولكن ربى إذا شاء ابتلانى. وعرف أنه الشيطان ففارقه.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا سريج بن يونس حدثنا على بن ثابتٍ عن الخطاب بن القاسم عن أبى عثمان قال: كان عيسى عليه السلام يصلى على رأس جبلٍ فأتاه إبليس فقال: أنت الذى تزعم أن كل شىءٍ بقضاءٍ وقدرٍ؟ قال: نعم قال: ألقِ نفسك من هذا الجبل وقل: قدرٌ على فقال: يا لعين، اللّه يختبر العباد، وليس العباد يختبرون اللّه عز وجل. وقال أيضًا: حدثنا الفضل بن موسى البصرى حدثنا إبراهيم بن بشارٍ سمعت سفيان بن عيينة يقول: لقى عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس: يا عيسى ابن مريم الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت فى المهد صبيًا ولم يتكلم فيه أحدٌ قبلك قال: بل الربوبية للإله الذى أنطقنى ثم يميتنى ثم يحيينى قال: فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيى الموتى. قال: بل الربوبية للّه الذى يحيى ويميت من أحييت ثم يحييه قال: واللّه إنك لإله فى السماء وإلهٌ فى

الأرض. قال: فصكه جبريل صكةً بجناحيه فما تناهى دون قرون الشمس، ثم صكه أخرى بجناحيه فما تناهى دون العين الحامية، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه - وفى روايةٍ: فأسلكه - فيها حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول: ما لقى أحدٌ من أحدٍ ما لقيت منك يا ابن مريم.

وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجهٍ آخر؛ فقال الحافظ أبو بكرٍ الخطيب: أخبرنى أبو الحسن بن رزقويه أنبأنا أبو بكرٍ أحمد بن سبدى حدثنا أبو محمدٍ الحسن ابن علىّ القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار أنبأنا على بن عاصم حدثنى أبو سلمة سويدٌ عن بعض أصحابه قال: صلى عيسى ببيت المقدس فانصرفَ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه، فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له: إنه لا ينبغى لك أن تكون عبدًا فأكثر عليه، وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه فجعل لا يتخلص منه، فقال له فيما يقول: لا ينبغى لك يا عيسى ان تكون عبدًا. قال: فاستغاث عيسى بربه فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف، فلما استقرا معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه فى بطن الوادى. قال: فعاد إبليس معه، وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك فقال لعيسى: قد أخبرتك أنه لا ينبغى أن تكون عبدًا إن غضبك ليس بغضب عبدٍ، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت، ولكن أدعوك إلى أمر هو لك؛ آمر الشياطين فليطيعوك، فإذا رأى البشر أن الشياطين قد أطاعوك عبدوك، أما إنى لا أقول أن تكون إلهًا ليس معه إلهٌ ولكن اللّه يكون إلهًا فى السماء، وتكون أنت إلهًا فى الأرض. فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخةً شديدةً فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس، ثم ضربه ضربة أُخرى فأقبل إبليس يهوى، ومر عيسى وهو بمكانه، فقال يا عيسى: لقد لقيت فيك اليوم تعبًا شديدًا. فرمى به فى عين الشمس فوجد سبعة أملاكٍ عند العين الحامية. قال: فغطوه فجعل كلما صرخ غطوه فى تلك الحمأة. قال: واللّه ما عاد إليه بعد.

قال: وحدثنا إسماعيل العطار حدثنا أبو حذيفة قال: واجتمع إليه شياطينه فقالوا: سيدنا قد لقيت تعبًا قال: إن هذا عبدٌ معصومٌ ليس لى عليه من سبيلٍ وسأضل به بشرًا كثيرًا وأبث فيهم أهواءً مختلفةً، وأجعلهم شيعًا ويجعلونه وأمه إلهين من دون اللّه. قال: وأنزل اللّه فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآنًا ناطقًا بذكر نعمته على عيسى فقال: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠]. يعنى: إذ قويتك بروح القدس يعنى جبريل ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [المائدة: ١١٠]، الآية، يعنى الإنجيل

والتوراة والحكمة ﴿ إِذْوَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ وإذ جعلت المساكين لك بطانةً وصحابةً وأعوانًا ترضى بهم وصحابةً وأعوانا يرضون بك هاديًا وقائدا إلى الجنة فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقينى بهما فقد لقينى بأزكى الخلائق وأرضاها عندى وسيقول لك بنو إسرائيل: صمنا فلم يتقبل صيامنا، وصلينا فلم يقبل صلاتنا، وتصدقنا فلم يقبل صدقاتنا، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاءنا فقل لهم: ولم ذلك؟ وما الذى يمنعنى؟ إن ذات يدى قلت؟! أوليس خزائن السماوات والأرض بيدى أنفق منها كيف أشاء أو أن البخل لا يعترينى؟ أولست أجود من سئل وأوسع من أعطى أو أن رحمتى ضاقت؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتى ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم عدوا أنفسهم بالحكمة التى تورث فى قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثرة على الآخرة لعرفوا من أين أوتوا، وإذًا لأيقنوا أن أنفسهم هى أعدى الأعداء لهم وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام؟! وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربونى ويستحلون محارمى؟! وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها؟! يا عيسى إنما أجزى عليها أهلها وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء، ازددت عليهم غضبًا يا عيسى، وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنه من عبدنى وقال فيكما بقولى أن أجعلهم جيرانك فى الدار ورفقاءك فى المنازل وشركاءك فى الكرامة، وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون اللّٰه أن أجعلهم فى الدرك الأسفل من النار وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنى مثبتٌ هذا الأمر على يدى عبدى محمدٍ، وأختم به الأنبياء والرسل، ومولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا سخابٍ فى الأسواق، ولا متزين بالفحش ولا قوالٍ بالخنا أسدده لكل أمرٍ جميلٍ وأهبُ له كل خلقٍ كريم وأجعل التقوى ضميره والحكمة معقوله، والوفاء طبيعته، والعدل سيرته، والحقَّ شريعته، والإسلام ملته، واسمه أحمد أهدى به بعد الضلالة، وأُعلم به بعد الجهالة، وأُغنى به بعد العائلة، وأرفع به بعد الضيعة، أهدى به، وأفتح به بين آذانٍ صمٍّ وقلوبٍ وأهواءٍ مختلفةٍ متفرقةٍ، أجعل أمته خير أمةٍ أُخرجت للناس وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ إخلاصا لاسمى، وتصديقًا لما جاءت به الرسل وألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل فى مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لى قيامًا وقعودًا وركعًا وسجدًا ويقاتلون فى سبيلى صفوفًا وزحوفًا قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم فى صدورهم، وقربانهم فى بطونهم، رهبانٌ بالليل ليوثٌ فى النهار ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

وسنذكر ما يصدق كثيرًا من هذا السياق مما سنورده من سورتى المائدة

والصف، إن شاء الله تعالى وبه الثقة. وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشرٍ بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبهٍ وابن عباسٍ وسلمان الفارسى - دخل حديث بعضهم فى بعض - قالوا: لما بعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون منه ويستهزؤن به فيقولون: ما أكل فلانٌ البارحة، وما ادخر فى بيته؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيمانًا والكافرون والمنافقون شكًا وكفرانًا، وكان عيسى مع ذلك ليس له منزلٌ يأوى إليه، إنما يسيح فى الأرض ليس له قرارٌ ولا موضعٌ يعرف به، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأةٍ قاعدة عند قبرٍ وهى تبكى فقال لها: مَا لكِ أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنةٌ لى، لم يكن لى ولدٌ غيرها، وإنى عاهدت ربى أن لا أبرح من موضعى هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لى فأنظر إليها. فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعةٌ أنت؟ قالت: نعم قالوا: فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر، فنادى: يا فلانة قومى بإذن الرحمن فاخرجى. قال: فتحرك القبر، ثم نادى الثانية، فانصدع القبر بإذن الله ثم نادى الثالثة فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب فقال لها عيسى: ما بطأ بك عنى؟ فقالت: لما جاءتنى الصيحة الأولى بعث الله لى ملكًا فركب خلقى، ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إلى روحى، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة، فشاب رأسى وحاجباى وأشفار عينى؛ من مخافة القيامة. ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أمتاه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا امتاه أصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا يا روح الله وكلمته سل ربى أن يردنى إلى الآخرة وأن يهون على كرب الموت. فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضبًا.

وقدمنا فى قصة نوح أن بنى إسرائيل سألوه أن يحيى لهم سام بن نوح فدعا الله عز وجل وصلى لله فأحياه الله لهم، فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد ترابًا.

وقد روى السدى عن أبى صالح وأبى مالكٍ عن ابن عباسٍ فى خبرٍ ذكره وفيه أن ملكًا من ملوكِ بنى إسرائيل مات وحُمل على سريره، فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل فرأى الناس أمرًا هائلاً ومنظرًا عجيبًا.

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ

ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة]. يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه فى خلقه إياه من غير أب، بل من أمٍّ بلا ذكر، وجعله له آيةً للناس، ودلالةً على كمال قدرته تعالى، ثم ارساله بعد هذا كله. ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ فى اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾. وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه، وقرنه معه فى حال رسالته، ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾. أى: تدعو الناس إلى الله فى حال صغرك فى مهدك وفى كهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾. أى: الخط والفهم. نص عليه بعض السلف ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾. وقوله: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾. أى: تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ [المائدة: ١١٠]. أى: بأمرى يؤكد تعالى بذكر الإذن له فى ذلك؛ لرفع التوهم وقوله: ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾. قال بعض السلف: وهو الذى يولد أعمى ولا سبيل لأحدٍ من الحكماء إلى مداواته ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾. هو الذى لا طب فيه، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عُضالاً ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾. أى: من قبورهم أحياءً بإذنى. وقد تقدم ما فيه دلالةٌ على وقوع ذلك مرارًا متعددةً مما فيه كفايةٌ وقوله: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه، وأنقذه من بين أظهرهم؛ صيانةً لجنابه الكريم عن الأذى. وسلامة له من الردى. وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

قيل: المراد بهذا الوحى وحى إلهام. أى أرشدهم الله إليه، ودلهم عليه كما قال: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨]. ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧].

وقيل: المراد وحىٌ بواسطة الرسول، وتوفيقٌ فى قلوبهم لقبول الحق؛ ولهذا استجابوا قائلين: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصارًا وأعوانًا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى

قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران].

كانت معجزة كل نبىٍّ فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان؛ فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرةً أذكياء، فبعث بآياتٍ بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره إلا ممن أيده اللَّه وأجرى الخارق على يديه تصديقًا له، أسلموا سراعًا، ولم يتلعثموا، وهكذا عيسى ابن مريم بعث فى زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزاتٍ لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها وأنى لحكيم إبراء الأكمه. الذى هو أسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص، والمجذوم، ومن به مَرضٌ مزمنٌ، وكيف يتوصل أحدٌ من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره، هذا مما يعلم كل أحدٍ أنه معجزةٌ دالةٌ على صدق من قامت به، وعلى قدرة من أرسله وهكذا محمدٌ ﷺ وعليهم أجمعين بُعث فى زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل اللَّه عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميدٍ، فلفظه معجزٌ تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سورٍ من مثله أوْ بسورةٍ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا فى الحال ولا فى الاستقبال، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل واللَّه تعالى لا يشبهه شىءٌ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله.

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له من بينهم طائفةٌ صالحةٌ فكانوا له أنصارًا وأعوانًا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته وذلك حين هم به بنو إسرائيل، ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه، فأنقذه اللَّه منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقى شبهه على أحد أصحابه، فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى، وهم فى ذلك غالطون، وللحق مكابرون، وسلم لهم كثيرٌ من النصارى ما ادعوه وكلا الفريقين فى ذلك مُخطئون كما قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف]. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ إلى أن قال بعد ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل، وقد قام فيهم خطيبًا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتى بعده، ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه؛ إقامةً للحجة عليهم، وإحسانًا من الله إليهم كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال محمد بن إسحاق: حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: «يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور بُصْرَى من أرض الشام»(١).

وقد روى عن العرباض بن سارية وأبى أمامة عن النبى ﷺ نحو هذا، وفيه: دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى. وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقر: ١٢٩]. ولما انتهت النبوة فى بنى إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيبًا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم، وأنها بعده فى النبى العربى الأمى خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ، ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله، ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [٢/٦٥٦] وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. أى: من يساعدنى فى الدعوة إلى اللَّه ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] وكان ذلك فى قريةٍ يقال لها: الناصرة. فسموا بذلك النصارى.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤]. يعنى لما دعا عيسى بنى إسرائيل وغيرهم إلى اللَّه تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر فكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم، فيما ذكره غير واحدٍ من أهل السير والتواريخ والتفسير، بعث إليهم رسلاً ثلاثةً أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا، وليس هؤلاء هم المذكورين فى سورة يس؛ لما تقدم تقريره فى قصة أصحاب القرية وكفر آخرون من بنى إسرائيل وهم جمهور اليهود فأيد اللَّه من آمن به على من كفر فيما بعد، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]. فكل من كان إليه أقرب كان غالبا لمن دونه ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذى لا شك فيه من أنه عبد اللَّه ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزل اللَّه به، ولما كان النصارى أقرب فى الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن اللَّه كان النصارى قاهرين لليهود فى أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله واللَّه تعالى أعلم.

☆☆☆

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة].

قد ذكرنا فى التفسير الآثار الواردة فى نزول المائدة عن ابن عباسٍ وسلمان الفارسى وعمار بن ياسرٍ وغيرهم من السلف ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يومًا فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدةٍ من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيدًا يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكون كافيةً لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى عليه السلام فى ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها، ولا يؤدوا حق شروطها، فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل، فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحًا من شعرٍ، وصف بين قدميه وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا فأنزل الله تعالى المائدة من السماء، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمةً لا نقمةً وأن يجعلها بركةً وسلامةً فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام وهى مغطاةٌ بمنديلٍ فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: بسم الله خير الرازقين. فإذا عليها سبعةٌ من الحيتان وسبعة أرغفةٍ ويقال: وخلٌ ويقال: ورمانٌ وثمارٌ ولها رائحةٌ عظيمةٌ جداً قال الله لها: كونى فكانت، ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها. فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريبا من ألفٍ وثلثمائةٍ فأكلوا منها؛ فبرأ كل من به عاهةٌ أو آفةٌ أو مرضٌ مزمنٌ فندم الناس على ترك الأكل منها؛ لما رأوا من إصلاح حال أولئك ثم قيل: إنها كانت تنزل كل يوم مرةً فيأكل الناس منها يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل: إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلافٍ. ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم كما كانت ناقة صالحٍ يشربون لبنها يوما بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويجِ دون الأغنياء فشق ذلك على

كثيرٍ من الناس وتكلم منافقوهم فى ذلك فرفعت بالكلية، ومسخ الذين تكلموا فى ذلك خنازير.

وقد روى ابن أبى حاتم وابن جريرٍ جميعًا حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى حدثنا سفيان بن حبيبٍ حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن خلاسٍ عن عمار بن ياسرٍ عن النبى ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء خبز ولحمٌ وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغدٍ فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردةً وخنازير»(١).

ثم رواه ابن جريرٍ عن بندارٍ عن ابن أبى عدىٍّ عن سعيدٍ عن قتادة عن خلاسٍ عن عمارٍ موقوفًا وهذا أصح وكذا رواه من طريق سماكٍ عن رجلٍ من بنى عجلٍ عن عمارٍ موقوفًا وهو الصواب. والله أعلم. وخلاسٌ عن عمارٍ منقطعٌ فلو صح هذا الحديث مرفوعًا لكان فيصلاً فى هذه القصة؛ فإن العلماء اختلفوا فى المائدة هل نزلت أم لا؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥]. كما قرره ابن جريرٍ. والله أعلم.

وقد روى ابن جريرٍ بإسناد صحيح إلى مجاهدٍ وإلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أنهما قالا: لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكورًا فى كتابهم مع أن خبرها مما يتوفر الدواعى على نقله. والله أعلم. وقد تقصينا الكلام على ذلك فى «التفسير» فليكتب من هناك ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم. ولله الحمد والمنة.

فصل

قال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا رجلٌ سقط اسمه حدثنا حجاج بن محمدٍ حدثنا أبو هلالٍ محمد بن سليمان عن بكر بن عبد الله المزنى قال: فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم: توجه نحو البحر. فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشى على الماء يرفعه الموج مرةً ويضعه أخرى وعليه كساءٌ مرتدٍ بنصفه، ومؤتزرٌ بنصفه حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم - قال أبو هلالٍ: ظننت أنه من أفاضلهم: - ألا أجيء إليك يا نبى الله؟ قال: بلى قال: فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: أوه غرقت يا نبى الله. فقال: أرنى يدك يا قصير

(١) رواه الترمذى [٣٠٦١] وضعفه الألبانى.

الإيمان، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرةٍ مشى على الماء. ورواه أبو سعيد بن الأعرابى عن إبراهيم بن أبى الجحيم عن سليمان بن حربٍ عن أبى هلالٍ عن بكرٍ بنحوه. ثم قال ابن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن على بن الحسن ابن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث عن الفضيل بن عياضٍ قال: قيل لعيسى ابن مريم: يا عيسى بأى شيءٍ تمشى على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين قالوا: فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت. قال: فامشوا إذًا. قال: فمشوا معه فى الموج. فغرقوا فقال لهم عيسى: ما لكم؟ فقالوا: خفنا الموج. قال: ألا خفتم رب الموج. قال: فأخرجهم ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها، فإذا فى إحدى يديه ذهبٌ وفى الأخرى مدرٌ أو حصىً فقال: أيهما أحلى فى قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب. قال: فإنهما عندى سواءٌ. وقد قدمنا فى قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر، ويأكل من ورق الشجر ولا يأوى إلى منزلٍ ولا أهلٍ ولا مالٍ ولا يدخر شيئًا لغدٍ. قال بعضهم: كان يأكل من غزل أمه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى ابن عساكر عن الشعبى أنه قال: كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول: لا ينبغى لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت. وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمرٌ حدثنا جعفر بن برقان: أن عيسى كان يقول: اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيرى وأصبحت مُرتهنًا بعملى، فلا فقير أفقر منى، اللهم لا تشمت بى عدوى، ولا تسوء بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تسلط على من لا يرحمنى. وقال الفضيل بن عياضٍ: عن يونس بن عبيدٍ: كان عيسى يقول: لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالى من أكل الدنيا. قال الفضيل: وكان عيسى يقول: فكرت فى الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندى ممن خلق.

وقال إسحاق بن بشرٍ عن هشام بن حسان عن الحسن قال: إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة. قال: وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى. قال: وبينما عيسى يومًا نائمٌ على حجرٍ قد توسده، وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال: يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئًا من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا. فقام عيسى فأخذ الحجر ورمى به إليه، وقال: هذا لك مع الدنيا. وقال معتمر بن سليمان: خرج عيسى على أصحابه وعليه جبةٌ صوف وكساءٌ وتبانٌ حافيًا باكيًا شعثًا مصفر اللون من الجوع، يابس الشفتين من العطش، فقال: السلام عليكم يا بنى إسرائيل أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله، ولا عجب ولا فخر،

أتدرون أين بيتى؟ قالوا: أين بيتك يا روح الله؟ قال: بيتى المساجد وطيبى الماء وإدامى الجوع وسراجى القمر بالليل، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وريحانى بقول الأرض، ولباسى الصوف، وشعارى خوف رب العزة، وجلسائى الزمنى والمساكين، أُصبح وليس لى شىءٌ، وأُمسى وليس لى شىءٌ، وأنا طيب النفس غنى مكثر فمن أغنى منى وأربح؟ رواه ابن عساكر.

وروى فى ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبى الحسن العقيلى المصرى حدثنا هانئ بن المتوكل الإسكندرانى عن حيوة بن شريح حدثنى الوليد بن أبى الوليد عن شفى بن ماتع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «أوحى اللَّه تعالى إلى عيسى أن يا عيسى انتقل من مكانٍ إلى مكانٍ لئلا تُعرف فتؤذى فوعزتى وجلالى لأزوجنك ألف حوراء، ولأولمن عليك أربعمائة عام». وهذا حديثٌ غريبٌ رفعه وقد يكون موقوفًا من رواية شفى بن ماتع عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين. واللَّه أعلم. وقال عبد اللَّه بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشبٍ قال: قال عيسى للحواريين: كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا.

وقال قتادة: قال عيسى عليه السلام: سلونى فإنى لين القلب، وإنى صغيرٌ عند نفسى.

وقال إسماعيل بن عياشٍ عن عبد اللَّه بن دينارٍ عن ابن عمر قال: قال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير، واشربوا الماء القراح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ما أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد اللَّه ليسوا بالمتنعمين لحق ما أقول لكم: إن شركم عالمٌ يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله. وروى نحوه عن أبى هريرة.

وقال أبو مصعبٍ عن مالكٍ: إنه بلغه أن عيسى كان يقول: يا بنى إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى والخبز الشعير، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره.

وقال ابن وهبٍ عن سليمان بن بلالٍ عن يحيى بن سعيدٍ قال: كان عيسى يقول: اعبروا الدنيا ولا تعمروها. وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئةٍ والنظر يزرع فى القلب الشهوة. وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد: ورب شهوةٍ أورثت أهلها حزنًا طويلاً. وعن عيسى عليه السلام: يا ابن آدم الضعيف اتق اللَّه حيث ما كنت وكن فى الدنيا ضيفًا واتخذ المساجد بيتًا، وعلم عينك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك التفكر، ولا تهتم برزق غدٍ، فإنها خطيئةٌ. وعنه عليه السلام أنه قال: كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر دارًا فلا يتخذ الدنيا قرارا. وفى هذا يقول سابقٌ البربرى.

لكم بيوتٌ بمستن السيول وهل ... يبقى على الماء بيتٌ أسه مدر

وقال سفيان الثورى: قال عيسى ابن مريم: لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمنٍ كما لا يستقيم الماء والنار فى إناءٍ. وقال إبراهيم الحربى عن داود بن رشيدٍ عن أبى عبد اللّه الصوفى قال: قال عيسى: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله. وعن عيسى عليه السلام أن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال وتزينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات وقال الأعمش عن خيثمة كان عيسى يصنع الطعام لأصحابه ويقوم: عليهم ويقول: هكذا فاصنعوا بالقرى. وبه قالت امرأةٌ لعيسى عليه السلام: طوبى لحجرٍ حملك ولثديٍ أرضعك. فقال: طوبى لمن قرأ كتاب اللّه واتبعه. وعنه: طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته، وحفظ لسانه، ووسعه بيته. وعنه: طوبى لعينٍ نامت، ولم تحدث نفسها بالمعصية، وانتبهت إلى غير إثم. وعن مالك بن دينارٍ قال: مر عيسى وأصحابه بجيفةٍ، فقالوا: ما أنتن ريحها. فقال: ما أبيض أسنانها لينهاهم عن الغيبة. وقال أبو بكرٍ بن أبى الدنيا: حدثنا الحسين ابن عبد الرحمن عن زكريا بن عدى قال: قال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين ارضوا بدنئ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا. قال زكريا: وفى ذلك يقول الشاعر:

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعبٍ عن مالكٍ: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: لا تكثروا الحديث بغير ذكر اللّه فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسى بعيدٌ من اللّه ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أربابٌ وانظروا فيها كأنكم عبيدٌ فإنما الناس رجلان معافىً ومبتلىً فارحموا أهل البلاء واحمدوا اللّه على العافية.

وقال الثورى: سمعت أبى يقول عن إبراهيم التيمى قال: قال عيسى لأصحابه: بحق أقول لكم: من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم فى المزابل مع الكلاب كثيرٌ.

وقال مالك بن دينارٍ: قال عيسى: إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليلٌ فى طلب الفردوس.

وقال عبد اللّه بن المبارك: أنبأنا سفيان عن منصورٍ عن سالم بن أبى الجعد قال: قال عيسى: اعملوا للّه ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح، لا تحرث ولا تحصد واللّه يرزقها، فإن قلتم: نحن أعظم بطونًا من الطير، فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد واللّه يرزقها.

وقال صفوان بن عمروٍ عن شريح بن عبيد عن يزيد بن ميسرة قال: قال الحواريون للمسيح: يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه. قال: آمين آمين بحقٍّ أقول لكم: لا يترك الله من هذا المسجد حجرًا قائمًا إلا أهلكه بذنوب أهله إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة، ولا بهذه الأحجار التى تعجبكم شيئًا إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى «تاريخه»: أخبرنا أبو منصورٍ أحمد ابن محمدٍ الصوفى أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية قالت: حدثنا أبو محمدٍ عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم إملاءً حدثنا الوليد بن أبان إملاء حدثنا أحمد بن جعفرٍ الرازى حدثنا سهل بن إبراهيم الحنظلى حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز عن المعتمر عن ليثٍ عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ عن النبى ﷺ قال: مر عيسى عليه السلام على مدينةٍ خربةٍ فأعجبه البنيان فقال: أى رب مر هذه المدينة أن تجيبنى. فأوحى الله إلى المدينة: أيتها المدينة الخربة جاوبى عيسى. قال: فنادت المدينة: عيسى: حبيبى وما تريد منى؟ قال: ما فعل أشجارك، وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك؟ قالت: حبيبى جاء وعد ربك الحق، فيبست أشجارى ونشفت أنهارى، وخربت قصورى، ومات سكانى. قال: فأين أموالهم؟ فقالت: جمعوها من الحلال والحرام، موضوعةً فى بطنى لله ميراث السماوات والأرض قال: فنادى عيسى عليه السلام: فعجبت من ثلاث أناسٍ؛ طالب الدنيا: والموت يطلبه، وبانى القصور والقبر منزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه، ابن آدم لا بالكثير تشبع، ولا بالقليل تقنع، تجمع مالك لمن لا يحمدك، وتقدم على رب لا يعذرك إنما أنت عبد بطنك وشهوتك، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك، وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك فى ميزان غيرك. هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وفيه موعظةٌ حسنةٌ، فكتبناه لذلك.

وقال سفيان الثورى عن أبيه عن إبراهيم التيمى قال: قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم فى السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه. وقال ثور ابن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام من تعلم وعلم وعمل دعى عظيمًا فى ملكوت السماء. وقال أبو كريبٍ: روى أن عيسى عليه السلام قال: لا خير فى علمٍ لا يعبر معك الوادى، ويعبر بك النادى.

وروى ابن عساكر بإسنادٍ غريبٍ عن ابن عباسٍ مرفوعًا أن عيسى قام فى بنى إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا

تمنعوها أهلها فتظلموهم والأمور ثلاثةٌ؛ أمرٌ تبين رشده فاتبعوه، وأمرٌ تبين غيه فاجتنبوه، وأمرٌ اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمرٌ عن رجلٍ عن عكرمة قال: قال عيسى: لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير؛ فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئًا ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها؛ فإن الحكمة خيرٌ من اللؤلؤ ومن لا يريدها؛ شرٌّ من الخنزير. وكذا حكى وهبٌ وغيره عنه. وعنه أنه قال لأصحابه: أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم، وإن فيكم خصلتين من الجهل؛ الضحك من غير عجبٍ والصبحة من غير سهرٍ. وعنه أنه قيل له: من أشد الناس فتنةً؟ قال: زلة العالم فإن العالم إذا زل زل بزلته عالمٌ كثيرٌ وعنه أنه قال: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم قولكم شفاءٌ وعملكم داءٌ مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها. وقال وهبٌ: قال عيسى: يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا أنتم تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عالمٌ يطلب الدنيا بعلمه. وقال مكحولٌ: التقى يحيى وعيسى فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى: يا ابن خالةٍ، مالى أراك ضاحكًا كأنك قد أمنت. فقال له عيسى: ما لى أراك عابسًا كأنك قد يئست. فأوحى الله إليهما: إن أحبكما إلى أبشكما بصاحبه. وقال وهب بن منبهٍ: وقف عيسى هو وأصحابه على قبرٍ وصاحبه يدلى فيه فجعلوا يذكرون القبر وضيقه، فقال: قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم فإذا أحب الله أن يوسع وسع. وقال أبو عمر الضرير: بلغنى أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا.

والآثار فى مثل هذا كثيرةٌ جدًا وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفًا صالحًا، اقتصرنا منها على هذا القدر، والله تعالى الموفق للصواب.

☆☆☆

ذكر رفع عيسى
عليه السلام إلى السماء
فى حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى
عليهم لعائن الله فى دعوى الصلب

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء].

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان.

قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق: كان اسمه داود بن يورا فأمر بقتله وصلبه فحصروه فى دارٍ ببلد ببيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم أُلقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورفع عيسى من روزنةٍ من ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذى أُلقى عليه شبهه، فأخذوه ظانين أنه عيسى، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانةً له، وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب، وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا كثيرًا فاحشًا بعيدًا، وأخبر تعالى بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]. أى: بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير

هذه الآية الكريمة من سورة النساء وكما سنورد ذلك مستقصى فى كتاب «الفتن والملاحم» عند أخبار المسيح الدجال، فنذكر ما ورد فى نزول المسيح المهدى عليه السلام من ذى الجلال، لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعى إلى الضلال. وهذا ذكر ما ورد فى الآثار فى صفة رفعه إلى السماء.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنانٍ حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال ابن عمروٍ عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: لما أراد اللّه أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفى البيت اثنا عشر رجلاً منهم - من الحواريين يعنى - فخرج عليهم من عينٍ فى البيت، ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشرة مرةً بعد أن آمن بى. ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى، ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا فقال: أنت هو ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنةٍ فى البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه. فكفر به بعضهم اثنى عشرة مرةً بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرقٍ فقالت طائفةٌ: كان اللّه فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقةٌ: كان فينا ابن اللّه ما شاء، ثم رفعه اللّه إليه. وهؤلاء النسطورية وقالت فرقة: كان فينا عبد اللّه ورسوله ما شاء، ثم رفعه اللّه إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث اللّه محمدًا ﷺ. قال ابن عباسٍ: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤]. وهذا إسنادٌ صحيحٌ - إلى ابن عباس - على شرط مسلم ورواه النسائى عن أبى كريبٍ عن أبى معاوية به نحوه ورواه ابن جريرٍ عن سلم بن جنادة عن أبى معاوية، وهكذا ذكر غير واحدٍ من السلف وممن ذكر ذلك مطولاً محمد ابن إسحاق بن يسارٍ قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعو اللّه عز وجل أن يؤخر أجله يعنى ليبلغ الرسالة، ويكمل الدعوة، ويكثر الناس الدخول فى دين اللّه عز وجل. قيل: وكان عنده من الحواريين اثنى عشر رجلاً؛ بطرس ويعقوب ابن زبدى ويحنس أخو يعقوب وأندراوس وفليبس وأبرثلما ومتى وتوماس ويعقوب ابن حلقيا وتداوس وفتاتيا ويودس زكريا يوطا وهذا هو الذى دل اليهود على عيسى. قال ابن إسحاق: وكان فيهم رجلٌ آخر اسمه سرجس كتمته النصارى، وهو الذى ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه قال: وبعض النصارى يزعم أن الذى صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه يودس زكريا يوطا. واللّه أعلم.

وقال الضحاك عن ابن عباسٍ: استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس

الذى ألقى عليه الشبه. وقال أحمد بن مروان: حدثنا محمد بن الجهم. قال: سمعت الفراء يقول فى قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قال: إن عيسى غاب عن خالته زمانًا فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودى فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس الجالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى ثم خرج إلى أصحابه فقال: لم أره. ومعه سيفٌ مسلولٌ فقالوا: أنت عيسى. وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جل ذكره: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميدٍ حدثنا يعقوب القمى عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبهٍ قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحوارين فى بيتٍ فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعًا فقال عيسى لأصحابه: من يشترى منكم نفسه اليوم بالجنة. فقال رجلٌ: أنا. فخرج إليهم فقال: أنا عيسى. وقد صوره الله على صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه، فمن ثم شبه لهم، وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

قال ابن جرير: وحدثنا المثنى حدثنا إسحاق حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنى عبد الصمد بن معقلٍ أنه سمع وهبًا يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارجٌ من الدنيا جزع من الموت، وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعامًا فقال: أحضرونى الليلة؛ فإن لى إليكم حاجةً فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال: ألا من رد على شيئًا الليلة مما أصنع فليس منى، ولا أنا منه. فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى فليكن لكم بى أسوةٌ، فإنكم ترون أنى خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعضٍ، وليبذل بعضكم لبعضٍ نفسه، كما بذلت نفسى لكم وأما حاجتى التى استعنتكم عليها فتدعون لى الله وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله أما تصبرون لى ليلةً واحدةً تعينونى فيها؟ فقالوا: والله ما ندرى ما لنا، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر، وما نطيق الليلة سمرًا، وما نريد دعاءً إلا حيل بيننا وبينه. فقال: يذهب بالراعى وتتفرق الغنم، وجعل يأتى بكلامٍ نحو هذا ينعى به نفسه. ثم قال: الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن

يصيح الديك ثلاث مراتٍ، وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرةٍ، وليأكلن ثمنى. فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون - أحد الحواريين - فقالوا: هذا من أصحابه: فجحد وقال: ما أنا بصاحبه. فتركوه ثم أخذه آخرون فجحد كذلك، ثم سمع صوت ديكٍ فبكى وأحزنه. فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود، فقال: ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهمًا فأخذها ودلهم عليه. وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه، وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه، ويقولون: أنت كنت تحيى الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه اللّه إليه، وصلبوا ما شبه لهم، فمكث سبعًا ثم إن أمه والمرأة التى كان يداويها عيسى، فأبرأها اللّه من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال: علام تبكيان. قالتا: عليك فقال: إنى قد رفعنى الله إليه، ولم يصبنى إلا خيرٌ وإن هذا شىءٌ شبه لهم، فأمرا الحواريين أن يلقونى إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذى كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه. فقال: لو تاب لتاب اللّه عليه. ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له: يحنا فقال: هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسانٍ منكم يحدّث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم. وهذا إسنادٌ غريبٌ عجيبٌ وهو أصح مما ذكره النصارى لعنهم اللّه من أن المسيح جاء إلى مريم وهى جالسةٌ تبكى عند جذعه فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب، وهذا بهتٌ وكذبٌ واختلاقٌ وتحريفٌ وتبديلٌ وزيادةٌ باطلةٌ فى الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى النقل.

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيبٍ فيما بلغه أن مريم سألت من بيت الملك - بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام - وهى تحسب أنه ابنها - أن ينزل جسده فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك، فقالت مريم لأم يحيى: ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح. فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين فقالت: وممن استتر فقالت: من هذا الرجل الذى هو عند القبر فقالت أم يحيى: إنى لا أرى أحدًا. فرجت مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهدها به فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته: يا مريم أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح وأسلم عليه وأحدث عهدًا به. فقال: يا مريم إن هذا ليس المسيح إن اللّه قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ولكن هذا الفتى الذى أُلقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه، فلا يدرون ما فعل به، فهم يبكون عليه، فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك

تلقين المسيح. قال: فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل، وما قال لها من أمر الغيضة. فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضة فلما رآها أسرع إليها فأكب عليها فقبل رأسها، وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال: يا أمه إن القوم لم يقتلونى ولكن اللّه رفعنى إليه وأذن لى فى لقائك، والموت يأتيك قريبًا فاصبرى واذكرى اللّه. ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت. قال: وبلغنى أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين. وماتت ولها ثلاث وخمسون سنةً رضى اللّه عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصرى: كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعًا وثلاثين سنةً. وفى الحديث: «إن أهل الجنة يدخلونها جردًا مردًا مكحلين أبناء ثلاثٍ وثلاثين سنة»[1].

وفى الحديث الآخر: على ميلاد عيسى وحسن يوسف، وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن زيدٍ عن سعيد بن المسيب أنه قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً.

فأما الحديث الذى رواه الحاكم فى «مستدركه» ويعقوب بن سفيان الفسوى فى «تاريخه» عن سعيد بن أبى مريم عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبد اللّه بن عمرو بن عثمان أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول: «أخبرتنى فاطمة أن رسول اللّه ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبىٌ كان بعده نبىٌ إلا عاش الذى بعده نصف عمر الذى كان قبله وأنه أخبرنى: أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أرانى إلا ذاهبٌ على رأس ستين». هذا لفظ الفسوى؛ فهو حديثٌ غريبٌ[2].

قال الحافظ ابن عساكر: والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر وإنما أراد به مدة مقامه فى أمته كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينارٍ عن يحيى بن جعدة قال: قالت فاطمة: قال لى رسول اللّه ﷺ: إن عيسى ابن مريم مكث فى بنى إسرائيل أربعين سنةً. وهذا منقطعٌ وقال جريرٌ والثورى عن الأعمش عن إبراهيم: مكث عيسى فى قومه أربعين عامًا. ويروى عن أمير المؤمنين علىٌ أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان وتلك الليلة فى مثلها توفى علىٌ بعد طعنة بخمسة أيامٍ وقد روى الضحاك عن ابن عباسٍ أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابةٌ فدنتْ منه حتى جلس عليها، وجاءته مريم فودعته وبكت، ثم رفع وهى تنظر إليه وألقى إليها عيسى بردًا له، وقال: هذا علامة ما بينى وبينك يوم القيامة.

---

(١) رواه الترمذى [٢٥٤٥] عن معاذ بن جبل رضى اللّه تعالى عنه، وصححه الألبانى. وأحمد فى المسند [٥/ ٢٤٣] وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر بن حوشب.

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٢٢/ ٤١٧/ ١٠٣١] وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٩/ ٢٦]: رواه الطبرانى بإسناد ضعيف، وروى البزار بعضه أيضا وفى رجاله ضعف.

وألقى عمامته إلى شمعون وجعلت أمه تودعه بأصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها. وكانت تحبه حبًا شديدًا؛ لأنه توفر عليها حبه من جهتى الوالدين، إذ لا أب له، وكانت لا تفارقه سفرًا ولا حضرًا قال بعض الشعراء:

وكنت أرى كالموت من بين ساعة فكيف ببين كان موعده الحشر

وذكر إسحاق بن بشرٍ عن مجاهد بن جبرٍ أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذى شبه لهم، وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق فى ذلك الزمان، فقيل: له إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجلٍ كان يذكر لهم أنه رسول الله، وكان يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويفعل العجائب، فعدوا عليه فقتلوه، وأهانوا أصحابه وحبسوهم. فبعث فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعةٌ فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه فتابعهم فى دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذى صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثم عظمت النصارى الصليب، ومن هاهنا دخل دين النصرانية فى الروم. وفى هذا نظرٌ من وجوهٍ؛ أحدها: أن يحيى بن زكريا نبيٌ لا يقر على أن المصلوب عيسى. فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق. الثانى: أن الروم لم يدخلوا فى دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنةٍ وذلك فى زمان قسطنطين بن قسطن بانى المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره. الثالث: أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحًا للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات، فلم يزل كذلك حتى كان فى زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدةً أنه المسيح، ووجدوا الخشبة التى صلب عليها المصلوب، فذكروا أنه ما مسها ذو عاهةٍ إلا عوفى. فالله أعلم أكان هذا أم لا؟ وهل كان هذا؛ لأن ذلك الرجل الذى بذل نفسه كان رجلاً صالحًا أو كان هذا محنةً وفتنةً لأمة النصارى فى ذلك اليوم؟ حتى عظموا تلك الخشبة، وغشوها بالذهب واللالئ، ومن ثم اتخذوا الصلبانات، وتبركوا بشكلها وقبلوها لعنهم الله، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبنى مكانها كنيسةٌ هائلةٌ مزخرفةٌ بأنواع الزينة. فهى هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التى يقال لها: القمامة. باعتبار ما كان عندها ويسمونها القيامة، يعنون التى يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التى هى قبلة اليهود فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيت المقدس فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو الأقصى.

ذكر صفة عيسى
عليه السلام وشمائله وفضائله

قال اللّه تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة: ٧٥]. قيل: سمي المسيح؛ لمسحه الأرض وهو سياحته فيها، وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمان؛ لشدة تكذيب اليهود له، وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام. وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين.

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. والآيات فى ذلك كثيرةٌ جدًا. وقد تقدم ما ثبت فى «الصحيحين»: «ما من مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته حين يولد، فيستهل صارخًا إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن فى الحجاب»[1].

وتقدم حديث عمير بن هانئ عن جنادة عن عبادة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: « من شهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد اللّه ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحٌ منه والجنة حقٌّ والنار حقٌّ أدخله اللّه الجنة على ما كان من العمل»[2]. رواه البخارى وهذا لفظه ومسلمٌ.

وروى البخارى ومسلم من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بى فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران»[3]. هذا لفظ البخارى.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى أنبأنا هشامٌ عن معمرٍ وحدثنى محمودٌ حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن الزهرى قال: أخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ ليلة أسرى به: «لقيت موسى. قال: فنعته فإذا رجلٌ حسبته

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخارى [٣٤٤٦]، ومسلم [١٥٤/ ٢٤١].

قال: مضطربٌ رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة قال: ولقيت عيسى. فنعته النبى ﷺ فقال: ربعةٌ أحمر كأنما خرج من ديماسٍ - يعنى الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به». الحديث. وقد تقدم فى قصتى إبراهيم وموسى(١).

ثم قال: حدثنا محمد بن كثيرٍ أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهدٍ عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما قال: قال النبى ﷺ: «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم؛ فأما عيسى فأحمر جعدٌ عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيمٌ سبطٌ كأنه من رجال الزط»(٢). تفرد به البخارى.

وحدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا أبو ضمرة حدثنا موسى بن عقبة عن نافعٍ قال: قال عبد اللّه بن عمر: ذكر النبى ﷺ يومًا بين ظهرانى الناس المسيح الدجال فقال: «إن اللّه ليس بأعور إلا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينهُ عِنبةٌ طافية، وأرانى الليلة عند الكعبة فى المنام فإذا رجلٌ آدم كأحسن ما يرى من أُدْمِ الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماءً واضعًا يديه على منكبِى رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح ابن مريم. ثم رأيت رجلًا وراءه جعدًا قططًا أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطنٍ واضعًا يده على منكبى رجلٍ يطوف بالبيت. فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح الدجالُ»(٣).

ورواه مسلمٌ من حديث موسى بن عقبة. ثم قال البخارى: تابعه عبيد اللّه بن نافعٍ ثم ساقه من طريق الزهرى عن سالم عن ابن عمر. قال الزهرى: وابن قطنٍ رجلٌ من خزاعة هلك فى الجاهلية. فبين صلوات اللّه وسلامه عليه صفة المسيحين؛ مسيح المهدى، ومسيح الضلالة؛ ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون.

وقال البخارى: حدثنا عبد اللّه بن محمدٌ حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمرٌ عن همام بن منبهٍ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلًا يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذى لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت باللّه. وكذبت عينى». وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافعٍ عن عبد الرزاق(٤).

وقال أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن حميدٍ الطويل عن الحسن وغيره عن أبى هريرة قال: ولا أعلمه إلا عن النبى ﷺ قال: «رأى عيسى رجلًا

---

(١) رواه البخارى [٣٤٣٧].
(٢) رواه البخارى [٣٤٣٨].
(٣) رواه البخارى [٣٤٣٩، ٣٤٤٠]، ومسلم [١٦٩/ ٢٧٤].
(٤) رواه البخارى [٣٤٤٤]، ومسلم [٢٣٦٨/١٤٩].

يسرق فقال: يا فلان أسرقت؟ فقال: لا والله ما سرقت. فقال: آمنت بالله وكذبت بصرى»[١] وهذا يدل على سجيةٍ طاهرةٍ حيث قدم حلف ذلك الرجل - فظن أن أحدًا لا يحلف بعظمة الله كاذبًا - على ما شاهده منه عيانًا فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: آمنت بالله أى: صدقتك. وكذبت بصرى لأجل حلفك.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن المغيرة بن النعمان عن سعيد ابن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاةً عراةً غرلاً». ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فأول الخلق يكسى إبراهيم ثم يؤخذ برجالٍ من أصحابى ذات اليمين وذات الشمال فأقول: أصحابى فيقال إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]. تفرد به دون مسلمٍ من هذا الوجه[٢].

وقال أيضا: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى حدثنا سفيان سمعت الزهرى يقول: أخبرنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباسٍ سمع عمر يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله»[٣].

وقال البخارى: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثةٌ؛ عيسى وكان فى بنى إسرائيل رجلٌ يقال له: جريجٌ. يصلى إذ جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلى؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريجٌ فى صومعته فتعرضت له امرأةٌ وكلمته، فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا فقيل لها: ممن؟ قالت: من جريج. فأتوه وكسروا صومعته، فأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: فلانٌ الراعى قالوا: أنبنى صومعتك من ذهبٍ؟ قال: لا إلا من طين. وكانت امرأةٌ ترضع ابنًا لها فى بنى إسرائيل، فمر بها رجلٌ راكبٌ ذو شارةٍ فقالت: اللهم اجعل ابنى مثله. فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلنى مثله: ثم أقبل على ثديها يمصه». قال أبو هريرة: كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يمص إصبعه: ثم مر بأمةٍ فقالت: اللهم لا

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٨٣] وقال الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح.
(٢) رواه البخارى [٣٤٤٧].
(٣) رواه البخارى [٣٤٤٥].

تجعل ابني مثل هذه. فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها فقالت: لم ذلك؟ فقال: الراكب جبارٌ من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت وزنت ولم تفعل[(١)].

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علاتٍ ليس بيني وبينه نبيٌ»[(٢)]. تفرد به البخاري من هذا الوجه. ورواه ابن حبان في «صحيحه» من حديث أبي داود الحفري عن الثوري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

وقال أحمد: حدثنا وكيعٌ حدثنا سفيان هو الثوري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام الأنبياء إخوة أولاد علاتٍ وليس بيني وبين عيسى نبيٌ». وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه[(٣)].

وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمرٍ عن همامٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق به بنحوه[(٤)].

وقال أحمد: حدثنا يحيى عن ابن أبي عروبة حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ ودينهم واحدٌ وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌ وإنه نازلٌ فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجلٌ مربوعٌ إلى الحمرة والبياض سبطٌ كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بللٌ بين ممصرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى تهلك في زمانه الملل كلها غير الإسلام، ويُهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأُسد جميعًا، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات، لا يضر بعضهم بعضًا، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه»[(٥)].

ثم رواه أحمد عن عفان عن همامٍ عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة فذكر نحوه. وقال: فيمكث أربعين سنةً، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون[(٦)].

---

(١) رواه البخاري [٣٤٣٦].
(٢) رواه البخاري [٣٤٤٢]، وابن حبان في الإحسان [٦١٩٥].
(٣) رواه أحمد في المسند [٢/ ٤٦٣] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٤) رواه ابن حبان في الإحسان [٦١٩٤] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٥) رواه أحمد في المسند [٢/ ٤٣٧] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وفي هذا الإسناد انقطاع
(٦) رواه أحمد في المسند [٢/ ٤٠٦] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وأبو داود [٤٣٢٤].

ورواه أبو داود عن هدبة بن خالدٍ عن همام بن يحيى به نحوه. وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبى هريرة عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «فيمكث فى الأرض أربعين سنةٍ». وسيأتى بيان نزوله عليه السلام فى آخر الزمان فى كتاب الملاحم، كما بسطنا ذلك أيضًا فى «التفسير» عند قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]. وإنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح اللّه فصل. فيقول: لا، بعضكم على بعضٍ أمراء تكرمه اللّه هذه الأمة. وفى روايةٍ فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك. فيصلى خلفه ثم يركب ومعه المسلمون فى طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لدٍّ فيقتله بيده الكريمة. وذكرنا أنه قوى الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التى هى من حجارةٍ بيضٍ، وقد بنيت أيضًا من أموال النصارى حين حرقوا التى هدمت وما حولها، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام وأنه يحج من فج الروحاء حاجًّا أو معتمرًا أو لثنتيهما ويقيم أربعين سنةً ثم يموت فيدفن فيما قيل فى الحجرة النبوية عند رسول اللّه ﷺ وصاحبيه. وقد ورد فى ذلك حديثٌ ذكره ابن عساكر فى آخر ترجمة المسيح عليه السلام فى كتابه عن عائشة مرفوعًا، أنه يدفن مع رسول اللّه ﷺ وأبى بكرٍ وعمر فى الحجرة النبوية ولكن لا يصح إسناده. وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا زيد بن أخزم الطائى حدثنا أبو قتيبة سلم بن قتيبة حدثنى أبو مودودٍ المدنى حدثنا عثمان ابن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد اللّه بن سلام عن أبيه عن جده قال: مكتوبٌ فى التوراة صفة محمدٍ، وعيسى ابن مريم عليهم السلام يدفن معه. قال أبو مودودٍ: وقد بقى من البيت موضع قبرٍ. ثم قال الترمذى: هذا حديثٌ حسنٌ كذا قال. والصواب الضحاك بن عثمان المدنى. وقال البخارى: هذا الحديث لا يصح عندى ولا يتابع عليه[1].

وروى البخارى عن يحيى بن حمادٍ عن أبى عوانة عن عاصم الأحول عن أبى عثمان النهدى عن سلمان قال: فترة بين عيسى ومحمدٍ ﷺ ستمائة سنةٍ. وعن قتادة: خمسمائةٍ وستون سنةً. وقيل: خمسمائةٍ وأربعون سنةً. وعن الضحاك: أربعمائةٍ وبضعٌ وثلاثون سنةً. والمشهور ستمائة سنةٍ. ومنهم من يقول: ستمائةٍ وعشرون سنةً بالقمرية فتكون ستمائةٍ بالشمسية واللّه أعلم[2].

---

(١) رواه الترمذى [٣٦١٧] وضعفه الألبانى.
(٢) رواه البخارى [٣٩٤٨].

وقال ابن حبان في «صحيحه»: ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه صلى اللّه عليه وسلم. حدثنا أبو يعلى حدثنا أبو همام حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميدٍ عن الوضين بن عطاءٍ عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفيرٍ عن أبي الدرداء قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لقد قبض اللّه داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنةٍ». وهذا حديثٌ غريبٌ جدًا وإن صححه ابن حبان[1]. وذكر ابن جريرٍ عن محمد بن إسحاق إن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له وعين كل واحدٍ منهم إلى طائفةٍ من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب فذكروا أنه أصبح كل إنسانٍ منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. وذكر غير واحدٍ أن الإنجيل نقله عنه أربعةٌ؛ لوقا ومتى، ومرقس، ويوحنا. وبين هذه الاناجيل الأربعة تفاوتٌ كثيرٌ بالنسبة إلى كل نسخةٍ ونسخةٍ، وزياداتٌ كثيرةٌ ونقصٌ بالنسبة إلى الأخرى، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه، وهما متى ويوحنا ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه. واللّه أعلم. وهما مرقس ولوقا. وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجلٌ يقال له: ضينا، وكان مختفيًا في مغارةٍ داخل الباب الشرقي قريبًا من الكنيسة المصلبة؛ خوفا من بولص اليهودي وكان ظالما غاشمًا مبغضًا للمسيح ولما جاء به. وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه حتى مات رحمه اللّه. ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله فتلقاه عند كوكبا فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملكٌ فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح، فجاء إليه واعتذر مما صنع، وآمن به فقبل منه، وسأله أن يمسح عينيه؛ ليرد اللّه عليه بصره، فقال: اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك. فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد اللّه ورسوله وبنيت له كنيسةٌ باسمه فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي اللّه عنهم حتى خربت في الزمان الذي سنورده إن شاء اللّه تعالى.

فصل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام - بعد رفعه إلى السماء - فيه على أقوالٍ كما قاله ابن عباسٍ وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

---

(١) رواه ابن حبان في الإحسان [٦٢٣٦] وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، الوضين بن عطاء سيء الحفظ.. وباقي رجاله ثقات.

قال ابن عباسٍ: وغيره قال قائلون منهم: كان فينا عبد اللَّه ورسوله فرفع إلى السماء. وقال آخرون: هو اللَّه وقال آخرون: هو ابن اللَّه. فالأول هو الحق والقولان الآخران كفرٌ عظيمٌ كما قال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل، ما بين زيادةٍ ونقصانٍ وتحريفٍ وتبديلٍ، ثم بعد المسيح بثلثمائة سنةٍ حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى اختلف البطارقة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين فى المسيح على أقوالٍ متعددةٍ لا تنحصر ولا تنضبط واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بانى القسطنطينية، وهم المجمع الأول، فصار الملك إلى قول أكثر فرقةٍ اتفقت على قولٍ من تلك المقالات فسموا الملائكة ودحض من عداهم وأبعدهم وتفردت الفرقة التابعة لعبد اللَّه بن أديوس الذى ثبت على أن عيسى عبدٌ من عباد اللَّه ورسولٌ من رسله فسكنوا البرارى والبوادى، وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملائكة الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان، فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدى.



بيان بناء بيت لحمٍ والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة القمامة يعنى على قبر المصلوب، وهم يسلمون لليهود أنه المسيح، وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء، ووضعوا القوانين والأحكام، ومنها مخالفٌ للعتيقة التى هى التوراة وأحلوا أشياء هى حرامٌ بنص التوراة، ومن ذلك الخنزير، وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى، ومحمدٌ خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا ثم حول إلى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل وصوروا الكنائس ولم تكن مصورةً قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التى يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التى يسمونها بالأمانة، وهى فى الحقيقة أكبر الكفر والخيانة، وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثانى، واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعى، أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة، ويختلفون فى تفسيرها، وها أنا أحكيها، وحاكى الكفر ليس بكافرٍ، لأبث على ما فيها ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضى بصاحبه إلى النار ذات الشواظ؛ فيقولون عليهم لعائن اللّه المتتابعة إلى يوم القيامة: نؤمن بإلهٍ واحدٍ ضابط الكل خالق السماوات والأرض؛ كل ما يرى وكل ما لا يرى وبرب واحدٍ يسوع المسيح ابن اللّه الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نورٍ من نور إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حقٍّ مولودٍ غير مخلوقٍ مساوٍ للأب فى الجوهر الذى كان به كل شىءٍ من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطى، وتألم وقبر، وقام فى اليوم الثالث، كما فى الكتب وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب. وأيضًا فسيأتى بجسده؛ ليدبر الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه، وروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب مع الأب، والابن مسجودٌ له وبمجد الناطق فى الأنبياء كنسيةٍ واحدةٍ جامعةٍ مقدسةٍ يهوليةٍ واعترف بمعموديةٍ واحدةٍ لمغفرة الخطايا، وأنه حىٌّ قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه. آمين.

☆☆☆

فهرس المحتويات

